القسم الأول

تَفوُّق الحَضارة الشّرقية

(من القرن الخامس الى القرن العاشر)

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

انهيار العالم الروماني: الغرب

(من القرن الخامس الى السابع)

حوالي عام ٤٠٠ ، احتفل رجال الفكر وجمهرة من كتاب اللاتين ومؤلفيهم ، بعيد عظمة روما ، هذه المدينة التي جمعت تحت مسمّىً واحد ، كل « الجنس البشري » وأتاحت للنـــاس أجمع : « ان يعيشوا مواطنين ورعايا مدينة واحدة ، كأعضاء أسرة واحدة » ، وفتحت المجال واسعاً امام الشعوب ليتعارفوا ويتمازجوا وينصهروا معاً، عن طريق الاتجار والحضارة والمصاهرة، بينما اخذ الشعراء المسيحيون بينهم يطوّبون روما ويعظمونها لأنها هيأت العالم أجمع، بعد ان نشرت فوقه ألوية السلام ، وجمعته كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ليشتركوا معاً في شراكة واحدة وايمان واحد . وبهـــذه العبارات انطلقت ألسنة روتيليوس نماتيانوس وكلوديانوس ، وبرودانس، معبرين عن مشاعر الارستوقراطية الرومانية بأجمعها، بحماسة دافقة الشعور اندفعت من أغوار النفس المطمئنة . وقد آمنوا جميعهم وطيداً بأن حدود الامبراطورية لن تلبث ان تختلط بحدود العالم المتمدن اذ ذاك ، بينما ينعم من هم ضمن هذه الحدود ، بوحدة شاملة لمت منهم الشعث . وهذه الوحدة هي مادية ، في الدرجة الاولى . فقد اختفت هذه المنازعات الاقليمية ، وزالت هذه المشادات السياسية وما جرت اليه من دفع وجذب ، وقطـع ووصل ، وارتفعت الحواجز التي كانت تباعد بين الاطراف المتضادة ، ويرى أعضاء الطبقة المسيحية ، أينما وقع منهم النظر ، في أي من هـــذه البلدان المحيطة بالبحر المتوسط إحاطة السوار بالمعصم ، أقارب لهم وأصدقاء ، ومصالح وأطياناً واملاكاً . وكلهم ينهـــج النهج الواحد ، سواء أقاموا على حدود الرين ، او سكنوا دارة من هـــذه الدارات الشارقة التي عمرت بها بريطانيا ، وينعمون بمستوى عيش رضي رغيد . وهذه الوحدة المادية تفتحت ، من جهة اخرى ، عن وحدة ثقافية . ففي كل حواضر المقاطعات الرومانية وقواعدها ومراكز أقضيتها ، مدارس توزع نعمة العلم والمعرفة على الراغبين فيها ، حتى اذا ما صقلت نفوسهم ، عاشوا معاً الامجاد التاريخية الواحدة ، وتذوقوا الروائع الادبية الواحدة وهاموا بهذه الصور والمحسنات اللفظية والبيانيـة التي وردت على أقلام

الخطباء ، وهاموا بروائع الفن الهليني . وهي ، الى هذا ، وحدة دينية ايضاً بعـــد ان تغلغلت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني العليا ، فلقحت المناهج الدراسية بقوالب جديدة اتسمت بالعمق الفلسفي، وهو العنصر الذي كانت تفتقر اليه من قبل، كما انها اقتبست ، من هذا المجتمع، ما كان عليه من تنظيم فكري وذهني ، بدونه لم يكن في مقدور النخبة الرومانية ، ان تُقبـل على هذه الديانة الشرقية الجديـدة.. فالذين عاصروا القديس اوغسطينوس وايرونيموس تحسسوا الروابط ذاتها ، وهجست نفوسهم بالهواجس ذاتها التي أثارتها فيهم مصائر الامبراطورية ، قبل ذلك بمائتي سنة ، في عهد أباطرة الاسرة الانطونية . فلم يكن ليخطر لهم على بال حتى ولا ان يتصوروا بأن حادثاً طارئاً مهما بلغ من شدتـه ، سيزعزع أركان النظام الامبراطوري فيحول دون مواصلة روما للرسالة السامية التي أعدتها لها التقادير الإلهية وهيأت لها أسباب النهوض بها ، فتحققت على يدها وحدة العالم ، ووحدة الثقافة ، والوحدة الدينية .

أخذت هذه الوحدة تتم ، والحق يقال ، منذ أواسط القرن الثالث في ظروف قاسية كانت تزداد تعقيداً يوماً بعد يوم . فالجهد الذي بذل بسخاء للحد من غزوات البرابرة ، او بالاحرى لتحويل اتجاهها وللتخفيف من أهوالها ، بعد ان طمعوا بخيرات الامبراطورية وسال لعابهم في حلوقهم لما خبروا من نعمائها ورأوا من ازدهارها وما بذل من جهـــد للمحافظة على استقرار الادارة الامبراطورية في الداخل بعد اضطراب حبل الامن لكثرة الثورات العسكرية يقوم بها الطامعون في السلطة والمحاولون اغتصابها والاستئثار بها ، كل ذلك وما اليه أرهق البلاد وأبهظ الادارة وعطل جانباً كبيراً من نشاطهـا ففي أواخر القرن الرابع ، كانت الامبراطورية لا تزال تثير الاعجاب في النفوس وتستبد بالخواطر لرحابة رقعتها ، وهيبة عظمتها ، وهو وضع لا يستطيع المؤرخ إلا ان يلاحظ فيه بعض النزعات الخطيرة. فمن جهة اخذ شطرا الامبراطورية : الشرقي والغربي ، ينزعان منذ وفاة الامبراطور قسطنطين الكبير ، عام ٣٣٧ ، أكثر فأكثر ، للاستقلال التام ، بمعزل الواحد عن الآخر ، بحيث قام في كل منهما امبراطور خاص . ومـــن جهة اخرى ، لما كانت كل القوى الناشطة في الامبراطورية ، من سياسية واقتصادية وثقافية ودينية تتركز حول الشرق اليوناني، اخذ الغرب اللاتيني يشاهد اثر الاعراض التي انتابته، انحلال النظم السياسية التي ورثها من التاريخ القديم .

انحطاط الامبراطورية الرومانية

اول ما يطالعنا من عوارض هـــذا الانحطاط تدهور الروح الوطنية وتحللها . فبعد ان كانت الامبراطورية في بدء أمرها ، عبارة عن اتحاد عدد من المدن ، تنعم بالاستقلال على أنساب وأقدار متفاوتة ، اذ بها تتحول الى ملكية مطلقة من الجنس الفرعوني ، معقدة الادارة . فالاعباء التي كانت البلديات تضطلع بها من قبل او متروك أمرها للمبادرة الفردية، أصبحت الآن من خصائص الادارة العامة ، او عبئاً على دوائرها المعقدة الكثيرة النفقات، فأثقلت كاهل الشعب وأرزحته تحت وطأتها. وهذه الروح الوطنية الرومانية التي كانت تبعث النشاط والحماسة في قلب كلوديانوس كما أثارت حماسة القديس

ايرونيموس ، استحالت شيئاً من التعلق الصوري او الشكلي بهذه المدنية التي رفعت روما منارها عالياً ، ولم تلبث هذه الروح ان شابها عاطفة من الزهـد وعدم الاكتراث بالحكم الامبراطوري والموظفين الذين يؤمنون الادارة ويصرّفون الاعمال. فأمام موظفين جشعين، لا يهمهم سوى تأمين جباية رسوم هم اول من يفيدون منها ، نرى المواطن الروماني يلتزم جانب السلبية ويحاول كلما استطاع الى ذلك سبيلاً ، التهرب من التزاماته المدنية والتملص منها . فمن عضتهم الفاقة بينهم اعتصموا بالهرب او أعلنوا العصيان المكشوف . وبينما يحاول الأغنياء وسراة القوم الحصول على المزيد من الاعفاءات والاستثناءات القانونية، تجيش نفوس الجميع بروح العصيـــان والتمرد . وتتمثل هذه الروح ، على أشدها ، في هذه الحركات العسكرية التي تكررت حوادثها : فالناس يتملصون من الخدمة العسكرية . فبدلاً من هذه الفرق العسكرية التي لا شأن لها ولا كبير وزن، تفضل الدولة عوضاً عنها وبديلاً لهـا ، كمية من النقود ، تكبر أو تصغر ، تنقص أو تزيد ، على نسبة الفرصة السانحة والحاجة الطارئة ، تتيح لهـــا تجنيد فرق من متطوعة البربر أقوى على الحرب وحمـل السلاح . ففي اواخر القرن الرابع ، ليس الجيش الروماني ، حتى في ملاكاته العليا ، سوى فريق لميم من الاغراب المرتزقة . فهم ، في الغالب ، جنود ملء وفاضهم الحماسة ، يتجندون للدفاع عن الدولة التي تدفع لهم المرتبات والأعطيات، وعن مدنية يتمنون استمرارها وامتداد حقلها وتمثل نظمها . ومن دواعي القلق الذي يشغل البـــال ويقلق الخاطر هو ان المنظمة السياسية الوحيدة الناشطة ، والقوة الفعـالة الوحيدة لدى هذا الشعب الروماني الذي يعاني الجمود ، هي بيد البرابرة أنفسهم .

وهذا الانحطاط الذي أصاب الجيش واوهنه ، نراه يخلخل مرافق التجـارة ويذهب برواء الحياة في المدن ويشل فيها كل حركة . ففي الغرب ، ولا سيما في غاليا حيث كان للسلام الروماني اكبر الاثر في تنشيط عوامل الزراعة وانهاض مرافقها ، اخذت الحركة الاقتصادية والتجارية التي قامت في القرنين الاول والثاني على قواعد اصطناعية واهية ، بالانحطاط تدريجيـــاً واعتراها الذبول. فالطبقة الارستوقراطية كانت تموّل على الاغريق في الحصول على ما ترغب فيه من اسباب البذخ والترف يؤمن توفيرها لهم، تجار شرقيون، سيطروا على حركة الاستيراد ، يبيعون الرومان اكثر بكثير مما يشترون منهم ، وبذلك اخذوا يمتصون ، شيئاً فشيئاً ، ما تراكم من احتياطي المعادن الثمينة في الغرب ، خلال الفتوحات الرومانية . فقد اشتدت حاجة الناس الى الذهب ، منذ اواخر القرن الرابع ، الامر الذي أخّر ، الى حد كبير وشلّ حركة المقايضـــات التجارية ، وترك بالتالي ، اثراً عميقاً على الحركة التجارية بين الاقطار النائيـة ، فأدّى الى تقهقر الحياة الاقتصادية في المدن وتردّيها . وقد انكمشت المدن الكبرى خلف اسوار اقامتها حولهـا على عجل لتتلقى شر الاضطرابات التي نشبت خلال القرن الثالث في الامبراطورية، او استحالت الى حصون وقلاع حصينة لم تلبث ان فارقتها معالم الحياة وغامت عنهـــا كل مظاهر النشاط . وكان من جراء هبوط قيمة النقد الفضي ، ان تعطلت حركة المقايضات في المدن واصبحت المواد الغذائية عسيرة المنال، الامر الذي دفع الاثرياء من سكان المدن الى مبارحتها والاعتصام بالدارات

يشيدونها لهم في الارياف، حيث كان من السهل عليهم تأمين حاجتهم من المواد الغذائية، وحاجة ذويهم . وهكذا اخذوا يتذوقون السكنى في الريف ، كما يستدل من رسوم الفسيفساء التي يعود تاريخها الى القرن الرابع ، فيستسلمون للاذهم . وراحوا يستعيضون عن الكماليات المستوردة من الشرق بمصنوعات محلية ، وان كانت دون الاولى دقة صنعة ، الا انها دونها بكثير كلفة وثمناً . وقد خضعت جمعيات التجار والصناع التي ازدهرت من قبل في المدن ، لمضايقات جباة الضرائب والرسوم ، بعد ان تفننوا في إبتزازها ، واخذت بالانحلال ، بعد الذي عانت من ركود الاعمال والاشغال اثر تناقص عدد زبائنهم من ذوي اليسار. وهكذا اتجهت البلاد نحو نظام من المعاملات الاقتصادية قضى على الزراعة ، فبارت الارض واجدبت ، وهكذا راحت المدن واسواقهـــا والطرقات القائمة في الريف تزول معالمها شيئاً فشيئاً ، كما ضاقت فيها سُبل العيش على الاهلين، بعد ان قـل النقد المتداول بين الناس ، كما تعطلت الطرق التجارية ، الأمر الذي لم يكن ليسهل مهمة الدولة في جباية الضرائب وتحصيل الرسوم المفروضة على المحاصيل الزراعية ، وأصبحت لا تعوّل إلا على ضريبة الخراج والأعناق التي كثيراً ما كانت تجبى عيناً ، الأمر الذي كان يعقّد امور الجباية ويجعل من المتعذر الانتفاع من الرسوم المجباة . وكان من جراء اعتماد الامبراطورية المتزايد على الريف ، ان اخذت الدولة الاعتماد على كبار الملاكين مباشرة ، فعولت على المصادرة والسخرة في تأمين أوَد الجيش والموظفين الاداريين والحاميات العسكرية ، فهيأت بذلك تفتيت السلطة وتشعبها .

وهكذا ساعدت الدولة على خلق نظـــام اجتماعي جديد بالرغم من الجهود التي بذلتها الامبراطورية التي رأت ، تبسيطاً لمهمتها ولتأمين الاستقرار في تحصيل الضرائب ، ان تربط ، بصورة وراثية ، كل رجـل حر بوضعه الاجتماعي فيلزمه ويتقيد به ولا يحيد عنه . فانحطاط المدن واشتداد وطأة الضرائب تسببا في انهيـار طبقة صغار الملاكين الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال ، وحملهم على طلب حمـــاية من تتوفر لهم القوة والبأس ، ليردوا عنهم غائلة المستبدين وجشع المستغلين ، وبذلك قضي تماماً على الطبقة الوسطى ، كـــما ازدادت الطبقة الارستوقراطية والطبقة المشيخية الاخرى نفوذاً على نفوذ، بعد ان اقتصرت الوظائف الحكومية عليها . وهكذا لم يلبث رب الارض الذي اتخذ من قصره حصناً حصيناً ، ونصب حوله الحراس يسهرون على سلامته وامنه ان أصبح السيد المطلق على هؤلاء المعمرين الذي يعملون في ارضه ويحرثون مزارعه ، ويضطرهم لدفع رسوم خاصة له او تأدية بعض أعمال السخرة مقابل حمايته لهم وتحمل مسؤولياتهم امام اصحاب الشأن . وهكذا لم يعتم المزارعون والفلاحون الذين يعملون في جواره ان وضعوا ، هم ايضاً ، أنفسهم تحت حمايته ، وقدموا له بكل اخلاص ، ما يلزم من الخدمات . والى جانب هذه الاقطاعات التي نشأت في البـــلاد وكانت بمأمن من مضايقات ذوي الشأن لما نعِمَت به من حماية المتزعمين، اخذ المجتمع اذ ذاك، بالتفتت والتفسخ، فاقفرت المدن من سكانها بعد ان ساءت الاحوال الاقتصادية وأخذت المجتمعات الريفية تتمتع بالمزيد من الاستقلال

وهي على أتم استعداد للدخول تحت طاعة من يؤمن لها الرعاية والحماية ، وعاثت في طول البلاد وعرضها جماعات من المتمردين ، وانتشرت في أرجاء البلاد طوائف من الأرقاء الفارين والفلاحين الذين يرزحون تحت وطأة الضرائب والرسوم المتراكمة عليهم سنة بعد سنة .

تداعي الحضارة وانهيارها

وهذه القيم الروحية للحضارة في الغرب، تبدو في أواخر القرن الرابع، على شتى مظاهرها : الدينية والثقافية والفنية ، وكأنها أقل تأثراً بهذا الانهيار . فتحت تأثير المسيحية ، وبفضل ما للديانة الجديدة من جذور شرقية وشعبية ، أخذ الفن والفكر يبتعدان شيئاً فشيئاً ، عن مظاهرهما الكلاسيكية ويتلبسان أشكالاً وصوراً جديدة، فتحت تأثير الفلسفة الافلاطونية الجديدة التي اخذ بها كل من امبروسيوس واوغسطينوس، ارتدى الرسم على الزجاج المذهب ، والتصوير على الالواح العاجية المزدوجة التي كثر استعمالها في شمالي ايطاليا ، طابعاً نمّ عما بلغه التجريد الروحي . فاذا ما رأينا الفنانين يكثرون من حفر صور بشرية على جوانب النواويس ، بارزة غضونها ، ظاهرة تجاعيدها ، فبحثاً منهم بالاحرى ، عن أنماط فنية جديدة وليس عن قلة دربة فنية في الصناعة ، اذ كانوا يحاولون التعبير ليس عن الجمال الصوري بل بالاكثر، عن العنصر الفائق الطبيعة الذي جاءت الديانة الجديدة تعلن للانسان عن وجوده ، وتُفعِم به قلبه .

ومع ذلك ، فلا بد من ان نلاحظ ظهور بعض امارات التقهقر في هذا المجال . فالهبوط عن المستوى الذي لا بد من تسجيله هنا ، جاء نتيجة لانتشار القيم الدينية والثقافية بين الطبقات الشعبية . فكلما انتشرت المسيحية بين طبقات المجتمع الروماني الارستوقراطي ، وتغلغلت بين ثناياه، فقدت من سموها بنسبة ما حققته من سعة وانتشار . فالروح الدينية التي نلمسها لدى النبيل بولان ده بيلاّ ، احد سراة القوم في مقاطعة البوردوليه ، هي روح دينية ميسرة، مريحة جاءت على مقياس نهج الحياة والعيش الرخي الذي انتهجته الطبقة المشيخية ، اذ ذاك . وهبوط المستوى الثقافي يرتبط ، الى حد بعيد ، بهذا الانكماش الذي خلخل الوضع الاقتصادي وقضى على حياة المدينة ، وذهب بمباهجها . فقلة الطلب او انعدامه لدى الطبقة الارستوقراطية التي أخذت تأتلف، أكثر فأكثر ، مع حياة الريف وعادات أهله، أدت بالتالي الى التقليل من الانفاق ، والى اقفال المصانع الفنية، كما أدى هذا كله الى هبوط ملحوظ في الاساليب والمناهج الفنية نفسها ، كما يبدو ذلك واضحاً في معالم الفن الجنائزي ، في مدينة آرل ، عام ٣٩٠ . فالمدن يهجرها سكانها ، كما تخبو فيها جذوة الحياة الفكرية ، ممثلة بالمدرسة رمز النشاط الثقافي ، اذ ان المدرسة هي مكان لمطالعة الآثار الادبية ودرسها . وعندما يهجر هؤلاء الناس المدينة ويقطعون كل صلة لهم بها ، يألفون حياة الريف دون ان يقطعوا، مع ذلك، كل انعطاف نحو النشاط الفكري. فهم يعقدون اجتماعات لهم دورية كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، فيتعاورون الكتب ، ويتبادلون الرسائل مع بعضهم ، فتبقى المراسلة أنشط وسائل الاتصال ، ويعهدون بتربية أولادهم لمربين من الخاصة. ومع ذلك فكلما استحالت التربية نشاطاً عائلياً او عملية بيتية، وكلما ضعفت او قلت الاتصالات

مع الخارج ، ضمرت ، بالتالي ، الاعراف الثقافية والتقاليد الحضارية ، تحت تأثير الوسط الريفي المخشوشن . فالاهتمام بالثقافة الكلاسيكية القديمة ، في اخريات القرن الرابع ، أصبح وقفاً على نخبة مختارة . فطالما استطاعت هذه النخبة ان تثبت وجودها في الوسط الحضاري وفي المدينة ، استطاع بالتالي ، الفن والفكر معاً ، ان يحافظا على شعلتهما مشبوبة وهاجة . اما اذا ما تفرق شمل هذه القلة المختارة وراح كل من أفرادها يقبع بين أملاكه وأقطانه الواسعة ، في عشرة موصولة مع الفلاحين ، فلا بد من ان تنقلب الحال غيرها . وهكذا بابتعاد المثقفين عن المدينة وانقطاعهم في شبه عزلة في الريف ، لم يلبثوا ان يفقدوا كل رواء المدينة وان تخشوشن طبائعهم وتغلظ أرواحهم .

وهكذا ما كادت شمس القرن الرابع تميل نحو الغروب ، حتى رأينا التحول يخيم على المدنية في الغرب دون ان يشعر الناس فعلاً بحقيقة ما يجري امامهم او يقع حولهم . ففي الوقت الذي تنعدم ، في الدولة، كل وسائل العمل والتنفيذ، ويتجاذب السلطة الفعلية كبار الاقطاعيين وقادة الجيش ، وجلهم أغراب ، لا تلبث تقاليد الريف وعاداته ان تنشط وتستبد بالاذواق والاخلاق والاعراف ، فتضعف ، بالتالي مباهج حياة المدينة وهذه الحياة الرهيفة التي سادت أجواء المدن وعمرت بها الحياة في ظل اقتصاد نشيط وتجارة مزدهرة . وسيحدث قريباً ما يعجّل من هذا الانهيار ويسير بهذا الوضع الذي صورنا الى النهاية المحتومة التي رسمت لها في هذه الموجات المتتالية من الغزوات تشنها القبائل الجرمانية .

الموجات الجرمانية

وقع وراء نهري الرين والدانوب ما اصطلحوا على تسميته بالعالم البربري او الهمجي ، أي هذا القسم شبه المجهول من العالم الذي لم يكتب له ان ينعم ولا قيّض له ان يسهم بالحضارة الرومانية . وهؤلاء الاقوام البرابرة الذين يعيشون على حدود الامبراطورية هم الجرمان ، وهم قبائل من سكان الارياف ، ما ان يستقروا فوق تربة ممسكة شحيحة حتى يعالجوها بأساليب بدائية . الوحدة الاجتماعية عندهم هي الاسرة ويؤلف مجموع الأسر من صلب واحد قبيلة تتوزع الى بطون وأفخاذ ، يتألف من بعضها احلاف عسكرية تعرف عندهم بأقوام او شعوب . من هذه الشعوب مثلاً : الفرنج *Francs* وهم على فرعين او شعبتين : *Saliens* و *Ripuaires* ، والألامان ، والبورغونيون *Burgondes* والفندال ، والاستروغوط والفيزيغوط ، تحت امرة رؤساء او قادة حرب ، هم على الغالب ملوكهم وأصحاب الكلمة النافذة ، والحل والربط عندهم . والحدود التي كانت تفصل بين هذه الاقوام الجرمانية والامبراطورية الرومانية ليست، على كل حال، صعبة النفاذ ، ولا من العسير التسرب عبرها والانسراح في المناطق الرومانية ، فقد سبق لمبشرين ان حملوا الى بعض هذه الشعوب ، النصرانية ، انما على مقالة الآريوسية *Arianisme* ، كما حدث للجرمان ان اجتازوا ، بأعداد كبيرة متراصة ، هذه الحدود ، ليعملوا مزارعين في بعض الاقاليم الرومانية ، او ليؤلفوا فرقاً مرتزقة في الجيش الروماني . وقد استطاعت روما ، منذ عام ٢٨٠ ، ان تهيمن على هذه الحدود

بنجاح وتتشدد بمراقبتها . إلا ان الضغط على هذه الفواصل اخذ يشتد، في أواخر القرن الرابع، بدافع من ضاغوط او كابوس لا يقاوم، من قبل هذه الشعوب التي اخذت تتململ وتتمطى وتهتاج في هذه الفيافي الشاسعة الممتدة من أواسط القارة الآسيوية . فلم تستطع الحدود الرومانية وما عليها من قلاع وحصون ، الصمود في وجه هذا الضغط ولا احتمال شدة الصدمة الدافعة، فانهارت أمام سيل جرّاف من هذه الاقوام تدافعت من الثغرات التي انفتحت امامها ، فاكتسحت في اندفاعها اوروبا الغربية ودكت منها المعالم .

وأول من اجتاز حدود الامبراطورية على الدانوب ، من هذه الشعوب ، قبائل الفيزيغوط ، وثاروا في وجه الامبراطور فالنس عام ٣٧٨ . وقد استطاعت حكومة الامبراطور تغيير وجهة هذه الموجة البشرية وتحويلها نحو الغرب ، فلم يلبث ملكهم آلاريق ان فتح مدينة روما ، عام ٤١٠ ، واحتلت جحافله ، عام ٤١٢، غاليا الجنوبية في الوقت الذي اجتازت فيه قبائل الفندال حدود الرين تجر وراءها لميماً من القبائل الجرمانية الاخرى كالآلين *Alains* والسويف *Suèves* ، وذلك في اليوم الاخير من سنة ٤٠٦ ؛ ومن اسبانيا التي استباحتها شعوب الفندال واقامت فيها ردحاً من الزمن تستعيد عافيتها وقوتها ، راح ملكهم جنسريق يفتح لهم ، عام ٤٢٩ ، مقاطعة افريقيا . أما شمالي غاليا ، فقد راح غنيمة باردة للفرنج والألامان والبورغونيين الذين انتهى بهم مطاف الغزو، الى مقاطعة سافوى، عام ٤٤٣ . وبين ٤٠٠ ـ ٤٣٠ ، اضطرت الفيالق الرومانية لاخلاء بريطانيا وترك شؤون الجزيرة لسكانها من اقوام الكلتيين الذين لم يلبثوا ان عانوا الأمرّين من غزوات السكسون ومهاجماتهم المتكررة ، محاولين من وراء ذلك ، اقتطاع الأراضي الواقعة على شواطىء بحر الشمال وخليج المانش . وتمكن الكلتيون من الصمود في وجه هؤلاء الغزاة حتى اواخر القرن الخامس . الا ان الجرمان توصلوا الى طرد سكان البلاد الاصليين ، الى الشمال والغرب منها. وجلا قسم من البريطانيين الى شبه جزيرة الارموريك، في غاليا، هرباً مما تعرضوا له من ضغط السكسون. ومنذ عام ٤٥١ – ٤٥٢ انطلقت موجة الهونز بقيادة أتيلا، من سهول بانونيا تدك تحت سنابك خيلها غاليا وسهل البو في ايطاليا الشمالية . وفي عام ٤٨٨ ، دخل ثيودوريق ملك الاوستروغوط ايطاليا ، على رأس جيش لجب . وهكذا في أقل من قرن واحد ، استباحت موجات عارمة متواصلة من اقوام الجرمان وشعوبهم ، معظم مقاطعات الامبراطورية الرومانية في الغرب بينما بقي شطرها الآخر ، في الشرق ، سليماً مصوناً الى حين . والرأي المعول عليه لدى المؤرخين هو ان يجعلوا من هذه الحقبة حداً ينتهي عنده التاريخ القديم، ويبتدىء معه تاريخ الأجيال الوسطى . فما هي لعمري ، النتائج التي ترتبت على هذا الحادث الطارىء الذي أثّر عميقاً في تاريخ الحضارة ؟

فالانشاءات الرومانية الممثلة في هذه الدساكر والقرى والمزارع والحاميات المتناثرة حباتها على الحدود ، في ابعاد متفاوتة ، مما وطأه الغزاة الطارئون بارجالهم ، زالت معالمها تماماً من الوجود دون ان يبقى منها اثر بعد عين . فتقاسمت أقوام من السكسون والبريطانيين سكان

البلاد الأصليين ، مقاطعات بريطانيا . وسيطر على مقاطعة الفلاندر واقليم رينانيا بين الدانوب وجبال الألب ، قبائل الفرنج والألامان والبفاريون المنتصرة ، وراحت تستعمر بوسائلها ، هذه المقاطعات وتستغلها ، بينما نزح عدد كبير من الرومان عن هذه الارجاء ، واقامـوا بعيداً الى الجنوب ، بينهم سلفيان التريفي *Salvien de Trèves* الذي جاء وسكن مدينة مرسيليـا . ووقعت اعلاق الفن وروائعه ، والمباني التي كانت تزهى بها هذه المدن ، والرياش الفاخرة التي ازدانت به صروح سراة القوم ، وداراتهم الجميلة في الارياف ، كل هذا ذهب فريسة للغزاة الفاتحين . فلم يبالوا قط بما لهذه الدرر والغرر الفنية من قيمة وشأن فاهملوا امرها ولم يلبث ان عفا الكثير من معالمها فاصبحت نسياً منسياً . وهكذا زال من الوجود ما كان قائماً فيهـا من مدارس وكنائس ، كما بادت فيها الجوالي والجماعـات المسيحية ، وارتفع كل اثر للحدود الرومانية ، واقتسمت هـذه القبائل الجرمانية الاقاليم الرومانية الواقعة اليها فوزعتها على ما عندهـا من بطون وافخاذ ، فانتهبتها الجماعـة وحولتها الى مزارع ومراع فسادت فيها اخلاق الوثنيين وعاداتهم . وقد حدث شيء شبيه بهذا، في مقاطعة الارموريك التي نزلت بها جاليات من بريطانيا هرباً من وطأة الغزاة السكسون ، وفي جبال كنتبريا الى الشمال الغربي من اسبانيا حيث عاد السكان الى طبائعهم البربرية في المناطق التي لم تدرج فيهـا اللهجات الرومانيـة ، انما سادت فيها لغات البشق *Basques* والكلتيين وغيرهـا من اللغـات الجرمانية .

اما في الجنوب من هذه المنطقة فنتائج الغزوات البربرية كانت اخف وقعاً . فقد كان عدد البرابرة الذين انساحوا في بعض اطراف البحر المتوسط الغربية كاسبانيا وافريقيا ، قليـلاً نسبياً ، اذ لم يعبر مضيق جبل طارق ، الى افريقيا ، بصحبة جنسريق اكثر من ٨٠ الفاً كما لم يدخل اسبانيا تحت قيادة ثيودوريق، سوى ٢٠ الفاً من الاستروغوط، حيث اخذوا يستمرئون تدريجياً ، المدنية الرومانية ، اذ اعتنق السواد الاعظم منهم النصرانية . صحيح انهم كانوا مدججين بالسلاح ، قساة القلوب جشعين وكان عبورهم خلال ايطاليا وغاليا واسبانيا في طريقهم الى افريقيا كارثة هزّت اركان العالم اللاتيني وهددته بالمحاق ، لما انزلوا في هذه البلدان من خراب ودمار ، ونهب وسلب ، وما اضرموا فيها من حرائق ضروس اكلت الاخضر واليابس. فهذه الكنوز التي طمرها اصحابها من الاغنياء وسراة القوم في الأرض ، إستبقاءً لها وجعلها في منجى من عبث العابثين ، لم ترَ النور ثانية ولم يعد اليها اصحابها، بعد ان ارتفعت الغمة وانقشعت الغمامة السوداء ، مما يدل على ان عدداً كبيراً من اغنياء الرومان لقوا حتفهم خـلال النكبة ، أو جَلَـوا عن اوطانهم دونما رجعة . وبين الذين آثروا البقاء حيث هم ، أو لم تقتلعهم العاصفة ، من آل امرهم الى الخراب والدمار، كما وقع مثلاً لبولان ده بيلا الذي جرب ان يتعاون مع الغزاة وآثر العيش بينهم محافظة منه على مقتنياته واملاكه وثروته الطائلة ، مع انه كان من الميسور له ان ينجو بنفسه مع ذويه ، الى املاكه الواسعة في الشرق . وعمت الفوضى البـلاد لكثرة

الاضطرابات والانتفاضات الشعبية . فقد ثار العبيد وتمردوا على اسيادهم ، وراح البائسون من الفلاحين والمزارعين يناصرون جحافل البرابرة الغزاة ويشدون من ازرهم. وعمت الفوضى مرافق البلاد الاقتصادية : اذ اختل حبل الأمن واختلت بالتالي الحركة التجـــارية ، وانقطعت وسائل الاتصال والانتقال كما انقطع استيراد المواد الغذائية من الخارج . ومما هو انكى من هـــذا كله وأحزّ في النفس واوقع ، سقوط روما عام ٤١٠ ، بيد البرابرة . فكان لهـــذا الحادث دوي بعيد في النفوس انزل الهلع في قلوب العالم المتمدن، حتى ان القديس ايزونيموس انقطع حيناً عن متابعة عمله ، في عزلته في بلاد اليهودية . اما الوثنيون من اعضاء الطبقة المشيخيـــة ، فراحوا يردون هذا الحادث الى عمل انتقامي من جانب الآلهة بعد الذي اصابها من زهد الناس بعبادتها وانصرافهم عنها ، كما رأوا في هذه النكبة النكباء نتيجة وخيمة لزواجر المسيحية ونواهيهـا . وغشيت قلوب المسيحيين هواجس مؤرقة من القلق والاضطراب ، فأخذوا يتساءلون بشيء من الحيرة : لماذا لم يصن الله مدينة القديس بطرس ؟ وراح فريق منهم ، بعد ان وقعوا فريسة الوساوس يتقربون من الأصنام التي رذلوها من عهد بعيد ، واطرحوها جانباً يعفّرون أمامهـا رؤوسهم مستغفرين، قارعين صدورهم ندماً واسفاً، كما اخذوا يروجون الشوائع بقرب نهاية العالم. واسمع ما قاله بهذا الشأن بروسبير الاكويتاني : « فارق السلام ارضنا هذه ، فاصبح كل ما تقع عليه العين سائراً للزوال . » ولكي يرد القديس اوغسطينوس شماتة الشامتين ودعاة السوء والشانئين ويقوي ضعاف الايمان وضع كتابه : « مدينة الله » *Cité de Dieu* . ومع ذلك فما كادت العاصفة تمر حتى تناسى الناس ويلاتها ونتائجها المشؤومة ، كما عادت الثقة الى النفوس . وما ان اطل عام ٤١٧ حتى راح روتيليوس نماتيانوس *Rutilius Numatianus* يشيد عالياً ويتغنى بعودة البحبوحة والرفاه ، وعودة النشاط التجاري وحركة المبادلات وحياة اللهو . اما الكاتب اوروز *Oroze* فعلّق على الحادث قائلاً : فالغزو حادث طارىء وانقضى. فقد سمحت به العناية الإلهية لتتيح للبرابرة الانسراح في الامبراطورية الرومانية المظفرة، وليفيدوا مما فيها من حضارة ومدنية ونصرانية. وقد ارتفعت في روما بين ٤٢٢ — ٤٤٠ كنيستان: الأولى باسم القديسة سابينا والثانية باسم القديسة ماريا الكبرى (ماجور) ، وفرشت جدرانهما بالفسيفساء ، سيراً مـع التقاليد الفنية المرعية منذ عهد قسطنطين .

التشكيلات الجديدة

لم يترك غزو القبائل الجرمانية ، للبلدان الواقعـــة حول البحر الابيض المتوسط ، أثراً عميقاً ، إلا في البنيان السياسي وتنظيماته . فبعد الغزو بمدة قصيرة ، راحت الحكومة الامبراطورية تحاول اعطاء صبغة شرعية لإقامة البرابرة في المقاطعات التابعة لروما . فقد اعتادت الامبراطورية ، منذ عهد بعيد ، استقبال رجال الحرب من بـــين البرابرة . فلم تكن جحافل الغزاة لتختلف كثيراً في الأصل عن فيالق الجيش الرسمي ، اذ ذاك. ففي توزيعهم على الأقاليم والمقاطعات ، دمج لهم في الملاكات والأطر العسكرية المعمول بهـا في البلاد ، بعد ربطهم والاستيثاق منهم بالمواثيق. فقبل ان يطأ ألاريق ايطاليا بسنابك خيله، كان

ضابطاً كبيراً في الجيش الروماني برتبة *Magister Militium* ، كما ان احلاف الفيزيغوط أقطعوا ، بموجب معاهدة عُقدت معهم ، عام ٤١٥ ، مقاطعة الاكويتان . وجرت اتفاقات مماثلة مع غير هؤلاء الشعوب أضفت الشرعية على استيطان الحلفاء الجدد من الفندال ، ان لم يكن في اسبانيا ، عام ٤١١ ، أقلّه في إقليم نوميديا ، عام ٤٣٥ ، وفي افريقيا عام ٤٤٢ ، كما أضفت الشرعية على اقتطاع قبائل البورغونيين ، مقاطعة السافوى ، عام ٤٤٣ . وثيودوريق نفسه الذي كان رئيس هؤلاء الاحلاف ، أصبح ، منذ عام ٤٨٣ ، بطريقاً وقائداً للجيش . وقد احتفظ هؤلاء الحلفاء بقوانينهم الوطنية وبما لهم من تشكيلات مستقلة اختصوا بها . فلملكهم وحده ، حق التفاوض مع روما ، وله وحده حق ابرام المواثيق، التي يتعهد بموجبها تقديم كل مساعدة عسكرية مقابل القيام بأوَد رجاله .

وتنفيذاً لمسؤولياتها من هذا القبيل ، راحت الامبراطورية تطبق ، بعد ان تبنتها وأخذت تعمل بموجبها ، الاساليب ذاتها والمناهج نفسها التي كانت متبعة من قبل، لتوفير السكن وأسباب الراحة لموظفيها وأفراد جيوشها. فكانت الدولة تسلمهم أذونات بالسكن ، وباستلام ما هم بحاجة اليه من المواد الغذائية ، من مستودعات التموين العامة ومخازن الإعاشة . وأمام انتشار حركة العيش في الريف التي نشطت أسبابها ، اذ ذاك ، ومواجهة ضرورة توفير مقومات السكنى الطويلة ، رأت الدولة نفسها مضطرة لتعديل قانون « الضيافة » المعمول به ، اذ طُلب الى الملاكين التخلي عن ثلث او ثلثي بعض ممتلكاتهم، لقواد هذا الجيش الذين راحوا يوزعونها بدورهم، بين كبار الرؤساء والضباط. والظاهر ان العملية تمت دون ان تثير صعوبات كثيرة ، اضآلة عدد البرابرة الذين اقتضى تدبير سكناهم ، نسبياً ؛ ومن جهة اخرى ، فقد جرت العادة ان يقيم بعض أعضاء الطبقة المشيخية حاميات عسكرية على ممتلكاتهم ، وحداتها من البرابرة . ولم يمتعض لهذا التدبير التعسفي سوى قلة من أصحاب الذوق الرفيع، أمثال سدوان ابولينير *Sidoine Apollinaire* الذي لم يكن ليطيق او ليحتمل خشونة هؤلاء النزلاء الخشان الطباع ومضايقاتهم . وبقيت الدوائر الادارية العامة ماضية في سيرها كالمعتاد ، لم يزعجها كثيراً ، تحمل أعباء جديدة نزلت على المدنيين من جرّاء تأمين أوَد جيش احتلال بصورة مستمرة ، وهو عبء جديد أضيف الى الاعباء الثقيلة الاخرى المترتبة على سكان بعض المقاطعات الرومانية ، من هذا القبيل .

كانت السلطة الفعلية، والحق يقال ، في هذه الولايات ، في يد ملك البرابرة الذي كان الشعب يختاره رئيساً عليهم . والقوة التي له ، والسلطة التي كان يمارس صلاحياتها بتفويض رسمي من ممثلي الشعب ، اتاحت له : مراقبة الادارة والاشراف عليها عن طريق نوابه الذين كانوا يلقبون بـ – كونت – وهو لقب مصطلح عليه في مراتب الجيش ، في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، فيسهرون على سلامة الأمن في الاقضية الواقعة تحت اشرافهم المباشر . وهكذا لم تلبث تشكيلات الجيش وانظمته ان حلت محل النظم الادارية ، بعد ما اعتراها من تحلل واسترخاء ، في جميع انحاء الامبراطورية . وهكذا لن تعتم المقاطعة ان تصبح مملكة يخضع مَن

فيها من رومان وبرابرة للقائد العسكري المتولي شؤون الحرب . وكثيراً ما حاول هذا القائد الملك بسط نفوذه وسيطرته الى ما وراء حدود المنطقة التي تخضع لادارته العسكرية، الامر الذي كثيراً ما اضطر معه الامبراطور على الانكفاء نحو الشرق فتتقلص رقعة الامبراطورية وينكمش سلطانه . وقد سبق ان تم نقل مركز العاصمة في القسم الغربي من الامبراطورية من مدينة تريف ، الى مدينة ميلانو ، فالى مدينة رافينا ، عام ٤٠٣ ، وهي مرفأ معزول منقطع يقع بين الغياض والمستنقعات وينفتح على البحار اليونانية . وعندما ثار الجيش الروماني ، عام ٤٧٦ مطالباً لنفسه بذات الامتيازات والمنافع التي كان ينعم بها جيش الشعوب المتحالفة ، قام قائده ادواكر *Odoacre* يخلع الامبراطور ويحتل القصر الامبراطوري في رافينا ويسكن فيه ، ويبعث بشارات الملك الى بيزنطية . وكان من شأن هذه الحركة ان اعادت إلى الامبراطورية وحدتها ، اذ لم يصبح لها من بعد الا عاصمة واحدة هي القسطنطينية . اما الغرب فقد بقي شرعاً وقانوناً، مرتبطاً بالشرق يحكمه باسم الامبراطور قادة القبائل البربرية باعتبارهم ممثلي الامبراطور ومفوضين سامين في هذه المناطق . وجاء في رسالة بعث بها سيجسموند ، ملك البورغونيين ، الى الامبراطور أنستاس في مطلع القرن السادس : « اني اظهر بمظهر الملوك وشاراتهم ، بين رعيتي ، بينما انا جندي من جنودك » . وهكذا نرى كيف ان الشطر اللاتيني من الامبراطورية كان يتقاسمه عدد من الممالك تنعم كل واحدة منها ، بالفعل ، باستقلالها التام .

وعلى نقيض ما حدث في المقاطعات الواقعة على الحدود ، لم يتسبب الترتيب الجديد الذي سارت عليه العلاقات السياسية ، باي انقطاع أو انفصام في استمرار سير الحضارة وتطورها . فالبرابرة لم يؤلفوا سوى اقلية ضعيفة حتى في المقاطعات التي استقلوا بامورها على ساحل البحر المتوسط ، حيث تم لهم ملء السلطة المطلقة ، كما انهم لبثوا ، مدة طويلة ، موزعين جماعات صغيرة معزولة عن سواد الرومان الأكبر . فقد احتل الاستروغوط ، في المدن الايطالية احياء معينة اختصوا بها . فالرؤساء الجرمان ، وحدهم ، اخذوا ينمّون اتصالاتهم بالطبقة المشيخية ، فيشايعون النظام الجديد ويسيرون معه بنسبة ما يمكنهم من العيش على هواهم ، ويستمرون في تأدية الوظائف الادارية التي يقتضيها نظام الحكم . وقد اخذ الغزاة يستمرئون حضارة سكان البلاد. فالاخلاق والعادات والاعراف والتقاليد التي حملوها معهم كانت من الانحطاط والتأخر ، ما منع الارستوقراطية اللاتينية من الاكتراث بها ، فاعرضوا عنها ورذلوها ، باستثناء بعض أشكال وصور من البذل والعطاء الشخصي التي ما لبثت ان تغلغلت بين الاعراف والتقاليد المعمول بها .

وعلى خلاف ذلك ، أقبل البرابرة بشوق من يقبسون أوضاع الحياة المهذبة المصقولة وهم على يقين بان علامة النبل الوحيدة ، وسمة الشرف المثلى ، هي اقبال المرء بكليته ، على الآداب الرفيعة والعب منها ، كما يقول سدوان أبولينير . وهكذا راح الكثيرون يتتلمذون على مدرسة الرومان وينهجون نهجهم .

فبالرغم من الخراب والدمار ونهب كنوز البلاد وغير ذلك من الاستباحة والأعمال الوحشية التي رافقت غزوات البربر او عقبتها، فقد كان من جرّاء دخول عناصر خشنة ، فظة بين النخبة المثقفة، ان تدنى كثيراً المستوى الحضاري العام، فساعد هذا التقهقر على الانتقال من حضارة مدن ناعمة الى حضارة ريف غليظة، فظة، مخشوشنة دون ان يحدث او يقع أي انقطاع في سير الحضارة واستمرارها . ويستدل من رسائل سدوان ابولينير الذي عاد مأخوذاً من زيارة قام بها لبلاط ملك الفيزيغوط ، في مدينة تولوز ، ان هـــذه الثقافة الحضارية لم تتأثر قط في بعض الأجواء الارستوقراطية الرفيعة، عند منتصف القرن الخامس ، ولم تفقد شيئاً يذكر من نعومتها وتهذيبها ورهافتها . وبعد ذلك بمدة وجيزة، نرى قصر ملك الفندال ، في افريقيا ، يصبح مركزاً مرموقاً للاشعاع الثقافي والحضاري في تلك البلاد ، كما نرى الملك ثيودوريق يحاول ، في القرن السادس ، ان يعيد الى سالف عزها ، الحضارة الرومانية في ايطاليا ، اذ أخذ يرعى معالم هذه الحضارة ، ويعنى بصيانة المباني في روما وترميمها، كما شيّد ، في مدينة رافينا، عدداً من الكنائس والمعائر وفقاً للطراز المعماري المعمول به في الامبراطورية البيزنطية ، وأجرى عطاياه بسخاء على المدارس ومعاهد الفصاحة والبيان القائمة في المدن الكبرى ، هذه المدارس التي لم يطرأ عليها ما غيّر من مناهجها وأساليبها ، بينما أهل القلم ورجال الادب يحاصرون باب قصره ، طمعاً منهم بصِلاته السخية . ففي الحين الذي راح فيه الاسقف إينود *Ennod* ، أسقف مدينة بافي *Pavie* ، يُطري عالياً ، ويثني عاطراً ، في خطبه البليغة المحبوكة على قواعد الفصاحة والبيـــان ، ويمتدح الملك « البربري » لكونه رومانياً بقلبه وعقله وروحه ، أخذ الكاتب الشاعر ورجل الدولة بوسيوس *Boèce* (٤٨٠ — ٥٢٤) ، يحاول ان يوسّع من أذهان معاصريه ويشحذ أذواقهم لتذوق الروائع الفكرية والأدبية الكلاسيكية التي طلع بها الفكر اليوناني الخلاق ، بعد ان تعذر عليهم قراءتها بلغتها الاصلية ، كل ذلك ايماناً منه واعتقاداً بأن الجمهورية الرومانية باقية أبد الدهر ، وانه لا بد من العمل على إحياء آدابها . وكسيودوروس *Cassiodore* نفسه ، الذي ولِد رومانياً وتولى رئاسة الديوان الملكي، يحاول، عندما يدعو للتساهل والتسامح المتبادل ، ان يهيء انصهار القوط والرومان انصهاراً كلياً كاملاً .

وهذا الانصهار ، هل كان وشيك الوقوع ، بعـــد ان انثنت المدنية الرومانية عن حدودها الشمالية وانكفأت الى الجنوب حتى مشارف البحر الابيض المتوسط ، فعادت بذلـك وئيداً ، سيرتها الاولى ، ضمن الملاكات والأُطر الجديـدة التي طلعت اذ ذاك ، على البلاد ؟ لا لعمري ، وذلك لأنه لا يزال هنالك حاجز يفصل بـــين الزعماء الجرمان ورعاياهم يتمثل بحاجز الدين . فالشعوب البربرية كانت اعتنقت المسيحية، انما على مقالة الآريوسيين وتعليمهم، أي انهم يرسفون في الهرطقة . فقـد كانت لهم كنائسهم ومعابدهم واكليروسهم ، كما ان حزبيتهم الدينية هذه كانت مدعاة لتوعيتهم من الوجهة القومية . فبدلاً من ان يعودوا الى الرأي القويم ، الى الارثوذكسية ، أخذوا باضطهاد الكاثوليك وراحوا يطردونهم من كنائسهم ويحلونهم زرافات عن أوطانهم . وفي الواقع ، فقـد كانت روما في نظر جميع المسيحيين رمزاً للوحدة في

الايمان الواحد ، ولهذا تولى الاساقفة الذين أصبحوا بعـــد هلهلة الادارة الرومانية وانحطاطها ، الناطقين الرسميين بلسان السكان والمدافعين الشرعيين عنهم وعن مصالحهم، كما أخذوا ينظمون حركة مقاومة طابعها ديني ، راحت تنتظم وتشتد ضد الدخلاء المحتلين. وهذه المقاومة تبدو على أبرزها، في غاليا، بزعامة سدوان ابولينير الذي أصبح أسقفاً لمدينة كليرمونت ، فسعى جاهداً، بعد عام ٤٧٠ ، يحاول منع اريق *Eric* ، ملـــك الفيزيغوط ، من ضم مقاطعة اوفيرني ، الى ممتلكاته ، وهي مقاطعة معظم سكانها كاثوليك . ومقاومة مماثلة في افريقيا يحرّض عليها ويدفع اليها مواعظ الاساقفـة المبعدين عن كراسي ابرشياتهم ، وأخرى في روما نفسها حيث أخذت المؤامرات والدسائس تحاك بكثرة ضد الملك ثيودوريق. واذ رأى الملك نفسه في خطر يترصده، حزم أمره على الشدة ، والتزم موقف الدفاع العنيف . فقـد قضى بوسيوس والبابا يوحنا الاول نحبهما أسيرين في بلاط ملك الاوستروغوط. واشتد الضغط وازداد أواراً بحيث اخذ يهدد، جدياً، الممالك التي أنشأها البرابرة ، من الاساس . ولكي يتخلص الشعب من سيطرة لا تطاق ، خارجة على الدين، راح الكاثوليك يؤيدون، من جهة، الدسائس التي كان الامبراطور يحيكها في بيزنطية، طمعاً منه باسترداد سلطته على البلاد ، ومن جهة اخرى ، كان تقدم برابرة الشمال ، وهم الفرنج الذين لا يزالون على عبادة الاوثان ، يغذي في النفوس ، الايمان بامكان اعتناقهم المسيحية على الرأي المستقيم . وهكذا ، بعد مائة سنة على بدء الغزوات ، ساعدت المعارضة الدينية التي قام بها الرومان ضد ملوكهم من القوط والفندال ، على طلوع وضع سياسي جديد في الغرب ، يفصل سواحل البحر المتوسط المرتبطة بالدولة اليونانية، عن القارة التي وقعت فريسة بيد أكثر الجرمان همجية وبربرية ، كان شأنه ان يرسم اتجاهاً جديـــداً لتطور الحضارة في الغرب ويرسم خط سير جديد لتاريخها .

بلدان البحر المتوسط

استطاع الامبراطور يوستنيانوس ، عام ٥٣٣ ، ان يحرر بسهولة كليـــة افريقيا ويستخلصها بيسر من مغتصبيها الفندال ، كما تمكن ، فيما بعد ، أي في سنة ٥٥٤ ، من ان يحرر مقاطعة بَتيك *Bétique* (الاسم الذي عرفت به مقاطعة الاندلس في عهد الرومان وهو مشتق من اسم نهر بَتيس *Bétis* او نهر وادي الكبير اليوم) ، وبذلك تم له الاشراف على شطري البحر الابيض، والسيطرة على معابره ومجازاته ومضايقه . غير انه لم يكن له من الوسائل الحربية ما يساعده على الايغال بعيداً داخل البلاد ، عن سيف البحر . وهكذا بقيت في المغرب مناطق شاسعة لم تخضع له، كما بقيت في داخل اسبانيا مناطق تخضع للفيزيغوط. ولم تجرِ أية محاولة ضد بلاد غاليا ومقاطعة البروفانس فيها فتركت وشأنها ، لتروح فريسة بيـد الفرنج . ولكي يعيدوا ايطاليا الى سيطرة الامبراطورية ، مباشرة ، اضطر قواد يوستنيانوس ان يخوضوا غمار حروب دامية استنزفت الكثير من الجهد المرير ، والدماء المطلولة ، والتضحيـات الغالية والوقت الطويل، اذ ان حروب الفتح هذه ضد الاوستروغوط ابتدأت، عام ٥٣٥، واستمرت حتى عام ٥٦٣ ، فاضطر عندها العدو ان يلقي سلاحه ويستسلم ، بعد حروب ومعارك طاحنة

جرّت معها الخراب والدمار .

وبالرغم من الشوائب التي اعتورت هذه الحملات العسكرية ، فقد ساعد الفتح على ضم بعض المقاطعات المطلة على البحر ، الى الامبراطورية الشرقية التي يقع معظم أقاليمها الشرقية على مقربة من البحر وتتقبل مفاعلات الشرق ومؤثراته . ومنذ ذلك الحين ، أخذت النماذج الفنية تغزو هذه البلاد متغلغلة فيها عن طريق المرافىء الايطالية الكبرى ، أمثال : رافينا ، ونابولي ، وقرطاجة ، يشجع على الأخذ بها ، وعلى الترويج لها ، هذه الجاليات اليونانية التي سبقت واستقرت فيها منذ القرن السادس ، ممثلة بأفراد الجند والموظفين الاداريين وغيرهم من شذّاذ الآفاق والتجار القادمين من بيزنطية ، كما انتقل اليها ، في القرن السابع ، عدد كبير من رجال الدين والرهبان الذين فروا أمام الفتح الاسلامي . وهذا التغلغل البشري الذي صحبه تغلغل فني آخر ، يتمثل بهذه المباني التي شيّدت في مدينة رافينا بعد ان تم جلاء الغوط عن البلاد يشهد عالياً على روعة هذا الفن الذي كان تأثيره عميقاً ، كما يبدو من خلال هذه الرسوم الجدارية التي تزين تلك المباني ، ولا سيما كنيسة كاستل – سبريو الصغيرة على مقربة من مدينة ميلانو ، منها الى الشمال قليلاً . وكان من جراء ذلك تلقيح الفن الشعبي في البلاد بالاشكال والنماذج الفنية البيزنطية التي ، بعد ان تمازجت بالفنون المعمول بها في تلك البلاد ، كما نشاهد ذلك في فسيفساء الكنيسة الرومانية المشادة على اسم القديسين كوزموس ودميانوس ، وساعدت على انتاج روائع فنية تفرض الاعجاب ، طبعت الفن الايطالي طيلة الاجيال الوسطى .

والاتصالات الوثيقة التي ربطت هذه المقاطعات التي تم تحريرها بالمراكز الثقافية والحضارية الكبرى في الشرق الادنى ، ساعدت كثيراً على اذكاء شعلة الحضارة فيها . إلا ان محاولة الامبراطور يوستنيانوس القيام بما قام به من فتوح جرّت الدمار والخراب على تلك المقاطعات ، وارزحتها تحت ما اناخت عليها من ارزاء فهوت الى الحضيض . وهزّ الخراب الذي نزل بها ، ما تبقى من معالم المدنية الرومانية التي حاول ثيودوريق ، من قبل ، صيانتها والحفاظ عليها . والى هذه الحقبة يعود بالفعل الانحطاط الذي أصاب روما . فقد الغيت فيها ، عام ٥٤١ ، وظيفة القنصلية ، كما ابطلت فيها العاب المصارعة عام ٥٤٩ ، والعاب الظفر عام ٥٥٢ . وآخر اجتماع لمجلس الشيوخ *Sénat* يعود لسنة ٥٧٩ . وقد دُهك الريف في هذه الحروب وقضي على الكثير من النخبة بين صفوف الطبقة الارستوقراطية ، كما امتلأت النفوس وأفعمت القلوب حقداً وضغينة على البيزنطيين الذين لم يكن لهم من هم سوى استثمار ظفرهم الى اقصى حد . فلا عجب ان تصبح هذه المقاطعات ، بعد ان اناخ عليها الدهر بكلكله ، لقمة سائغة للطامحين اليها والراغبين فيها ، اذ لم يمض سوى خمس سنوات على استسلام آخر المحاربين من الاستروغوط ، حتى اجتاز ، عام ٥٦٨ ، شعب جرماني جديد ، هم اللمبارديون ، جبال الألب وانقض على شمالي ايطاليا التي كانت استنزفت كل دمائها . وبعد ذلك بنحو قرن ، راحت خيول المسلمين تدك بسنابكها أرض افريقيا ، فيغمر الاسلام شمالي القارة فتغرق تحت سيله الجارف . فبدلاً من ان يعيد الفتح

البيزنطي الوحدة الى الامبراطورية الرومانية ويوطد منها الدعائم ، ساعده بعكس ذلك تماماً على عزل هـذا القطاع الجغرافي الواقع بين شواطىء البحر المتوسط الشماليـــة وجبال الابنين ومجرى نهر البو الاسفل ، كما ساعد على فصل شبه الجزيرة الايطاليـــة وما اليها من جزر ، عن شمالي افريقيا وامتداداتها حتى اسبانيا من الغرب والحاقها بالشرق . وبذلك حيل بين القـارة الاوروبية وبين هذا البحر اللاتيني وما يمثله من تراث ، قديم ، خالد ، فارتمى بين احضان البربرية الجرمانية وهمجيتها وراح ينظم نفسه تدريجياً متخذاً من استقلال غاليا الفرنجية محوره ونقطة دائرته .

غاليـا الفرنجية

احتل الفرنج الساليون *Francs Saliens* المقاطعة الواقعة بين الرين ، شرقاً ، ونهر السوم ، غرباً . فانشأوا ، منذ منتصف القرن الخامس علاقات تحالف مع الدولة الرومانية الصغيرة المقتصرة رقعتها على مقاطعة إيل ده فرانس ، هي البقية الباقيـــة من الامبراطورية الرومانية في غاليا ، يدفعون عنها ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، عوادي الدهر ، وتمديات الهونز والفيزيغوط وقراصنة السكسون . وحوالي عام ٤٧٠ ، حل أوفر امراء قبائل الفرنج نشاطاً ، هو الملك شلدريق ، في مدينة تورنيه ، محل الحكام الرومانيين . وتمكن ابنه كلوفيس من التغلب ، عام ٥٨٦ ، على سياغريوس *Syagrius* ، آخر هؤلاء الحكام الرومانيين ، في معركة سواسّون واستولى على كنوزه ومجوهراته ، ثم راح يصفّي ، تباعاً ، ملوك القبـائل السالية الاخرى ، الواحد بعد الآخر ، وتغلب على قبائل الألامان وقلّم اظـافرهم ، واخضع لسلطانه النامي ، كل المقاطعات الواقعة بين نهر الموز *Meuse* واللوار *La Loire* . واستطاع في السنوات الاخيرة من القرن الخامس طرد الفيزيغوط بعيداً عن مدينة تورس ، فوقع تحت تأثير مطرانها القديس مرتينوس فاحسن وفادته ، وتأثر بالخرقـــات والعجائب التي تمت على يده ، فقرر اعتناق المسيحية ، ليس على مقالة الآريوسيين كغيره من برابرة الجرمان ، بل على المذهب الكاثوليكي ، وتمت حفلة تنصيره في مدينة ريمس *Reims* ، بين ٤٩٦ و ٥٠٦ ، فاصبح كلوفيس بذلك الرئيس الاوحد للدولة الكاثوليكية الوحيدة في الغرب . فكان لهذا الحادث صداه الداوي في جميع الارجاء ، تبلغه بارتياح كل اساقفة غاليـا حتى ان احدهم هو المطران أفيت *Avit* ، أسقف مدينة فيينا عبّر باسم الجميع عن ارتياحه لهذا التطور العظيم ، وراح يحث الملك الجـديد على ان يشرف بنفسه على أعمال الرسالات التي تتولى الكرازة والتبشير بالدين الجديد . ففي هذا دعوة صريحة لمباشرته بتطهير جنوبي غاليا من طغيان هرطقة الآريوسيين . وبالفعل أرسل كلوفيس جيشه لمهاجمة الفيزيغوط ، فكسرهم وهزمهم شر هزيمة في موقعة فوييه *Fouillé* ، عام ٥٠٧ ، وقتل الملك ألاريق ، وطارد فلول جيوشه الى ما وراء جبال البيرانيس . وبعد غزوته المظفرة هـذه ، ارتدى في مدينـــة تورس ، وشاح القنصلية الذي أرسله له الامبراطور انستاسيوس . ومنذ ذلك الحين ، كما يؤكد القديس غريغوريوس التورسي أخذوا يلقبونه بـ «قنصل واوغسطس» . ثم اخضع قبائل الفرنج المعروفين بـ *Ripuaires* «على الرين» وجاء واستوطن باريس وفيها توفي

عام ٥١١ ، بعد ان ترأس ، في مدينة اورليانس ، أول مجمع وطني عقدته كنيسة غاليا الفرنجية واكمل بنوه عمله ، واتموا الرسالة التي شرع بها ، فضموا الى ممتلكاته مملكة البورغونيين ، عام ٥٣٤ ، واخضعوا مقاطعة تورانج . والملك ثيبرت ، الذي وقف الى جانب الامبراطور يوستنيانوس وآزره في حروبه في ايطاليا ، يقطع مقاطعة بروفانس ، وضرب السكة الذهب ، فكان أول ملك « بربري » يضرب السكة باسمه . وهكذا ما كاد ينتصف القرن السادس حتى أصبحت كل غاليا ، باستثناء مقاطعة بريتانيا والبشق منها ، ومقاطعة سبتيمانيا الفيزيغوطية ، مع قسم من جرمانيا ، تؤلف معاً مملكة واحدة ، هي مملكة الفرنج .

انه لنظام سياسي غريب : فالامبراطورية لم ترَ تكوين هذه الدولة ولا نشأتها ، فتم هذا كله بمعزل عن الأعراف والأطر الشرعية « للتحالف » واصول « الضيافة » والإقراء ، دون ان يحصل شيء من الخراب ، وربما بدون أي مصادرة بالجملة لأملاك الدولة . وليس ما يؤكد أو يثبت ان زعماء الفرنج استولوا على جانب من الأرضين التي كانت ملكاً للارستوقراطية الرومانية في غاليا ، هذا لو سلمنا فرضاً انهم صادروا قسماً من الاملاك العامة . وقد سهّلت وحدة الايمان المشترك عملية تمثّل الطبقات العالية في المجتمع ، اذ ذاك . ففي الربع الأخير من القرن السادس يُغنّي غريغوريوس التورسي باعتزاز كلي ، وهو سليل الطبقة المشيخية ، المجد الأثيل الذي يملأ بردتيه لانتسابه الى أمة الفرنج . فلم يكن في هذه المرة ، دخول أي من البرابرة في حوزة العالم الروماني ، بل على عكس ذلك تماماً ، اذ ان جانباً من العالم الروماني دخل بين ممتلكات امة مسيحية ، لا تشدها الى بيزنطية صلة ما . من حواضرها الكبرى ومراكز الجذب والثقل فيها مدن مشهورة كباريس واورليان وريمس وسواسون ، وكلها واقع على مشارف العالم المتحضر ، كما ان قسماً من ممتلكاتها كان يمتد بعيداً ، سواء من الشرق أو من الشمال ، ليصل الى قلب البربرية الجرمانية . ففي هذا الإطار الجغرافي الاثنوغرافي نرى التقاليد الرومانية تندمج بالعادات وتمتزج بالأعراف التي حملها معهم الغزاة الطارئون ليخرج من هذا الانصهار البطيء وهذا التمازج الوئيد ، حضارة كل ما فيها أصيل .

تميز هذا المركّب ، منذ بدء أمره ، والحق يقال ، بانخفاض ملحوظ في المستوى الحياتي والثقافي والحضاري ، نمّ عن هذا الفارق العظيم القائم بين القارة والقسم الجنوبي منها : ايطاليا وافريقيا الشمالية الذي نشطت فيه الحياة من جراء الاتصالات المستمرة مع الشرق . وهذا الانحطاط الذي استطال حبله حتى مطلع القرن السابع ، طبع بدوره النظم السياسية القائمة اذ ذاك ، كما ترك طابعه على الوضع الاجتماعي ، والحركة الاقتصادية والفكرية والدينية ، في المملكة .

المجتمع الميروفنجي

لم يكن كلوفيس وخلفاؤه من بعده ، بعكس الممالك الاولى التي أنشأها البرابرة ، من أحلاف الامبراطورية ، وملزمين بالتالي ، مثلهم ، بالولاء للدولة الرومانية واحترام نظمها ومؤسساتها ، بعد ان أولتهم رعايتها وأدخلتهم في خدمتها ، فاتحين ، أحراراً ، متحررين من كل التزام نحوها . فقد أخذوا السلطة عنوة وغلاباً ، بعد ان قضوا على

منافسيهم وأزالوا مزاحمتهم . فقد رأوا في السيطرة التي آلت اليهم صاغرة ، حقاً من حقوقهم الشخصية ، وجزءاً من تركة لم يكونوا ليؤدوا عن ادارتهم لها حساباً لأحد ، يتصرفون بها كيفما يشاؤون ، ويلتدبون لها من يرغبون من الانصار والمحاسيب ، يتقاسمها ورثتهم وفقاً للأعراف المتبعة . وهكذا قسمت مملكة كلوفيس ، عند وفاته عام ٥١١ ، بين أولاده الاربعة . فنظر الملوك الميروفنجيون ، الى المقاطعات التي آلت اليهم ، نظرة بدائية ، واعتبروها نوعاً من الاقطاع التوابع ، لهم عليها ملء السلطة ، أخذاً منهم بالتقاليد التي سار عليها أجدادهم ملوك تورنيه . فكانوا يعتبرون أنفسهم قادة حرب يقودون جيوشهم لخوض المعارك ، ويسهرون ، باسم الشعب ، على استتباب أسباب السلام والطمأنينة ، وترؤس الاجتماعات العامة ، يعقدونها لإجراء العدل وإقامة القضاء فيما بينهم ، ويحرصون على حسن تنفيذ قراراتهم وأوامرهم . فبعد ان نشروا سلطانهم على كل أطراف غاليا ، فرضوا على رعاياهم : رومانيين كانوا أم برابرة ، الخدمة العسكرية والولاء للتاج . ولم يخطر لهم على بال انه يترتب عليهم مسؤوليات او مهام أخرى ، كإتمام الرسالة التي قامت بها روما من قبل ، مثلاً ، ونشر أسباب الحضارة في أطراف البلاد ، كما تمنى ذلك وراح يحققه الملك ثيودوريق نفسه . وكان يكفيهم ان ينعموا بالسلطان . فالملك أو الحكم ، في نظرهم ليس سوى وجه من وجوه الاستثمار الشخصي . للملك وحده دون سواه ، حق الاستمتاع به ، على هواه ، دونما رقيب أو حسيب . وكان يتولى الادارة باسمهم ، في المقاطعات ، نواب الملك ، فيُعهد اليهم بجباية الرسوم والضرائب التي تؤمن نفقة المقر الملكي وما في المقر من حاشية عريضة . وكان جل ما يطمعون به ، توفير النقد المتداول بين الناس ، ولذا حرصوا الحرص كله ، على صيانة النظم والمحافظة على المؤسسات التي توفر لهم حاجتهم من المال . وكانت جباية الخراج وضريبة الاعناق معقدة للغاية لما كانت تقتضيه من الجهد الموصول لتأمين الدقة في سجلات المساحة والاحصاء . وكانوا يجهلون جهلاً تاماً كل ما يتصل بالضرائب المباشرة التي لم تألفها طباع القبائل الجرمانية وأعرافهم المتوارثة . فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان يُعرِض الملوك بسهولة كلية عن هذه الرسوم والحقوق المرتفقة التي كانت تؤمن دخلاً ضعيفاً لهم ، فاستبدلوها برسوم فرضوها على التنقل والانتقال ، وعلى معارض التجار وأسواقهم ، لما في جباية رسومها من سهولة وسرعة . وهكذا أهملت تدريجياً النظم الادارية التي عُمل بها طويلاً وروعي جانبها أبّان الادارة الرومانية ، فلم تلبث ان تنوسيَ أمرها وعفي ذكرها . اما الادارة المحلية في القضاء او الدائرة *pagus* ، فكانت من صلاحيات حاكم اداري ، من خاصة الملك يحمل لقب « كونت » تُركت له أعباء السلطة الادارية والعسكرية ، همه الاكبر ان يُوصل الى القصر الملكي ، العائدات التي جباها رسوماً او مخالفات ، فيحتفظ بقسم ضئيل منها كمرتب له ولرجاله ومعاونيه .

والمعنى المجرد او الاسمي للدولة ، فَقَدَ كل مدلوله في الوقت الذي اتسعت فيه رقعة الدولة ورحُبت آفاقها ، فتخلخلت العلاقات التقليدية التي شدت ، من قبل ، الاحرار من الشعب

السالي ، الى ملوكهم ، فرأى الملوك الميروفنجيون أنفسهم مضطرين ، إبقاءً على السلطة المطلقة التي وقعت في قبضة أيديهم ، ان يفوزوا بأيد هذه الطبقة المتنفذة ، ويحوزوا على نُصَراء لهم عن طريق اشراكهم بمنافع السلطة . وفي هذا السبيل أخذوا يوزعون على من أنِسوا منهم الولاء، الذهب ، ويُقطعونهم الاراضي الواسعة ، جذباً لهم، واستدناءً ، لقاء تعهد بتقديم الولاء يقطعونه لهم . وآثروا لمناصرتهم والشدّ من أزرهم ، هذا الفريق من الاحرار الذين تعهدوا بالولاء للملك ، فجعلوهم في عـــداد رجال حرسهم ؛ وأنعموا عليهم بلقب كونت ، وأولوهم شيئاً من سلطانهم ، وأقطعوهم بعض الارضين ، وعهدوا اليهم ببعض الوظائف ، مـن بينهم أساقفـــة رأوا من حقهم وحدهم اختيارهم وترشيحهم لإدارة الابرشيات والاسقفيات . وهكذا ساعدت الهبات التي أغدقها هؤلاء الملوك ، والأعطيات التي أسبلوها اصطناعاً للانصار، على إنشاء طبقة جديدة من الاشراف ، توارث أصحابها هـذه المناصب خلفاً عن سلف ، وهي طبقة لم تكن معروفة من قبل ، في المجتمع الفرنجي حيث لم يكن ما يميز ، اجتماعياً ، الاغنياء عن الفقراء . وهكذا لم تلبث بعض أسر الفرنج ، على أثر ما أُقطعت من ارض وسلطان ، وعلى أثر المصاهرات التي تمت بينها وبين الطبقة المشيخية من الغالو ـ الرومانيين، ان نعمت بامتيازات خاصة، من بينها « فِدية الدم » المترتبة للقائمين على خدمة الملك، وهي فدية كانت ثلاثة اضعاف الفدية المترتبة لغيرهم من الاحرار وأزود .

طالما عرف الميروفنجيون ان يحافظوا على قوة بأسهم، استطاعوا ان يحتفظوا بأِعنة السلطة، عن طريق توزيع عوارفهم وإنعاماتهم ، بدقة وحكمة وتدبر ، على من يصفطونهم . فأطفأوا بالدم والنار كل محاولة عصيان أو انتفاضة على السلطان ، وبذلك عرفوا ان يؤمنوا ولاء كبـار القوم ، وبواسطتهم ، السيطرة على البلاد . وعلى إثر وفاة ملكهم داغوبير *Dagobert* ، عام ٦٣٩ ، توالى على أريكة الملك ، عدد من الملوك ، مات كثيرون بينهم وهم في ميعة العمر وشرخ الشباب بعد ان انهكهم الاسترسال الباكر وراء لذائذ الحياة ومباهجها بينما تولى نفر منهم، مخبول معتوه، منحط، مهام الملك، فأناطوا امره وسياسته بغيرهم. فعاد ذلك على الطبقة الارستوقراطية بالمزيد من النفوذ والسلطان ، وراح النبلاء ، في كل من المقاطعات الثلاث التي توزعت اليها املاك التاج، وهي نوستريا *Neustrie* واوسترازيا *Austrasie* وبورغونيا ، ينظمون أمورهم ويضبطون شؤونهم على شكل يؤمن لهم استثمار هذه الإيالات لحسابهم الخاص واستخلاص خيراتها ومواردها لانفسهم ،لهم في البلاط الملكي ممثل أو مندوب هو رئيس الخدم، أو قيم القصر *Muire du paluis* الذي كان، أصلاً، المتصرف بخدم القصر وحشمه، يقوم بأحط الخدمات وأخسها. وكان يشرف، بحكم وظيفته ، على مصارفات الملك وحاشيته ، ويتولى تنظيم تنقلاته بين دارة واخرى ، ومن قصر الى قصر ، جامعاً في قبضة يده موارد المملكة ويقرر وجوه إنفاقها . فهو المسؤول الأول عن الترحيب بزائري القصر من أبناء الأسر الشريفة يستجدون منه التوصية ويطمعون على يده، بكسب العطف ونيل الرعاية للعمل في حاشية الملك ، يتدربون في المعية على الوظائف التي لا بدّ

من ان ينتدبوا يوماً لهـا . فليس من عجب ، والأمر كما ذكرنا ، ان يصبح سادن القصر *Le maire du palais* ، بعدما آلت اليه الاسرة المالكة من انحطاط ، الشخصية المرموقة الأولى، في البلاد ، مع ان وظيفته كانت ، في الاساس ، جد متواضعة . وهكذا تقع ، في اواخر القرن السابع ، حركة واسعة في ميدان التطور السياسي والاجتماعي ، اخذت بوادرهـا تطل ، منذ أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فقد تُنوسي كل ما هو مصلحة عامة *Respublica* وبَهُمَ مفهوم هذا المصطلح ، وأُلغيت الضرائب عن الرجال الاحرار ، واستعيض عنها بفرض خدمات شخصية ، عليهم ان يؤدوها خدمة فعلية في الجيش أو في القضاء والحاكم . فملء السلطة المدنية صارت الى فئة صغيرة من كبار الملاكين من النبلاء الذين يحوزون اعداداً كبيرة من الارقاء والعبيد والاجراء العاملين في الارض ، والى مقدمي الفرنج ، ممن هم دونهم ثروة وجاهاً ، يعملون تحت إشرافهم .

وفي الوقت ذاته ، انتفت من مملكة الفرنج معالم هذه النظم الاقتصادية المتوارثة عن التاريخ القديم . فقد نشطت الى هذا العهد، الحركة التجارية ولا سيما حركة استيراد المنتوجات والمحاصيل الشرقية . فقد كان سبق للملك كلوتير الثالث ، ان أنعم ، في حدود عام ٦٦٩ ، على رهبان دير كوربي *Corbie* ، بحق الامتياز والتموين من المخازن الرسمية في دائرة المكس ، القائم في مرفأ فوس *Fos* ، من اعمال مقاطعة بروفانس، كما أعطوا الحق ان يتناولوا من المخازن المذكورة، حاجتهم من الطيوب والأفاويه ، والتمور والتين المجفف ، وكميات كبيرة من زيت الزيتون ، اذ كان رهبان الدير المذكور يستهلكون ، يومياً ، كميات كبيرة من هذه المواد التي كان يُؤتى بهـا من بلدان البحر المتوسط والشرق الادنى . وكان يقوم في حواضر البلاد الكبرى ، جاليـات سورية من يهود ونصارى ، حذق اصحابها اليونانيـة ، وليس بعجب ، واحتكروا تجارة هذه المواد الاجنبية ، وكان من وفرة النقد الذهبي العائد لملوك الدولة الميروفنجيـة من جباية الرسوم المفروضة على بضائع التجار وسلعهم ، ما يقيم الدليل عالياً على رواج هذه التجـارة وازدهارها . غير ان هذه الحركة التجارية اخذت تضعف مع الزمن ، وما عتمت ان زالت معالمها تماماً واندرس كل اثر لها ، في فجر القرن الثامن . فحلت المحاصيل الوطنية محل البضائع المستوردة من الشرق والجنوب. وفي الحقبة الواقعة بين ٦٦٠ – ٦٨٠، اخذ الديوان الملكي يُهمل استعمال ورق البردى ، المصري الاصل والصنع ، ويستعيض عنه بالرقوق ، كما حل في مقاطعات الشمال ، الشمع محل الزيت ، في انارة الكنائس . والمعادن الثمينة راحت تستعمل ، في الاكثر ، في صناعة الحلي والجوهرات التي كان يحرص الملوك على جمعها وتكوين مجموعات طائلة منها ، كما حرصت الرهبانيات وابناء الطبقات الارستوقراطية على ادخارها والإكثار منها . وتوقفوا عن سبك العملة الذهبية بينما تكاثر سك الفضة بعد خلطها بالرصاص بنسبة عالية ، مما افقدها الكثير من قيمتها الذاتية . ومن تدني قيمة النقد في عهد الدولة الميروفنجية نستطيع ان نتبين الى اي حد بلغت الحركة التجارية في انحطاطها وانكماشها في هذه الحقبة بالذات .

تقهقر الحضارة

وهذا التدهور الاقتصادي ، كان من بعض نتائجه انحطاط الحضارة الكلاسيكية . فقد عرفت ان تحافظ على مستواها ، مدة أطول ، في المقاطعات الجنوبية من المملكة الميروفنجية ، ولا سيما في مقاطعة البروفانس . فقد عين الملك ، في اواسط القرن السادس ، احد رجال الاكليروس ، في باريس ، اسقفاً على مدينة أفنيون، فقد شعر الاسقف الجديد في صميم نفسه واعماق قلبه انه لا يليق بتولّي رعي هذه الاسقفية ورعاية المؤمنين فيها ، لما كان عليه من خشونة الطباع وقلة البضاعة الثقافية اذا ما قارن نفسه بما بلغه مسيحيو منطقة الجنوب من درجة عالية في مدنيتهم . كذلك نرى مشاغل الحفر والنقش في مقاطعة الاكويتان ، تصدّر، في القرن السابع، نقوشها الفنية ومحفوراتها، الى كل انحاء المملكة. ولكن هذه المقاطعات التي اغرقت فيها اصول التقاليد الرومانية ، وضربت جذورها بعيداً في الأرض منذ عهد سحيق ، كانت تقع على اطراف المملكة الميروفنجية ، في الجنوب ، وقعت بالتالي فريسة للنهب والسلب — ولا سيما مقاطعة اكويتانيا منها — من قِبل جيوش الفرنج التي لا عمل لها . وهكذا تعطلت عندها ، على مر الزمان ، كل قدرة على الاشعاع ، الى ما يقع وراء نهر اللوار ، فغلبت على اهلها النزعة البربرية ، وخشنت بالتالي طباعهم وبَهُمَت افهامهم ، وندرت فيها وسائل العلم وضمرت النوازع الى طلبه والسعي وراءه ، باستثناء بعض مبادىء بدائية ، ساذجة ، كان يتلقاها الرهبان ورجال الاكليروس ، في المدارس الاسقفية . وقد اختصرت الادارة الملكية واستهانت بحيث كانت تقنع بمواطنين اداريين على مستوى واطٍ من التعليم . فانعدمت القراءة ، وتضاءل جداً عدد الذين يحسنون مبادىء الخط ، وتباعدت جداً لغة التخاطب ، عن اللاتينة الكلاسيكية ، للستقر منها على لهجات هي بالاحرى لغىّ . والشاعر فورتونا *Fortunat* الذي تخرج على مدرسة رافينا ، وفيها نبه ذكره وعلا شأنه وامره ، وجد في اواسط القرن السادس ، من يتبادل معهم الرسائل من اعضاء الطبقة المشيخية القديمة في غاليا. وفي هذه الحقبة بالذات تقريباً ، نرى غريغوريوس التورسي يكتب بلغة لاتينية مهلهلة، ويلوم زمانه الذي أصاره ليشهد ذبول الادب وأفول الثقافة . ففي القرن السابع ، يكاد الاسقف ديديه الكاهوري *Didier de Cahors* يكون الشخص الوحيد الذي تمت له مسحة من الثقافة القديمة . ونرى صاحب *Chronique de Frédé guire* يشكو زمانه ، ويلوم دهره ، لكثرة ما يعتور تاريخه من شوائب ونواقص ، مسؤولة عنها هذه البربرية التي صارت اليها البلاد .

وهذه القهقرى العامة تظهر على اتمها في التنظيم البدائي الذي بدت عليه النصرانية ، اذ ذاك. صحيح ان غاليا حققت وحدة الايمان في عهد الدولة الميروفنجية . فلم يرتفع فيها ، خلال هذا العهد ، أي صوت ناشز ، ولا ارتفع فيها هذا الجدل الديني الذي يثيره ظهور المشاقين الهراطقة ، الامر الذي يكوّن ، والحق يقال ، دليلاً قاطعاً على ما بلغه الفكر اذ ذاك ، من تبلّد وتبهّم وتحجر . صحيح ان الملك يرعى جانب المسيحية ويكلأ بعنايته الكنائس والمعابد فيغدق عليها

عوارفه بسخاء ، ويعترف للاديار بانعامات وامتيازات كثيرة ، ويعفي املاكهـا من الضرائب والرسوم . وليس من شك في ان ثروة الديارات والمؤسسات الدينية والرهبانية نمت نمواً كبيراً في وقت ساد فيه الاعتقاد ان الخلاص الابدي وقف على الاحسان والتصدق . إلا ان هذه المؤسسات أُصيبت تدريجياً ، هي الاخرى ، بانحطاط ذريع كغيرها من المؤسسات التي يرجع عهدها للمدنية الرومانية في العهد الامبراطوري. فقد كان الاساقفة يُنتَقون، في القرن السادس، من بين أعضاء الأسر الارستوقراطية الغالو ـ الرومانية المحافظة ، ممن تم لهم شيء من الثقافـة وكانوا من ذوي السيرة الحميدة ومكارم الاخلاق . ولذا ألّف المصف الاسقفي ، في هذه الحقبة المعروفة بتفسخ الاخلاق وتحلل المبادىء القويمة، أنشط الطبقات الاجتماعية وأنقاها على الاطلاق، في عهد الدولة الميروفنجية . إلا ان ملوك هـذه الدولة بالذات ، لم يعتموا ان رفعوا المنصب الاسقفي الذي يتمتع بانعامات ومنافع عديدة ، عدداً من أنصارهم والمقربين اليهم من العلمانيين ، ممن لا قيمة خلقية او أدبية لهم ، ولا همّ لهم غير استثمار مناصبهم الجديدة في ما يؤمن لهم المزيد من الربح . والمجامع الكنسية القومية التي كانت تنعقد من وقت الى آخر وتضم أساقفة البلاد ، تحت رئاسة الملك ، ويتخذ انعقادها رمزاً لوحدة الكنيسة بكامل ما يتصل بالايمان والعقيدة ، أخذ انعقادها يقل ، شيئاً فشيئاً ، في القرن السابع ، الى ان انقطع تماماً بعد عام ٦٩٦ ، وبعد هذا التاريخ أصبح عدد من الابرشيات شاغراً ينتظر عبثاً من يمـلأه باستحقاق ، ولا سيما في الجنوب .

وفي الواقع ، ان ما اصيبت به الحبرية من وهن وانحطاط ، وهي ما هي في النظام الكنسي، كان شديد الخطر في نتائجه . فالوثنية كان لا يزال لها ، في الإيالات والمقاطعات الواقعة في شمالي البلاد، عدد كبير من الانصار والاتباع. ففي كل اطراف المملكة، تسرب الى صفوف المسيحيين كثير من أعراف الغزاة والبرابرة الفاتحين ، كما نشط الاخذ بالاساطير والخرافات الوثنية القديمة، كما يبدو ذلك واضحاً من معالم المدافن والطقوس الجنائزية ، اذ ذاك . وهـذا أدى بدوره الى تأخر الحياة الروحية ، وبالتالي الى تخلخل الاخلاق وتفسخها . وبلغ من انهيار الوازع الديني في الطبقة الارستوقراطية ما ترتعد لهوله الفرائص وتقشعر له الابدان ، فانتفت الاخلاق من الحياة الزوجية ، وشاعت أيما شيوع ، عادة التسري والمعاشرة الجنسية غير المشروعة ، وأُهمل العدل واستبيحت العدالة ، فصارت الكلمة للقوة ، ومقاضاة الحقوق للسيف بهمجية لا تعرف الرحمة . وتبدو على الهياكل البشرية التي نبشت من أجداثها ، آثار الكلوم والجروح التي أصابت أصحابها وجرّت عليهم الشَوَه او الكساح ، وكلها تنطق عالياً بارتفاع معدل الوفيات بين الاطفال وانخفاض نسبة المراهقين. وفي هذا كله، دليل ناصع وبرهان قاطع على صحة ما تنوّه به النصوص والوثائق التاريخية ، من عنف الكبار في معاملة مرؤوسيهم ، وبؤس الطبقات السفلى وما تعانيه من سوء التغذية . وظواهر هذا الوضع الزري ، تبدو على أتمّها، في كل مرافق المدنية، اذ ذاك: فساد التقاليد القديمة المتوارثة من أقدم العصور وتفسخها، وتغلغل العادات والذهنية الجرمانية، والانتقال الى الهمجية المرعبة .

ومثل هذا التحول والقهقرى ، حدث في اسبانيا ، في القرن الرابع ابان حكم الاوستروغوط على البلاد . فقد اعتنقت قبائل الاوستروغوط فيها العقيدة الكاثوليكية ، بعد ان تخلى ملكهم ريكاريد *Récarède* ، عام ٥٨٩ ، عن القول بمقالة الآريوسية ، الأمر الذي سهّل كثيراً ، حركة التقارب فانصهار البرابرة ، بالمجتمع الاسباني الروماني . فنجم عن هذا الانسياح الاثنوغرافي ، تحلل في المقومات الحضارية وتفسخها . وقد رسم لنا ايزيدوروس الاشبيلي الذي توفي عام ٦٣٦، في كتابه الموسوم: «*Etymologies*» صورة عن التراث الادبي للحضارة الرومانية التي زهد الناس في قراءة روائعها الفكرية وأعرضوا عنها أيما إعراض، كما زهدوا بقراءة روائع الادب الكلاسيكي، وتنوسيت اللاتينية ، وبطل استعمالها بين الناس ، كما نلاحظ انهيار السلطة الملكية وبروز الطبقة الارستوقراطية . إلا ان العنصر الجرماني الذي اندسّ في شبه الجزيرة الايبرية وانساح في أرجائها ، كان اعجز من ان يلقحها بعوامل ومؤثرات جديـــدة تؤمن لها شيئاً من التجدد والانبعاث ولو كان فيه ما يؤول الى إفساد الحضارة الرومانية وتبغيلها . وقـد تسبب الرجوع الى الهمجية وجاهلية الجرمان ، في هذه البلاد ، عن انهيار عام امتد افقياً وعمودياً ، بحيث ان السرايا العربية الاسلامية القليلة العَدَد والعُدَد التي هاجمت البلاد ، عام ٧١١ ، استطاعت على ضآلتها، فتح البلاد وتصفيتها بسرعة فائقة، بعد معارك قليلة دون ان تلاقي فيها مقاومة كبيرة. اما الوضع في غاليا ، فقد كان على عكس ذلك تماماً ، ولا سيما في هذه المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والموز ، وبين البحر الشمالي ، نقطة الاتصال بين البلدان الرومانية القديمة وبين البلدان الجرمانية. فالتقهقر التدريجي الذي اصيبت به النظم الحضارية في هذه المنطقة ، وتدهور الثقافة والاخلاق والعلوم التي تبلّغتها من الاجيال القديمة ، كل ذلك أمكن تعويضه ، الى حد بعيد ، عن طريق العناصر الاصيلة التي نقلها معه العالم البربري . فانصهار الشعوب والاقوام في هـــذه الرقعة من العالم جاء بنتائج طيبة وأعطى أشهى الثمار. ففي وسط أكبر انهيار حضاري، وأعمق انحطاط فكري وخلقي شهده التاريخ ، بدا من خلال القرن السابع ، مع ذلك ، رسيس حركة بشّر طلعُها ببدء نهضة جديدة مباركة .

بوادر يقظة تلوح في الافق

وهكذا ، فالحركة التجارية التي كادت تتوقف وتنقطع تماماً بين بلدان البحر المتوسط ، اخذت تستعيد شيئاً من نشاطها وتنتظم تدريجياً في أطُر جديدة ، وذلك بسلوكها طرقات تتجه شطر شواطي غاليا الغربيـــة والجزر البريطانيـــة . فالملاحة نشطت أكثر فأكثر على مجاري السين واللوار وعبر الهانش صوب بحر الشمال ، تتنقل السفن بين مرافىء المحيط الاطلسي الاوروبية وقـــد نشطت حركة التجارة والمقايضات في مرفأ روان ومرفأ كنتوفيك *Quentovic* الذي قام من عهـد قريب على مجرى الكانش *Manche* في مقاطعة أرْتوَى . وبفضل تجار من قبائل الفريزون *Frisons* الذين كانوا يؤمّون الاسواق التجارية في سان دنيس *St. Denis* وأسواق لندن ويورك التجارية، قامت علاقات بين غاليا وريتانيا الجرمانية والبلدان الواقعة على البحر البلطيقي . ففي الوقت الذي قلّت فيه

العملة الذهبية ، احدى وسائل المقايضات التجارية الكبرى ، في العهد الروماني ، درج استعمال النقد الفضي في جميع أنحاء غاليا ، وهو نقد أُلِف الانكلو سكسون ضربه ، كل ذلك جاء دليلا على رسيس اليقظة التي دبّت في الحركة التجارية واتجاهها ، اذ ذاك .

ومن بوادر هذه الحركة التجددية، انتشار الديانة المسيحية. فبعد ان رسخت الديانة الجديدة، في المدن وحواضر البلاد الكبرى ، اخذت تمتد الى الريف وتنتشر فيه على نطاق واسع ، لا سيما بعد انتقال الطبقات الطافرة اليه واقامتها فيه . وأماكن العبادة التي أقامها الاساقفة في القرى والدساكر الريفية، والكنائس الخاصة التي شيّدها كبار الملاكين في ممتلكاتهم الواسعة على مقربة من الدور والصروح والفيلات التي قامت لهم فيها ، لم تلبث ان اصبحت مراكز اشعاع ديني ، وقواعد للكرازة والتبشير يتجند لها عدد كبير من الرهبان والرهبانيات ، كما أصبحت بعد قليل، مراكز لجماعات مسيحية تألفت منها رعويات وخورانيات جديدة . واخذت هذه الحركة التطورية تسير بخطى واسعة . فأبرشية مدينة بورج مثلا ، التي لم تكن لتعد في اواخر القرن السادس سوى خمسين بيعة او كنيسة، رأت هذا العدد يرتفع بعد خمسين سنة من تاريخه الى أكثر من مائة كنيسة . ومن جهة اخرى ، راح كبار الاساقفة الذين عاصروا الملك داغوبير ، أمثال القديس إيلوّا ، والقديس أوان (Ouen) والقديس سولبيس ، يقومون دورياً برحلات راعوية ، يهدمون خلالها ويتلفون ما تقع عليه عيونهم من آثار الوثنية والصنمية ، كما يصادرون مراكز عبادة الاصنام بعد ان يغيروا منها الأسماء والمسميات ، ويضعوها تحت حماية او شفاعة احد الشهداء القديسين ، او على اسم احد رؤساء الملائكة ، كما أطلقوا مسميات مسيحية ، على مراكز العبادة ومواقع الحج الوثنية ، وألبسوا صِيَغاً وأشكالاً مسيحية ، المراسم الطقسية التي كانت تقام في الارياف ، ناشرين على هذه الكيفية الرمز الصوري او الحرفي ، على الاقل ، الديانة المسيحية . وقد قام أساقفة المراكز المتقدمة في الشمال ، في نويّون وكمبريه وريمس ، يساعدهم مرسلون قدموا ، هم ايضاً ، من مقاطعة اكويتانيا ، بينهم القديس اماند *Amand* ، بكرازة الدين الجديد في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غاليا، بعد ان اكتسحتها موجة الفرنج وتوثّنت منها العادات والاعراف. وهكذا تم لهم ان يرفعوا راية الصليب فوق معالم نهري الموز والإسكو. وفي القرن السابع، اخذنا نرى الرموز والشارات المسيحية تحل في مقاطعة اللورين، محل الرموز والشارات القبرية الوثنية فيها .

وهنالك رسيس حركة تجدد تبدو ، هي الاخرى ، على الفنون ، بعد ان حملت الغزوات الجرمانية معها فناً جديداً يحمل كل مقومات النشاط بحيث عمّ كل البلدان المتليتنة في غربي اوربا، وهو فن ملازم للبداوة ولأهل الظعن ، يستوحي ملهماته من هذه الحضارة الجانبية ، مع ميل قوي للتركيز الصوري ونزعة شديدة لاستنطاق الأشكال الحيوانية ، هو فن مَهَرَة الحدّادين في صناعة الاسلحة وشغل المعادن وتصنيعها، أوّل ما اخذوا في تطبيقه، على صناعة الحلي والجوهرات الدقيقة الصنع ، أُخِذَت مادتها من أثمن العناصر وأجلها وأندرها ، كالذهب والحجارة الكريمة.

ففي زخارفه المستطيلة الأشكال التي تشبه ، الى حد بعيد ، زخارف القبور الجرمانية في الغرب التي تظهر على قبر شلدريك الميروفنجي ، المدفون في مدينة تورنيه ، عام ٤٨١ ، أو على القبور والمدافن الانكلوسكسونية أو قبور الفيزيغوط في اسبانيا . وهو فن طارىء ، جاء من الخارج ، مغاير في مقوماته الجمالية ، للجمالية الرومانية ، يتميز باحتقاره التصنع ، همه ان يرسم الأشياء كما تبدو في الطبيعة . وهذا الفن الدخيل على البلاد مغاير تماماً للمبادىء الجمالية التي التزم الرومان جانبها وعملوا بها ، فوجد في شمالي غاليا ، في القرن السابع ، مرتعاً خصباً وتربة صالحة للازدهار وللتطور . فقد صنع الصاغة في بدء أمرهم مصوغات من الحجم الكبير ، اختفى تقريباً كل أثر لها اليوم ويمكن مع ذلك ان نتبين غناها من بعض فقرات من سيرة القديس إيلوا . فقد بلغت بعض وجوه الصناعة على أيديهم ، درجة عالية من الاجادة والاتقان ، كما طبقوا أساليب جديدة في افراغ الشبهان وصناعة الحديد والتفنن في شغله ، في منطقة باريس ، واستطاع الصاغة ان يجددوا من وسائل إلهامهم ، فحاولوا ، دون ان يتخلوا تماماً عن التجريد ، ان يرسموا على أشكال واوضاع معينة ، صوراً بشرية. ففي الحين الذي راح فيه الفن الجرماني يوسّع من أفقه في المناطق المجاورة لنهر السين ، شهد الناس نهضة حقيقية وبعثاً صحيحاً للأساليب الفنية الرومانية والحفر والنحت ونقش الحجر ، وذلك تحت تأثير المؤسسات والمباني الدينية وما رفلت به من غنى الزخارف وعناصر التحلية. وقد بلغ من شهرة بعض المهندسين والبنائين ما حمل الرهبان في انكلترا على استدعائهم ليشرفوا على زخرفة كنائسهم وتحليتها ، ولكي يبنوا لهم معابد جديدة تحلّت واجهاتها بهذه المسلات التي ميزت المباني الغالية الكلفة في هذه الحقبة. وكان من زخرفة هذه الكنائس وتحليتها ان نهض فن النقش والحفر الذي تركز اول ما تركز ، على مقربة من المحاجر والمقالع الرخامية في جبال البرانيس ، وراح يقلّد بعض النماذج الواردة من الشرق ، المحلاة بالنقوش والتعاريش النباتية ، ثم لم تلبث ان انتقلت ، في اواخر القرن السابع ، الى مقاطعة إيل ده فرانس ، لتكون من ثمة على اتصال مباشر ، بدكاكين الصاغة الذين يستوحون الفن البربري . وهنا أخذ الرسامون المعنيون برسم الصور البشرية ، يجددون ، على شاكلة الحفارين الذين نقشوا نواويس كنيسة جوير *Jouerre* الحفر الناتىء للصور البشرية ، في الحجر الكلسي الطري .

ان اقتباس الرموز المسيحية وتطبيقها على مشاهد حياة الانسان وفقاً لعقلية سكان الريف ، ورسيس الحركة التجارية الذي اخذ يظهر ويقوى ، ومهارة الرسامين الفنية ، كل هذا وما اليه ، كان بشير نهضة واضحة المعالم . ولكي تشتد هذه النهضة وتنطلق في غاليا الميروفنجية كان لا بد لها من وضع سياسي يغاير الوضع القائم يسمح بقولبة الأطُر الارستوقراطية . غير ان انتشار العادات والطبائع الجرمانية ، كالولاء الشخصي ، ورفاقة السلاح ، كل ذلك هيأ الأخذ بحركة تجدد النظم والاوضاع السياسية في البلاد . وقد اخذنا نرى في مقاطعة اوسترازيا ، التي كانت تعتبر أشد مقاطعات الفرنج إيغالاً في الهمجية ، وأبعدها ذهاباً في البربرية ، تظهر حول قيّم القصر او سادنه *Le Maire du palais* مكونات الولاء والبذل والتضحية وكلها من ميزات نظام جديد.

وكانت غاليا بحاجة ماسة الى أُطر ثقافيـــة وفكرية ، ولا سيا لنظام منهجي لتعليم اللاتينية الكلاسيكية تساعد رجال الاكليروس وتوفر لهم الاسباب والوسائل ، لتفهم الكتب المقدسة ، وتليح في الوقت ذاته ، إصلاح المصف الاسقفي ؛ وشد أزر رجـال الدين في أعمالهم التبشيرية ورسالتهم ، كما تساعدهم على محاربة أباطيل الوثنية وشجب ترهاتها ورذلها . وقد أخذنا نشاهد في اخريات القرن السابع ، يفد على مرافىء المانش الجديدة ، مبشرون انكلو سكسون الذين استطاعوا ان يحافظوا على التراث القديم كاملاً، نقياً، وان يحتفظوا بديانة أنصع رسولية، وأنقى تعليماً ، وأكثر فعالية ، واوثق ارتباطاً بالكرسي الرسولي .

الرهبان وعمل المبشرين الرسولي

تلقت الكنيسة ، خارج مملكة غاليا ، التراث الروحي لروما ، بمعالم جديدة طبعت الحياة الرهبانية والاسقفية والتبشيرية .

وهذه الحياة الرهبانية التي كانت ظهرت ، في وقت مبكر ، في مصر ، انتقلت عادتها الى الغرب وتركزت أسسها على شواطىء مقاطعة البروفانس ، حيث تأسس عام ٤١٠ و ٤١٨ ، ديران : أولهما دير لاريانس *Lerins* ، والآخر دير سان فكتور ، في مرسيليا . ومن هناك انتشرت الحياة الرهبانية في ارلندا ، عام ٤٢٥ ، على يـــد القديس باتريك وتلاميذه الغُيُر . ورسخت الديانة المسيحية والحياة الرهبانية في هذه الجزيرة بحيث أصبحت محور كل حياة دينية فعّالة ، حية ، محيية ، ومنها شعّت وانتشرت في بلدان اخرى . واستقر في خلد رهبان الجزيرة ان الاغتراب والارتحال الى الخارج ، من احسن الوسائل التي تؤول الى تقديس النفس وتدنيهـا أكثر فأكثر ، من الله سبحانه وتعالى ، وتزيـــدها تقرباً من الكمال المسيحي . وهكذا انتشر الرهبان المرسلون من ارلندا في كل البلدان الكلتيـة الاصل واللسان : في ايكوسيا والشمال الغربي من انكلترا والارموريك . وفي اواخر القرن الخامس ، رحـل الرهبان الايكوسيون ، بقيادة رئيسهم ومدبرهم القديس كولمبان ، الى مملكة الفرنج والى غيرهم من الشعوب الجرمانية ، فأسسوا تباعاً، أديراً عديدة ، منها دير لوكسويل *Luxeuil* ، عام ٦١٠ ، ودير سان غال ، عام ٦١٢ ، ودير بوبيو ، في لمبرديا ، عام ٦١٥ . وهكذا وضحت معالم اتجاه التيار الروحي الذي بلغ أقاصي البلدان المسيحية في الغرب ، حتى بلغ قلب جرمانيا وادخل فيها انماطاً مختلفة من الحياة الرهبانية ، ومناهج متنوعة . غير ان الحيـــاة الرهبانية في ارلندا لم تلبث ان عرفت صوراً وارتدت مظاهر قاسية ملتزمة ، وبدائـية في مظهرها ، اذ ان منطلق الحياة الرهبانية كان في الكتب المقدسة ، وعلى مجموعـــة من النصوص والآيات المقدسة تفرض في ملتزمهـا ، تعليما ابتدائيـــاً ومعرفة اللغة المكتوبة بها الكتب المنزلة والطقوس الليتورجـية ، وهي لغة أحسنها رهبان ايكوسيـا واتقنوا استعمالها ، وعرفوا ان يحافظوا على نقائهـا ، لا سيا وان لغة الأهلين الدارجة الاستعمال ، كانت ، بخلاف لغة المسيحيين في غاليا، مغايرة لها تماما، لا يخشون البتة من افسادها . والظاهر انهم لم يكونوا ليكترثوا كثيراً بالثقافـــة العلمانية او الدنيوية ،

لا سيما وقد لبست الحركة الدينية مسحة من الزهد المتزمت والتنسك المجافي لواقع الحياة . كما صوروا المغفرة وخلاص النفوس على اسس منفرّة ، لا تصلح ابداً ركيزة للتمدن والتحضر .

الا انه اخذ يظهر ، في الربع الثاني من القرن السادس ، صورة جديدة للحياة الرهبانية ، انتشرت في ايطاليا التي استباحتها الحروب والغزوات القوطية . فقد نشأ في مقاطعة نورسي الايطالية راهب هو الراهب بندكتوس ، من اسرة ثرية من سكان الريف ، أُتيح له ان يتلقى في روما ، قدراً ملحوظاً من الآداب اللاتينية . فقد وضع عام ٥٢٥ للرهبان الذين تحلقوا عليه والتفوا حوله ، في دير جبل كسّينو ، فرائض للحياة الرهبانية اتخذت قسطاساً لها الاعتدال . فقد رأى هذا المرشد الحكيم ان الاسرة الرهبانية التي يتولى رئاستها رئيس مسؤول ، يجب ان تبرز وكأنها مليشيا أو جمعية لها نظام فرقة عسكرية ، يقوم أفرادها معاً ، بالصلاة الواحدة المشتركة ، أولى وصايا الله الكبرى واسماها . وعلى اعضاء هذه الاسرة ان يوقعوا علناً وخطياً تعهداً كالتعهد الذي يقطعه رجال الحرب ، بان ينهجوا ، في حياتهم اليومية ، نهجاً سوياً ، متزناً ، ، يقسم يومياً ، بين العمل اليدوي دونما إرهاق مضنٍ للجسم أو تحرج ، تشبه ملابسهم ونظام عيشهم ، وطريقة إشغالهم الوقت وملء الفراغ ، نظام الجند العاملين في الريف، اذ ذاك. فالدير هو مكان عزلة وانقطاع عن حياة العالم ، ينعم ويتصرف باملاك واسعة ، تجعل ساكنيه ، ومن فيه ، بأمن من العوز والسؤل ، ومع ذلك ، منفتح للجميع بحيث لا يبعث في الناس النفور من النظام الذي يسير عليه ، ولا يجعل نمط العيش المتبع فيه ، الناس تجفل منه او ترغب عنه او تسخر به ، اذا ما عنّ لأحدهم اعتناقه والعمل به. ولم يدُر في خلد القديس بندكتوس قط ان يعهد الى الدير برسالة الكرازة والتبشير أو العمل على نشر الحياة الروحية والمسيحية . فالدير ، في نظره ، لم يكن سوى ملاذ منكفىء على نفسه ، منطو على ذاته ، في هذا العالم المضطرب الكثير الصخب والمنهار على نفسه . وكان من اختصاص البابوية المشعّة ، في أواخر القرن السادس ، ان تجعل الحياة الرهبانية ، كما وضعها القديس بندكتوس وقيدها بفرائض بيّنة ، صريحة ، تكوّن اداة طيبة لنشر المسيحية بين الناس .

منذ فتح يوستنيانوس لايطاليا، في القرن السادس، كان الكرسي الرسولي، في الامبراطورية البيزنطية، ابرشية محورية أو دائرية تخضع لرعاية الامبراطور الضيقة . وكان تأثير نفوذ البطاركة الشرقيين ، في الكنيسة اليونانية المتصاعد ، يهدد جدياً ، رئاسته الروحية واولويته . وكان البابا ، على عكس ذلك ، يحتل مركزاً مرموقاً في إيطاليا التي مزقتها غزوات البرابرة والحروب التي جرت فيها ، شر ممزق وارهقتها ، وتخلت الامبراطورية المهيضة الجناح ، والمنهوكة القوى ، عن مهمة الدفاع عنها . فقد أصبح البابا ، على إثر انهيار النظم والمؤسسات المدنية والادارية ، سيد روما ورئيسها غير المنازع . وكانت املاك السدة البطرسية ، وهي اغنى عقارات من نوعها ، في ايطاليا ، تدرّ عليه موارد طائلة . فاضطره هذا الوضع بالذات ليتولى بنفسه الدفاع عن روما ، لصد الهجمات المتتالية التي شنها عليها اللمبارديون ، كما انه رأى نفسه مسؤولاً عن تنظيم الأمن والسهر على استتبابه . واذ كان يمثل على احسن وجه الوطنية الرومانية

كانت سلطته هي السلطة الحقة التي يتوجب عليها الدفاع عن المصلحة الرومانية العامة . فـلا عجب ، والحالة هذه ، من ان ينظر اليه الحجّاج والرحالة البرابرة ، نظرتهم الى الممثل الحقيقي

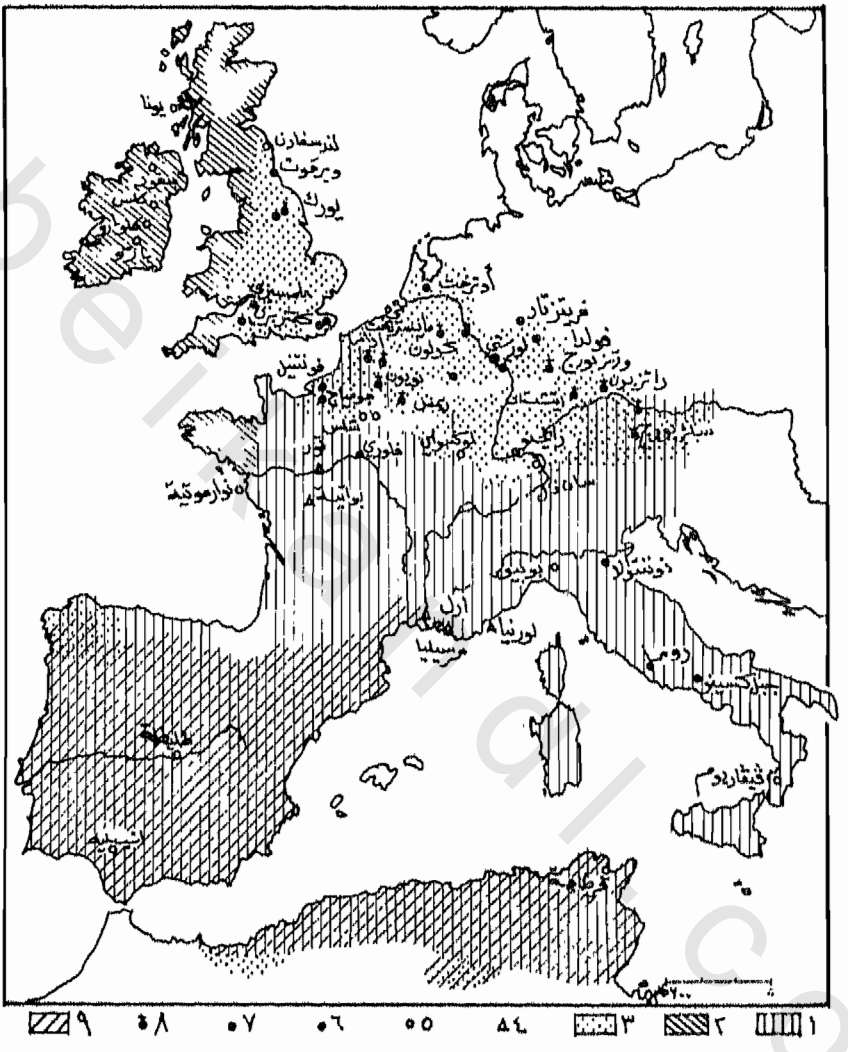

الشكل (رقم ١) ـ المسيحية اللاتينية في القرنين السادس والسابع

الوحيد لروما ولفكرة الامبراطورية التي بقيت عالقة في اذهان الناس وجمهرة السكان . وهـذا لعمري شيء طبيعي وتفكير في محله ، لبعدهم عن بيزنطية والعالم اليوناني ، اذ ذاك . وهذا الوضع المتحيز على هذا الشكل ، عرف الباب غريغوريوس الكبير ٥٩٠ – ٦٠٤ اعظم بابوات الاجيال الوسطى واشهرهم على الاطلاق ، ان يستغله وينتفع منه على الوجه الامثل ، لمصلحـة الكرسي

الرسولي . وهذا الروماني الذي كان يقرّ ويعترف متواضعاً ، بجهله اللغة اليونانية ، والذي كان اسس في دارته ، على هضبة التشيليوس *Coelius* نظاماً رهبانياً ، سار على وتيرة القانون الرهباني الذي وضعه القديس بندكتوس ، ادرك جيداً انه يتحتم على البابا ، ليصبح في مأمن من القيصرية البابوية البيزنطية وطوارئها ، ان يكون رأس الغرب البربري ، وراعيه . فالكتب التي وضعها وانتشرت بسرعة ساعدت على توطيد الكرسي الرسولي وإشاعة هيبته . فقد هيّأ وأعدّ اعتناق اللمبارديين للديانة المسيحية في ايطاليا ، وتبادل مع اساقفة غاليا واسبانيا ، عدداً من الرسائل التعليمية التنظيمية ، وراح يعمل على تشجيع الكرازة بالدين المسيحي ، بين الوثنيين في الغرب . فقد راودته بين ٥٨٦ – ٥٨٨ فكرة تبشير الانكلو سكسون بالمسيحية . وقد تم له ذلك ، عام ٥٩٦ ، عندما ارسل الى الجزيرة البريطانية ، عدداً من الرهبان البندكتيين برئاسة الراهب اوغسطينوس .

وكانت انكلترا السكسونية ما تزال على الوثنية والصنمية بعد ان حَنِق الرهبان الايكوسيون حنقاً شديداً على الغزاة . والبعثة الدينية التي جاءت برئاسة اوغسطينوس ، اسست لها ديراً في كنتوربري ، كان اول دير تؤسسه الرهبانية البندكتية خارج ايطاليا . فقد لقيت في بادىء امرها ، نجاحاً عظيماً بحيث شهدت تنصير معظم ملوك الدول السكسونية القائمة في انكترا ، اذ ذاك . وحدث على إثر ذلك ، ردة فعل وثنية اوشكت تؤدي بكل شيء وتذهب بالنجاحات التي حققتها البعثة الدينية ، هباءً منثوراً . واستؤنف العمل التبشيري الديني ، في البلاد ، على يد رهبان إرلنديين استقروا ، عام ٦٣٤ ، في لندسفارن بحيث رأت انكلترا نفسها ، التي أصبحت كلها مسيحية ، على نهجين في الحياة الرهبانية ، مختلفين متباينين ، هما نهج الرهبان الايكوسيين ، والنهج الروماني .

في خدمة البابوية ، وبعد تعرفهم على النهج الرهباني المتجول الارلندي ، تحول الرهبان البندكتيون ، الى مبشرين . الا انهم لم يكونوا ليكترثوا ، وهم بعد في اواسط القرن السابع ، لأمور الفكر والثقافة . ففي الكنيسة الغربية ، كان العهد الكلاسيكي ومن يمثله من الكتبة ورجال الفكر ، يقابل بالازدراء ، كما كان الناس يشعرون برهبة أو يتهيبون العناية والاهتمام بالآثار الفكرية الكلاسيكية التي لا تزال تحمل اجمل ما في الوثنية من غذاء ادبي . وقد راح عامل من الزهد والتحرج يجعلهم يستنكرون كثيراً هذه المتعة الفكرية التي توفرها قراءة آثارهم العلمانية الدنيوية . أفلَم يتعرض الاسقف ديزيه ، مطران فيينا ، للشجب الشديد والتنديد العنيف ، من قبل البابا غريغوريوس الكبير لانه راح يعلم اجرومية النحو والغراماطيق . وقد ظهرت ضد هذا الوضع الشاذ المتحرج ، اول ردة فعل ، في اواسط القرن السادس . فبعد موت ثيودوريق ، راح وزيره كسيودوروس يحاول ، بالاتفاق مع البابا اغابي ، فتح مدرسة لتعليم الآداب في روما ، تكون على شاكلة مدرسة نصيبين ، واخذ في تكوين مكتبة في روما وجمع نواة طيبة لها عندما سقطت روما بيد جيوش الامبراطور يوستنيانوس ، فقضي على المشروع وهو في المهد . وكان كسيودوروس

التجأ الى ساحل كلابريا وسكن دارة له جميلة للغاية في مدينة فيفاريوم، ودخل الدير بعد ان نهج الحياة الرهبانية . وهذا النهج الجديد الذي ارتضاه في حياته ولرفاقه كان نهج قوم من السراة ذوي ثقافة عالية ، تحرروا من المهام المادية وجمعوا حولهم طائفة من الكتب. اما عملهم الرئيسي فانصرف للاهتمام بامور الفكر والثقافة ، يقضون اوقاتهم بين استنساخ المخطوطات ومطالعة الكتب المقدسة . وخلافاً للتقاليد المتبعة من عهد إيرونيموس التي كانت تنتقص من قيم الثقافة الكلاسيكية ، رأى كسيودوروس انه لكي يتفهم الانسان الكتب المقدسة حق فهمها ، كان لا بد له من الاستعانة بالآداب الرفيعة . وراح ، في آخر ايامه ، يعد في هذا السبيل ، برنامجاً موحداً يجمع بين الدراسات الكتابية والعلوم الدنيوية ، وهو منهاج بسطه باستفاضة في الحلقتين اللتين يتألف منهما كتابه المعنون : « النظم » وبفضله كُتِبَ للمدرسة القديمة البقاء بعد ان كادت تفقد كل اثر لها وتضمحل ، لو لم تجد لها في الدير والحياة الرهبانية خير معوان لها وخير مسعف . غير ان المحيط لم يكن حليماً ولا مسعفاً . فالمحاولة جاءت في غير اوانها ، ولم تتخذ لها الظروف المهيئة ، كما ان الاهتمام بامور العقل والفكر لم يكن تملك بعد الاديار البندكتية.

وهذا الموقف يقفه الاكليروس من الثقافة الكلاسيكية تبدل تماماً ، بعد هذا ، بنحو قرن من الزمن ، وذلك بتأثير من رهبان مشارقة لجأوا الى ايطاليا وافريقيا . ففي البلاد اليونانية ، راحت المسيحية بعد ان رسخت أصولها وأعرقت في الارض ، تتمثل جانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، واخذ الناس يتذوقون التراث الادبي القديم. فزاد اقبال الناس على تلقف هذا الادب، في روما أولاً ثم في انكلترا التي تنصرت منذ عهد قريب . فالبعثة الرسولية الثانية التي عهد اليها، عام ٦٣٩ ،في استكمال تنظيم الكنيسة الانكلو سكسونية كانت تحت ادارة رجلين تشبّعا من الثقافة الشرقية العالية ، هما ثيودوروس الطرسوسي الذي قد يكون من خريجي مدارس اثينا ، وهدريانوس ، وهو رجل افريقي الاصل تخرج بالآداب اليونانية واللاتينية في قرطاجة البيزنطية . ففي الوقت الذي سربلا فيه الكنيسة الانكليزية بهذه المزايا ، منحاها تنظيماً أسقفياً شديد الأسر وشدّاها الى البابوية بروابط متينة وأدخلا على المدارس الابتدائية القائمة في الاديار، حيث كان المرتدون الى الدين المسيحي ، يتلقون مبادىء اللاتينية التي لا بد منها لتفهم الكتاب المقدس ، برنامجاً تعليمياً أقوى بكثير من البرنامج المعمول به ، الى ذلك الحين ، يضم على شاكلة البرنامج الذي سبق لكسيودوروس ان وضعه من قبل ، وكان يتوخى التعمق بأسرار اللغة اللاتينية وآدابها ، « ساكباً » ، كما جاء على لسان الطوباوي باد المحترم ، وهو أبرز من خلفهما وأشهرهم على الاطلاق: «على القلوب، العلم دِفاقاً» . فلم تعتم الديارات البندكتية الجديدة ، أمثال دير ويرماوث ويارو،ان اصبحت منائر للثقافة في تلك البلاد وراح مؤسسها بندكتوس بسكوب ينشىء فيها مكتبات ، اذ جاء روما زائراً ست مرات متوالية ، وكان يعود في كل مرة منها محملا بالمخطوطات، ولم يلبث ان قام في مدينة يورك، أكبر مركز للتعليم في المسيحية جمعاء. وتحت تأثير هذا الازدهار غير المتوقع على هذا الشكل الذي عرفته الثقافة الكتابية في ديارات ارلندا

وانكلترا الشرقية والغربية ، ظهرت عام ٧٠٠ ، في الجزيرة رسوم التحلية والتزاويق البديعة التي تزين روائع المخطوطات واعلاقها ، في هذه الحقبة ، منها مثلا كتاب مزامير دير كنتوربري الذي يحمل صوراً ورسوماً مستوحاة من نماذج قديمة جيء بها من ايطاليا ومن افريقيا ؛ ومنها ايضاً انجيل لندسفارن الذي استعار رسوماً حيوانية وأشكالاً زخرفية استعملت في مجوهرات بربرية بعد ان جرى تكبير حجمها .

وفي أواخر القرن السابع، في الوقت الذي أغرق الفتح العربي تحت سيله الجارف، الممتلكات البيزنطية في افريقيا وكادت أمواجه الطامية تهدد الفيزيغوط في اسبانيا، غادر مبشرون، الاديار الانكلو سكسونية ليقوموا بتأسيس ارساليات تبشيرية، في الاطراف الشرقية للمملكة الفرنجية حيث كان لا يزال يوجد بعد جماعات من المشركين . وهكذا أقاموا من جهة ، صلات وطيدة ، بين البابوية الرومانية وأقوى الدول من الوجهة السياسية اذ ذاك ، حيث كان لسدّة القصر أكبر شأن في مقاطعة أوسترازيا ، ومن جهة اخرى ، بين وجوه الثقافة اللاتينية الأكثر حيوية ونشاطاً ، هي الثقافة التي وطّد أركانها الطوباوي باد المحترم في البلاد وتعهدها تلاميذه من بعده ، وبين الفن الغالو – الروماني في منطقة باريس . وعن طريق هذه الاتصالات الرباعية الاطراف ، تمهد السبيل امام طلوع حضارة الاجيال الوسطى .

الفصل الثاني

انهيار العالم الروماني: الشرق

لا يتوهمنّ أحد ان الشرق ، في الحقبة الواقعة بين القرن الخامس والسابع ، اختلف عن الغرب كثيراً ، من حيث الوضع الاساسي . ففي الوقت الذي قامت في الغرب دول جرمانية حلت محل الامبراطورية الرومانية ، قامت في الشرق ، واستمرت قائمة حتى عام ١٤٥٣ ، دولة نعتت نفسها « رومانية » ، هي الامبراطورية « البيزنطية » باسم عاصمتها بيزنطية التي عُرفت في عهد قسطنطين الكبير باسم « القسطنطينية » . فلم يكن وضعها ، وهي على منتصف الطريق من الاجيال الوسطى ، ليختلف كثيراً عن الوضع الذي لابس سميّتها في الغرب ، بعد ان جدد شارلمان واوتون ، شبابها ونفخا فيها دماً جديداً . فالقطيعة جاءت اقل مفاجأة في الشرق منها في الغرب ، بينما سارت حركة التطور والتبدل لدى كليهما ، باتجاه واحد حتى في المراحل الاولى من هذا التطور .

الامبراطورية الرومانية الشرقية

تألفت هذه الامبراطورية من مقاطعات مختلفة كل الاختلاف . فشبه الجزيرة البلقانية ، باستثناء بلاد اليونان منها ، هي أقرب شبهاً الى الغرب الاوروبي ، من آسيا ، كما ان مصر تميزت ، هي الاخرى ، عن باقي أجزاء آسيا الرومانية ؛ اذ كثيراً ما يحلو لنا ان نطبق على كل أجزاء الامبراطورية الرومانية ، الصورة المغرية الجذابة ، التي ترسمها لها الوثائق التاريخية ولا سيما البرْديّات منها . صحيح ان هذه الاقاليم نعمت ببيروقراطية ونظام اداري ومالي افتقر الغرب الى أمثاله مع ما يستتبع من نتائج الا وهي كره الناس والسكان لشكل الدولة . فقد قام في الشرق والغرب على السواء ، اقطاعية عرفت بأملاكها وأقطانها الواسعة ، كاسرة آل ابيون في مصر ، بينما زالت طبقة الفلاحين الاحرار من الوجود او كادت ، اذ استحال قسم منها عبيداً او شبه عبيد علقوا بالارض وارتبطوا بها ولجا القسم الآخر بنفسه هرباً من فداحة الضرائب او من قسوة اسيادهم الى حيث استطاعوا سبيلا . أما في المدن والقرى فقد راحت الدولة تحجز كذلك على اوضاع الحياة الاجتماعية عن طريق إلزام الناس البقاء في المهنة التي ورثوها عن آبائهم ، والتمرس بالمسؤوليات العامة التي عهدت اليهم ، فأحصيت عليهم الانفاس في كل صناعة احترفوها او متجر فتحوه ؛ فاحتكرت الدولة صناعة

الاسلحة والمنسوجات الغالية الثمن، كما تسلمت بنفسها امور تموين المدن الكبيرة وتزويدها بوسائل العيش ، منها العاصمة القسطنطينية ، وذلـــك عن طريق المصادرة او الشراء بأبخس الاسعار . والجيش نفسه يتألف ، كما هو في الغرب ، من « برابرة » محترفين ، لم يلبث قواده ان استأثروا بالسلطة ، كما استأثر زملاؤهم بها ، في غاليا وايطاليا واسبانيا وافريقيا ، بينما يستقر رجالهم في أراضي الامبراطورية بشكل يشبه ، من وجوه كثيرة حتى « الضيافة » المعمول بـه في الغرب ، وضرورة محاربة الغزاة الطارئين وفقاً لأساليبهم المتبعة في فرقة الخيالة ، كل ذلك وما اليه، عقّد جداً تنظيم الجيش وطريقة تشكيله وجعلت تكاليفه باهظة مرهقة .

فما هي ، يا ترى، الاسباب التي جعلت الامبراطورية الشرقية تصمد بنجاح، للعوامل الهدامة التي هددتها ، فمكنتها ، أكثر مما مكنت الغرب ، من المقاومة والوقوف بوجهها ؟ لفترة قصيرة لعمري ، كما يجب ان نعلم ، اذ ان الولايات الاوروبية لم تلبث ان اكتسحتها في القرن السابع ، قبائل من « البربر » أكثر شراسة وضراوة من قبائل الجرمان ، كما ان معظم القسم الآسيوي والافريقي منها سيذهب فريسة غزاة جدد لم يكونوا في الحسبان . فقـــد أمكن تفادي شر موجات البرابرة الاولى عن طريق تحويلهم شطراً آخر ، او بادماجهم في الجيش ، في حال تعذر امتصاصهم وتمثلهم . فالسر يمكن رده ، والحالة هـــذه ، لسبب خارجي ، في بعض وجوهه . فالامبراطورية لم تتعرض لضغط ملموس إلا في اوروبا. فالولايات الآسيوية المعروفة بغنى مواردها بقيت سليمة ، تتعرض الفينة بعـــد الفينة ، لحروب يشنها عليها الفرس ، وهي حروب لم تتسم بالخطر الذي تمثل على أشده، في تغلغل البربر وانسرابهم في جميع ارجاء اوروبا ، اذ ان الاخطار التي كانت تهدد الدولة الساسانية من الشمال ، كانت تحول دون توغل جيوشها بعيداً ، داخـــل الامبراطورية، مع العلم ان هذه الحروب لم تكن لتهدف إلا للسيطرة سياسياً، على بعض الولايات الشرقية وليس الى ضمها واقتطاعها نهائياً . وهنالك سبب آخر يقوم أساساً في القوة الكامنة في قلب الامبراطورية الشرقية التي حالت دون اكتساح البرابرة لمدينـة القسطنطينية والاستئثار بالسلطة ، اذا ما حالفهم الحظ وعبروا مضايق البوسفور والدردنيل ، اذ كانوا يفضلون ، لدى سنوح الفرصة الملائمة ، التوطن في مقاطعات الغرب .

تفوق الشرق اقتصادياً واجتماعياً

وتفوق الشرق على الغرب كان يتمثـــل ، قبل كل شيء ، في التجارة والصناعة التي أدّت بدورها الى ازدهار المدن ، والى تكثيف عدد السكان في الريف . صحيح ان التجارة الدولية كانت تقتصر على بعض السلع الثمينة التي كانت تفي برغائب الطبقة الارستوقراطية ، فلا تأثـــير لها ، والحالة هذه ، على الجماهير والطبقات الشعبية ، بينما انحصرت حركة النقل في الداخل على محاصيل زراعية بالاكـثر ، ذات طابع اداري محض اكثر مما هو تجاري . وبالرغم من هذا ، فقد كانت لهذه الحركة التجارية اهمية كبرى ، كما كان لها تأثير كبير على الطبقة البورجوازية الغنية في المدن وبالتالي، على سكان المدن، اذ كانت تؤمن لهم أسباب العمل وأود العيش . فالحركة التجارية تتجه بالاكثر شطر آسيا : الهند

وحتى الصين . فقد فقدت هذه الحركة البساطة التي طبعت المعاملات المالية خلال الاجيال المنصرمة ، اذ كان التجار الرومان يبلغون بيسر المراكز والاسواق التجارية في الهند والصين . اما الآن ، وقد عرف الساسانيون ان يربطوا بقوافلهم البرية اقطار آسيا الوسطى بسواحل البحر المتوسط الشرقية ، وان يؤمنوا الاتصال بحرياً بالهند وموانئها بعد ان عزلوا البحر الاحمر لخير الخليج الفارسي ، فقد سيطروا تماماً واحتكروا حركة النقل فكان ذلك مورد ربح عظيم لهم كما سبب القلق والانزعاج للامبراطورية « الرومانية » . قد يتنطح البعض للقول فيزعمون ان الشرق المتوسطي ، كان بالنسبة لآسيا القصية النائية ، في وضع يشبه ، الى حد بعيد ، وضع الغرب بالنسبة لهذا الشرق الادنى ، يعاني مريراً كما كانت تعاني اوروبا ، من استنزاف الذهب . انه استنتاج لا يخلو لعمري من الغلو والشطط ، مع ان هنالك حوادث ثابتة لا تدحض لتسرب كميات من الذهب « الروماني » . فالصناعة التي عثر على بعض انتاجها في الصين ، كان باستطاعتها ان تؤمن التوازن ، مع انه لا يزال سراً من الاسرار كيف استطاع النقد البيزنطي ان يحافظ ، اجيالاً متطاولة ، على متانته وقوته على الشراء ، بحيث اصبح النقد الدولي المتعارف ، وهي متانة لا تأتلف ولا تنسجم البتة مع افتراض افتقار البلاد للنقد أو القول باختلال الميزان التجاري .

ولكن ما عسى ان تمثله ، في أعين تجار البحر المتوسط الشرقي ، هذه التجارة مع الغرب؟ فاذا ما انعمنا النظر ملياً في احوال الغرب ، في هذه الحقبة ، كان لا بد من الاعتراف ، بالدليل القاطع والحجة المؤيدة ، باستمرار هذه العلائق التجارية في قلب الدول « البربرية » وانحطاطها في آن واحد ، وذلك لقصور الغرب عن الشراء بعد ان ضمرت وسائله وضعفت ، وبعد ان قام اسطول الفندال باعمال القرصنة في البحر ، ولو بصورة موقتة . وقد يتغير الوضع تماماً اذا ما نظرنا اليه من الشرق. فقد استطاعت الحركة التجارية ان تحافظ على مستواها وعلى اهميتها ، بالرغم مما كان عليه الغرب من ضعف في اقتصادياته ، دون ان يعلق اهل الشرق كبير اهمية على هذا الوضع ، بالرغم مما اصطلحوا اجيالاً على تأمينه من الارباح الطائلة . والشيء الثابت الذي لا يوجهه الشك هو ان الامبراطورية الشرقية ، تمكنت ، منذ اواخر القرن الخامس ، ان تنشىء لها عمارة قوية ، وان تؤمن سيطرتها على البحر في الوقت الذي بدا لنا فيه انها في سبيل التخلي للبربر ، عن سلطتها على البر . وبفضل هذا الاسطول ، ستتمكن من استرجاع اقاليمها المغتصبة من قبل ، قانعة بالشواطىء البحرية ، بعد ان استرجعت افريقيا واسبانيا وشبه جزيرة ايطاليا ، مكتفية بما عليها من موانىء ومرافىء تنفذ منها الى الداخل دون ان تتوغل فيه كثيراً مع ذلك ، مما يؤمن لها أسباب الدفاع عنها ، نزولاً منها عند مقتضيات الدفاع . ومع ذلك من يستطيع ان يزعم ان حركة الاتجار مع اقطار « البرابرة » كانت اكثر صعوبة مع الولايات «الرومانية» فالمصنوعات البيزنطية كانت تصل ، حتى اواخر القرن السابع ، الاقطار الواقعة حول الدانوب أو في اوروبا الشرقية لتبلغ منها شواطىء البحر البلطيقي ، على يد زعماء وطنيين مقابل الفراء والرقيق

يردهم عن طريق القبائل او عن طريق مسلوبات الحرب أو كانت تجدد بهـا هبات واعطيات الديبلوماسية البيزنطية ، استدناءً لزعماء القبائل والشعوب البربرية . وليس مـا يثبت البتة أو يؤيد بشكل من الاشكال ، ان الاوساط التجـارية في القسطنطينية أو في سوريا دعت الى الحروب او حبذت قيامها بغية عرقلة الحركة التجارية ، أو طمعاً باسترجاع اراضٍ طالما تعرضت للغزو ، وتألمت مما وقع عليها من نهب وسلب ، وذلك طمعاً منهم في استثمار هـذه الحروب والاستفادة من الفتوحات الحربية . فاذا ما اتفق واعرض الامبراطور يوستنيانوس عن هـذه وضرب بها عرض الحائط وقام بعجلاته العسكرية المعروفة للسيطرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال والغرب والجنوب ، فنزولاً منه وامتثالاً لدوافع ونوازع مالية ، مُلحة ، لا ترحم. فكم من مرة تحكمت بالسياسة البيزنطية العليا، الرغبة الملحة بفرض رسوم وضرائب جديدة وتنظيم احتكارات جديدة ، وذلك بالرغم من معارضة كبار الملاكين وارباب الاعمال والتجارة الذين لم يكونوا ليساهموا كثيراً بهذه المنافع الحكومية . ولذا كان على الدولة ان تؤمن ، بجميع الوسائل ، مقتضيات الدفاع وما يحتاج اليـه من وسائل الاغراء ، لاصطناع الانصار ، وقطع الالسنة ، وإثارة البرابرة ، وتأليبهم بعضاً على بعض ، وتوفير اسباب البذخ للبلاط وحاشيته ، وتأمين أوَد الغوغاء في العاصمة ، وعدم تهييجها بشيء . وهكذا ، اذ عرف الشرق ان يضحي بمقاطعاته الدائرية في الغرب ويتخلى عنها للقبائل الجرمانية ، استطاع بمـا لديه من موارد ، ان يؤمن أسباب وجوده وان يستمر حيـاً ، وان يقوم بهجوم معاكس ، ويحقق في الداخـل الاصلاح المنشود .

والتعبير الاجتماعي عن الحركة الاقتصادية التجارية ظهر، على أتمه، في ازدهار المدن. فقد نشأ في الغرب من آسيا الصغرى، وسوريا وأعالي الجزيرة، في ما بين النهرين، مدن عظيمة، كانطاكية مثلاً ، وشيء آخر له مغزاه ومدلوله الواضح ، عدد كبير من المدن الوسطى والصغرى برزت كالفطر في هذه البقاع ، أوجبت على أولي الامر ، مسؤولية تأمين أسباب العيش لسكانها وأدت بالتالي الى انشاءات هندسية ، زراعيـة ، لاستثمار خيرات هذه الارضين كما يستدل من الحفريات الحديثة ، واستغلال سهول سوريا الداخلية . ومن المدن الكبرى الاخرى في هـذه المنطقة ، مدينة الاسكندرية التي خلافاً للمألوف من هذه المدائن ، قامت وازدهرت على سواحل بـلاد ظلّت ريفية في الصميم . ومن بينهـا ايضاً مدينة القسطنطينية العاصمة الاولى للامبراطورية ، ومرفأ جميل الموقع حصينه ، ملاذ البلقانيين يكنّون اليها هرباً من غزوات البرابرة ونجاة بأنفسهم من المخاطر التي تتهددهم باستمرار ، فاتسعت بذلك رقعتها وتضخم عدد السكان فيها متجاوزين المليون ، فارضة على أولياء الشأن مسؤوليات جساماً لتأمين أسباب المحافظة على النظام، والمواد الأولية لتموين السكان واعاشتهم وأسباب الدفاع التي أصبحت أكثر حرجاً . ولذا كنا نرى – وهذا من بعض سمات هذا العصر المميزة – الاسوار وأعمال التحصين تقام حول هذه المدن تزيدها منعة وقوة مقاومة ، ولا سيما في عهد الامبراطور يوستنيانوس . فجمال المباني العامة وأبهة

الصروح الخاصة تشهد عالياً على ما عرفت الامبراطورية ، اذ ذاك ، من نعمة سابغة وازدهار حتى ولو كان آنياً ، موقوتاً ، وغير مستقر ، ولو قامت على أنقاض من الخرائب . وكان أصحاب هذه العقارات يسكنون تلك المباني ، وان لم يكن دائماً في ممتلكاتهم العقارية . وقام حول المدن مباشرة ، طبقة بورجوازية متوسطة الغنى ، عدّلت من شأن اصحاب الاقطان الكبرى الأبعد الى الوراء . والملكية القروية الصغيرة نفسها ، بدت راسخة ، في بعض الاماكن ، وتساهم بدورها في تموين المدن الكبيرة . فالطبقة الصناعية نفسها في المدن تتوزع الى فئتين كبيرتين هما : الفئة الزرقاء والفئة الخضراء . ولقد لعبتا دوراً بارزاً في تنشيط الالعاب الرياضية ، عن طريق المباريات التي تنظمها من آن لآخر ، وهي ألعاب كانت من الحيوية والنشاط ما نسينا معه ان نتذكر بأنها كانت تؤلف جزءاً من الحرس الوطني المسؤول عن النظام العام ، كما كانت تؤلف شعبيات تجهل الكثير من دقائقها تنعكس عليها الحزبيات التي انتابت الطبقات الاجتماعية ، اذ ذاك . وعلى هذه الكيفية يمكن لنا ان ندرك جيداً ان الانتفاضات الشعبية التي كانت تؤول الى اسقاط الأباطرة كانت ، على الغالب ، ترتكز على احدى هذه الفئات . وقد يحدث أحياناً ان اكثر من واحد من هذه الاحزاب كان يشترك في التآمر على صاحب السلطان ، كما حدث ذلك تماماً في الفتنة التي أثارها نيكا على الامبراطور يوستنيانوس ، ولم يتمكن من اخمادها إلا بمذابح هائلة ، مريعة ، عهد بتنفيذها الى المرتزقة من جند « البرابرة » .

يوستنيانوس

اصطلح المؤرخون على ان يروا في عهد الامبراطور يوستنيانوس (٥٢٧ ـ ٥٦٥) العصر الذهبي للمدنية البيزنطية . وهذا خطل في الرأي ووهم لا سند له ولا دليل عليه ، يجب رده اصلاً ، الى الاثر الذي تركته فتوحاته الحربية ، والى غنى المباني التي شيّدها ، وما كانت عليه من فخامة وأبهة ، وطائفة محترمة من الأدباء والشعراء عمر بهم البلاط الامبراطوري . ومع ذلك ، فلم تحلُ هذه الاعتبارات كلها ، دون تحرج الوضع وتأزمه بحيث كاد يستحيل كارثة ، لما حف به من ضعف وأخطار . وعلينا ان نعترف هنا ، مع ذلك ، ان ما تم له من ارادة حازمة ، شابها لعمري ، شهوة جارفة للبذخ والاسراف ، مكّنته كثيراً من حشد القوى والطاقات التي كانت له خير معوان على انجاز المآتي التي تمت على عهده وأقامت له الشهرة العالية التي يتمتع بها وحفظها له التاريخ .

كان عليه قبل كل شيء ، ان يقبض بيد من حديد ، على أداة الحكم والادارة ويهيمن على المجتمع . لنلمّ الآن الفشل الذريع الذي آل اليه . باشر حكمه بتوسيع محاولة بُدىء بها من قرن ماض ، تتمثل بالقانون الثيودوسي ، وهي موسوعة قانونية ضمّت ما يمكن الانتفاع به من التشريع الروماني ، على ضوء التطور الذي لحق بالاخلاق والعادات ، وانتصار المسيحية النهائي وفوزها المبين . فالقانون اليوستنياني هو المعين الذي استقت منه كل الشعوب اللاتينية شرائعها وقوانينها . فهو الاثر الخالد الذي يعتمده المؤرخون والفقهاء في تصويرهم ملامح التاريخ القديم . ويجد هذا القانون تكملته في المجموعة المعروفة بـ *Digeste* ، وهي مجموعة أضيفت اليه فيما

بعد ، وهيمن على وضعها الروح الذي سيطر على من قاموا بجمع الموسوعة الاولى ، تتألف من اجتهادات رجال القانون ونظرياتهم الفقهية .

ومنذ ذلك الحين اكتسبت الدولة البيزنطية بعض السمات التي لازمتها ، وهي سمات كانت ، والحق يقال ، نتيجة حركة تطورية طلعت مع عهد قسطنطين ، تبدو ، قبل كل شيء ، في دمج الكنيسة بالدولة . فقـــد أظهرت الكنيسة ، في الغرب ، العداء ، للملوك والامراء الجرمانيين لضلوعهم بالهرطقة الآريوسية ، وانتقصت من شأنهم لما كانوا عليه من وضاعة الثقافة ، ومسكنة في الحضارة وعجز في الادارة ، ولذا نفرت من وصايتهم ولم ترضَ منهم بأي رعـــاية . اما في الشرق ، فالدولة هي تجسيم لارادة الحكومة ، قسطاسها الدين حيث تنعم الكنيسة برعاية الدولة التي لا تقل عن الكنيسة نفسها ، مسيحية" . وهذه الكنيسة ، تلقت من أبنائها المؤمنين ومـن الدولة نفسها ما أفاء عليها الغنى والسلطان . فبطاركتها ، ولا سيما بطريرك القسطنطينية بينهم ، هم اقطاب جذب ووزن . انما الكلمة الاخيرة للامبراطور ، حتى في ما هو من امور الدين ، مهما كان رأي البابا القابع بعيداً ، في روما . وفي هذا يقوم ما اصطلحوا على تسميته بالقيصرية البابوية .

فالامبراطور او الفاسيلفس هو السيد السند المطلق ، من أي اصل نشأ ، وأيا تكون السلطة العسكرية التي افترعته ، والسلطان الذي آل اليه على الأكثر ، غلاباً واقتداراً . يعزله عن عامة الشعب وحتى عن رجال حاشيته ما نشهد له من غنى لا يتصوره عقـل ، ومراسم يجب التقيد بها والعمل بموجبها في قصر أشبه ما يكون بمدينـة مقفلة على نفسها تشبهاً ، من بعض الوجوه ، بالتقاليد التي سارت عليها هذه الاسر الملكية الشرقية ، والتي جاءت وفقاً لحركة تطورية داخلية . وقد خشي بعضهم في مطلع القرن الخامس ان يزهد الفاسيلفس بالحكم فيتخلى عن أزمّته ، كما حدث في الغرب . فها هو يصبح في نهاية القرن ، ويبقى ابداً : القائد الاعلى الذي يرئس الجيوش ، ورئيساً يدير كل شيء ويشرف على كل شيء . وقـد احتشد في معيته رهط كبير من المساعدين عمرت بهم مكاتب الحكومة المركزية ودواوينها ، او تولوا قيادة الجيوش في الولايات ، كما يشرف على المصالح العامة موظفون كبار ، لهم مكانتهم الشخصية . ومع ذلك ليس هنالـك من ارادة واعية منظمة تؤمن التعاون بين هذا الشتيت مـن الدوائر والدواوين ، غير ارادة الفاسيلفس والكل مصيره اليه وحده ، في نظام مسلسل من الالقاب والرتب ، بعضها شرفي محض يشير الى وضع خاص في المجتمع ، والبعض الآخر يتبلور في وظائف وصلاحيات فعلية واقعية . وكل هؤلاء الموظفين علمانيون ، سيصبحون تدريجياً ، مع الزمن موظفين في الدولة يتقاضون منها المرتبات والاجور ، بعد ان استبدلوا بهم الحكام المحليين الذين يحاولون دوماً التهرب من الاعمال الشاقة . وهكذا نرى ان المركزية في أبان ذروتها .

وتتمثل لنا نزعة يوستنيانوس الى الابهة والعظمة في هذه العبائر التي شيدها وتأخذ الالباب بعظمتها ، راميا منها الى تمجيد الله عز وجل واعلاء شأن الامبراطور . والمهم في هذا كله ان اطلّ من هذه الرغبة التي نزلت من الشعب منزلة التقدير والرضى فتبناها ، اثر فني جديد هو من

اروع واوقع ما عرفت البشرية من امثاله ، ممثلا بكنيسة الحكمة أو آجيا صوفيا التي يغرق اليوم في ظلالها الظليلة الوارفة ، هـــذا الجي من استانبول الواقع الى الغرب من مدخل القرن الذهبي ، مع ان ليس في مظهرها الخارجي من روعة الجمال ما يصدم الرائي أو يصدعه . ولكن ما ان يدخل المرء الى صحن الكنيسة حتى يدهش لضخامـــة المبنى ولفن ما تقع عليه العين من الرخام المتعدد الألوان ، ومن هذا البذخ في الزخرف الذي لا تشوبه شائبة ، وارتفاع قبته التي تملأ القلب روعة ورهبة من هذه الجرأة التي راودت المهندسين اللذين أشرفا على هندسة هذه الكنيسة ، هما ايزيدوروس الميلي وانثيميوس الترالي . فكان عملهما الفني هذا ملهماً بعد ألف سنة للمهندسين الاتراك العثمانيـــين والروس من بعدهم . فالمآسي البشرية التي توالت فيما بعد ، لم تترك شيئاً يستحق الذكر او التنويه به من هـــذه الكنائس الاخرى ، التي زانت العاصمة بهندستها المتنوعة ، اذ كان بعضها يرسم لنا بازيليكا مستطيلة الشكل ، كما يرسم البعض الآخر شكل صليب يوناني . ففي مدينة رافينا ، احدى مدن ايطاليا الشمالية الغربية التي أعيد فتحها من جديـــد ، يستطيع المرء ان يتذوق أجمـــل الفسيفساء وأحفظها التي تخلّد صورة الامبراطور وزوجته الامبراطورة ثيودورا يحيط بهما كبار الموظفين . صحيح ان فن الحفر والنقش كان اذ ذاك ، في ابان انحطاطه ، غير ان فن الزركشة وتزيين المباني لم يبلغ يوماً من الدقة ما بلغه اذ ذاك . فالمرء لا يزال يتذوق النقوش الفنية الجميلة التي أودعها الفنانون البيزنطيون الخشب والعاج . ولا تقـل عنها جمالاً هذه الملسوجات المشرقية المتداخلة الالوان ، الشرقية الطراز ، والتزاويق البديعة التي كانت تحلّي المخطوطات . وهذا الذي يبدو لنا اليوم على شيء من الجمود في الايكونوغرافيا ، قد يكون سببه الانحطاط الفني ، انما يجب رده بالاكثر الى نظرية أسمى في رسالة الفن .

فالفن « البيزنطي » مدين لعوامل اخرى غير يونانية ، تتصل بسوريا وارمينيا . وهو أعجز من ان يلخّص او يمثل كل فنون الشرق الادنى . علينا مع ذلك ان نتجنّب المغالاة لئلا نقع في الجهة المعاكسة التي وقع فيها بعض من كشفوا عن هذه الفنون . فباستطاعة عاصمة امبراطورية كبرى وحدها ان تفرغ مثل هذا العدد العديد من المؤثرات المتباينة في بوتقة واحدة . وفي مقدور دولة كبيرة قوية ان تبني وحدها كنيسة على مثال كنيسة آجيا صوفيا . وهـــذا الفن البيزنطي لم يقتصر في اشعاعه على الذين أسهموا في العثور على الاكتشافات التي حققوها وعلى من جاء بعدهم . فمن قبل يوستنيانوس ، استقدم أسياد رافينا وحكامها ، من بيزنطية ، مَهَرة الصناع الذين نقف اليوم مشدوهين امام انجازاتهم الفنية . وعلى بيزنطية عولت القرون العليا من تاريخ الاجيـــال الوسطى في استلهام أسرار الفن واستيحائه .

وقد نهجت الآداب البيزنطية ، هي الاخرى ، النهج الذي ارتضته لهـــا مسلكاً ، وبقيت محافظة عليه ، ممسكة به . فالايحاء الفلسفي والعلمي ضاقت منه الانفاس ، لعمري ، مع انـــه بقي محافظاً على تقاليده التي اعتمدتها مدرسة الاسكندرية ومن ثمّ « الجامعة » الجديدة الـــتي تأسست في القسطنطينية . وفي المقابل ، ازدهر علم التاريخ الذي وجد مادة جديدة له في الامجاد

العالية التي حققتها المدنية البيزنطية ، وفي هذه الحروب التي نهضت بهـا . في طليعتهم المؤرخ بروكوبوس (+ ٥٦٢) الذي انتقد الامبراطور يوستنيانوس بعد ان كال له المدح والثناء، وذلك في كتبه المتعددة : « حروب الفرس » و « الفندال » ، و « الاوستروغوط » وكتابـه الآخر : « رسالة في المباني» وفي كتابه: « التاريخ الخفي » (الذي اقل ما يقال فيه انه يزرع الشكوك). فمع مـا يتصف به من صغائر الخلق ، فهو شديد الملاحظة ، كاتب مجيد ، زودنا بمعلومات من الطبقة الاولى حول عهده. وقـد عاصر بروكوبوس جمهرة من المؤرخين من علمانيين وكنسيين ، بعضهم من اصـل شرقي . ومن الشرق خرج ايضاً هؤلاء الفقهاء الذين عاونوا الامبراطور يوستنيانوس في موسوعته القانونية وفي *Digeste* . كل هذا وما اليه ، ادب يتجه بالطبع ، من الارستقراطية وقـد افسحت الديانة الجديدة المجال ، في هذا التعاون الذي قام بين المؤمنين ورجال الاكليروس ، لظهور شعر ديني ، مقفى ، طلع له اول من طلـع رومانوس ، وعلى شعره ومدائحه تغذت تقوى الشعب اليوناني طيلة اجيال متطاولة .

المطالبة والنزعات الاخلاقية

هذه المدنية التي كان محورها على البوسفور ، راحت تعلل نفسها مع ذلك بانها « رومانية » . فالفكرة التي تجسمها روما وتمثلها قيمـاً تسمو بكثير فوق هذه الصور الزائلة التي تبلورت على شاشة المجتمع ، عاشت طويلا بعد انهيار الوحدة الرومانية وزوالها . ومن ثم ، فالاعتقاد الوطيد بان تراث روما القديمـة انتقل الى القسطنطينية ، روما الجديدة ، جعلها رأس العالم المتمدين الاوحد . وهذا الايمان لم يأت يومـاً اقوى وأرسخ تشد عليه الدولة بالنواجذ، الا عندما ترى نفسها مرغمة للتخلي عن احدى مقاطعاتها للبرابرة . فلم يكن اقوى من هـذه العاطفة يجيش بها قلب يوستنيانوس ، هذا اللاتيني الايلليري الاصـل والمحتد فتحمله على القيام بسلسلة من الحروب لاسترجـاع الولايات المنفصلة ، فتسول له نفسه بتحقيق هذا الحلم المعسول . ومع ذلك فقد ادارت بيزنطية ظهرهـا لروما، وعندما سقطت ولاية الإلليريكوم بيد البرابرة واستباحوا باحتها ، لم يكن احد من رعايا الامبراطورية ، باستثناء سكان ايطاليا ، يعبر عن افكاره وخواطره باللاتينية . ولم يكن من أدب معروف رائج الا الآداب اليونانية والآداب الشرقية . ويوستنيانوس نفسه الذي عمـل على جمع النصوص القانونية والتشريعية الخاصة بالحق الروماني ، باللاتينية، اضطر ان يصدر باليونانية القوانين التشريعية التي اصدرها فيما بعد ، وتسمى عندهم بـ ، *Novelles* . فالانحطـاط الذي أصاب في الغرب ، منذ القرن الثالث ، الطبقة الارستوقراطية نصف المتهلينة ، قضى تماماً على كل انتشار للثقافة الاغريقية، فليس من الغرابة بشيء ان تتسع الهوة في الممالك البربرية كما سنتبين ذلك عما قريب : فلم يعد الشرق والغرب يتفاهمان .

وهذه الوحدة البديعة المنظر التي كانت تبدو على الشرق في الظاهر ، اخـذت هي الاخرى بالتصدع شيئاً فشيئاً بعد المشاكل الاجتماعية والقومية التي تحالفت عليه ، فمزقتهـا كل ممزق . وهذه الدولة « الرومانية » التي عجزت الفينة بعد الفينة ، عن تأمين حماية مقاطعاتها الشرقيـة والدفاع عنها ضد تعديات اعدائها الاقوياء ورد كيدهم الى نحورهم ، والتحوط للأزمات الاخرى

التي اشتدت فيهـــا جباية الضرائب ، وغير ذلك من الاسباب كالمركزية الادارية والدينية ، كل ذلك وما اليه ، قوّى النزعات القومية . وقد اخذت الشعوب الآسيوية ومصر على الاخص تعي ، أكثر فأكثر ، الدور العظيم الذي لعبته في اقتصاديات الامبراطورية الرومانية وترسيخ حضارتها ، وهو دور زاد خطره وشأنه بعد سقوط الامبراطورية الغربية . ومن جهـة اخرى ، فقد كان لهذا اللقاء التدريجي الذي تم بين الارستوقراطيـــة القيّمة على التراث الهليني وبين المسيحية المتغلغلة بين الطبقات الشعبية الواسعة التي لم تفقد الشعور بقوميتها ، ان زاد في ازدهار الحضارات الوطنية التي غشتها مسحة دقيقة من الطلاء اليوناني . ولذا ، فقـــد بدت الدولة البيزنطية والنظام السياسي الذي انشأته بعيداً عن محور سوريا ومصر ، وكأنها سيطرة اجنبية دخيلة على البلاد ، ليس ما يبررها ، والانتظار البَرِم الطويل الذي اضطرت إلى الاعتصام بـه عناصر قومية متعددة كالاقباط والساميين والارمن ، اخـــذ يفت من عضـد الدولة ويخلخل وحدتها . فما ان جاء الاسلام وظهرت موجاته الاولى حتى راح يستثمر بنجاح ، هـــذا الوضع المـلائم .

المشاجرات الدينية والشقاق المذهبي

وهذا التفسخ بدا على اشده في هذه المشاجرات الدينية التي ادى اليها اختلاف العقيدة وتباين تعاليم بعض الشيع والهرطقات التي شجرت بين المسيحيين . ويصعب على المؤرخ تصور مـــا بلغته هذه المشاقات من العنف والبغضاء حول القضايا اللاهوتية ومـا اثارته من الشقاق بين الطوائف الكثيرة التي طلعت في الاجيال الثلاثة الاولى للمسيحية . قد يكون في اهمية الادب الكنسي ما يطبع بالغلو هـــذه الحدة . ومع ذلك ، فالروح الدينية الشرقية تسيطر عليها ، اكثر مما تسيطر على الروح الدينية الغربية التي تهتم ، قبل كل شيء بمشكلة سلوك الانسان ، النظرية القائلة بان الخلاص يقوم ، قبل كل شيء ، في تفهم النظـــام الالهي بحيث يفنى فيه الانسان بصورة سلبية او يتدبر امره معه بصورة تكاد تقارب السحر . ولم يعتم ان اصبح واضحاً بان وراء علماء اللاهوت ، الجماهير التي كانت تخضع لمؤثرات اجتماعية وقومية اكثر من خضوعها لمؤثرات دينية صرفة . ومع ذلك يبدو من اللازم ان نعرض هنا بايجاز ، القضايا الدينية التي ادت الى مثل هذا الوضع الحرج ، اذ انها كانت بالفعل سبباً مباشراً لهذه الانفصالات التي لا يزال بعضها قائماً لليوم .

فالاختلاف الجوهري يقوم اصلاً على الصعيد الديني ، ويتناول وجود طبيعتين في السيد المسيح : الطبيعة البشرية والطبيعة الالهية . ففي نظر البعض الذين كان يهمهم في الدرجة الاولى ، المحافظة على الوحدة الالهية او الجانب الالهي في شخصية المسيح ، فظهور السيد المسيح بلحمه ودمه ، وآلامه وصلبه ، لم يكن الا تشبيهاً . وبهذا قال اتبـاع الطبيعة الواحدة . اما خصومهم ، فقد رأوا في هذه كلهـا حقائق مطلقة ووقائع لا يواجهها الشك ، تختلف عن الطبيعة الالهية بحيث ان الآلام التي تحملتها احداها لا تمس كمال الثانية بشيء . وصاحب هذه المقالة هو نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية في القرن الخامس ، ولذا عُرِف اتبـــاعه بالنساطرة او النسطوريين .

والحقيقة ان كلا التعليمين ، في جعلهما الله بمعزل عن الألم عرضا عمل الفداء للخطر . بحيث ان ما اصبح فيما بعد الارثوذكسية اليونانية ـ الرومانية كان قوامه القول باتحاد الطبيعتين، وهذا امر عظيم لا ينفذ اليه عقل الانسان . فبعد ان حال النفوذ القوي لاصحاب العقيدة المونوفيزية في القرن الخامس ، دون انطلاق العقيدة النسطورية ، استطاع النساطرة ان يجدوا لهم منطلقاً واسعاً في الدولة الساسانية . وانتشرت مقالة القائلين بالطبيعة الواحدة بين الساميين ، بعد ان رأوا في هذه العقيدة استمراراً للتقاليد والتعاليم بوحدانية الله كما انتشرت كذلك بين الاقباط ، وبين الارمن ايضاً ، على شيء من التخفف والتسامح . اما « الارثوذكسية » فاحتفظت باليونان الى جانب روما ، والعالم اللاتيني ، واخذ اصحاب الطبيعة الواحدة ، ينظرون اليها نظرهم إلى ديانة اسياد البلاد الغرباء اصلاً عنها . وقد تبنى بطاركة انطاكية والاسكندرية ، ولا سيما كيرلس الاسكندري ، في القرن الخامس ، مقالة المونوفيزية.ووقفوا الى جانبها ، نكاية بزميلهم بطريرك القسطنطينية، للمركز السامي الذي كان ينعم به لدى السلطة العليا . وقد مضوا في موقفهم هذا بعد الذي نالوه من تأييد الشعب لهم ومؤازرة الرهبان لهذا الموقف المتشدد .

عرف الشرق قبل الغرب بكثير ، الحياة الرهبانية التي ازدهرت فيه وازهرت على اشكال وألوان مختلفة ، على السواء ان في اليونان أو عند الارمن والاقباط . وكانت الحياة الرهبانية تعتمد قاعدة لها القوانين التي وضعها القديس باسيليوس فاتخذها الرهبان دستوراً لهم ، سواء انقطعوا للحياة النسكية التقشفية أو لحياة التأمل والذوبان في الله . فبعضهم عاش حياة مشتركة بين جمهورهم كرهبان دير القديس سابا الذي انشيء في القرن الخامس ، على مقربة من القدس ، اما البعض الآخر فقد ارتضى لنفسه حياة نسك وتوحد فانعزلوا عن الناس وانقطعوا للتأمل ، شأن رهبان القديس سمعان العمودي ، الذين كانوا على شاكلة معلمهم ومرشدهم ، يقضون حياتهم في التأملات وهم قابعون على رأس عمود لا يفارقونه ليلاً أو نهاراً ، ولا صيفاً أو شتاءً ،متهجعين لله في شبه الخطاف مهما بلغ من حمّارة القيظ او زمهرير البرد . وقد أحاطت برجال الله هؤلاء هالة من القداسة والتقديس حلت في قلوب الشعب ، فتكاثر عددهم ونما بحيث بلغوا عدة آلاف في منطقة واحدة ، مما حدا بالكثيرين الى الكفر بالعالم ، والالتحاق بهم ، معرضين طوعاً واختياراً ، عن ملذات هذه الفانية وبهارج الحياة. فقد كانت حياتهم كما كانت اقوالهم وتعاليمهم شجباً للشر وسوء السلوك والغنى والسلطة . واذ كانوا يفتقرون الى سلطة اسقفية حازمة ، فكثيراً ما كانوا اداة طيعة لاثارة الفتنة اذ كانوا غالباً وراء كل سَجَس او انتفاضة شعبية تقوم بها الجماهير بمناسبة المشاجرات اللاهوتية وما تجر اليه من اعمال العنف . وكانت هذه الخصومات الدينية سبب تنغّص الحياة في جميع اطراف الامبراطورية البيزنطية وتسمم العلاقات بين مختلف طبقات الشعب ، جالبة على البلاد جمعاء ادهى المخاطر ، طيلة قرنين كاملين ، حتى اذا ما جاء الفتح العربي قضى على اسباب الفتنة الكامنة تحت الرماد ، بعد ان سلخ عن السيطرة البيزنطية الولايات التي كان معظم سكانها من المشاقة ، فوضعهم بمأمن من طغيان الكنيسة اليونانية .

ويمكن إيجاز المراحل الحاسمة في هذه الحقبة على الوجه التالي ففي عام ٤٣١ انعقد مجمع أفسس وحرّم الهرطقة النسطورية ، فراح اتباعها يلجأون الى الدولة الساسانية . وفي سنة ٤٥١ ، انعقد مجمع خلقيدونيا ورذّل هرطقة القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح . ومع ذلك بقيت مقالتهم تلعب دوراً بارزاً في سوريا ومصر ، وكان تأثيرها بالغاً على الاوساط الحاكمة حتى في القسطنطينية . وتردد الاباطرة في اتخاذ سياسة ترمي الى تهدئة اصحاب البدعة المونوفيزية واشاعة السلام في طول البلاد وعرضها ، وذلك عن طريق تنازلات وامتيازات خاصة . وقد فشلت هذه السياسة ولم تأتِ اكلها المرتجى كما انها خلقت للدولة صعوبات مع روما نفسها ، تلتها محاولة اتحاد بين الكنيستين ، كما ادت من جهة ثانية الى اعتماد سياسة البطش والقسوة ضد اتباع الهرطقة المونوفيزية . وقد اصلام الامبراطور يوستنيانوس حرباً حامية اصاب رذاذها جميع الطوائف والبيَع المشاقة وجميع الخارجين على الارثوذكسية : كالآريوسيين والمشركين ، والقائلين بالمانوية واليهود على السواء . وراح اتباع المونوفيزية من جهتهم ، ينظمون جبهتهم وصفوفهم بصورة نهائية عن طريق إنشاء كنائس مستقلة لهم : كالكنيسة القبطية والنسطورية واليعقوبية ، نسبة الى مؤسسها يعقوب البرادعي ومن ثم ارمينيه ، لكل منها ليتورجيتها الخاصة بلغتها القومية واساقفتها . وهكذا اصبح لكل من هذه القوميات كنيستها « الوطنية » الخاصة بها .

وعبثاً حاول الامبراطور هرقل ، في القرن السابع ، وهو يواجه ادهى الاخطار والغزوات من قِبل الفرس والآفار والعرب ، إيجاد مجال لاحلال التفاهم والسلام ، عن طريق صيغ عقائدية جديدة . وهذه المحاولات تصدر عن الامبراطور انما تلبثق عمّا يعتقد من حقه بالتشريع في ما يختص بالايمان . وانتهى به الامر الى تحريم الحديث عن طبيعة أو طبيعتين في السيد المسيح ، محاولاً الترويج للقول بمشيئة واحدة فقط (هرطقة القائلين بمشيئة واحدة في السيد المسيح *Monothélisme*) دون ان يتمكّن من اقناع احد على القول بمقالته هذه . وكان من نتيجة هذه المحاولة ان ادت في عهد خلفه الامبراطور قنسطان الثاني ، الى اثارة ازمة حادة مع البابوية كان من بعض نتائجها ان اثار ضده رعاياه اليونان في ايطاليا بزعامة الراهب مكسيموس المعترف . وما عتم ان جاء الفتح العربي يسلخ عن بيزنطية رعاياها في الشرق ، فتؤول هرطقة المشيئة الواحدة في السيد المسيح الى هزيمة نكراء وفشل ذريع اضطرت معه الحكومة الامبراطورية ، في النصف الثاني من القرن السابع ، للتراجع والتنكر لهذه العقيدة .

المدنيات القومية

وفي وسط هذا المصطرع العنيف اخذت حضارات جديدة تنظم نفسها على أساس من الثقافات القومية كالسريانية والقبطية والارمنية والكرجية والمصرية ، وهي ثقافات معظمها نقول وترجمات واقتباسات عن اليونانية امتزجت بتراث قومي ساعدت شعوب الشرق الادنى على ترسيخ دعائم استقلالها الروحي والكلسي . ولم تلبث ارمينيا التي وقع معظمها تحت نفوذ الساسانيين ان ألّفت جزءاً من اصل هذه المجموعة من القوميات ذات

الثقافة المسيحية في آسيا الغربية فقد أدّت مساعي رئيسها الديني ساهاك والكاهن مسروب ، في القرن الخامس ، الى تزويد لغة البلاد بأبجدية خاصة بها ، ساعدت على تكوين أدب قومي ارمني، هو ، في الغالب ، ادب ديني مسيحي ، منقول ، والى وضع عدد من كتب التاريخ تخلّد ذكر الامجاد الوطنية . ولعل أشهر هؤلاء الكتاب هرموس خورين الذي تجعله تقاليدهم من رجال القرن الخامس، بينما يُرَجِّح انه عاش حوالي ٧٠٠ ، والى جانب ارمينيا قامت بلاد الكرج التي، مع بقائها على الارثوذكسية ، تأثرت كثيراً بالنفوذ الارمني واليوناني على السواء .

اما الادب القبطي ، ومعظمه ديني ، فهو قليل الشأن . والادب الحبشي الذي اشتق من الادب القبطي ، لا يزال اذ ذاك في القمط . وأهم من هذه الآداب بكثير ، الادب السرياني . فالعلوم الدينية تؤلف منه السواد الاعظم ، وهو على جانب كبير من التنوع : كاللاهوت والحق القانوني الكنسي ،والليتورجيا والادب الروحي، ولا عجب في ذلك اذ ان معظمه ادب رهباني. وينقسم الادب السرياني الى قسمين تجمع بينهما حدود سياسية واحدة : الادب الغربي والشرقي ، وذلك نسبة الى مواطن الشعب الذي كان يزاوله . فالادب السرياني الغربي ازدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة ، ومركزهم العلمي هو الرها ومدرستها اللاهوتية المشهورة التي أنشئت في أواسط القرن الثالث . اما الادب الشرقي فتألف من أتباع الكنيسة النسطورية ، ومراكز العلم عندهم نصيبين من مدن الجزيرة في سوريا ، وجنديسابور ، في العراق ، وكلاهما يقعان ضمن نفوذ الدولة الساسانية . والذي يهم المؤرخ بنوع خاص هو الكتب التاريخية التي وضعها اصحاب الطبيعة الواحدة (يشوع العمودي ويوحنا الافسسي ، المتوفى سنة ٥٨٧) وهي مؤلفات يشهد لها بالجودة والبراعة اللغوية . والجدير بالذكر هنا التنويه عالياً بحركة الترجمة والنقل التي نشطت عند السريان ولا سيما النساطرة منهم ، اذ تم على يدهم نقل معظم الروائع الفكرية الفلسفية التي وضعها اليونان . وعن طريق هذه الترجمات وصل الى الاسلام، وعنهم الى اوروبا الغربية، معظم التراث الفكري الهليني وفي مقدمتهم آثار ارسطو والافلاطونية الجديدة ، وبطليموس وهيبوقراتيس وجالينوس . وقد اشتهرت جنديسابور بمدرستها الطبية وبيمارستانها ، كما اهتمت بالهندسة (إقليدس) وبالكيمياء . وقد تكاثرت في هذا العهد، الكتب المنحولة مما خلق مشكلة امام الاجيال الطالعة في التمييز بين الاصيل منها والمدخول . غير اننا لا نرى في هذا الادب ، باستثناء الادب المسيحي منه ،محلاً للتاريخ القديم ولا للادب اليوناني الدنيوي،ولا بالاحرى للادب اللاتيني باستثناء « رواية الاسكندر » . وقد أدى السريان ، في هذا المجال ، خدمة عظيمة للعالم بعد الذي عُرف من اعراض الغرب المسيحي حتى وبيزنطية عن كل ما ينضح بالوثنية ، وازدرائها له .

كذلك وقع على الحدود الفاصلة بين بيزنطية والدولة الساسانية ، اليهود الذين ، بالرغم مما تعرضوا له من اضطهادات وتشريد، عرفت آدابهم، في هذه الحقبة التاريخية فترة من الازدهار. يرئس الطائفة ، في المنفى ، زعيم روحي ، مسؤول في نظر أولياء الامر وممثلي السلطة العليا ،

عن امور طائفته ، كالبطاركة انفسهم . ولما زهدوا في كل مطمع سياسي كان أكابر القوم في هذه الملة ، هم العلماء الذين كانوا ينصرفون لدرس الكتب المقدسة والشريعة الموسوية، الذين ألفوا طبقة الربانية يتقدمهم المعلم الاكبر المسمى : غاوون . وقد كانوا يتحسسون ، منذ عهد قديم ، بضرورة جمع الاجتهادات الدينية والاحكام والسنن الفقهية المتعلقة بالعقيدة او المنظمة لشؤون الحياة . وقد ابتدأت حركة التجميع هذه ، في القدس ، منذ القرن الثاني ، وانتهى العمل منه في المدارس المشهورة: سورا وبومبديتا الواقعة على مقربة من مدينة طيسفون، في القرن الخامس فتألف من ذلك ، التلمود المعروف بالتلمود البابلي . وهو يتألف من مجموعة ضخمة من النصوص والاحكام والاجتهادات التي تنتظم التقاليد اليهودية ، بعد ان انكمش هذا الشعب على نفسه وانطوى على ذاته امام ما لاقى من اضطهادات ، وبعد غلبة المسيحية وانتصارها وانتشارها . وقد كان اليهود في الغرب يعوّلون على اخوتهم في الشرق اجيالاً عديدة، في كل ما يتعلق بأمورهم الدينية يستفتونهم في كل معضلة عقائدية .

وليس اقل جدارة بالاعجاب والتقدير ، اهتمام هذه الكنائس المسيحية بالفنون الجميلة . فقد اخذت ارمينيا بتشييد الكنائس العديدة بعد ان اعتمدت على عدد كبير من ابنائها المهندسين انتشروا في انحاء الامبراطورية البيزنطية . ولعلهم ساهموا في نقل مميزات الهندسة المعمارية الكنسية الى الغرب لما بين هذه الكنائس او البيع من تشابه ومحاكاة ، وعنها اخذ الفن المعماري الروماني اولى مفارقاته المميزة . وقد كان لكنيسة الكرج ، هي الاخرى طرازها المعماري الذي طبع مدرستها . وقد اعطى الفن المعماري الكنسي في سوريا عمائر بديعة لا تزال مقوماتها الجميلة بادية للعيان في خرائب هذه الكنائس والاديار في القرنين الخامس والسادس التي رادها روعة ومهابة انها قامت في بقاع اقفرت اليوم واصبحت هجراً منسياً ، منها : قلب اللوزة ، وطور مانين ، ومار سمعان العمودي . وقد ازدانت هذه الكنائس بالكثير من الوشي الزخرفي الشرقي الطابع واللون . وازدانت باشكال متنوعة من الرسوم الهندسية التي تحاكي ضروباً متنوعة من نبات وحيوان تأتلف مع المجموع الهندسي . كذلك ازدهر في مصر فن مستقل من الهندسة المعمارية الكنسية ، امتاز بانسجام الالوان الزخرفية ، وبامانته لاصول الفن الهليني مميزة بهذه الصور البشرية وبالعاج المحفور والاقمشة المزركشة، مما عاد على هذه الانجازات المعمارية بالشهرة الواسعة .

الدولة الساسانية

كم من مرة تجاوزنا ، ونحن نستعرض صورة هذا الشرق في واقعه المميّز ، في هذه الحقبة التاريخية ، حدود الامبراطورية الساسانية، اذ من الصعب جداً، ان لم نقل من المستحيل ، ان نقتصر على الامبراطورية البيزنطية في درسنا لتاريخ الشرق الادنى في مطلع الاجيال الوسطى . وهذه الدولة الساسانية التي قامت منذ القرن الثاني، خصماً عنيداً ، ومنافساً خطيراً للامبراطورية البيزنطية ، يمكن مضارعتها ومقارنتها ببيزنطية من عدة وجوه. فقد ضمت ، فيما ضمته بين ممتلكاتها ، ايران برمتها حتى مشارف الهند ، وجانباً كبيراً من بلاد

ما بين النهرين وارمينيا ، كما ضمت ما وراء النهر من بلاد الصغد وبكتريا ، وخوارزم وخراسان (بحر آرال) والمجـــازات المفضية الى التركستان الصيني . ووصف هذه الدولة « بالقومية او الوطنية، فيه تجاوز لا يسوغه مسوّغ: فسكان ما بين النهرين والارمن ليسوا بايرانيين اكثر منهم بيزنطيين . ومع ذلك ، فما من شك ان هذه الدولة عرفت ان تحقق ، بالنسبة للدول التي تعاقبت على الحكم من قبل ، تمازجاً اكبر ، وتلاحماً اشد واقوى ، عند الاكثرية الايرانية او اقله عند الطبقة الارستقراطية فيها .

قامت هذه الدولة على توازن متأرجح بين المقومات الثلاثة التي تألفت منها : طبقة الاشراف وهي طبقة قديمة قوية في البلاد ، إقطاعية حاكمة ، وطبقة رجـــال الدين ، وهي طبقة غنية متدرجة المراتب ، مسلسلتها ، تنعم بعطف الدولة وسندهـا ، وادارة مركزية محكمة السبك والحبك ، وفوق الجميع نظام ملكي مهيب يفرض الاحترام . وفي اسفل السلم الاجتماعي طبقة الشعب تعنى بالفلاحة وحراثة الارض ينتظمها طبقة وسطى من صغـــار الملاكين . وتكتظ حواضر البلاد الكبرى ولا سيما عاصمتها طيسفون الواقعة على نهر دجلة ، بطبقة من الصنـاع المهرة النشيطين . وهذه الطبقات لها ما للطبقات في الهند من تماسك ان لم نقل من تحجر وتعدد، تتحسس الى حد بعيـد ، بالروابط العائلية المتوارثة التي حاولت الدولة في روما ، النهج عليها والنسج على منوالها . وقد تمكنت الدولة ، بعد ان اعترضت محاولتها صعوبات عديدة ، من بينها الاخطار التي تهدد، كما لدى بيزنطية،حدودها الشمالية لاستهدافها لغزوات البرابرة الطارئة، من ابقاء سيطرتها على الطبقـــة الارستقراطية العليا التي كانت تصطرع مع طبقة الفلاحين . ولعل محاولة الاصلاح المالي والضرائبي التي قام بها الملك قواد وانوشروان (سنة ٥٠٠) كانت ترمي من جهة الى تأمين المزيد من الفعالية ، كما رمت من جهة اخرى ، الى تأمين المزيد من العدالة ، في توزيـع ضريبة الخراج . وليس من المستبعد ولا من الخطل بشيء ان نفترض بان السياسة الحربية العدائية التي انتهجتها الدولة الساسانيـــة كانت تخفي وراءها رغبة شديدة في كبح جماح كبار النبلاء ومـــا عُرف عنهم من جشع وقلة انقياد .

وعلى هذا الجيش الذي يؤلف النبلاء اُطرَه وملاكاته الاساسية، تهيمن روح الدولة الاخمينية التي عُرِفت بشهوتها الجامحة للفتح والتوسع . ويردف الجيش وحدات من المرتزقة، سوادهم من الارمن . اما فرقة المشاة التي كان افرادها من بين طبقة الشعب ، فقد فقدت الشأن الذي كان لها في الماضي كما خسرت بالتالي ، الكثير من نفوذها الاجتماعي .

والملـك الساساني الذي يلقب بملـك الملوك ، كان يتولى بالفعل قيادة الحرب كما كان رأس الحكومة والادارة ، وله شخصية تحف بها المهابة والعظمة والقدسية ، ويعيش في جو من البذخ والغنى والاسراف لا يمكن ان يتصوره عقل ، يعود اليه الملك بحق الوراثة ، بعكس الامر في بيزنطية . وهـذه الابهة والعدالة ، وحسن التدبير والادارة الرشيدة ، والاقـدام في الحرب ، والثقافة الواسعة ، هي كلها من بعض قسمات الصورة التي رسمها لنا المؤرخون عن بهرام غور

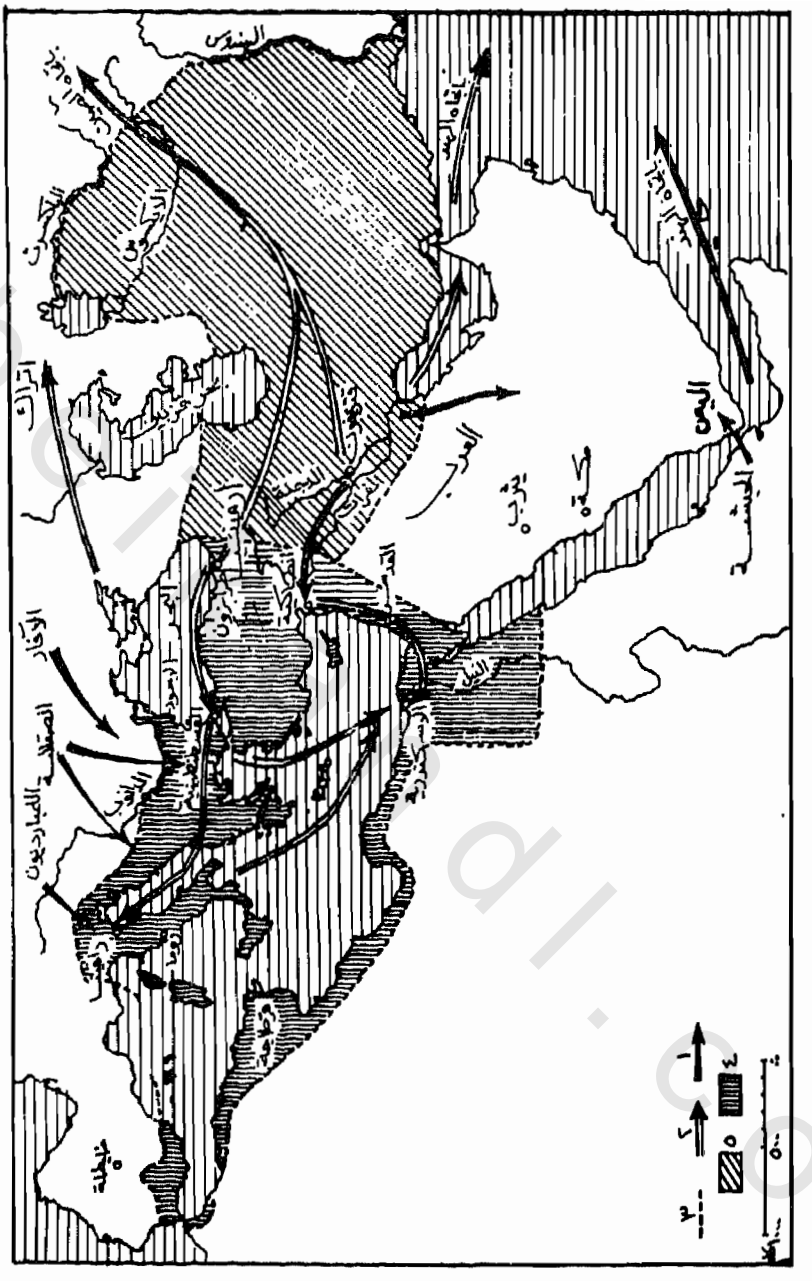

الشكل (رقم ـ ٢) الدولتان البيزنطية والساسانية في القرن السادس

١ ـ التوسع الجغرافي ٢ ـ الطرقات التجارية ٣ ـ الحدود الفاصلة ٤ ـ الدولة البيزنطية ٥ ـ الدولة الساسانية

وكسرى انوشروان . وعاشت في اذهان الاجيال اللاحقة ، بعد ان ضفرت حولها التقاليد ما ضفرت من وشي الخيال المجنح ، بعد زوال الدولة الساسانية بكثير ، وهي قسمات لونّها لنا بالوان أخاذة زاهية ، الفردوسي في ملحمته الخالدة «الشاهنامة» او كتاب الملوك ، التي وضعها في حدود سنة الف . وفي عهد فراهمدار الكبير ، الصورة المثالية لمنصب الوزارة في الاسلام ، نعمت الادارة الملكية بكثير من الشهرة . فالادارة تبهى بما لها من قوانين ادارية دقيقة كما تفخر بما لها من خبرة عملية في تدبير شؤون الدولة ، وهي تؤلف من ذاتها طبقة خاصة ، عرفت في عهد الدولة العباسية ان تستعيد سبق وكان لها من نفوذ واسع .

وخلافاً للدولة الفرثية ، اصبحت الديانة المزدكية أو الزرادشتية ، دين الدولة الرسمي ، تشدها الى النظام الملكي اوثق الروابط . وهي ديانة تتدرج فيها الرتب وتتسلسل المراتب ، يأتي في المرتبة الأولى منها الموبذان أو المجوس الاكبر ، تطالعك هياكل النار اينما وقع مأتى العين . وتمّ في القرنين الخامس والسادس استنباط ايجدية جديدة ساعدت على وضع الأفستا وما اليه من أدب ضخم ، يعدل آداب الديانات الاخرى التي عرفت الكتابة . ومع ذلك ، جرت ، من وقت لآخر ، اضطهادات شبيهة بما كان يجري منها في الامبراطورية « الرومانية » اخذت بها الدولة من ليسوا على دين ملوكهم ، وبذلك شهادة ضمنية على ان هذه الديانة ليست قوة لا اعتراض عليهـــا او مسلّماً بها من الجميع . والسبب في ذلك ، انما يعود أصلاً : لعلاقاتها بالنظام القائم ، وبالطبقـة الارستوقراطية . وباعتبار هذه الديانة دين الدولة الرسمي ، لم تحاول يوماً ان تتجه في دعوتها من غير الايرانيين ، وان تعاليمها بالرغم مما تحمله من عوامل «العلم» والحق التي تقول بهـــا بقيت ، بالنسبة للديانات المسكونية الاخرى التي تسعى للانتشار وجمع المريدين والانصار ، غامضة ، مبهمة ، تعاني من الجفاف والقحط ، وتبقى اعجز من ان تحور جواباً عن القضايا والاسئلة التي يوجهها اليها ابن العصر . ولذا أطلّ على ايران في القرن الثالث ، ديانة جديدة ، كتب لها ، بالرغم مما تعرضت له من عنف واضطهاد ، ان تعرف بعض الشهرة ، هي الديانة المانوية ، التي عرفت رواجاً اكبر بين الطبقات الشعبية ، وعنّت نفسها بقضية اخلاص ، وتقدمت من اذهان الناس بكونها تأليفاً للديانات الاخرى ، تحلم بالذيوع والانتشار وكسب الانصار . وفي القرن الخامس نرى المانويين ، اتباع الديانة الجديدة ، منتشرين ليس في الامبراطورية الساسانية فحسب ، بل أيضـاً في شمالي افريقيا ، ومصر ، وروما والقسطنطينية حيث لم يستطيعوا البقاء طويلاً اذ ان هرطقة الالبيجيين ستظهر بعد ذلك بزمن طويل ، ولا سيما في اواسط آسيا ، حيث اعترفت بالديانة الجديدة رسمياً احدى ممالك الاتراك ، في القرن الثامن ، وبقيت تقريباً شبه ديانة رسمية في تلك البلاد ، الى ما بعد الفتوحات الاسلامية ، في القرن الثالث عشر .

وفي الولايات الشمالية والشمالية الغربية من الامبراطورية الساسانية المفتوحة للثقافة الهندية ، بعض أتباع البوذية . كذلك نشاهد لدى الشعوب غير الايرانية التي تقطن الولايات الغربيـــة ، النصرانية تنعم بحرية كاملة . فمقاطعة طور عابدين الواقعـــة الى الشمال الغربي من مدينة الموصل

تغصّ بأديار السريان، كما نرى طوائف من النسطوريين تلتجىء الى الدولة الساسانية، اثر القطيعة التامة بينها وبين الحكومة البيزنطية، وتعمل على تنظيم نفسها ككنيسة مستقلة تحت رعاية الدولة، وتنشىء لها مقراً بطريركياً في طيسفون ، ومدارس عرفت بنشاطها وازدهار الآداب فيها ، كما مرّ معنا ذلك . وتقوم الكنيسة النسطورية بدعاية واسعة لكسب الانصار والمريدين . إلا ان العراقيل التي ثارت في وجهها في المناطق التي سواد سكانها على الزردشتية ، وفي الاقاليم التابعة لبيزنطية ، جعلتها تتجه بأنظارها نحو آسيا الوسطى ، ضمن الدولة الساسانية وخارج حدودها . وسيلعب المرسلون النسطوريون دوراً بارزاً بين الاتراك ، وفي ما وراء ممالكهم ، طيلة الاجيال الوسطى. وكان لليهود جوالٍ في الدولة الساسانية، كما رأينا ذلك في حديثنا عن «التلمود البابلي».

وعند نهاية القرن الخامس ، ظهرت في ايران ، دعوة الى ديانة جديدة، هي المزدكية، كانت في حقيقتها ، أكثر من كل دعوة دينية سابقة ، استنكاراً صارخاً للوضع الاجتماعي في البلاد . وقد امتازت الديانة الجديدة عن المانوية التي اشتقت منها وصدرت عنها ، بالدعوة الى شيء من الاشتراكية في مقاسمة خيرات هذه الارض ونعمائها بالسوية ، وهي دعوة طالما تردد صداها في الاجيال الوسطى. وينسب خصوم هذه المقالة، الى اتباعها، الشطط والمروق، ويتهمونهم بالمطالبة باشتراكية المرأة ، ليس لعمري انسياقاً منهم مع شهوة الجسد بعد الذي عُرِفوا به من مُغالاتهم باحترام الظواهر ، بل احتجاجاً منهم على عادة التسري المتبعة على نطاق واسع بين عظماء البلاد الذين كانوا يحشدون في حرمهم ، من النساء ما يشاؤون ، وتحطيماً منهم للفوارق الاجتماعية . وقد أُخِذ الملك قواد مدةً ، بتعاليم مزدك ، اذ رأى فيه عوناً له على الارستوقراطية ، إلا انه عاد وتخلى عنه وأسلمه للعذاب والتنكيل به . وسنتبين اثر المزدكية في بعض الحركات الدينية والاجتماعية التي ظهرت ، فيما بعد ، في العهد الاسلامي .

الادب والفنون في عهد الدولة الساسانية

فالادب الديني ابعد من ان يمثل وحده حضارة الايرانيين . ففي بلد هي نقطة التقاء الحضارات وتقاطع الطرقات التجارية – وهو امر لا يتنافى مع الخلق الاصيل والابداع – تلتقي معاً: التقاليد القومية، والمؤثرات الهندية ، والتفاعلات اليونانية والسريانية ، حتى و «الطورانية» وتترك اثرها ظاهراً في آداب البلاد وفنونها ، على نسبة ما يسمح بتقديره وتقويمه ، ما تبقى من حطام هذه المدنية التي وصلت الينا بالرغم مما انتابها من تقلبات الدهر ودُوَله وصروفه . فالتاريخ الرسمي ، والحكايات على لسان الحيوان التي وصلت الينا شعراً أو نثراً ، وبعضها من الهند ، والقصص الملحمي أو العاطفي ، كل ذلك فيه ما يرضي الطبقة الارستوقراطية ، والطبقة الوسطى ، وفئة الموظفين . فعن طريق ترجمة هذه الآثار الى العربية أو الى الفارسية ، لغة البلاد في عهد الفتح الاسلامي ، والى الارمنية ، واليونانية والكرجية والسريانية ، وفي الاقتباس منها والتعليق عليها ، وصلنا صدر طيب من تاريخ الدولة الساسانية الذي علق به شيء من الاسطورة ، كما وصلتنا آثار هي على كل شفة ولسان، كقصة برلعام ويوشافاط التي فيها استعادة لحياة بوذا ،

وكتاب كليلة ودمنة ، وهو من كتب الحكايات على لسان الحيوان مشهور ، كلاهما منقول عن الادب الهندي ، على يد احد علماء النساطرة المدعو بُرزُويه . وطالما تغنى الشعراء بحب خسرو الثاني وشيرين . ويروي لنا الرواة نكات تبين الدور الذي لعبه اثنان من رجال الطرب هما سركاك وبرباد فكانا مصدر وحي للموسيقيين « العرب » فيما بعد وقد جاء اكتشاف لعبة الشطرنج وسيلة تسلية وترفيه نقلها الصليبيون معهم الى الغرب، بعد ذلك بنحو ٥٠٠ سنة، وشاع استعمالها في الديار المسيحية . وقد برز الى جانب فضل اليونان على تقدم العلوم، ما للهند من تأثير في هذا المجال، ولا سيما على الطب، وعلم الفلك والرياضيات. ولم يكن اثر الهند على الفنون الجميلة باقل من ذلك ، في الولايات الشرقية .

وقد ظهر في غربي ايران فن جديد ، ساساني الطابع والنشأة ، عرف ان يمازج بين المؤثرات الفنية من العصر الهليني والفرثي وبين تقاليد قديمة تعود لعهد الدولة الاخمينية. وفي جملة ما وصل الينا من معالم هذا الفن ، باستثناء ابراج النار ، القصور الواسعة الابهاء المعقودة (إيوان) ، والنقوش المحفورة حتى في قلب الصخر الاصم والتي تعيد الى الاذهان، المآتي المجيدة التي سجلها احد الملوك فيما مضى ، والفسيفساء ، والالواح الموشاة بالمينا ، وغير ذلك من مصنوعات البلور الصخري ، وانسجة الديباج المزركش حيث يرسم الفنان ، على هواه ، صور النقوش المحفورة او الصور التي تكون صاغتها مخيلة شاعر جموح . وقد اثر هذا الفن بعيداً في جميع اقطار الشرق الادنى ، ودخلت بعض عناصره هندسة بعض الكنائس دون ان يفقه الناس لها معنى ، حتى ان بعض هذه المصنوعات الفنية بلغت اوروبا الغربية على يد فنانين قدموا من الشرق .

واسس ملوك الدولة الساسانية في آسيا الوسطى وفي الغرب من ايران وبلاد ما بين النهرين ، مدناً عديدة عرفت الازدهار بفضل الحركة التجارية الناشطة التي تحولت بعض مسالكها القادمة من الهند ، عن مصر ، واتجهت الى موانىء البحر المتوسط الشرقية ـ ناهيك عن القوافل البرية التي كانت تؤمن الاتجار مع الصين . أما كون النقد المستعمل في هذه المملكة هو الفضة وليس الذهب ، فمرده الى افتقار الامبراطورية الساسانية لهذا المعدن ، ولا تأثير له البتة على توازن الميزان التجاري ، اذ ذاك . وكان لحركة التجارة بين الصين وموانىء البحر الابيض المتوسط من الشأن ما اثار خصومات عنيفة بين بيزنطية وايران ، فتحاول الاولى الافلات من الطوق الذي نصبته الثانية لتجارتها ، كما تحاول التخفيف من حدة الاحتكار لطرق التجارة فتتحكم بدورها بمرافىء البحر الابيض المتوسط للقضاء على هذه المحاولات .

بيزنطية وآسيا

كان أمام بيزنطية وسيلتان لا غير ، لتفادي الطوق الذي ضربته الامبراطورية الساسانية حول تجارة الامبراطورية الرومانية ، اولها ايجاد طرق مواصلات جديدة لتجارتها الدولية مع اواسط آسيا. فاتجهت انظارها شطر البحر الاحمر، اذ اخذت تشتهر وتُعرَف عنده دولة جديدة اعتنقت المسيحية منذ عهد قريب عند الطرف الجنوبي لحدود مصر ، عرفت باسم مملكة اكسوم ، هي الحبشة اليوم . فبعد ان فتحت اليمن

واخضعت لسيطرتها اليمنيين الذين كان لهم فضل يذكر في تأسيس هذه المملكة ، راحت تكسر من حدة احتكار البحّارة والتجار العرب للحركة التجارية في هذه المنطقة ولا سيما مع الهند ، كما ان الامبراطور يوستنيانوس اخذ يحرضهم على مزاحمة الايرانيين في هـذا المجال . فلم تأت المحاولة أكلها المرتجى في هذا الباب، الا انها تركت اثراً طيباً وخدمة علمية جلى، اذ انها اتاحت لبحّار هندي يدعى *Cosmas Indocopleustes* ان يضع جغرافية حشاها بالمعلومات والفوائد العلمية جمعها من مصادرها الوثيقة . وقد رأى البيزنطيون في الدولة التركية التي قامت في آسيا الوسطى ، حوالي منتصف القرن السادس ، فرصة سانحة افادوا منهـا واستخدموها بنجاح لكسر حـدة الطوق المضروب على تجارتهم . فبالاضافة الى مواثيق الصداقة والتحالف التي عقدوها بيسر ، بين بيزنطية والاتراك ، حاولوا في عهد الامبراطور يوستينيس الثاني (٥٦٥ — ٥٧٨) ان يفتحوا طريقاً جديداً امام التجارة الدولية مع آسيا تمر عبر القوقاس، متفادية بذلك المرور بالبلاد الايرانية . لا نعلم بصورة قاطعة ما الذي ادت اليه هذه المحاولة . ومـما لا شك فيه البتة ، ان حركة من المقايضات التجارية انطلقت من الصين نحو الشرق ، مرت بمقاطعات روسيا الجنوبية والبحر الاسود ، على اثر سقوط المقاطعـات الواقعة بين نهر الفولغا والبحر الاسود ، بيد الخزر الذين اسسوا دولة تركية الاصل ، في هذه المنطقة ، في القرن التالي .

ولكي تتحرر من ايران وتخفف من شدة قبضتها على التجارة، راحت بيزنطية تحاول أقـلـمـة بعض السلع والمحاصيل الغالية الثمن التي تستوردهـا من الخارج ، وذلك عن طريق توطين زراعتها في بعض الاقاليم الصالحة ضمن الامبراطورية. واستطاع رهبان من النساطرة ، في اواخر عهد يوستنيانوس ان يطلعوا ، ليس على اسرار صناعة الحرير فحسب ، بل ايضاً ان يجلبوا معهم الى القسطنطينية، كمية من الفيالج مع ما يلزم من المعلومات والفوائد والخبرة اللازمة لتربية دودة الحرير. ولم تلبث تربية الحرير ان دخلت سوريا واليونان وكيليكيا . صحيح ان الحرير البيزنطي لم يُغنِ قط عن استيراده عن طريق الصين وايران ، لا من حيث الكمية ولا من حيث النوع او الجودة ، فقد رأى فيه الايرانيون ، مع ذلك منافساً خطراً حسبوا له الف حساب .

وهذه المنافسة الشديدة بين بيزنطية وطيسفون ، تلبست وجهاً جديداً ودخلت مجـالاً جديداً هو مجال الدين . فبالرغم مما عُرِف وشاع عن تجرد المبشرين وكرازتهم للدين الجديد ، فاعتناق المسيحية ، انما كان يعني ، في نظر الساسانيين ، تقدماً محسوساً لصالح بيزنطية وربحاً لها في بلاد « بربرية » والسير على نظام سياسي واجتماعي وفقاً للنهج البيزنطي، الا اذا كان النظام الكنسي الجديد والبيعة التي ادى اليهـا ، كنيسة لا تمتثل لنواهي الفاسيلفس واوامره . ولذا اخذ الساسانيون ينظرون شزراً ، لانتشار المسيحية بين قبائل الهونز ، في جنوبي روسيا او في الجزيرة العربية ، ما لم تكن على النسطورية ، كما هي الحـال مع حلفائها اللخميين في الحيرة ، ولم يكن من الممكن محاربة المسيحية عن طريق المزدية او الاتخاذ منها يداً ، في هذا المجال .

فالوضع الحربي او العسكري بين الدولتين ازداد حرجاً وحدة لاشتراكهما بحدود واحدة .

والمنافسة التجارية التي احتدمت بينهما ، والدسائس التي حاكهـــا من كلا الجانبين : الارمن والسريان ، والمزاج الحربي الذي عُرفت به الارستقراطية الايرانية ، والموقف الذي وقفته منها الحكومة الساسانية ، كل ذلك وما اليه ، يفسر لنا ، حالة الحرب المزمنة التي قامت باستمرار بين بيزنطية وطيسفون او بين « الرومان » والايرانيين ، منذ القرن الثالث . فالضغط الذي استهدفت له ايران من قبل « البرابرة » في القرن الخامس ، أودى ، ان لم يكن الى زوال هـذه العداوة الزرقاء التي اقامتها بعضاً على بعض ، فالى التخفيف ، أقله ، من حدة هذا العداء وكسر شوكته ، لخير بيزنطية . غير ان شعور ايران بالاخطار التي تتهددها ، وازدياد كلا الدولتين ، مقدرة اكبر على الحرب ، كان من شأنه ان يزيد الوضـــع اضطراماً ، والحرب اندلاعاً بصورة اقوى واعنف . وقد بلغ الوضع الذروة ، في مطلع القرن السابع ، اذ استحال الشرق الادنى شعلة واحدة ، وكأنه بركان نار اندلعت حممه على آسيا الصغرى وسوريا بما فيها فلسطين . وقد شُدِه العالم المسيحي لهول الصدمة ، اذ سقطت هذه البلدان فريسة في يد الفرس ، واصبحت مصر نفسها في خطر ماحق ، حتى انهم أجْلَوا الاحباش عن اليمن وحلّوا فيها محلهم . وفي عام ٦٢٦ اشتركت جيوش الساسانيين والآفار بحصار القسطنطينية والكل يتحسس قلبـه في مكانه من احتمال سقوطها بايدي الفرس وحلفائهم . وقد قام الامبراطور هرقل بهجوم معاكس اضطر معه العدو الى التقهقر والنكوص على اعقابه والتراجع الى ما وراء حدوده التي اصبحت هدفاً لهجوم الروم . غير ان هذا الجهد الحربي الكبير انهك قوى الجانبين لكثرة مـــا استنزف من دماء الفريقين . وراح آخر ملوك الساسانيين يحاولون عبثاً الخلاص من الورطة التي سقطوا فيهـــا والازمة التي استهدفوا لها . اما في بيزنطية فقد كان يُعوِز الحكومة لحمل الشعوب المستقلة على الاخذ بوجهة نظرها ، كثير من الذوق والمقدرة في اجتذاب الناس ، اذ ان الكنيسة اليونانية على الاخص ، كانت اكثر تصلباً واشد تعصباً من اي وقت مضى . وعلى بال مَن مِن النـاس خطر يوماً او تصور احد انه سيخرج من الجزيرة العربية خصم جديـــد سيرمي بكل ثقله على الدولتين المتخاصمتين وهما اعجز من التصدي له او الوقوف بوجهه؟ وقبل ان تنزل بكلا الطرفين مثل هذه الكارثة الدهماء ، كانت حروب الفرس سبباً لذهـاب الشطر الآخر من الامبراطورية البيزنطية الا وهو شبه جزيرة البلقان ، فريسة بين البرابرة يتصرفون به على هواهم ، بعد ان عاثوا به طويلاً واستنزفوا خيراته .

برابرة افريقيا واسبانيا

يجب ان نطّرح جانباً الوهم القائل ، بان التـــاريخ ، ولا سيما تاريخ الحضارة ، يجب ان يقف عند حدود الدول التي تعرف النظام وتتمسك باسبابه . فالتفوق غير المنازع الذي تم لهذه الدول ، لا يعني البتة انه عمّ جميع الميادين ، وانه تم للجميع على السواء وبنسبة واحدة ، وان الانحطاط الذي أُبتلي به البعض او ان الرقي الذي حققه البعض الآخر ، قد ازال الفوارق وذهب بالمسافات ، كما انه ليس من الممكن ان نتصور الواحـــد دون الآخر من هذين العالمين : عالم « الروم » وعالم ايران ، او عالم « البرابرة » . فكم بالاحرى

ان يكون الوضع على مثل ما وصفنا عندما تداعت الحدود العسكرية للخراب وانهـــارت . فالفقر شبه المدقع الذي نعانيه لجهـــة المصادر والمراجع ، لا يسمح لنا بان نذكر شيئاً عن هذه الاقطار الافريقية الواقعة ما وراء الصحراء الكبرى او على حدود السودان . واقل مـا يمكن ان نؤكد هو ان المجتمعات الزنجية التي كانت تمور في هذه السباسب ، لم يربطهـــا بشعوب البحر المتوسط ، روابط وثيقة بحيث تتفاعل بعضها ببعض وتنفعل . فالجمل ، مركبة الصحراء ، كان يتيح للبرابرة الرحل ، التغلغل مع ما اليهم من السلع ، داخل الصحراء ليبلغوا مشارف النيجر . وتمتّع الأحباش في مواطنهم الجبلية بمدنية اتصلوا معها بيسر ، مع مصر واليمن ، كما السّف من قام منهم على سواحل البحر الاحمر ، مملكة تعرف بمملكة اكسوم ، اتينا على ذكرها من قبل . اما ما تبقى من اقطار افريقيا الاخرى ، فلن يدخل التاريخ العام الا بعد مجيء فاسكو ده غاما .

ومقابل ذلك ، فقد دخل في القسم الشرقي من جغرافية اوروبا الحديثـــة قبائل وشعوب جديدة ، او بالاحرى ، شعوب بقيت حتى هذا العهد بمعزل عن الدول « المتمدينة » . وسنروي فيما بعد بالتفصيل والتبسيط اللازمين ، قصة الشعوب التي وطئت اوروبا الشرقيـــة او اوروبا الوسطى منذ القرن الرابع ، واستقرت بها ، بينهم شعوب من الاتراك والمغول والفنلنديين ، الذين يؤلف تاريخهم شطراً من تاريخ اوروبا ، والهونز الذين لم يبق منهم شيء يذكر في اوروبا الوسطى بعد ان توارى عنهم أتيلا ، ومنهم ينحدر مع عروق اخرى ، البلغار (دولة الكوبرى ، في مطلع القرن السابع) الذين انقسموا فيما بعد على انفسهم الى شطرين ، اقام احدهما على نهر الفولغا الاوسط بينما استوطن الشطر الآخر ، مقاطعات الدانوب الاسفل ، ومن بينهم شعوب الآفار القادمين من البلدان الواقعة حول الدانوب (القرنان السادس والسابع) الذين لم يبق من عرقهم شيء يذكر ؛ والهنغاريون الذين استقروا بعد طول المطاف ، في القرن العاشر في هذه المقاطعـــة التي لا تزال تحمل اسمهم لليوم ؛ والاتراك بحصر المعنى ، الذين تركوا ، ما وراء آسيا الوسطى ، بين الفولغا والقرم ، بعد ان اختلطوا مع غيرهم من هـــذه الاقوام ، مملكة الخزر التي قامت ، بين القرنين السابع والعاشر ، وذلك قبل ان يبعثوا ، ابتداءً من القرن العاشر بصحبة *Petchinègues* والاوغوز ، قبائل واقواماً أقل منهم تطوراً ؛ واخيراً المغول ، ابتداءً من القرن الثالث عشر . والشيء المشترك بين هذه الممالك ويميزها عن سواها ، سواء أبلغت في تطورها درجة عالية أم لا ، هو سيطرة طبقة ارستوقراطية محاربة ، رحالة ، وتحكمها بجانب من سكان البلاد الاصليين ، يرسف معظمهم في الرق والعبودية ، يجرونهم وراءهم كيفما اتجهوا ويستقرون حيث انتهى بهم المطاف ، بعد زوال قائدهم ، بحيث ان الرواة والمؤرخين لا يذكرون شيئاً عن مغامراتهم ، بل يكتفون بذكر مآتي القادة والرؤساء ، ضاربين كشحاً عن بروز الصقالبة وتوسعهم في الأرض ، فلا يشعر الكتّاب بوجودهم بعد ان يكون استفحل شأنهم ونبه ذكرهم .

فسيطرة البدو كانت ابداً مسترخية الحلقات ، خفيفة من الوجهة السياسية ، اذ كانوا يؤلفون أصلاً ، أحلافاً من القبائل تشتد بينها أواصر القربى او تتراخى ، لا يمارسون على الشعوب التي

أخضعوها ، سوى سيادة خارجية يقنعون منها بدفع الخراج وشد الازر يوم الوغى ، فلا تؤثر بشيء على وضعهم الاجتماعي والنُظُم التي ينهجون عليها ، بقطع النظر ، طبعاً ، عن الاشخاص الذين يفشلون في حركة عصيان او تمرد فيفرضون عليهم ذل العبودية . وأقل مايمكن ان يكونوا أدّوه لهؤلاء الاقوام الخاضعين لسيطرتهم ، ان نمّوا فيهم عادات جديدة كركوب الخيل ، او المحافظة على أسباب التجارة والنقل في اخشن مظاهرها ، وقد توارثوها جيلاً بعد جيل ، من التاريخ القديم ، وساعدوهم على احلال بعض التشكيلات السياسية محل نظمهم القبلية التي كانت تتراخى أواصرها مع التنقل والظعن . ومع ذلك ، علينا ألاّ نغلو في الامر فنقع في النقيض ، كما جرى لبعضهم في تقييم المفهوم السياسي عند الجرمان ، بعد ان خضع فريق منهم ، كالصقالبة مثلا ، لنير العنصر الاصفر ، فاستنتجوا من ذلك عدم عجز الصقالبة السياسي الذين عرفوا ، مع هذا ، ان يتطوروا كالجرمان انفسهم ، عندما كانت الظروف تسمح لهم بذلك .

انتشار الصقالبة وتوسعهم

ان توسع الصقالبة في شرقي اوروبا وانسياحهم في أقطارها ، لا يقل أهمية في التاريخ عن انتشار الجرمان في غربي اوروبا . ولذا ترتب علينا ان نتعرض لهذه القضية باسهاب في دراستنا هذه ، اسوة بالجرمان . والواقع انه قلما يأتي الامر على هذا النحو ، حتى لدى المؤلفات التي تسهب في وصف الغزوات التي أدت الى تبديل الوضع في اوروبا ، بينما تقتصر هذه المؤلفات نفسها على التعرض بايجاز ، للصقالبة وتحركاتهم ، ان لم تضرب صفحاً عن ذكرهم بالكلية . يمكن ان نرد ذلك لفقر مصادرنا وندرتها . ومع ذلك ، لا بد من ايراد ما هو معروف ثابت في هذا المجال ، ليس في فصل عابر مجزوء ، بل كجزء أساسي ، اصيل من تاريخ اوروبا المشترك .

تضاربت آراء المؤرخين حول أرومة الشعوب الصقلبية واصلهم الاول. فهم يرجعون ، من حيث اللغة ، الى العرق الهند — الاوروبي ، ابناء عمومة الليتوانيين ، ولو تميزوا عنهم واختلفوا . ففي بدء النصرانية ، نراهم يسكنون البقاع الواقعة الى الشرق من نهر الفستول ، كما نراهم ، في العصور المتأخرة للامبراطورية الرومانية ، قد يمموا بتأثير من موجات الغوط ، بعضهم شطر جبال الكربات ، والبعض الآخر الذين عُرِفوا باسم *Antes* ، شطر القسم الجنوبي من روسيا اليوم . ان انتقال الجرمان وارتحالهم غرباً اوجد فراغاً شغله الصقالبة بعد ان قاموا بحركة التفاف ، وراء الكربات فاحتلوا بقاع الدانوب الاسفل ونهر إلايلب. كذلك حمل سيل غزوات الهونز والبلغار والآفار ، قسماً منهم . وكان من جراء فناء قبائل *Gépides* وارتحال اللمبارديين أن حدث فراغ آخر في سهول الدانوب ، لم يكن في وسع الآفار ملأه وحدهم ؛ ولذا جاءت قبائل صقلبية عبر الكربات واحتلتها ، وبلغت في تقدمها نهر الساف ، وجبال الألب الشرقية ، كما اطلت على مشارق بافاريا ومقاطعة التورنج ، واشرفت على سواحل البحر البلطيقي ، ونهري دنيبر والدونا حيث كان يسيطر ، الى الجنوب ، قبائل من الاتراك ، والى الشمال ، قبائل الفنز او الفنلنديين غير المتراصة الافراد . وقاموا ، على مثال البلغار والآفار ، باعمال الغزو والسلب

كما قاموا باعمال السلب والنهب في الاقاليم الواقعة عبر نهري الساف والدانوب بعد ان اجتازوهما، في مطلع القرن السادس . ولا شك ان في البيزنطيين لم يعلقوا كبير امر على هذه الغزوات والتجاوزات التي ادت اليها ، فاهملوا الدفاع عن هذه المقاطعات لمـــا تكلفه غالياً من العزيزين المال والرجال ، وهو ثمن مرتفع لا يعد له بشيء الفيء الذي تجنيه الدولة من هذه المقاطعات ، والفوائد المالية والاقتصادية التي تؤمنها لها، لاسيما وقد حدثت هذه الغارات يشنها البلغار والصقالبة ابان حروب الفتح التي نهضت بها بيزنطية لاستعادة ولاياتها السليب ممثلة بايطاليا واسبانيا وافريقيا، فتعرضت لغزوهم المقاطعات التي تتناوح بين تراقيا ودلماتيا . وكان الشعور العالق بالاذهان ان هذه التجاوزات لم تكن طليعة فتح منظم ، وعندمـــا تمت الغلبة ، عام ٦٠٠ على الآفار عم الناس شعور عارم بان حدود الدانوب صامدة ، تقوم على حراستها والدفاع عنها وحدات يمكن الوثوق بولائها . غير ان حركة العصيان التي قام بها الجيش « الروماني » المزعوم ، بعد ان عيل صبره وثار ثائره من حروب مريرة لم تعد عليه باي نفع او كسب ، والهجوم العنيف الذي شنه الساسانيون ، كل هذا ادّى الى تحطيم الدفاع عن الحدود ، ودك معاقلها وحصونها . وقد سبب عبور « البرابرة » الموصول لهذه الانهر واستباحتهم للاقاليم الواقعـة وراءه جلاء قسم كبير من سكان الريف راحوا يبحثون عن ملجأ امين يلوذون به ، يقوم في هذه المواقع الدفاعية الحصينة، كما ادى ، من جهة ثانية ، للابقاء على بعض مدن حصينة تحيط بها الحاميات العسكرية . كل هذا لم يكن فيه كفاء ولا بديل لمـــا تقتضيه الحرب من ثمن ولا لما تجره من ويلات . وكم من مرة بقيت الارض شاغرة تنتظر من يشغلها . وقام الصقالبة اذ ذاك ، بحركة عامة حملتهم الى سواحل بحر ايجيه وشواطىء البحر الادرياتيكي ، دونمـــا وحدة في القيادة او خوض معارك كبيرة ، وبدون « حوادث » تذكر . وحوالي عام ٦٤٠ ، جاءت موجة جديدة من الصقالبة ، فيها الكروات والصرب، انطلقت من جوار نهري الاودير والفستول ، وانضموا الى من تقدمهم من ابناء عمومتهم فاحتلوا مقاطعة الليريكون بعد ان استعان هرقل بهم لدفع الآفار وحدهم ، مهما كلفه هذا العون من تضحيات تمثلت بتخليه عن بعض المقاطعات ، وسمح لهم بالاقامة الى الجنوب الشرقي من نهري الدراف والساف، وعرفوا هناك باسم السلوفين . وفي الفترة الواقعة بين ٦٧٠ — ٧٨٠ ، جاء فريق من البلغار بقيادة أسبروخ ، ابن الملك كوبرات ، واقـــام بموافقة السلطات البيزنطية ، في المقاطعة الواقعة بين الدانوب الاسفل والبلقان ، محيطين بالصقالبة الذين سبقوا ونزلوا في تلك الكورة ، معترفين لهم بالسيادة والصدارة .

وفي الربع الاخير من القرن السابع ، بعد ان دب الفساد والانحلال بشعوب الآفار ، تمكن أمير يدعى سامو ، من انشاء اول مملكة صقلبية قامت حتى ذاك ، في البقعة الممتدة من جبـال الألب النمساوية ، حتى مشارف البحر البلطيقي ، ضمت بين العناصر التي تألفت منها : التشيك والموراف والسلوفاك . اما ما تبقى من قبائل السلاف، في الشمال ، وهم الذين عُرفوا منذ التاريخ القديم باسم *Vendes* ، فهذا كل ما يُعرف عنهم، مع ما تم لهم من مواقع بين الفرنج والسكسون.

ومع ذلك ، فليس بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب من مفارقات ملحوظة . فصقالبة الشرق وحدهم يعيشون في شبه عزلة او انفراد .

يغشى ضباب حالك القرنين اللذين استغرقهما انتقال البلقان «الرومانية» الى أيدي الامارات الصقلبية الاولى التي عرفها التاريخ . فالآراء تتضارب حول الاتساع الذي بلغته الموجة السلافية او الصقلبية : ففي الوقت الذي يميل فيه المؤرخون اليونان الى التقليل من شأنه، يبالغ المؤرخون الصقلبيون في أهمية الدم الصقلبي الذي انصب في جسم بلاد اليونان القديمة ، مسبباً لها الانحطاط، في نظر البعض او باعثاً فيها دِفقاً من النشاط، في نظر البعض الآخر. فاذا ما استطاعت اللهجات الصقلبية ان تتغلب على مقاطعة مقدونيا وترسخ فيها ، بقيت اليونانية مع ذلك اللغة المسيطرة على شبه الجزيرة البلقانية . اما مقاطعة إلليريكون ، « فتصقلبت » الى حد بعيد يفوق كثيراً « جرمنة » أية مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية الرومانية ، في الغرب . ليس من يدعي ، والحق يقال ، ان قدامى « الرومان » انقطع دابرهم تماماً او زال كل أثر لهم في هذه المقاطعات ، بالرغم مما استهدفوا له من مذابح وعمليات اجلاء وإفناء فقد بقيت جاليات منهم متمسكة ببعض سواحل دلماتيا ، او مطمئنة الى بقائها في بعض المدن الحصينة . الا ان الغزاة الفاتحين لم يلبثوا ان امتصوا تدريجياً هذه الجاليات المعزولة وسط شعب جديد دخيل ، اضطرت لمصانعته والتقرب اليه عن طريق المصاهرة والزواج . ولا بد من ان نلاحظ ، بعد ذلك بعدة قرون ، ظهور شعبين جديدين: هما الالبانيون والرومانيون الذين لا يمكن ان يكونوا طلعوا من لا شيء او هبطوا من السماء . فالشعب الاخير ذو الاسم الغني المدلول ، والذي يعرفه التاريخ قديماً باسم الفلاك او الفلاخ وهو الاسم الذي عرفهم به الصقالبة، قد يكون، على الارجح ، من ذراري هؤلاء الاقوام الذين جرى نقلهم الى هذه المقاطعة بعد ان تم فتحها على يد الرومان ، في عهد الامبراطور ترايانوس ، فَتَسَلْسَلَتْ وَتَرَوْمَنَتْ على مر الزمن، لتكون في مأمن من دسائس البيزنطيين ومكايدهم . فبعد ان تمثل البلقان من استقر منهم فيه ، عرف الذين أقاموا منهم في الكربات ان يصمدوا ويحسنوا الدفاع عن انفسهم بوجه الطامعين ببلادهم .

يعجز المؤرخ ان يرسم صورة امينة ، دقيقة للمجتمع الصقلبي بعد ان تم له ما تم من توسع ويقظة في رقعته ومجاله الحيوي . فالقبيلة او الحياة القبلية هي الاطار الذي يتحرك ضمنه . فالحجرة الاجتماعية الصغرى تتألف من مجموعة من الأسر تستثمر معاً رقعة معينة من الارض . دون ان يتمتع أفرادها بملكية معينة. فالصقالبة هم ، اصلاً مزارعون من اهل الحضر ، يشبهون الى حد بعيد ، الجرمان ، قبل هجراتهم المعروفة ، أَلِفُوا ، بالنظر لاتساع رقعة السهول التي يقطنون بينها ، استبدال مساكنهم بصورة دورية ، دون ان يركنوا الى نظام زراعي نشيط . انصرفوا مع تمسكهم بالزراعة الى الصيد والقنص وجمع الفراء الثمين ، وجني العسل والشمع يقدمونه لزعمائهم ورؤسائهم ، رسوم طاعة وولاء، فيتصرف به هؤلاء في متاجرهم او مقايضاتهم او يتخذون منه هدايا وأعطيات . وتوصلوا الى صنع بعض الحاجيات الاولية يستعملونها في

معايشهم . لا نعرف شيئاً عن امورهم الدينية وان كانت معالم الديانة الطبيعية عاشت طويلاً بين تقاليدهم الشعبية . فلم تبلغهم النصرانية بعد ، ولا عرفوا شيئاً من أمرها .

وهذا التلون الاجتماعي الذي اخذ يبدو عليهم ، ظهر في هذه الفترة التي تمت خلالها هجراتهم ، والحملات العسكرية التي قاموا بها . ونشأت تحت ظل بعض الرؤساء والزعماء جماعات او فئات صغيرة . ولكي يؤمن الزعيم أوَد جنوده اضطر ان يقتني له أملاكاً وأطياناً عَهِدَ بأمر العناية بها وحرثها الى أرقاء وعبيد وقعوا في الأسر . وأدت حركة النقل والاستيراد الى انشاء مخازن ومستودعات لهم على بعض الانهر او على مقربة منها ؛ وهكذا نشأت مثلاً ، في روسيا واوروبا مدن أمثال : كييف ونوفغورود . هذه صورة ذهنية تقريبية ، أكثر مما هي حقيقية لما كان عليه الوضع الاجتماعي عند هؤلاء الاقوام .

استهل تاريخ الشعوب الصقلبية على شكل يختلف تماماً عما بدا عليه تاريخ اوروبا الغربية في هذه الحقبة . فالجرمان الذين كانوا تفاعلوا ، بعض الشيء ، بالحضارة الرومانية قبل ان تصير اليهم تركة روما ، استقروا بعد طول المطاف ، في ممتلكات الدولة الرومانية وعجّلوا بانحطاطها وانحلالها ، انما عرفوا ان يحافظوا على خط السير القديم دون احداث اي فراغ او فجوة . وهكذا فالمجتمع الذي قام في الغرب خلال الاجيال الوسطى ، هو الوريث ، من وجوه عدة ، للتركة التي خلفها المجتمع الروماني . اما الصقالبة ، فعلى عكس ذلك تماماً ، فقد بقوا بالفعل ، خارج العالم « المتمدن » . فمن انتهى بهم المطاف للاقامة في المقاطعات التي كانت يوماً ، رومانية ، فقد ألفوا هذه المقاطعات تفقد الكثير من معالم رومانيتها ، فَتَبَرْبَرَت فهان لديهم ان يحلوا محل الاقوام التي اكتسحوها وان يستأصلوا ، دونما عناء ، المدنية التي وجدوها منذ قدومهم ويقتلعوا منها الاعراف والعادات . فالاجيال الوسطى شهدت اذاً انتقال الصقالبة من الطور القبلي وخروجهم من الوضع الذي كانوا عليه من قبل ، دون وساطة روما .

فامام هذه الاحداث التي توالى وقوعها على ايطاليا اضطرت بيزنطية للانكفاء والتراجع ، امام اللمبارديين في ايطاليا ، والبربر في افريقيا ، والفيزيغوط في اسبانيا . وها هي على قاب قوسين وادنى لتفقد اغنى ولاياتها ، واكثرها عطاء وسخاء في آسيا ومصر ، حيث ستقع امور واحداث على شكل لم يعرف مثله من قبل .

الفصل الثالث

بين البدو والحضر في آسيا
(من القرن الرابع حتى السابع)

هذه الاجيال المتعاقبة التي شهدت ، في العالم المتوسطي ، إنحلال الحضارة اليونانية اللاتينية ، او انهيارها التام سجلت عند الدول والممالك الكبرى ، في آسيا ، عهداً بارزاً من الازدهار والتجلي والانجازات الكبيرة. وهي حقبة تميزت، من جهة ثانية بغليان القبائل الرحل الضاربة في فلوات هذه القارة وصحاريها ، وبما احدثته فيها من اضطرابات وتحركات عمت جميع ارجائها .

ففي مطلع هذه الحقبة الجديدة التي انطلقت في القرن الرابع ، نرى المحاور الثلاثة الكبرى للمدنيات الآسيوية الضخمة : ايران والهند والصين ، تتفاوت درجة ونسبة في منسوب التطور الذي اخذت باسبابه . فقد مر معنا كيف ان ايران ، في عهد الدولة الساسانية ، استبطرت وتطلعت الى التوسع ، محاولة ان تحل محل روما ، في ولاياتها الشرقية ، وان تستأثر لنفسها بطرق المواصلات التجارية التي تخترق قلب القارة الآسيوية ، وان تتكافأ نفوذاً ، في اواسط آسيا مع قطبي الجذب الكبيرين : الصين والهند . فقد عرفت الهند في عهد السلالة الملكية غوبتا طوراً من ابرز واشرق عهود تاريخها المديد إشعاعاً حضارياً وفكرياً قيّض لها ان تحياها . فالوحدة السياسية التي حققتها في الداخل ، قابلها في الخارج ازدهار امتد إشعاعه ليبلغ اعالي آسيا والصين وكوريا واليابان ، من الشمال ، كما بلغ من الجنوب ، اقاصي مقاطعات الهند الصيلية والانسولاند . فقد بلغت البوذية في هذا العهد ، اعلى ذروة عرفتها من الازدهار ، وذلك بفضل النفوذ والتقدم الذي حققته على يد فلاسفة اطلعتهم مشهورين بينهم : آزنغا وفازوبندره اللذين لم تلبث آثارهما الادبية ان دخلت الصين وانتشرت فيها ايما انتشار . وفي الوقت ذاته عرفت البراهمانية بعثاً دينياً جديداً اعتُبرت معه دين الدولة الرسمي في الهند ، كما نالت المنزلة ذاتها لدى امارات جنوبي شرقي آسيا . اما الصين ، فبعد الازمة الادبية والاجتماعية التي ادت الى سقوط دولة الهان وجدت نفسها ، في اواخر القرن السادس ، منقسمة على ذاتها ، موزعة أشتاتاً ، ولم تلبث بعد الذي اصابها من ذل وهوان ان ذهبت فريسة جحافل الهونز التي أوغلت بعيداً حتى بغلت

اقاليمها الشمالية ، جارّة وراءها قبائل مغولية كثيرة ، التي عُرفت بعدم استقرارها ، وهكذا انشطرت الصين من الوجهة السياسية الى شطرين : في الجنوب الحكومة الامبراطورية الشرعية بينما نشأ في الشمال عدد من الممالك التركية ـ المغولية ، التي لم تستقر على وضع ولا حال ، شأنها في ذلك ، شأن الدول الجرمانية التي ظهرت للوجود في الغرب اللاتيني ، خلال القرن الخامس ، كما يصورها لنا المؤرخ غروسيه ، فراحت تتطاحن فيما بينها وتقتتل محاولة تصفية بعضها البعض الآخر . وفي سنة ٣٩٨ ، تمكن اتراك تبغاتش او توبا من فرض سيطرتهم التامة بتأسيسهم دولة «واي» المهيبة الجانب ، وحموا حماها ووقفوا بوجه كل من تحدثه نفسه بمهاجمتها . ولم تلبث هذه الدولة ان اعتنقت البوذية واصبح رجالها من اشد الناس استمساكاً بتعاليمها والتشدد في الحفاظ عليها ، واخذوا يتطبعون بطبائع الصينيين ويتمثلون عاداتهم واخلاقهم ، فأنشأوا في شمالي البلاد عدداً كبيراً من المعابد الجميلة .

وكانت فيافي آسيا وسباسبها مرتعاً لعدد من القبائل التركية ـ المغولية تضرب في آفاقها المترامية الاطراف ، مع فريق من قبائل البدو الرحل التي اخذت هي الاخرى ، تتحرك باتجاه البلدان المحظية ، حيث يقوم بحرثها والعناية بها اقوام من الحضر الذين ألفوا الدعة والحياة الناعمة . واخذت هذه القبائل الرحل ، تدق ، على فترات متقاربة ، في موجات متراصة متلاحقة ، حدود الهند وايران . ولم تلبث ان احتلت واستأثرت بكابول والبكتريان وغندهارا وتاريم ، بينما راحت دولتا الغوبتا (الهند) والساسانيين (ايران) تحاولان صدهم ومنعهم من التغلغل في الداخل والعبث فيها فساداً . واستمر الصراع عنيفاً محتدماً تمكنت معه قبائل الهونز الهفتالية من خفض شوكة ايران والنيل منها . وقد تعرضت الهند لغاراتهم بعد الضعف الذي آلت اليه اثر انهيار دولة الغوبتا عام ٤٧٠ ، بعد ان انشقت على نفسها ، فعاثوا فيها نهباً وسلباً ، والحقوا بها الذل والهوان . وقد استطاع احد امرائهم المدعو ميهيراكولا ان يتوغل مرتين داخل البلاد ، سنة ٥٠٢ و ٥٣٠ حتى بلغ سهول الغانج فاحالها خراباً يباباً وقام فيها بمقتلة ومذابح هائلة . وكان سبق لأتيلا ، قبل ذلك بنحو ثمانين سنة ، ان قام في الغرب ، بمثل هذه الفظائع التي تقشعر لهولها الابدان .

وخلال هذه الانتفاضات الدامية وبالرغم منها احياناً نشهد ازدهار البوذية التي كانت عامل تقارب وتهدئة بين هذه الشعوب المتباينة ، كما اتاحت للصين المحافظة على مواصلاتها مع الهند والبلدان الاخرى الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الآسيوية . فلم تعد الهند بالمحور الوحيد في هذه المنطقة . فقد طلع علينا ، في اواسط آسيا ، مراكز غاية في الاهمية ، منها : كوكا وافغانستان وغندهارا . والى هذه المراكز الجديدة الموزعة بين الهندوسيت والغر والايرانيين والطوخاريين ، اخذ الحجاج البوذيون يفدون من الصين على الاخص ، محاولين العثور على النصوص التي كانوا بأشد الحاجة اليها ، بحيث بلغوا الهند الغانجية حتى انهم ادركوا الانسولاند . ونشطت بين هذه الاقطار حركة من التبادل الثقافي ، استهدفت على الاخص ، البحث عن النصوص البوذية

الى جانبُ تأمين العلاقات الديبلوماسية وهي علاقات ، كثيراً ما عهد اباطرة الصين الى الرهبان البوذيين الرحالة بتأمينها . وكانت اول وفادة غادرت الصين ، برئاسة فاهيان ، سنة ٣٩٩ ولم تعد اليها الا سنة ٤١٤ ، بعـــد ان جابت اقاليم تاريم وغوندهارا وسهول نهر الغانج ، واقامت مدة في سيلان وصومطرا . وقد توالى ارسال الوفود بعد ذلـك ، فأرسل تشي – مونغ ، من سنة ٤٠٤ الى ٤٢٤ ، وتلاه تاو – بو من ٤٢٤ الى ٤٥٣ ، ثم واي – تسي مـــن سنة ٦٠٥ الى ٦١٦ ، وكانوا يتبعون طرقاً صعبة المسالك ، عسيرة المرتقى ، اذ كان عليهم ان يجتازوا سلسلة جبال بامير ويعرضون انفسهم للمخاطر المتعددة ويقضون بعض الوقت في الاديار الـتي كانت ترحب بهم وتحسن وفادتهم ويمتعون انظارهم بمشاهد البلاد الطبيعية التي كانت تختلف كثيراً عمـا ألفوا مشاهدته منها في بلادهم ، وهمهم ان يصفوا بدقة المؤرخ ، مـــا رأوا وشاهدوا من معالم ومشاهد ، في وصفها على مثل هذا النحو من الدقة ما فيه متعة المؤرخين المحدثين . وقام بدوره فريق من الرهبان البوذيين ، من اصـــل هندي او فرثي او كوتشي ، برحلات معاكسة بلغوا معها الصين ، بعضهم وفد اليها من مقاطعة فو – فان القصية (كمبوديا) . ونحن مدينون كثيراً لهؤلاء الكهان البوذيين بهذه المعلومات الدقيقة والاوصاف الرائعة التي وصلتنا عن اواسط آسيا والهند والبلاد الواقعة جنوبي شرقي آسيا . فمن المشاهد التي وصفوها لنا ترتقص امـــام اعيننا اليوم ، ماجريات ملوك الهونز في هذه الحقبة ، وانماط معايشهم تحت المضارب واخبية اللباد التي كانوا يعيشون تحتها ، كما نستطيع معها ان نكون لنا فكرة صحيحة عن هـــذه الاحتفالات الدينية في الهند ، وغنى الطبيعة فيها ، وعادات السكان واعرافهم من الخمّير وتشام .

ولمـــا كانت البوذية الهندية بلغت الذروة من الازدهار في هذه الحقبة ، فليس من عجب ، والحالة هذه ، ان تصبح الهند قطب جذب لآسيا الشرقية برمتها . ولذا فالمنطق يدعونا لالقـاء نظرة متفحصة على الحضارة الهندية في هـــذه الحقبة التاريخية الواقعة بـــين القرنين الرابع والسابع .

١ ـ الهند تبلغ أوجها في عهد دولة الغوبتا

بعد هذه الحقبة التي شهدت ازدهار امبراطورية كوشانا في الشمال، ومملكة اندراه في الجنوب، والتي حاولت فيها كل من ايران وروما اثبات وجودهما والعمل لترسيخ نفوذهما، عرفت الهند فترة من الدهر انقسمت فيها على نفسها وخفضت من جانبها فخبت فيها شعلة النشاط وتضاءلت فيها مظاهر الحياة الثقافية والفنية . فمنذ عام ٣٢٠ ، في هذا الوقت الذي قد يكون عاش فيه فيلسوفان هنديان من اشهر الفلاسفة الذين اطلعتهم سماء الهند هما : آزنغا وفازوبندره ـ مع انه ليس ما يمنع الافتراض انهما ظهرا بعد ذلك بنحو قرن ـ ظهر في اقليم باتاليبوترا، امير من قبيلة غوبتا قام ببعض الحروب عادت عليه بفتوحات موفقة . ونقطة البدء انطلقت من مدينة ماغادها القديمة . هـــذه البقعة المقدسة التي رأت البوذية فيها النور ، وكان لايزال المُشاهد يرى ، عليم

٤١١ ، قصر آسوكا ، قائماً في باتاليبوترا ، عاصمة الموريا . فبعد ان بعث امراء الغوبتا الى الوجود مملكة ماغادهي ، راحوا يوسّعون اطراف مملكتهم هـــذه لتشمل جانباً كبيراً من الهند ، كما

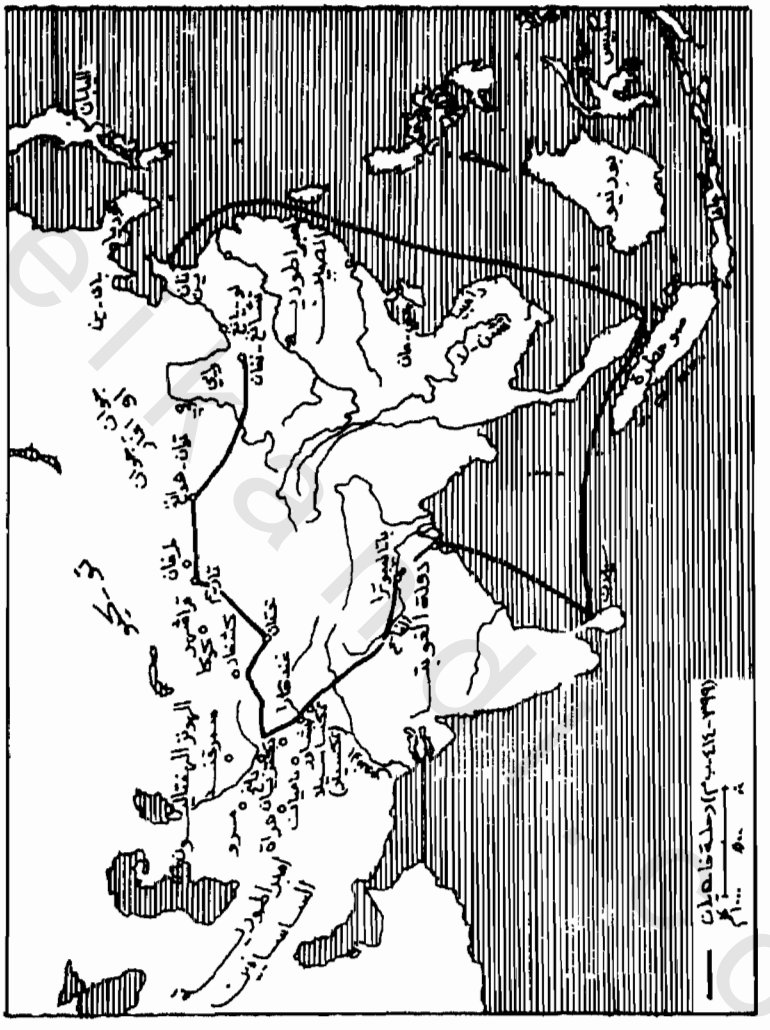

الشكل (رقم ٣) - آسيا في القرنين الرابع والخامس

ان نفوذهم امتد الى ولايات الهند الجنوبية ، واشتد على الاخص ، في اقاليم البحر الجنوبي . عمرت نفوس هؤلاء الاباطرة بروح الفتح كما عمرت بحب الآداب والاهتمام بهـا والاحتفاء بالعاملين لها ، فراحوا يشيدون المباني ويكلأون بعنايتهم ورعايتهم الديانات الكبرى في البلاد ، كل ذلك وهم يحتذون حذو ملوك الدولة الاخمينية والدولة الساسانية في ايران ، كما جاؤوا بأكثر من دليل على

اظهار بطشهم وقوتهم وسيادتهم .

وقد تعاقب على الحكم بعد شاندراغوبتا الاول ، المؤسس الحقيقي لهذه الدولة الذي لانعرف عنه ما يطفىء غلة ، عدد من كبار الملوك ، اشهرهم سامودراغوبتا (٣٣٥-٣٨٥؟ وشاندراغوبتا الثاني (٣٧٩/٣٨٥ - ٤٠٤/٤١٤ ؟) وكوماراغوبتا الاول (٤١٤-٤٥٥) واسكندراغوبتا (٤٥٥ - ٤٦٧ او ٤٧٠) . وفي عهد الاخير منهم بدت على هذه الدولة عوامل الضعف والوهن ، فانفصلت عنها بعض الإيالات التي كانت تابعة لها من قبل ، ولم تلبث ان انهارت هذه الامبراطورية تحت الضربات التي انهالت عليها من جانب الهونز الهفتاليين ، كما نفضت الدول التوابع لها النير الذي كان يرهقها وتتبرم بـه . ومع ذلك فقد تابعت هذه الدول المهيضة الجناح ، الحكم وتدبرت أمرها حتى القرن السابع ، الى ان انهارت وسقطت ، على أثر ظهور دولة جديدة برهنت على ما تم لها من حول وطول ، وبأس وبطش .

شخصية الامبراطور

لأول مرة منذ عهد سحيق ، أي من القرن الثالث ق. م. استطاعت الهند ان تعيد وحدتها وان يتولى الحكم فيها ملوك وطنيون ، والشيء الذي له أهمية خاصة هنا ، هو ان الغوبتا ، شعوراً منهم بهاتين الميزتين ، وتقديراً منهم للمنافع التي تعود منهما على البلاد ، راحوا يحاولون ربط اسرتهم الملكية باسرة موريا ، التي تركت اسماً عالياً وشهرة واسعة تناقلتها الاجيال خلفاً عن سلف : فقد حمل عدد من ملوكهم أسماء ملوك دولة موريا ، وراحوا يزعمون انهم يتحدّرون من سلالتهم وعرقهم . فالى جانب الشعور بالوطنية والعزة القومية ، اخذوا يتطلعون الى ترسيخ سيطرتهم وتركيز سؤددهم ، وفقاً للتقاليد والاعراف الهندية . فأعادوا الى الوجود وأحيوا عادة الذبيحة الفيدية بأبهى مظاهرها ، بما فيه الحصان ، وهي عادة كان سقط الاخذ بها والسير عليها ، لكلفتها الباهظة . والظاهر ان الغوبتا علّقوا على اعادتها أهمية كبرى ، بحيث ان عدداً من ملوكهم تلقّب : « بمجدد ذبيحة الحصان » . وكان القيام بهذه الذبيحة يقتضي له عدداً كبيراً من أضاحي الحيوانات الكثيرة التكاليف ، فقد كان الاحتفال بها يستدعي استعدادات طويلة قد تمتد سنة او سنتين . كما ان الاحتفال بها كان يستغرق شهراً بكامله . وكان الملك الذي تتم في عهده هذه الذبيحة يقوم هو نفسه بمراسمها فيخلد ذكره كما تخلد أمجاده مدى الدهر . ومن الدلائل التي تشير الى رغبة الغوبتا بالظهور بمظهر السلطة المطلقة والقوة والبأس ، هذا العدد العديد من تماثيـــل الاصنام التي أمروا بنصبها وكانت تنصب وفقاً لمراسم عبادة خاصة وتحمل اسم الامبراطور نفسه فتجعل منه بذلـك شخصاً الهياً او بالاحرى إلهاً . وليس من المستحيل البتة ان تكون الوقفـــة او الوضع المسمى : « بالوضع الاوروبي » ، الذي تكثر مشاهدته في الصور والرسوم (*Iconographie*) العائدة لهذا العصر ، اقتبسها ملوك الغوبتا وأخذوها من وقفة الامبراطورية لشاه ايران . لا يخلو من أهمية البتة ، ان نشير هنا الى ان هذه الوقفة ترتبط الى حد بعيد ، بعرش يحمل من التزاويق الحيوانية ما يشير ، ولو بصورة رمزية ، الى ما للشخص الجالس من صفة عامة الشمول .

فالملك الذي هو شبيه بالآلهـــة ، وملك الكل ، هو الامبراطور نفسه ، صانع (الزمن) (*Kala*) . فهو كالشمس يخضع لنظام دقيق ويضفي على النظام الكوني دقته وانتظامه .

فالمصادر التاريخية تبرزه لنا نموذجاً كاملاً للكشاتريا او الجندي النبيل . ومع ان السلطان يأتيه عادة بالوراثة ، عليه ان يستحق عرشه وصولجانه بما له من مناقب شخصية رفيعة ، أسماها وأرفعها ، على الاطلاق ، ما فيه مسرة شعبه وغبطته ، وذلك عن طريق تأمين العدالة واشاعته العدل على السواء . وهذا بعينه ما يشير اليه اللقب الذي يحمله « راجا » والذي يطلق عليـه ، وهو لقب او كنية انمـــا تعني « السار او التبرج » ثم زاده الغوبتا سمواً وتفضيلاً بنحت كلمة : مهَراجاً وهو وصف لا يُطلق إلا على الاباطرة أنفسهم .

ولكي يتمكن الملك من القيام بواجباته على الوجه الاكمل والامثل، يقتضي ان تتوفر له تربية تامة . فهو يخضع ، في عهد الطفولة ، لما يخضع له أطفال الطبقات الثرية وسراة القوم ، ويُقصّ شعره على شكل اكليل ويتم زواجه في السن القانونية . عليـه ان يكون متضلعاً من النصوص والآيات المقدسة وان يضعها دوماً نصب عينيه عندما يجلس للحكم والقضاء، وان يحسن الاضطلاع بالمسؤولية الملقاة على أكتافه . ويدرس الفلسفة وما وراء الوجود ، والمنطق ، وعلم السياسة ، وفن الحرب واصول الزراعة والتجارة ، وفرض الشعر والموسيقى . فالهدف الاول الذين يضعه نصب عينيه هو الاكثار من الفتوحات الحربية بحيث تبلغ أطراف مملكته « أقاصي المعمور » . وفي هذا السبيل عليه ان يعرف تماماً ما في مملكته من امكانات وطاقات كامنة ، ويتبين حقيقة وضع الدول التي يرغب في مهاجمتها وضمها الى ممتلكاته ، فيستعين على ذلك بالوسائل الديبلوماسية قبل كل شيء ، حتى اذا ما باءت بالفشل ولم تُؤتِ أكلها، عمد الى السيف واتخذه عدة الحرب . كل شيء يتوقف على السياسة التي يضع الملـــك اصولها وينهض بأسبابها ، كما يتوقف بالتالي على الروح المعنوية العالية في الجيش .

وعندما يكون ولياً للعهد ، قبل ان يصبح ملكاً ، عليه ان يخضع لحفـــلة تكريس خاصة وفقاً للمراسم التي يتم بموجبها تكريس الملك ، انما على قدر اقل ونسبة اخف من الزهو والغنى . ينضحه الكهنة بالزيت وتتم المراسم التالية ، وفقاً للتقاليد المرعية الاجراء، بينما ينصرف الشعراء والزجالون للتغني بامجاد الاسرة المالكة ، وتنتهي الحفلة بتقديم التحية لوالديه . واذ ذاك يصبح اهلاً لتحمل اعباء الحكم مع الملك ، اذ اصبح يتمتع الآن بنصف السلطة . واذ ذاك ، يعهد اليه بادارة احدى الولايات ، يَحِفّ به لفيف من الموظفين وبطانة تدور في فلكه ويدور بها قصره .

وفي الوقت المقدور ، يجري تكريسه ملكاً بكل ابهة وجلال، وفقاً لمراسم لا تتغير وضعَت منذ العهود الفيدية ، ويجري الاستعداد لحفلة التكريس وتحدد مراحلهـــا وترتيباتها ، في قرار يتخذه الملك الخارج ، في جلسة رسمية لمجلس الوزراء . ويتولى المهندسون بناء جنـــاح خاص يرتفع على اربع ركائز ، ثم يؤتى برئيس البراهمان فينضحه بالماء المأخوذ من انهر الهند المقدسة . ويوزع الملـك بهذه المناسبة السعيدة مكارمه وهباته بسخاء ، كما يأمر بالعفو عن المساجين حتى

من كان منهم محكوماً عليه بالاعدام ، ويأمر باطلاق سراح الحيوانات المتنقلة ، ويعيد الحرية الى العضافير في اقفاصها . وبعد هذه المراسم ، يأخذونه الى دارة جديدة اعدت له خصيصاً ، ويجلسونه على اريكة بعد تطهيرهـــا ويلبسونه حلة جديدة ثم ينظر الى المرآة ويعهدون اليه بشارات الحكم ، من بينهـــا مظلة وزوج من المذبّات وعرش وصولجان وحذفة ، واكليل من الذهب ، وكرسي قوائمه من الذهب الخالص . ثم يتربع الملك الجديد على اريكة العرش في بهو القصر الكبير ، تحت المظلة . وعند الانتهاء من هذه المراسم ، يطوف ممتطياً احـد الفيلة ، في احياء المدينة ماراً بشوارعها الكبرى .

فالمصادر الادبية التي تعود لهذا العهد لا تنفك عن وصف الابهة والجلال الذي كانوا يحيطون به الملك ، وهذه المواكب الزاهية بالحجارة الكريمة والثيـــاب المزركشة ، والزهو الذي كان يتلألأ به القصر الامبراطوري ، ولمعان الملابس وبريقها ، ونور الحلي والجوهرات ، وغير ذلك من مظاهر الغنى والثراء والجمال التي تنم عن ذوق رَهيف مما نرى صورة عنه في هـذه الرسوم التي تزين جدران المعابد والهياكل .

واوقات الامبراطور تحدد بانتظـام ودقة ، كما في الماضي ، فيُعلِن مُؤذِن خاص مكلف بهذه المهمة ، تعاقب الساعات ومرورها اذ ان بين الزمن وشخص الامبراطور ، علاقة مباشرة. يبتدىء النهار بتعيين العسس في اماكنهم ، وفقاً لنوباتهم ، ثم يجلس الملك للنظر في امور الدولة. وبعد ان يكون الامبراطور اخذ القرارات اللازمة واصدر التعليمات التي يقتضيهـا تصريف شؤون الدولة سواء في المدينة ام في الريف ، يستحم ويتناول وجبة خفيفة من الطعام وينصرف للدرس والبحث . ثم يأخـــذ باستلام رسوم الجباية والخراج ، عيناً او نقداً ، وينظر في ترفيع المأمورين والموظفين ويجري عليهم مكافآته . وبعد ذلك يرأس مجلس الوزراء ويستمع الى التقارير الواردة على القصر من العيون والارصاد المبثوثة . ثم يأخذ قسطاً من الراحة اذ ينصرف لهوايته المحببة او ينصرف للتأمل . وبعـد ذلك يذهب ليستعرض الفيلة ، وخيوله ومركباته الحربية وجيش المشاة ، وينظر برفقة قائد الجيش الاعلى ، في الخطط العسكرية التي يقتضيها النهوض بالحرب . وعند غياب الشمس يأخذ بتلاوة صلاة الغروب، ليستقبل بعد ذلك موفديه السريين . ثم يتناول حماماً جديداً ، ووجبة ثانية وينصرف لدرس بعض القضايا العالقة ، ليتجه بعد ذلك الى جناحه الخاص على اصوات الموسيقى ، ويتناول وجبة العشاء . وهو يستيقظ باكراً عنـــد الفجر ، على صوت الابواق الصادحة ، ويستجمع افكاره مستعرضاً في خاطره اهم الواجبـــات المترتبة عليه ، ويطلع على كيفية تنفيذ القرارات التي اتخذت من قبل ، ويصدر اوامره وتعليماته السرية ، الى عماله وجواسيسه ، ويتقبل بركة البراهمان وادعيتهم وتضرعات الكهنة ، ويعرض شؤونه الخاصة على طبيبه ومنجمه الرسمي، ويعطي الطاهي الارشادات اللازمة ، ويقدم مراسم التكريم لبقرة مقدسة . وهكذا يرى نفسه على اتم استعداد للاضطلاع بالمهام والواجبات التي ستعرض له في يومه .

الدولة والادارة

فاذا كان كل شيء يتوقف على الملك او الامبراطور ، محور الدولة وركنها الركين ، فهو لا يزال بحاجة الى مؤازرة وزرائه والجمعية التي تمثل الشعب وكبار الموظفين الذين لا يستغنى عنهم في تصريف شؤون الحكم. فالمجلس التمثيلي هو هيأة سياسية عمل بها منذ العهد الفيدي ، وهو عبارة عن مجلس شورى خاص . ومع ذلك ، فهذا المجلس هو احدى القوى الحيوية في الدولة ، ينتخب الملك ويحاكمه اذا ما بدر منه ما يحط من شأن الملك ، ويقدم له النصح والرشد في كل ما يتصل بأمور القضاء وشؤون الادارة . ليس عندنا أية فكرة عن تشكيله وتأليفه ، اذ نرى بين أعضائه امراء من العائلة المالكة ، وقادة حرب ، وكهنة وممثلين عن الحرف والمهن ، حتى وبعض المقدمين من الطبقات الشعبية . اما القضايا السياسية وما اليها فهي من اختصاص مجلس الوزراء الذي يتألف من ٣ وزراء ، على الاقل ، وقد يبلغ عددهم أحياناً ثمانية او عشرة ، وربما وصل أحياناً للثلاثين والقرارات التي تؤخذ بأكثرية الاصوات ، تأتي نتيجة المناقشات السرية وتبادل الرأي بشأنها . فاذا ما أصبحت المناصب الوزارية وراثية ، كان لا بد مع ذلك من موافقة الملك على ممارسة صاحب الحق لها . وقد يحدث بالطبع ، ان يختلف مجلس الوزراء رأياً مع الملك ، او انه يفرض على الملك وجهة نظره . والملك يصدر القرارات بمراسيم او « فرمانات ملكية » يُعدّها الديوان الملكي ، لها قوة القانون وتوجب الإلزام ما بقي الملك حياً ، الا اذا صدر أمر او قانون خاص بالغائها . وتشدد المصادر التاريخية على ما للوزراء من أهمية ، اذ انهم يتولون الحكم في حال تغيب الملك . فالى جانب وزراء دولة ، تذكر هذه المراجع منصب الوزير الاول ، الذي لا يقل صاحبه شأناً وأهمية في الامور المدنية ، عن منصب كاهن الملك الخاص او مستشاره الديني للأمور الروحية . وبين هؤلاء الوزراء وزير الخارجية ، ووزير الشؤون المالية ، والعدلية فالوزير الاول او رئيس الوزراء هو الوسيط بين الوزراء والملك ، او الناطق باسمه والمعبّر عن آرائه وسياسته . غير ان القرارات التي تتعلق بسياسة الدولة وتصريفها التصريف الصحيح ، فتؤخذ في مجلس الوزراء . من اختصاص الوزراء النظر مثلاً ، في كل ما يتعلق بهيبة الملك وأبهته وجلاله : كحفلات التتويج ، ومواكب اسفاره ، ومراسم الجنائز الملكية . فعليهم ان يسهروا على النظام وتأمين أسبابه في حال غياب الملك او موته ، فعلى وزير الخارجية ان يؤمن حسن العلاقات الديبلوماسية والثقافية وان يهيء عقد الاحلاف والمعاهدات السياسية ، وان يرفع للملك تقارير مفصلة حول الهدايا المرسلة اليه من الخارج . ويشرف وزير العدل على ايرادات الدولة ودخلها ، ويجلس الى الملك عندما يقعد للقضاء ، ويعد التقارير لكل قضية ينظر فيها ، ويتقبل عرائض الملتمسين وشكاويهم ليرفعها بدوره للملك. ومن الادوار المهمة والمسؤولية الكبرى ، الدور الذي يترتب على كاهن الملك ، فهو لا يقل شأناً عن دور الوزير . فالملك يكن له احتراماً كبيراً ويستشيره في امور كثيرة ويعوّل على رأيه السديد .

ويلي الوزراء اهمية ، الحكام الاداريون فجباة الضرائب والرسوم ، الذين يعهد اليهم بتأمين

الادارة في القطاعات التي يشرفون عليها ويضطلعون باعبائها : كالمساحة والمالية والشرطة والعدل ، وادارة مزارع الملك واملاكه الواسعة ، ومراقبة الاسواق التجارية وتقنيتها ، وادارة معامل الدولة ، واستغلال الاحراج واستثمارها ومراقبة الزراعة وتربية الماشية ، والاشراف على الصناعة ، ومراقبة تجارة المخدرات والمشروبات الروحية ، والاشراف على المسالخ والمواصلات النهرية والبحرية ، والنقل البري. وبين هؤلاء الموظفين الكبار من يعنى خصيصاً بالأمور الدينية ، بما فيها النظر في شؤون النساك والمتزهدين .

عدد كبير من الموظفين يعمل باستمرار لتأمين حسن سير الادارة في البلاد وامنها : كالسفراء الذين يتمتعون بمبدأ الحصانة ، وحكام الولايات والاقاليم والقادة وكبار الضباط في الجيش ، والقوامون على محفوظات الدولة وغيرهم من الموظفين في هذه السلسلة التي استطالت حلقاتها في عهد دولة الغوبتا ، ولكل منهم القابه الخاصة ومراتبه .

ويأتي في اسفل السلم الاداري مأمورون أقل شأناً : كالشعراء المتجولين ، وكتبة السر ورجال الادب والكتاب ، وحملة شارات الملك والحرس الخاص بكنوز الملك أو بحريمه ، وسائقو المركبات الحربية او الفيلة، والحرّاس والخدم والحشم، والحارسات المدججات بالاسلحة المعروفات باسم *Yavani* .

وتقسم البلاد ، ادارياً الى ولايات واقضية ، يتولى الامر في الولاية حاكم عام يعرف باسم نائب الملك ، له في مركز الولاية بلاطه وحاشيته كالملك في عاصمة الدولة . وتقوم في القرى ، هيئات ادارية تعقد لدى الاقتضاء ، مقابلات مع نائب الملك ، وتتمتع بصلاحيات قضائية وتنفيذية كما تتمتع بحق الاشراف على المؤسسات الدينية . والعاصمة نفسها التي فيها يقوم الملك ووزراؤه ، تخضع ادارياً الى لجنة من اربعة اعضاء يرأسها مقدم يشرف كل عضو على قطاع يضم ربع السكان القاطنين فيها ، كما يقوم الى جانب هذه الهيئة مجلس بلدي من اعضائه ممثلون عن التجار والصيارفة والكتبة. اما في الريف، فالهيئة الادارية المحلية يرأسها موظف قائم بالاعمال . وعلى هذه الوتيرة تسير الادارة الخاصة لدى كبار الاقطاعيين فيشرف على هذه الاملاك مدبّر عام، يتلقى اوامره وتعليماته جيش من الخدم والمأمورين . وكذلك قس الدول التوابع او الدول الدائرة في فلك المملكة فهم ينهجون ، على العموم ، النهج المتبع والمعمول به في الولايات ، مع الاحتفاظ شرعياً بشيء من الاستقلال الاداري .

والجيش الذي هو الركن الركين الذي يقوم عليه استقلال الدولة وقوام هذا الاستقلال ، يؤمن اسباب سلامة البلاد والدفاع عنها . وهو يتألف عادة من فرقة المشاة ، وفرقة الخيّالة وفرقة الفيلة . اما فرقة المركبات الحربية ، فقد استغني عنها في عهد دولة الغوبتا ، مع انها من عدة السلاح التقليدية في الهند . وهنالك فرقة جديدة ، عُمل بها منذ عهد قريب ، هي الاسطول الحربي الذي يتولى حماية الشواطىء البحرية ويسهر على سلامتها ، كما يحافظ على الملاحة النهرية . ويقوم على الحدود ، حاميات عسكرية بقيادة ضباط مجربين. وهذا الجيش يتألف من فئات عدة

بينها فرقة الحرس الدائم ، يتوارث افرادها الخدمة خلفاً عن سلف ، وهم حسنو التدريب ويتناولون رواتب طيبة . وهنالك فرقة من المرتزقة ، حاضرة دوماً للخدمة وللتدخل ،

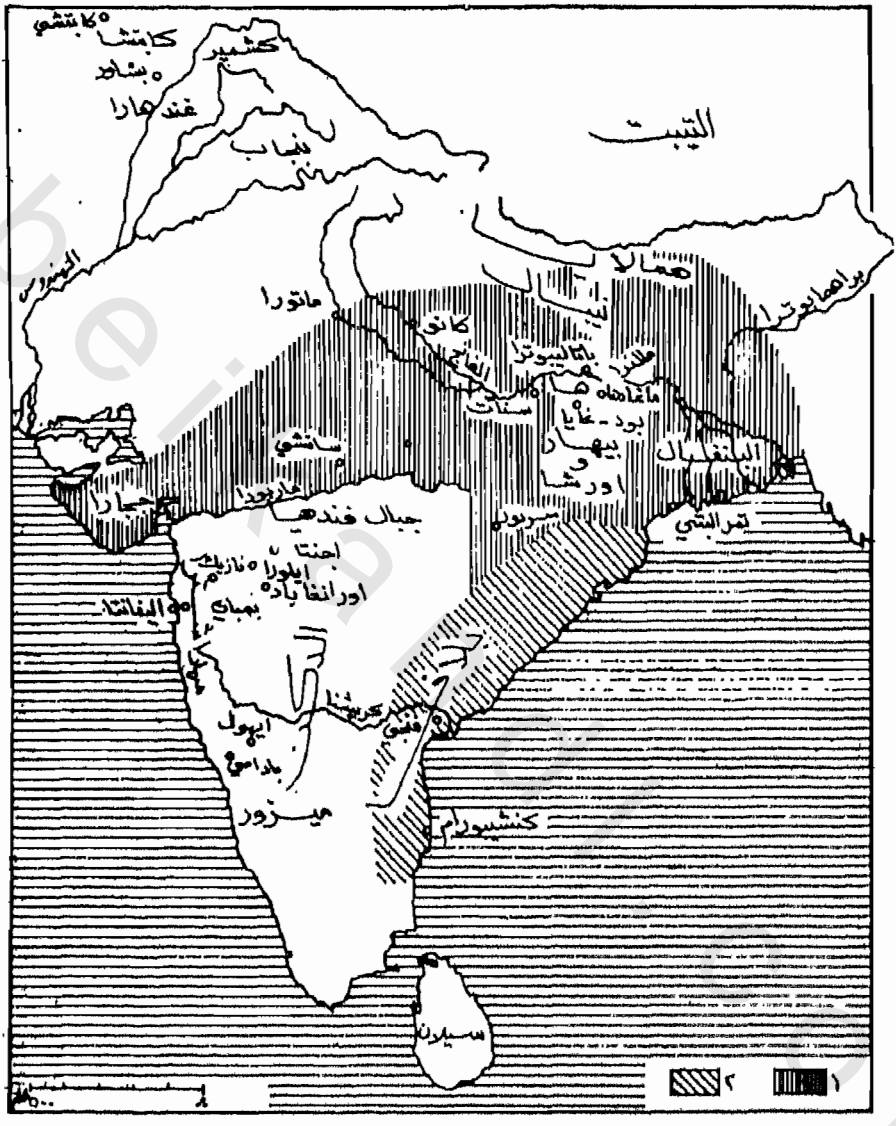

الشكل (رقم ـ ٤) الهند في عهد دولة الغوبتا
١ ـ امبراطورية الغوبتا ٢ ـ حرب سامودرا غوبتا (٣٢٥ ـ ٣٨٥ ؟)

و « كتائب » تؤخذ وحداتها من بين أصحاب الحرف والمهن ، و «احلاف» يستعان بهم ويرجع اليهم بحذر كلي وتحسب ، ووحدات يتألف افرادها من جنود نجوا بانفسهم من صفوف العدو هرباً من مظالم تعرضوا لها ، كما توجد وحدات اخرى تضم رهطاً من لئيم الهمج وسكان الغابات

والاحراج . وتتألف الكتائب في الجيش من وحدات يتوزع افرادهـــا الى عشرات ومئات والوف . فاذا كان الملك هو ، مبدئياً ، قائد الجيش الاعلى ، فالقيادة الفعلية يتولاهـــا قائد عام *Muchûsemâpâti* وهو شخصية بارزة في الدولة تعدل ، ان لم تبز ، شخصية ولي العهـد ، بتقلد مهام وظيفته السامية بعد ان يجري مسحه ، وفقـاً لمراسم معينة كمراسم الملوك ، يرفرف أمامه علم مذهب .

فلا عجب ان يكون هذا الجهاز الاداري الضخم كثير التكاليف ، باهظها ، بالنظر للاعبـاء المرزحة التي تواجهه في توفير المرتبات لكل هـــذا الجيش العَرِم من الموظفين على اختلاف درجاتهم .

مرافق البلاد ومصادرها

تغتذي خزينة الدولة بموردين رئيسيين هما جباية الضرائب ، والخراج. فرسوم الجبـاية هي التي تفرض على غلّة الارض والمحاصيل الزراعية والحيوانية . فللامبراطور منها ، مبدئياً ، السِدْس الا ان هذا المعدل عرضة للتغير : فقد يبلغ ثلث غلة الارض او ربعهـا اذا كانت الارض غنية معطاء ، وقد تصل حصته الى نصف الغلة اذا كانت من المواد الثمينة كالعاج والجلود . والعادة المتبعة هي ان تُدْفع هذه الرسوم نقداً بعد ان توزن محاصيـــل الارض وزناً دقيقاً . فالرسوم تُفرض على الفاكهة والخضراوات ، والعسل والخشب ، كما تفرض على القرى ، في الريف ، ضريبة مشتركة يتناهـد المزارعون والاهلون على دفعهـــا ، كل بحسب طاقته ودخله ، كما تفرض ضرائب سنوية على اصحاب الاطيان الكبيرة والصغيرة ، على السواء . وفي عهد الغوبتا ، فرضت على البلاد ضريبة خاصة اصابت مستأجري الاراضي . ولما كانت الدولة تأخذ على نفسهـــا مهمة السهر على سلامة المراعي والحقول ، فهي تفرض عليهـــا رسم حراسة خاصاً ، كما تفرض رسوماً اضافية على الذين يستفيدون من شبكة الري والسقاية . وهنالك رسوم دخولية وتعريفات جمركية على البضائع الواردة من الريف الى المدينة . يتناوح معدلها بين ٥٤٪ وبين ٢٠٪ . ولعل أخف هـــذه الرسوم هي التي تفرض على الحطب والحبوب والمواد الدهنية ، بينما يرتفع معدل الرسوم المترتبة على تجـــارة المشروبات الروحية ، المقننة من حيث المبدأ ، ان في ايام الاعياد والتجمعات العـامة . كذلك يفرض رسم خاص على تعيير الموازين والمقاييس ، وهي عملية تجري ثلاث مرات في السنة ، كما تفرض رسوم خاصة على وسائل النقل وانواعها ، حتى ما كان خاصاً منها . وتخضع للرسوم في دوائر المكس كل عمليـــات التصدير ، كما انه محظور تصدير بعض المواد ، تحت طائلة الجزاء والمصادرة : كالاسلحة والجلود ، والحلي والحبوب والمواشي ، ويستثنى من هـــذا الرسم بعض الحبوب المستوردة . ويُلزم العمال والصناع بدفع ما يتراوح بين ١٠ — ٢٠ في المائة من دخلهم ، ويعفون من دفع هذا الرسم ، اذا قبلوا ان يعملوا ، بعض الوقت ، لحساب الدولة . ويدفـع العاملون في تربية الماشية ، عيناً او نقداً ، حسبما يختارون . وهنالك رسوم اخرى تغذّي خزينة الدولة . كرسم التأشيرة على تذاكر السفر ، والمسالخ والمومسات والبغي وغير ذلك .

هذه الرسوم والضرائب تنال كل المواطنين مبدئياً ، الا انها عرضة للتخفيف او الاعفاءات ، في مناسبات وظروف معينة ، كالمدّنين ، والحبالى ، والمرضى والطاعنين في السن والزهّاد. وكهان البراهمان وهؤلاء ينعمون بحق إلهي . كذلك تعفى من الرسوم المقاطعات التي تمد الدولة برجال الحرب .

وتملك الدولة عقارات واطياناً طائلة . كما تملك احتكارات عديدة يعود دخلها للخزينة . وفي عهد الفوبتا فرضت الدولة ملكيتها على الاراضي الموات ، غير المستثمرة وحظرت على اي كان تملكها او التصرف بها تحت اشد العقوبات . ويعود لها وحدها ملكية معامل الحياكة والنسيج ومعامل تنقية فلزات الفضة والذهب ، ومناجم الحجارة الكريمة والمرجان واللؤلؤ والملح ، وقاعات اللعب والملاهي . والى الملك او الامبراطور تعود التركات التي لا وريث لها ، باستثناء البراهمان ، والاغراض التي يعثر عليها بعد ان تفقد ، كما ان رسوماً خاصة تفرض على الحاجيات المسروقة او المفقودة ثم يُعرف صاحبها . وفي حالات الحرب او الأزمات المالية تفرض ضرائب استثنائية ، يتحملها الجميع ، على اساس تأمين التوازن بين دخل الدولة ، ونفقاتها العامة ، مع تأمين فائض للطوارىء . والدولة تتحمل نفقات مرزحة كالهبات التي تَقِفُها ، والاحتفالات الدينية التي تقيمها ، وتأمين اعاشة القصر ومن فيه من رجال الحاشية والبلاد ، وتكاليف المصانع والمعامل ، والمشروعات التي تأخذها الدولة على عاتقها ، ومرتبات هذا الجيش العرم من المأمورين والموظفين ، بين مدنيين وعسكريين ، اذا ما ضربنا صفحاً واهملنا جانباً المرتبات والاعطيات الملكية الاخرى . ولا بدّ من الملاحظة هنا، ان هذه النفقات الباهظة لا تصيب دافعي الضّرائب على السواء : فهي تنال بالاكثر ، التجار والصناع ، اذ ان البراهمان معفون من هذه الضرائب ، كما ينعم الى *Kshatriya* بانعامات كثيرة .

الحالة الاقتصادية

يستدل من المراجع العائدة لهذا العهد ان الازدهار عم جميع أطراف البلاد ، ابان حكم دولة الفوبتا ، أفراداً وجماعات . فقد سيطر على البلاد جو من الطمأنينة والامن ، لا بد منه ولا ندحة عنه لنمو التجارة وانتشار مرافقها ، فكانت الطرقات تغص بقوافل التجار وما اليهم من عربات النقل، يقود خطواتهم دليل محنك. اما المدن فتزدان بالمباني الجميلة المتناثرة على جانبي الشوارع العريضة ، كما كانت دكاكين البقالين وعربات الباعة ومخازن التجار تغص بالسلع والبضائع على أنواعها . والزراعة التي هي أهم مرافق البلاد الاقتصادية هي قوام الثروة وركنها الركين ، فلا غرو ان تنشط ويتسع ميدانها يوماً بعد يوم .

والمزارعون ، وعددهم لا يحصى ، يستخدمون المحاريث التي تجرها الابقار ويؤمنون حاجة البلاد من الشعير والارز ، وقصب السكر والسمسم والزعفران . وبفضل نظام الري البديع ، وتسميد الارض وتخصيبها، كان باستطاعتهم ان يستغلوا عدة مواسم في السنة الواحدة. فالمراعي تغص بالكلأ حيث تسرح وتمرح الثيران ذات السنام والثيران العادية والبقر والعجول ، والحصان والبغل ، والماعز والجمل .

وبين المهن والحرف الدارجة نذكر النجارة والحدادة والصياغة، وحياكة الحرير والاصواف، والصباغة، والبناء، والهندسة المعمارية والتقطير، واستخراج الزيوت، وحفر العاج والصيد والقنص وطحن الحبوب، والطب، والطب البيطري، والموسيقى والرقص، وألعاب الخفة والرشاقة والتسري، والصرافة والتجارة. وأصحاب هذه الحرف يلتظمون جمعيات ونقابات بحيث كثيراً ما نرى قرية ما يحترف سكانها حرفة واحدة، لها رئيسها وكاتب سرها وجلاوزتها.

والى جانب التجارة التي تقوم على التعاطي بالحبوب والحجارة الكريمة، ومنسوجات الحرير وصناعة العاج والافاويه والماشية، تزدهر الصناعة التي تعنى بالغزل والحياكة، وصناعة الحبال والسيور، ودباغة الجلود وشغل الحلي والجوهرات، وصنع المعادن واستخراج الفلزات والحجارة الكريمة وتوضيبها، واعداد العقاقير الطبية وبعض المواد الكيماوية.

اما معلوماتنا عن النقد والعملة، في هذه الحقبة، فقليلة. فقد درج استعمال الدينار الذهبي في عهد الغوبتا، وهو اصطلاح دخل الهند من العالم اليوناني الروماني، وكان يساوي عندهم ١٦ *Rûpuka*، وهي عملة من الفضة، أي ما يوازي قيمة ٢٤ روبية، في الوقت الحاضر. وقد عرف القوم، اذ ذاك، السفتجة او السند المالي. والمعروف ان ١٢ ديناراً ونصف كانت تكفي لاعالة خمسة رهبان في اليوم.

الوضع الاجتماعي

كانت الهيئة الاجتماعية لا تزال منقسمة الى طوائف. فلم يطرأ أي تغيير جذري على هذا الوضع. وقد زاد التقاطع والتباعد نظرياً بين هذه الطبقات تحت تأثير البراهمان، اما بالفعل، فاننا نلاحظ بعض التخفف من هذه الناحية، اذ كثيراً ما تعقد عقود زواج بين أبناء طبقات متباينة، مما أدى الى شيء من تخالط الطبقات وتمازجها بعضاً ببعض، الامر الذي حمل الغوبتا على اصدار اوامر مشددة باحترام نظام الطبقات والتقيد بمستلزماته التي تعود الى عهد بعيد. ففي عهد تميز بالازدهار التجاري والاقتصادي وتخزين الطبقات الدنيا، ثروات طائلة، أوجس اولو الامر من ان ينزع ممثلو هذه الطبقات الى الاستئثار بالسلطة معتمدين في تحقيق ذلك، على ما تم لها من غنى وافر. والذي يبدو لنا من المراجع الادبية التي تعود لهذا العهد، ان الثروة او الغنى، أصبحت المعيار او المقياس الاجتماعي الامثل، وبالتالي الوسيلة الفضلى لتخطي نظام الطبقات، بالرغم من تشدد البراهمان وتشبثهم باصرار وعناد، بموقفهم، لا يتزحزحون عنه قيد أنملة، بينما بقيت طبقة كشاتريا مقتصرة مبدئياً، على الملاكين ورجال الحرب، ولم يكن من النادر ان نرى بينهم من يمارس مهنة او حرفة، او يشترك عضواً في النقابات المهنية.

فالاسرة هي الحجرة الاجتماعية الاولى. ولذا بقيت التربية تسير وفقاً للمنهج المتعارف القديم الذي كان يقسم الحياة الى أربع مراحل متميزة: الطفولة، المدرسة، الحياة الزوجية، الزهد، وهي مراحل كان للتربية فيها شأن رأي شأن، تبتدىء بفترة قصيرة عند الابتداء، ثم يعقبها انقطاع الطالب بكليته لمعلمه (*guru*)، ويلازمه ويعيش في محيطه. فيتعلم منه كل ما يرى نفسه

بحاجة اليه في هذه الحياة ربما فيه التمرس على استعمال السلاح . وبعد أن يُتم دائرة تحصيله يتزوج ليؤسس بدوره اسرة . وأنواع الزيجات لم يطرأ عليها تغيير يذكر ، الا اننا لم نعد نسمع في عهد الغوبتا، بما كان متبعاً من قبل أو مشروطاً من العاب الخفة أو العاب عسكرية أو رياضية .

والعائلة بمعناها الواسع ، لم تكن لتقتصر على الجدود والابناء من الصلب الواحد بل تضم أيضاً البطون والارحام الجانبية وذراريهم ومَن اليهم من احلاف وتوابع ، وخدم وحشم ، وعمال وارقاء. كل هذه الجموع تسكن منعاً رَبْعاً هو نزل أكثر منه مسكن خاص. ورب الاسرة هو كبيرها وسيدها وقائدها ، له حق تعدد الزوجات ، زوجته الاولى هي امرأته الشرعية ، تشرف على البيت وتهيمن على الادارة المنزلية ، ومن هنا تبدو الاهمية التي يعلقونها على الأولاد الذكور . فان لم ينجب الاب ذكوراً تعقدت امور الوراثة وارتدت أشكالاً وألواناً هي أقرب الى الاعراف منها للقانون . فاذا لم يكن في الأسرة ولد ذكر احتاط الاب للأمر وراح يتلمس الحيلة فيجعل من ابنته الوحيدة « ابناً لا اخ له » . وباستطاعة الاب ان يتبنى ابناً له او يشتري له ابناً . وباستطاعة هذا الابن بالتبني ان يرث أباه الحقيقي وأباه بالتبني . وقد يحدث ايضاً ان ينقطع نسل الاسرة ، فتذهب املاكها للملك ، باستثناء البراهمان .

اما نظرة الرجل لزوجته فالنظرة الى سيدة جليلة ، محترمة مرشدة وهادية وصديقة . ولذا كان تأثيرها عظيماً في الاسرة . فهي قلما تخرج من البيت ، واذا ما خرجت فبتحفظ كلي ، بعد ان ترتدي إزاراً او ملاءة. فاذا لم تُعقب فقدت الكثير من منزلتها وشأنها. فاذا ما ترمّلت فقدت حق رعاية الاسرة وذهب هذا الحق شرعاً لكنّتها او زوجة ابنها . فهي لا ترث ، انما يحق لها ان تأخذ صداقها والهدايا التي قدمها لها زوجها في حياته ، ولا سيما بجوهراتها وما لها من حلي تبقى لها مدى الحياة . والى هذه الحقبة بالذات يجب ان نرد ظهور تقاليد « المرأة الأمينة » التي تحرق نفسها فوق محرقة الحطب مع زوجها ، كما يستدل من نصب تذكاري تاريخه سنة ٥١٠ ، اكتشف في أران . فالارامل اللواتي لا يتبعن مثل هذا التقليد ولا يمتثلن له يحكمن على أنفسهن ، شئن أم أبين ، بالانزواء ، والانكماش عن المجتمع ، يتجنبن التبرج ، ويمقصن شعورهن ، ويعشن منزويات متزهدات . فزواجهن من جديد ، امر غير مرغوب فيه ، تشجبه العادات ، وتمجه ، الا اذا وقع من احد افراد الاسرة ذاتها ، أي أقرب أقارب زوجها المتوفى .

قانون الجزاء

وهذا المجتمع الذي يقوم أصلاً على الطبقية، محوره الاسرة او العائلة وينتظمه عدد من القوانين . فالسرقة هي الجرم الموصوف ، يحترفها محترفون مجربون ويستعملون لها عدة خاصة . يدخلون المنازل بعد تحطيم الابواب وكسر النوافذ ، او خرق الجدران . ويقوم على تعقب اللصوص واقتفاء اثرهم موظفون خصوصيون ، يتخذون لهم يداً من كل الوسائل الممكنة : كالحيلة والتجسس والترغيب والتشجيع . ولما كان الملك هو القوّام على أملاك رعاياه ومقتنياتهم ، فليس بمستغرب قط ان يولي أمر تعقب اللصوص اهتمامه الخاص .

وتنزل منزلة السرقة ، كل الجنح الشبيهة لها : كالغش في اللعب ، والتلاعب بالمقاييس والمكاييل وتزييف العملة ، وتزوير المستندات العامـــة او الخاصة ، والشهادة الكاذبة ، والغش في صنع الحاجيات الموصى عليها . ويدخل بين كبائر الجنايات والجرائم الموصوفة : القتـــل ، والخطف والاغتصاب ، ووسائل العنف والاكراه ، والاهـــانات ، والحاق الضرر المـادي او الاذى وللدولة وحدها حق الاقتصاص من المجرمين . فالعقاب يختلف طبعاً باختلاف نوع الجريمـة أو الجناية ، فيتراوح بين دفع تعويض وبين الحكم على الغريم بالتعذيب أو بالقتل أو بالنفي ، بعـد السجن والاعتقال مدة من الزمن . فقد بطل تعذيب المذنب ، في عهد دولة الغوبتا ، الا في حال تكرار ارتكاب الجريمة فيحكم على الجاني بقطع يده اليمنى . فاذا مـــا جلسوا للقضاء عُقدت المحكمة واحيطت المحاكمة بالمهابة والجلال ، سواء ترأسها الملك بالذات ، أم احد القضاة في الحالات الاخف . وكثيراً ما تنتقل هيئة المحكمة بكاملها في إثر حملة عسكرية ، فتشكل ، اذ ذاك ، من الملك او من احد نوابه ، ومن القضاة أو المستشارين ، ومن كاتب عدل ، ومن محلفين . أمـــا المحاكم المكلفة النظر في قضايا النقابات المهنية فتتألف هيئاتها عـادة من ذوي الخبرة المشهود لهم بالنصفة لحل المشكلات العارضة . تُعرض الدعوة وفقاً للقواعد والاصول القانونية في عريضة أو التماس يرفع للقاضي ، ويُعلّق على لوحة ، موجز مقتضب للقضية ، بحيث يتاح للنظارة والمشاهدين ان يقفوا على الوقائع . ويؤدي شهود الإثبات ، وعددهم ثلاثة شهادتهم بهيئة رسمية ، وهي شهادة مفروض فيها ان تكون صادقة ، ناطقة بالحق . فاذا ما ثبت زور الشهادة وبهتانها ، عوقب الشاهد ببتر احد اعضائه عقاباً له . واذا ما ظهر ان القضية مرتاب بامرها أو مشكوك بها أمر القاضي بالاحتكام الى الله ، أي تعريض الجهة المشكوك بامرها للتعذيب والتنكيل : كالكي أو السلق بالماء الحـار لاستخلاص الحقيقة . ويبلّغ الحكم كتابة للجهة المدعية ولا يمكن نقض الحكم الا عنـــد ظهور بيّنات جديدة دامغة . ويناط بمأمور خاص هو مأمور الاجراء ، تنفيذ الحكم الصادر ؛ أما اذا نص الحكم على عقوبات جسدية أو على القتل ، عُهـــد بتنفيذ الحكم لجلاد لا ينتمي لطبقة المحكوم عليه .

الحياة العامة والخاصة

وهذا الاطار الحضاري او الريفي الذي يَلِفّ المجتمع الطبقي في الهند يبدو عليه بعض التحسن دون ان يكون دخل عليه اي تغيير جذري . فالعاصمة هي المدينة المنهجية او المثلى ، يحيط بها سور ضخم يستدير حوله خندق يطفح بالماء ، ويرقى اليها من ابواب ضخمة . ويستعملون في بنـــاء القصر الملكي والمباني العامة والهياكل وبيوت السكن ، الحجر والطوب او الخشب . اما السقف فمسطح ، وقد يأتي مقعراً او محدوداً من جهتيه او على شكل هرم . بحيث تطل عليك كل الاشكال الهندسية . اما العواميد فتطلى او تلبّس باللك الازرق او الاحمر ، وتحلى برسوم نباتية او حيوانية بالوان زاهية ؛ اما النوافذ ، فتلبس شعريات من الحجر او من الخشب لترد العيون الشوارد والنواظر الوَقِحة . ويعلو العواميد : اكاليـــل مزركشة تحمل رسوم حيوانات في شتى المواقف او الاضافير من الزهر

الفواح واللآلىء الساطعة ، يتدلى بعضهـا من السقف او من الجدران . وتلبس الجدران احياناً الطنافس الجميلة تتهاوى منها القلائد والاضافير . امـا الكِوَى ، وهي من مميزات الهندسة المعمارية القديمة ، فاصبحت عنصراً زخرفياً ، وتلبّست اشكالاً وصوراً شتى تحت ازميـل النقاش ومرقمه .

وكان الأمن يرفرف والسلام يسود الطرقات والمسالك النهرية وكلها بحراسة الشرطة ، بعد ان نشطت عليها حركة المرور والنقل ، بالرغم من الرسوم المفروضة على من يسلكها . ويمخر عباب اليم عمارات من السفن الضخمة تعمل على الاشرعة العديدة ، مرتفعة المقدم والمؤخرة ، تزينها رؤوس التنين وغير ذلـك من الحيوانات البحرية . والملاحة النهرية تقوم على قوارب بيضاوية الشكل ، مجهزة بمجاذيف مفلطحة الرأس . وتدرج على الطرقات : الفيلة المسرجة باناقة ، والاحصنة على اختلاف اسرجتها الخالية من الركابات ، وقد زُيّن رأسها بالريش وتدلت من عنقها قلائد الجلاجل والاجراس . امـا السابلة فيمرحون ويسرحون ، يحمل العتالون والحمالون بينهم ، سلالاً من الاحمـال على ظهورهم او على اكتافهم او رؤوسهم ، كما يحملون اولادهم على اوراكهم . امـا عقيلات الاشراف والنبلاء فيسرن في هودج تجره عربة مزينة بالرياش ، او يحمله حمالون خاصة ، او يجره زوج من البقر ، كما لا تزال هي العادة لليوم . ويقوم على جوانب الطريق ملاجىء يأوي اليها الزوار والحجاج ، فيجدون فيها ما يحتاجون اليه من اسباب الراحة ، وما يرغبون فيه من طعام ، لمدة محدودة من الوقت لا يمكن تجاوزها ، وفقاً للحالات العارضة . ويقوم في المناطـق المحظوظة ، كمنطقة مغادها مثلاً ، وهي المنطقة التي خرجت منهـا سلالة الفوبتا الملكية ، مستشفيات ومستوصفات لمعالجة المرضى الفقراء ، والمرضى المعوزين الذين لا مورد لهم ، واليتامى والارامـل والمقطوعين الذين لا عماد لهم ولا سند ، فيخضعون للفحص الطبي من قبـل طبيب ، ثم يصف لهم العـلاج الناجع ، وتؤمن حاجتهم من الادوية والاغذية ، ولا يسمح لهم بترك المستشفى الا بعد ان يتم شفاؤهم تماماً .

والبذخ الاتم يطالعنا في القصور الملكية وصروح اهل اليسار ، من الطبقة الارستوقراطية . هنالك مقاعد راطية تقوم على قوائم عُجلجليّة الشكل ، أو تشبه اقـدام الحيوانات ؛ واخرى اعلى مقعداً ، موشاة بالطنافس ، ازدان ظهرها برسوم حيوانية ، دقيقة الصنع ، ناعمة الصنعة ، تكفل للجالس عليها الراحة التامة كأنه على اريكة الملك . وقد بَطل استعمال الكراسي ذات المرافق ، كما زال ، استعمال الاستدارات المصنوعة من الخيزران وحل محلها مساند مستديرة من القماش المخطط . كذلك دخل الاستعمال نماذج جديدة من الصحائف واواني المطبخ ، جيء ببعضها من ايران ، كالكرافيات الطويلة العنق ، والاباريق وهنالك ما يشير الى رواج بعض الادوات الزجاجية ، وصناعة القصب والخيزران جوّدت كثيراً صنع الاطباق والسلال التي اعتاد الناس تعليقها بسواعدهم . أما غرف النوم ، فهي ، على الاجمال ضيقة يشغل السرير معظم مساحتها من الداخل ، جهّز بمسند او وسادة عند الرأس وباخرى ، عند الارجل . والكوة او المشكاة التي

ترى احياناً في بعض الجدران تضم عادة الآلة الموسيقية المحببة لدى صاحب الدار كالقيثارة المقببة . ويقوم في الحجرة منضدة تطرح عليها المساحيق والمعاجين التي يمكن استعمالها اثناء الليل ، كما ألفوا ان يتركوا على الارض الشماعدين والاباريق المذهبة . اما غرفة السلاح فهي تغص بالاسلحة على انواعها ومختلف اشكالها تتألق بياضاً ولمعاناً ، كالسيوف المهندة ذات المقبض المستدير ، والخناجر القصيرة النصل ، او طويلتها . ويوجد في قصر الملك وفي دارات الاغنياء ، مجموعات من الاسلحة المنظمة تنظيماً خاصاً بينها الرماح والفؤوس ، والخناجر على انواعها ، والقسي والنبال والهراوات والدبابيس . وللالعاب الرياضية محلها المرموق في باحات القصر وحدائقه ، كالنرد الذي عم استعماله كثيراً وادخلوه حتى على حفلات تتويج الملوك الرسمية ، والاراجيح الطقسية او التي تستعمل للتلهي ، والخضاريف ، والعصي المتراكبة . واهم الملاهي واكثرها شيوعاً هي الموسيقى والرقص ، فالملك نفسه هو من كبار هواة اللاعبين على القانون ، وكم من قطعة نقدية تبرزه لنا ينقر على القانون .

كذلك تنوعت كثيراً الازياء والملابس ، وغلا ثمنها بعدان سنا صنعها. فالشاش الناعم الصنع ، والديباج المزركش والانسجة القطنية التي تحاك في جميع اطراف الامبراطورية ، او يؤتى بها من ايران ، هي اكثر الاقمشة رواجا واستعمالاً . فالملك والامراء يرتدون الـ *Dhoti* القصيرة او الطويلة ، كما تتدلى على ارداقهم ، علائق وسلاسل تنتظمها الحجارة الكريمة والمجوهرات ، كما ان كبار الموظفين ورجال الحرب والصيد يلبسون اردية فضفاضة الاكمام والاردان ، قد تكون ، كما يرجحه العارفون ، جاءت من الغرب . كذلك ترفل عقيلات البيوتات الكبرى ووصيفاتها بقماطين تختلف شفافية وطولاً ، بينما حاملات المذبات والراقصات ، وغيرهن من المرافقات يلبسن سترات فصلت على قدودهن قصيرة الاكمام . وهذا التنوع ذاته يبدو على اشكال : فالراجا يلبس عمة مزركشة تشبه التاج ، اسلاكها من الذهب ، كما اعتادوا ان يضعوا في القرنين الخامس والسادس ، شعراً مستعاراً مقصباً . ويقص اهل الكيف من رجال الرقص والموسيقى ، وغيرهم من الخدم ، شعورهم قصيراً ويزينونها بزهرة . اما النساء فيعقصن شعرهن على اشكال مختلفة بين مقبب ومخروط ، او يعقصنه فوق جباههن او يضفرنه جدائل تتدلى طويلاً على الظهر او الاكتاف ، كما ترتدين بعضهن اكاليل من الزهر او الحجارة الكريمة . ثم يضفين الى زيلتهن عقوداً من اللآلىء تشع نوراً وبهاءً وسناءً وتحمل على صدورهن انواطاً كريمة تتدلى من اعناقهن ، وفي معاصمهن ثروات من الاساور الكريمة . ويشدّ الرجال عقويهم بسير من الجلد الناعم كما تضع النساء الخلاخل بارجلهن ، ويلبسن اقراط الذهب او الماس ، والخواتم الكريمة في البنصر او في غيره من اصابع اليد الواحدة .

الحياة الدينية والفكرية والفنية

في هذا الجو العابق بالبذخ والفنى ، بلغت الحياة الدينية في الهند ، أوْجها . فالبوذية المتفتحة والمسيطرة على عالم الروح والمادة ، عرفت ازدهاراً كبيراً من الحياة الرهبانية التي جمعت بين التأنق والبذخ . فالرهبان

في اديارهم ينعمون بحماية الملوك، وعطفهم فيغدقون عليهم ، ولا سيما على طبقة البراهمان ، الهبات الطائلة ، والاعطيات السخية . وفي ظل هذه الرعاية المشبعة بعطف الغوبتا تزدهر الحيـــاة الروحية سمحاء ، أثيرة ، متخيرة . فتتكاثر الاديار وتنتشر في البلاد وتصبح منائر للعلم يقصدها الرهبان الاغراب العطاش الى المعرفة والحكمة الالهية . وهكذا نرى مثلا عاهـــل سيلان يأمر ببناء دير في بلدة بودغايا ، للرهبان السنغهاليين ، كما ان اسرة سوماترانية تشيد لهـا ديراً آخر في مدينة تالاندا ، وهي مدينة بوذية رأت النور بين ٤٦٧ – ٤٧٣ والتي جاءها فيما بعـــد زائراً هيوانغتسان . ويلقى الرهبان المتجولون في كل هذه الديارات ، كل ما يحتاجون اليه من اسباب السلوى والترفيه، كما حصل للراهب الصيني، فاهيان اذ يأتي رئيس الدير بنفسه ليرحب بقدومهم ويتصدق عليهم بما يحتاجون اليـــه من لباس وماء وطاس ، ومن زيت ينضحون به اقدامهم ورحيق عصير قصب السكر الذي يمكن تناوله في غير اوقات وجبـــات الاكل القانونية . ثم يخصهم بغرفة فيها من الاثاث والمفروشات ما فيه راحتهم ويجيز لهم الاشتراك بالحياة الرهبانية وفروضهـــا طيلة بقائهم في الدير. ولم يكن من النادر قط ان يتسع الدير لاكثر من الف راهب وراهبة ومبتدئين من كلا الجنسين . وكان الزوار يدهشون لكثرة الاديار في مدينـــة تالاندا ، وتعدد مبانيها ، وغنى أثاثها ، ورحابة غرفها ، تجري فيها الطقوس الدينية مواسمها بكل ابهة وجلال ، في جو يتناغى بصدى الاناشيد الروحية ويعبق بالبخور المتصاعـــد كالغمام ، وباريج الزهر والريحان ، تتلألأ زينة الهيكل على اضواء القناديل التي لا عد لها ، والمضاءة طوال الليل، على انغام شجية من الموسيقى الناعمة المتصلة .

وتتناوح المدارس الهندسية بين مناسك بسيطة متواضعة وبين باحات وافنـــاء شاسعة تمور بحركة الطلاب وروام العلم يتحلقون حلقات حول اساتذة ومعلمين مشهود لهم بالفضل ، فيتلقون الى جانب دروس الفلسفة والحكمة ، اصول الصرف والنحو والمنطق ، وتعليقـــات مستفيضه ، وشروحاً موسعة في الموسيقى وفن التمثيل ، والرقص والرسم الملون .

وهل من غرابة في هذا كله بعـــد ان ازدهرت الفلسفة وأينعت الآداب الرفيعة ؟ فالشعر الوجداني والملحمي ، وفن التمثيل نفسه ، وغير هذا من النشاطات العقليـة يحمل بارزاً ، أثر الشاعر الهندي الاشهر كاليداسا (القرن الاول ق . م) الذي اعطـــانا : الغيمة الرسول (*Meghadûta*) ومولد كومارا ، ونزول راغو *Raghuvamça* وروايته الخالدة « إعتراف» التي تراها مترجمـــة اليوم الى جميع لغات العالم ، والتي مُثّلت مراراً في دور عديدة للتمثيـل في الغرب . وقد بلغت اللغة السنسكريتية القِدْح المعلى نقاءً تحت ريشة كاليداسا . فقـد رسم لنا هذا الشاعر الهندي المبدع ، صوراً اخّاذة تبناها المسرح الهندي ودرج عليها منذ عهد سحيق ، وهي صور تمور بالطبيعة والجنان السندسية الغناء ، وجلت لنـا اغوار النفس البشرية بفن فيه الكثير من نوازع الادب الكلاسيكي . بعد ان ابرزت لنا مشاهد حية عن : ملك مدنف، تيمه الحب ، ومهرّج ماجن ضحوك ، ولاعب مدمن اخذ منه الهَوَس كل مأخذ ، والراهبة البوذية

والملكة الحسود ، والملكة الظليم وغير ذلك من صور النفس البشرية التي نطالعها في كل زمان ومكان . كل هذه الصور ليست بالفعل سوى ركائز عرف كاليداسا ان يضفي عليهـــا من فنه وعلمه الواسعين ، ومن الجمال المجسم ما بلغ فيه سدرة المنتهى ، كل ذلك في نظم جزل ، ولغة مشرقة ، مشعشعة ، وبيان مزهر وقوافي راقصة مرقصة ، حملها من المعاني ما لا تستطيع الالفاظ حمله . فالفن ، في عهد الغوبتا ، بلغ الذروة ، اذ جمالية الاسلوب ، تقوم ، قبـل كل شيء ، في الايماء دون الافصاح ، وفي الاكتفاء والاكتناء دون التعبير ، وفي الرمز ، دون المرموز اليه ، وفي الاشارة دون العبارة . هنالك شعراء لا يقلون شأناً وشأواً عن كاليداسا . اضاؤوا كالشهب ، جو الغوبتا ، وألقوا على عهدهم ، ألقاً قلما عرفت الهند مثله . منهم : شودرا كا المؤلف المفروض لـ « عربة الفخار » ، وفيشا كادتـا ، وامارو وبهارتراهري .

ولم يكن تألق الفلسفة ، في هذا العهد ، عند البوذيين اقـل منه عند الهنود . فالاخوان ازانغا وفازوبندو من اتباع المدرسة الرمزية في الهنـــد وضعا اذ ذاك ، مؤلفات كانت ، لقرون عديدة ، المحور بل الاساس الذي نهضت عليه التعاليم البوذية التي يمثلها احسن تمثيل ، « الوسيلة الكبرى » او *Mahayana* سواء في الهند او في البلدان الآسيوية الاخرى . ولم تلبث ان بلغت آثارها الصين ، بعد ان ظهرت في الهند ، بقليل . وهذه الصيغة التي برزت عليها البوذية على يديهما ، بالرغم من ظهورها في مطلع النصرانية تقريباً ، اختلفت تماماً عن التعاليم الاساسية الممثلة « بالوسيلة الصغرى » *Hinayâna* او *Theravadha* . وليس من العبث ان نذكر هنا بان أزانغا وفازوبندو خرجا اصلاً ، من غندهارا ، هذا الاقليم الذي وقـــع تحت تأثير المدارس السريانية الفارسية وانفعل بها ، وهي المدارس التي عقبت مدرسة الاسكندرية وورثتها ، اي الفلسفة الاشراقية والمالوية . تقوم فلسفة اليوغا على النظرية القائلة بان الواقـــع او الحوادث الواقعية ، ليست سوى خيال ووهم . وخلافاً للمدرسة او نظرية *Madhyamika* التي ادت باتباعها الى القول بالعدمية ، وصل بهـا آزانغا ولا سيما فازوبندو الى نتائج مناقضة تماماً : فاذا كان كل شيء وهماً في وهم ، فالوصول الى هـذه النتيجة والتأكد من الامر ، هو الاقرار ذاته بوجود فكر ، وهكذا ، فالفكرة المجردة او الفكرة الوعاء ، تؤلف الاسس التي تقوم عليهـا المثالية المطلقة . وقد كُتِبَ لهذه النظرية ان تنتشر في جميع ارجاء آسيا وادت بالتالي الى هذه التيارات البوذية العارمة التي بلغت أقاصي الصين واليابان .

وبرهنت الفلسفة الهندية ، من جهتها ، هي ايضاً ، عن نشاط يصح مقارنته ، من قريب ، بالنشاط الذي سجلته البوذية في هذه الحقبة . ففي الوقت الذي اخذت فيه تتبلور المحاولات الاخيرة لتركيز الملاحم الكبرى راحت النظم الفلسفية الهندية ، تبرز وتتطور بما تعرضت له من شروح وتعاليق وتفسيرات ، بشتى الصور والاشكال التي تفتّح عنها الفكر الفلسفي الهندي ، وتبلور عنه : كالاخلاقية الديلية ، والزهد والتنسك ، والمنطق ، وعلم الطبيعة ، وعلم ما وراء الطبيعة الديني ، واللاهوت والفلسفة ، وتناسخ الارواح او التقمص ، وما للفعل من اثر ضار ،

مؤذٍ (*Karman*) والوسائل المختلفة لخلاص النفس *Moksha* ، وغير ذلـــك من الموضوعات والتجريدات العقلية التي راح العقل الهندي يغوص فيها . كل ذلك يقوم على اساس وطيـد من استقلال الطبيعة الانسانية « والارواح » ، المـادة والروح . وعن طريق سلسلة من النفي ، توصلوا ، هنا وهنالـــك ، الى تحديدات وتعريفات لها من الدقة واللطافة مـــا في اللغة السنسكريتية من طواعية وليونة ومرونة ، او مـا تتيح له من مقارنات ومقايسات تنبض بالحذق . ومن هذه النظريات الفلسفية الهندية التي طلعت اذ ذاك ، نظرية الفيدانتا الـتي أطلت علينا بين ٣٥٠ — ٤٠٠ ، ثم اخذت تتطور في العهد التالي .

وبالمقابل ، نرى فن الرسم يبلغ اذ ذاك تمامه . فبعد ان استفاد من خبرة الماضي ، راح الفن، في عهد الغوبتا، يحاول التعبير عن الافكار الجديدة. فبينما نرى المثالية المطلقة تسيطر على الفلسفة البوذية وتستبد بها، ويبرز في النظريات الفلسفية الهندية عنصر الروح واحتلاله الصدارة، فالنزعة للتنويه عن الاشياء المحسوسة بالرمز ، واضفاء شيء من الروحانية عليها ، بلغت أوجها في فن التصوير التشكيلي . وقد وضعت ، اذ ذاك ، أبحاث تحددت فيه وتعينت الاسس التي تقوم عليها القواعد في المستقبل . فلم يسبق ان رأينا في الهند ، مثل هـــذه الاهمية يعلقونها لنقاء الصور والأشكال وسنائها ، ولتأمين مثل هذا التوازن بين الكتلة والقيمة ، وتأمين مثل هـذا التناغي والانسجام بين المقاييس والمسافات . فقد كان للنظرية الفنية في الهند ، في عهـد الغوبتا ، تأثير شديد الدفع على جمالية الفن ، بحيث ان الموضوعات الفنية التي عالجها هذا الفن ، في تلك الحقبة، أصبحت نماذج احتذاها الفنانون وساروا على هديها ووحيها ، حتى بعد زوال هـذه الدولة ، وتواريها عن مسرح السياسة في الهند ، بحيث امتدت المبادىء التي اعتمدتها وقامت عليها ، ليس الى جميع أقطار آسيا الجنوبية الشرقية فحسب ، بل ايضاً الى أقصى ما بلغته الركبان والقوافل الذاهبة الى الشمال والشرق . والهندسة المعمارية التي ترعرعت في الهواء الطلق ، اخذت اصولها تطبق على المعابـد والهياكل والاماكن الصخرية المؤلّهة كالمغاور والكهوف . وهكذا أخذت الجدران ترتدي أشكالاً وصوراً ، هي اليوم من أروع ما طلع به الفن في الهند .

٢ ـ أقطار آسيا الجنوبية الشرقية

بعد ان خبرت أقطار آسيا الجنوبية الشرقيـة ، في القرنين الثالث والرابع ، حركة واسعة من الاستهداد واقتباس الحضارة الهندية ، اذا بها تقع من جديد ، في الحقبة الواقعة بـين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن السادس ، تحت تأثير موجة جديدة من انتشار هـذه الحضارة ، والاقبال على مقوماتها وتمثلها . ومع ان هذه الاقطار كانت تدور ، اذ ذاك من الوجهة السياسة، في فلك الصين وتخضع لنفوذها ، وان مصادر تاريخها الركينة في هذه الفترة بالذات من تاريخها ، هي صينية في معظمها ، فتاريخها الحضاري والثقافي، في هذا العهد هو مع ذلك ، امتداد لحضارة

الهندية فيها . فمن المعقول ، جداً ، والحالة هذه ، ان نلقي على هذه الاقاليم ، نظرة شاملة من هذه الناحية بالذات .

مقاطعة فو ـ نان

يبرز تأثير الهند على أتمّه ، في مقاطعة فو ـ نان ، عام ٣٥٧ ، وهي تخضع اذ ذاك ، لسيطرة دخيل طارىء معروف باسم الهندو تشان ـ تان الذي أرسل الى امبراطور الصين ، آنئذ ، هدية تتألف من أفيال حَسُن ترويضها . والملك هو أمير هندي المحتد يلقب « *Chandan* » ، وهو لقب جـــاري الاستعمال عند الكوشانا ، من سلالة كانيشكا . من المعقول جداً ان تكون الفتوحات التي قام بها الغوبتا في هذه المقاطعات المتسهندة الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، دفعت أمامها عدداً من الامراء والبراهمان والادباء ، جَلَوا عن مواطنهم واستقروا نهائياً في تلك الربوع . وبفضل هؤلاء القادمين الجـــدد الذين اقتلعتهم الاعمال الحربية وقذفت بهم بعيداً عن مساكنهم ، انطلقت الموجة الجديدة من النفوذ الهندي في البلاد ، عناصرها الرئيسية كانت في معظمها من شرقي الهند وجنوبيها . وقد آل الامر بعـــد تشان ـ تان الذي لا نعرف عنه شيئاً يذكر ، الى ملك جديد يدعى كوندينيا ، وهو من براهمة الهند ، وقع عليه الاختيار ليتولى الامر في فو ـ نان باسم الشعب «الذي اخذ بتغيير قواعد الحياة واسسها وفقاً لمناهج الهند » ، كما جاء في تاريخ آل لوانغ . وقد أرسل احد خلفـــائه المدعو سري اندرافارمان او سريستافارمان عدة بعثات الى بلاط ملوك سونغ *Song* ، وذلك بـــين ٤٣٤ و ٤٣٨ ، كما أبى ان يؤازر ، عسكرياً وحربياً ، مملكـــة لن ـ لي (٤٣١ ـ ٤٣٢) في حروبها ضد التونكين .

ومن سلالة هؤلاء الامراء ، طلع المدعو جايا فارمان ، الذي كان أوفد بعثة من التجار الى مدينة كنتون ، غرقت سفينتهم ، لدى عودتهم فتحطمت على شواطىء لِن ـ يي ، ونجا بينهم من نجا ، ومعهم راهب هندي اسمه ناغازينا . وفي سنة ٤٨٤ ، ارسل جايا فارمان ، الراهب المذكور بمهمة رسمية الى ملك تسي ، في الجنوب ، يلتمس مؤازرتهم عسكرياً في حمـــلة يوجهها ضد لِن ـ يي . وحمل هذا الموفد السياسي معه : « صورة لأريكـــة الملك من الذهب المنقوش المصنوعة من جلود الضباب ، وفيلاً مصنوعاً من خشب الصندال ، وصورتين لاحد المعابد مصنوعتين من العاج وإنائين من الزجاج ، وطبقاً من فلوس السمك لتقديم التمر » . ويتبين من العريضة التي كان عليه ان يرفعها لملك تلك البلاد ، ان البوذية كانت معروفة ومنتشرة في فو ـ نان ، مع ان عبادة سيفا كانت هي المسيطرة عليها ، اذ ذاك . ومقابل ذلك استودع الامبراطور السفير هدية للملك جايا فارمان ، مجموعة من خمسة اثواب من الاقمشة الحريرية الفاخرة تتناوح بين البنفسجي والعقيقي ، عليها رسوم صفراء وزرقاء وخضراء ، ولكن ابى ارسال المساعـــدة العسكرية المرجوة . ويتابع تاريخ آل تسي الجنوبيين روايته فيقول :

« سكان فو ـ نان مشهود لهم بالحيلة والمكر ، فيستولون عنوة على سكان المدن التي لا تخضع لهم ويتخذون منهم أرقاء ، من مقتنياتهم الوافرة : الذهب والفضة والاقمشة الحريرية ، ويرتدي أولاد الاسر الكريمة الديباج ، كما تلبس

النساء عندهم أقمشة تشقها من الوسط وترسلها على أجسامهن بدون خياطة . اما الفقراء بينهم فيستورن عورتهم ببعض المنسوجات الغليظة . ويشتغل السكان في فو ـ نان بصنع الخواتم والاساور الذهبية ، وصنع صحائف الفضة. ويبنون مساكنهم من الخشب . اما ملكهم ، فيسكن منزلاً ذا أدوار متعددة ، ويقومون أسواراً حول منازلهم من دعائم الخشب . ويلبث على مقربة من البحر نوع من النبات أوراقه من ٨ الى ٩ أقدام ، يضفرونها ويجدلونها على أشكال متنوعة يغطون بها منازلهم . ويفضل الناس لسكناهم الاماكن المرتفعة . ويصنعون لهم قوارب من جذوع الشجر يبلغ طول الواحد منها من ٨٠ الى ٩٠ قدماً ، ويجوفونها بعرض ٦ ـ ٧ أقدام ، ويجعلون مقدم القارب ومؤخرته على هيئة سمكة . فاذا ما انتقل الملك ، ركب فيلاً ، وهو مطية يركن اليها النساء ايضاً . ويتلهى الناس بالتفرج على مصارعة الديكة والخنازير . وهم لا سجون لديهم . فاذا شجر بينهم اختلاف ، رموا في الماء الغالي خواتم من الذهب او بيضاً يرغم المتشاجرون على انتشالها . وبدلاً من ذلك ، فهم يحمون سلاسل معدنية حتى تحمر ، على المتشاجرين ان يحملوها في ايديهم مسافة اقدام فتحترق اصابع المذنب ، اما البريء فلا يصاب منها بأذى . او انهم يلقون بهم في الماء فمن كان الحق عليه انحدر الى القعر بينما البريء منهم يطفو على وجه الماء . من فاكهة البلاد عندهم قصب السكر ، والرمان والبرتقال والتمر . اما الطيور والثدييات فهي ذاتها الموجودة في الصين » .

وبعد ذلك بقليل ، أي بين ٥٠٢ و ٥٥٦ ، يزودنا تاريخ آل لانغ بمعلومات اضافية جديدة :

لا آبار لهم في المحلات التي يقطنونها . ويشترك عدد من الأسر في التزود بالماء من حوض مشترك . من عاداتهم عبادة القوى الطبيعية والجوية ويضعون لها صوراً من البرونز : فمن كان له منها وجهان صنعت له أربع أيد ، ومن كان له اربعة وجوه ، صنعت له ثماني أيد ، تمسك كل واحدة منها بشيء ما : عصفور هنا ، وولد هناك ، او حيوان هنالك ، او القمر والشمس . يركب الملك في تجواله وتنقلاته الفيلة وكذلك سراريه ومحظياته ورجال البلاط . فاذا ما جلس الملك جثم على احدى ركبتيه بينما يرفع الثانية ، وتفرش الارض امامه بالطنافس والسجاجيد ، توضع عليها آنية الذهب والجامر . في المآتم والجنائز ، تحلق الذقون ويقص الشعر . والجنائز على أربع طبقات . فالدفن في الماء وذلك باطراح الجثة في النهر ، والدفن بالحريق تستحيل معه الجثة ومادا ، والمواراة في الثرى او في قبر ، والدفن في الهواء الطلق بحيث تأتي الطيور والنسور وتلتاش جثة الميت .

توفي جايافارمان عام ٥١٤ ، بعد ان انعم عليه الامبراطور عام ٥٠٣ بلقب « قائد الجنوب وملك فو ـ نان » . في عهده ، دخل راهبان من فو ـ نان ، الصين ، فاستخدمهما الامبراطور لمعرفتهما اللغة السنسكريتية معرفة جيدة ، لنقل الكتب الهندية المقدسة وترجمتها الى الصينية . وهكذا استمرت العلاقات الثقافية والدينية ناشطة بين الاقطاب الكبرى في آسيا ، وهي الهند والصين والهند الصينية .

وخلفه على العرش ابنه المدعو رودرا فارمان الذي ارسل ، الى الصين ، بين ٥١٧ و ٥٣٩ عدة وفود سياسية ، فكان بذلك آخر ملوك دولة فو ـ نان التي زالت من الوجود ، عقب حوادث مبهمة تضرست بها البلاد وأدّت ، في اواسط القرن السادس ، الى انشقاقها فانقسامها على نفسها ، تاركة وراءها ذكراً لا يمحى في شبه جزيرة الهند الصينية ، بعد ان قيض لها ان تلعب دوراً بارزاً ، طوال خمسة قرون . وقام في البلاد حكم جديد تولته اسرة ملكية يعرفها الصينيون باسم تشان ـ لا ، احتلت عاصمة فو ـ نان عنوة ، واضطر الملك الى الهرب ناجياً بنفسه نحو الجنوب . واول عاهل من هذه الاسرة الجديدة هو شيتراسينا . واذ ذاك تألف من فو ـ نان ومن تشان ـ لا دولة جديدة ، تولى الامر فيها الملك بها فافارمان الاول ، الذي كان لا يزال يملك ، عام ٥٩٨ عند مطلع امبراطورية الخمير التي بقيت حتى اواخر القرن

الثالث عشر ، اكبر دولة ارتفع لواؤها في الهند الصينية ، اذ ذاك ، والتي خلّفت لنا حضارة عريضة ، لا تزال معالمها الماثلة تحدثنا عن العظمة التي نالتها والسيادة التي حققتها .

سلالة الشمبا

بقيت دولة لن – يي ، في هذه الحقبة ، تتابع حملاتها العسكرية ضد جي – نان كما ان اعمال القرصنة التي كانت تقوم بها زرعت الخوف في خليج تونكين، كما بقيت على عادتها في ارسال الجزية وبعث الوفود الى بلاد الصين . وقد تم للملك فان – ون ان يفتح قسماً من جي – نان ، لم يلبث ان فقده فان – فو ، عام ٣٥٩ ، الذي يرى البعض انه هو نفسه الملك بهادرا فارمان الاول ، الذي ترك لنا عدداً من الرُقم والكتابات السنسكريتية وغيرها من النقائش التي تساعدنا على تكوين فكرة صحيحة ، عما كان عليه الوضع الديني في تلك المملكة ، حيث نرى عبادة سيفا تسيطر على البلاد ، وتهيمن فيها على النفوس . ولاول مرة نشاهد ، على ارض الهند الصينية اللنغا الملكية هذه العبادة التي اخذت رمزاً لها قضيب *Phallus* سيفا ، وهو رمز بقاء الملك واستمراره وفي سبيله شيد الخمير والشامز « الجبال الهياكل » مأوى للملك الإله الذي كان يلقب بـ : بهادرسفارا . وقد اضطر حفيد الملك فان – فو او ابن حفيده ان يتنازل عن عرش جدوده (القرن الخامس) لحساب ابن اخيه ، وسافر الى الهند لتكتحل عيناه برأى نهر الغانج ، الامر الذي يجعلنا نفترض انه كان هندياً ورعاً وتقياً .

كان الشامز لا يزالون بعد ، على ما عُرفوا به من خشونة الطباع وجفوة الاخلاق ، قراصنة قبل كل شيء ، يزرعون الخوف في قلوب جيرانهم من سكان مقاطعة جي – نان ، بعد ان استباحوا شواطئها ، عام ٤٣١ في حملة ضمت اكثر من مائة سفينة من سفنهم . وقد حاولت الصين تأديبهم في حملة اعترضتها عاصفة هوجاء ، فاعادت الكرة عليها ، بعد ذلك بقليل ، اي سنة ٤٤٦ ، ادت الى نهب عاصمة الشامز ، الواقعة في مقاطعة هويه ، وسلبت منها اكثر من ١٠٠،٠٠٠ ليرة ذهباً . وبعد ان اعلن خضوعه ، راح ملك الشمبا يوالي بعثاته ووفودها الى الصين كما فعل عام ٤٥٦ و ٤٥٨ و ٤٧٢ ، ثم بين عام ٥٠٢ و ٥٢٧ .

وبعد ان توالى على الملك اسرة جديدة ، راح ملوكها يرسلون كعادة اسلافهم بعثاتهم الى الصين . وفي عام ٥٣٠ ، تقلد الملك الجديد الولاية من الصين . الا ان خلفاءه من بعده ، حاولوا الخروج عن طاعة الصين وزحزحة نيرها عن اعناقهم الا ان حظهم العاثر جعلهم يتضرسون ببأس اسرة سويه الصينية الجديدة وقوة بطشها ، فاجبرتهم على استئناف التقاليد المرعية ووصل ما انقطع منها . وسنرى الشمبا ، في عهد دولة تانغ ، يوسعون نطاق مملكتهم ، في الجنوب ويزرعونها بالاديار والوقوفات الدينية .

شبه جزيرة الملايو والانسولاند

تشير المعلومات التي يمكن التعويل عليها ان شبه جزيرة الملايو والانسولاند بلغت في هذه الحقبة درجة قصية من الاخذ باسباب الحضارة الهندية : فالسنسكريتية فيها هي اللغة الرسمية ، والبوذية والهندوكية بلغتا منها اعلى

مبلغ ، في وقت كانت فيه مدنية سكان البلاد الأصليين لم تكن بعد تطورت كثيراً . والملايو مقسمة الى عدة ممالك صغيرة ضالعة بالحضارة الهندية ، على درجات متفاوتة في تطورها . يرتدي الناس فيها ثياباً قطنية وشعورهم مسترسلة ، يتحلون بالحجارة الكريمة ويتزينون بعقود اللآلىء والجوهرات ، وقد جودوا البناء ، وعرفوا إقامة الحصون والاسوار حول مدائنهم ، وبنوا لها الابواب المتحركة على مصراعين . والى هذا ، هنالك اقوام لا يزالون على همجيتهم الاولى يجهلون فن العمارة وبناء الاسوار واتخذوا بديلاً عنها صفاً من السياج . والملك يحيى حياة كلها بذخ واسراف يحيط به العديد من البراهمة ، وهو نصف مستلقٍ على سرير مصنوع من جلد الضب ، فاذا ما غادر قصره ، فعلى فيل غليظ الجثة تعلوه خيمة بيضاء اللون يتقدمه ضاربو الطبول وحَمَلَة الاعلام ، يحف به حرسه الذي يسمّر الخوف في القلوب لفظاظته وخشونة طباعه . وكانت جزر صومطرة وجافا تابعتين ، آنذاك ، لملوك هذه البلاد ، تطالعنا فيها معالم الحضارة الهندية ، جاءتها من جنوبي الهند متجهة نحو رأس كومورين . ومما لا شك فيه قط ان هذه البلاد تتبادل التمثيل والبعثات مع الصين ، في القرنين الخامس والسادس غير ان الاشياء الفنية التي امكن العثور عليها وجمعها تنم عن تأثير الهند البالغ ، اذ نرى بينها تماثيل لبوذا من طراز مدرسة امارافاتي (جزيرة صومطرة) أو من طراز الغوبتا في جزيره بورنيو ، مؤيدة بذلك المعلومات المستمدة من النقائش الحجرية .

٣ ـ الامبراطورية الصينية في اعقاب أزمة القرن الثالث

في الوقت الذي كانت فيه الهند تشع بعيداً الى ما وراء حدودها ، كانت جارتها الصين تتربص الدوائر وتعاني الصعاب في الداخل . قام على الحكم ، بعد زوال دولة الهان فيها ، سلالة تسن التي اسسها ساو ـ ما ، على انقاض الامبراطورية السابقة . الا ان الامبراطورية الجديدة لم تتمكن من السيطرة على الصين برمتها الا لفترة عشرين سنة تقريباً (٢٨٠ ـ ٣٠٤) اذ اخذت غزوات البرابرة : من تاتر وهونز ومغول ، تقرع ابوابها بعنف ، وتحاول بنجاح ، مراراً ، عبور حدودها من الشمال . وقد كان من جراء إقامة هؤلاء الاقوام من قبائل رحّل في المقاطعات الشمالية ، ان ادت منذ عام ٣١٦ ، الى انقسام الصين دولاً وممالك تناحرت فيما بينها ، طيلة قرنين كاملين ، جرّت على البلاد الذل والهوان .

انها لحقبة سالكة مظلمة ، هذه الحقبة التي تكالب فيها الغزاة الفاتحون ، بين ٣٠٤ - ٣١٦ على اقتطاع اوصال الصين فذاقت البلاد من بطشهم وهمجيتهم ألواناً من العسف وصنوفاً من الجور والاذى . ففي عام ٣١١ ، استولى الغزاة الطارئون على العاصمة لو ـ يانغ ، والقوا القبض على الامبراطور ، وذبحوا ، اكثر من نصف سكان مدينة تشانغ ـ نغان ، وساموا الامبراطور الاسير الذل والمهانة ، ثم قتلوه شر قتلة ، بعد ان استخدموه ساقياً ، لسيد البلاد الجديد ، الطاغية

العاتي : هيونغ ـ نوليوتان ، الملقب بحق : « أتيلا الصين » إمعاناً منهم بإذلاله وتحقيره . وقد تكررت المأساة ذاتها ، بعد لأي قصير من الزمن ، عندما قام الهيونغ ـ نو بغزوة جديدة أوصلتهم الى تشانغ ـ نغان واقاموا فيها . وكان مصير آخر ملوك تسن ، في الشمال ، وهو الامبراطور مِنتي (٣١٢ ـ ٣١٦) الذي وقع في قبضة ملك الهونز ، ان امسى غاسلاً الصحون والطناجر ، ثم أعدم .

فأمام هذه الاهوال التي انزلها الغزاة بالصينيين ، وما الحقوا بهم من مهانة ومذلة ، بعد ان استباحوا باحتهم وزرعوا البلاد خراباً ودماراً ، راح السكان ينزحون عن املاكهم ويفترون بانفسهم ، نحو الجنوب . وفي عام ٣١٨ ، نودي في نانكين بامبراطور جديد من اسرة تسن ، فكان ذلك إيذاناً بان هذه الدولة لن يُكتب لها استرجاع الشمال . وكان من جراء هذه الهزات العنيفة ان زادت من الفوضى في البلاد ، وافقدتها بالتالي لذة العيش الرضي وجعلت أمن البلاد الداخلي ريشة في مهب الريح ، وزادت من شقاء الشعب المسكين وبؤسه . وعزا الادباء ورجال الفكر سقوط دولة الهان وزوالها من الوجود ، الى فشاء سوء الاخلاق في المجتمع الصيني ، اذ ذاك ، بعد ان دب الفساد في كل مكان ، فأوهن الطبقات الاجتماعية وخلخلها ، فتفسخت وانساحت وذهب ريحها في الارض ، وليس من يرعوي او يبالي بين الاشراف والنبلاء والطبقة البورجوازية . كل شيء كان يتوقف على اخلاق الامبراطور الذي بهديه يأتمّ الناس وعلى منواله ينسجون وعلى خطته ينهجون : أفَلَم يكن الامبراطور التقويم المتبع وقسطاس العدل المروم؟ فسوء سيرة الامبراطور وفساد سريرته ذهب بالتوازن الذي كان يمثله وشجع الآخرين على احتذاء حذوه ، وعلى التحلل من الاخلاق الفاضلة ، والتنكر لمكارم الاخلاق والعبث بالفضائل البشرية . فلكي يعود النظام العام ويعود الناس الى الاعتصام بمكارم الاخلاق ، كان لا بد من ذهاب الدولة وزوالها . فالأزمة التي نزلت بالبلاد وكادت توردها الهلكة ـ كما مر معنا في المجلد السابق من هذا التاريخ ، احدثت البلبلة والفوضى في نظام البلاد الاجتماعي والاقتصادي ، واقلقت الخواطر والضمائر ، واثارت الشكوك في قلوب الحكماء ودفعت المفكرين الى اليأس والقنوط ، مما حمل الحكيم الصيني تشونغ ـ تشانغ ـ تونغ (حوالي سنة ٢١٠ تقريباً) على القول : الى أين المصير يا ترى ؟

فسلالة تسن الملكية التي استرسلت في البذخ وانصرف ملوكها لأطايب الحياة ولذائذها ، أغفلت كل ما من شأنه ان يعيد النظام الى نصابه ويضبط سير المؤسسات العامة وحسن عملها . صحيح انها حاولت ، في اول عهدها ، الاهتمام بمرافق الزراعة ، محور الاقتصاد الصيني وركنه الركين ، وذلك عن طريق انشاء المزارع وتعمير الارض ، واقامة السدود للري ، وتوزيع الاراضي على الأسر العيلية بنسبة معينة . كذلك حاولت الحد من اطماع كبار الملاكين وصدهم عن توسيع أملاكهم عنوة واغتصاباً ، والحؤول دون منعهم افراد الشعب من الانتفاع بالاحراج ، ومجاري الانهر ، والمرتفعات الجبلية . وفي هذا السبيل عينوا جيشاً من الموظفين للاشراف على حسن

تطبيق هذا الاصلاح الزراعي الذي اخذت الدولة بأسبابـــه . الا ان كل هذه المحاولات ذهبت سدىً وصارت الى الفشل . فالملكية الكبيرة بقيت الاساس الذي قام عليه المجتمع الصيني . ولم يطمع هذا الشعب الضعيف ، المهيض الجناح ، البائس اليائس ، الذي يتأكله الإسى والاسف ، الا ان يلوذ بهذه المثالية الدينية ، قانعاً من امره ودنياه ، بالكفاف باهون الشرور ، والقناعة بأي قسمة ضئزى ، بعد ان وقعت البلاد فريسة المحسوبية والاتجار بالنفوذ .

الصين الجنوبية

عندما رأت السلطة الامبراطورية نفسها مرغمة للتخلي عن القسم الشمالي من البلاد للغزاة من البرابرة ، اخـــذ الشعب ينزح زرافات ووحداناً ، كما اخذت أسر تجلو بقضها وقضيضها عن الاوطان متخلية عن ارزاقها ومقتنياتها ، بعد ان سُدّت في وجهها ابواب الرزق وانقطعت امامها سبل العيش . والطبقـــة الارستوقراطية التي استقر معظمها في نانكين ، اخذت تطالب، كحق من حقوقها المكتسبة الاستئثار بالوظائف ومرافق البلاد الكبرى .

وهذا القسم من البـــلاد الذي تساقط عليه جيش لجب من النازحين الذين نجوا بانفسهم من الشمال ، لم يكن الصينيون استكلوا ، بعد ، تعميره واحياءه . صحيح ان إقامة العائلة المالكة في هذا الشطر من البلاد ، ساعد كثيراً عملية التصيّن وحمل الاهلين على الاخـــذ باسباب المدنية الصينية وتمثل حضارتهـــا ، كما ازدادت الحركة نشاطاً ، باقامة الموظفين ، واصحاب الرتب العالية في البلاط ، والادباء والمفكرين ، واصحاب المهن والحرف ، بين ظهراني الشعب ، والخلود الى الدعة والاستقرار ، بين افراده . وعملية التطبع والتخلق بالاخلاق الصينية هذه ، لم تتم بالسهولة المرجوة . فالملايين من اللاجئين الذين اقتلعتهم العاصفة وطوحت بهم نحو الجنوب، اقاموا فيه تراودهم الفكرة بالرجوع يوماً من حيث أتوا ، ويعاودهم الحنين الى الفردوس المفقود، ولن يمتم ان يعود اليهم استقرارهم المنشود . ولهذا رفضوا ان يدفعوا مـــا يترتب عليهـــم من رسوم ، وأبوا ان يقوموا بالتزاماتهم الوطنية . وعبثاً حاولت الحكومة اعادتهم الى الصواب وتذكيرهم بوجوب اعتماد جادة الاعتدال والرشد . وعندما ادركوا ان الوضع قد يطول أمده ، وربما امتدت سحابته اكثر من الوقت المتوقع ، قبلوا باقطاعهم بعض الأرضين في جو تلعب فيه المصالح الشخصية وتتضارب المنازع الفردية . ولم تكن سنة ٣٦٤ حتى استطاعت الدولة ان تفرض عليهم ضريبة الاملاك واستيفائها . ففي الحين الذي راح فيه اللاجئون يتجاذبون المنافع ويجرون المغانم اخـــذت سفينة الدولة تغوص في بحر من الفوضى المخزية فتزول من الوجود مفسحة المجال لغيرها .

كان لا بد من الانتظار الى عام ٤١٠ ، حتى نرى رسيس الحيـــاة يدب من جديد في جسم هذه الامة ، بعد ان تمكن ، اسكافي قديم اصبح فيما بعد قائداً باسم ليو ـ يو ، ان يسترجع، باسم سلالة تسن ،مقاطعة نان ـ ين من أيدي المغول مو ـ جونغ ، كما تمكن مناسترجاع مملكة هيو ـ تسن في تشن ـ سي ويستولي على مدينتي تشانغ ـ نغان ولو ـ يانغ . لم تكن هـــذه النجاحات .

سوى برق خلّب ، اذا استطاعت قبائل هيونغ ـ نو من استراد تشانغ ـ نغان ، كما ان ليو ـ يو توصل ، بعد ذلك بسلتين ، الى خلع آخر امبراطور من اسرة تسن ، وتأسيس السلالة الملكية الاولى من اسرة سونغ . واستطاعت هذه السلالة ان تجر أذيالها متعثرة حتى سنة ٤٧٩ ، دون ان تتمكن من القضاء على اسباب الفوضى واستئصال شأفة فساد الاخلاق في البلاط وحاشيته ، ولا ان تكون أهلا لأن تحكم بلاداً تجتاز مرحلة من الازمات الخانقة . وخلافاً لما كان منتظراً ، فقد تعاقب على الحكم سلسلة من الملوك الفاسدين المفسدين ، او مـــن الشباب الغر الذين تنقصهم الخبرة انمازت حياتهم بالاجرام السياسي او قتل امراء الاسرة المالكة ، او الاوصياء على العرش وعشيقات الامبراطور . وهو عهد ملطخ بالدماء المطلولة ، في غمرة من البذخ وفساد الاخلاق ، وقد فشا السكر والتهتك حتى بين اصحاب التيجان .

وقد خلف اسرة سونغ على الحكم ، سلالة تسي (٤٧٩ — ٥٠٢) فسارت على غرار سابقتها ، فكأنها من معدن واحـد وطينة واحدة ، ففي جو من القتل السياسي والاجرام ، صار الامر في الدولة الى المقربين واصحاب الحظوة من الخاصة . وقد كان عهد الامبراطور لنغ ـ فو ـ تي (٥٠٢ — ٥٤٩) مرحلة قصيرة من التمهل في اتيان الموبقات والمنكرات الشائنة . فقد كانت حياته من بساطة العيش ما قارب الزهد ، ومع ذلك فقد عرف هذا الامبراطور ان يوفق بين شجاعة الجندي الباسل الاديب الذوّاقة . واعتنق ، عام ٥١٧ ، البوذية وانقطع بكليته لواجباته الدينية ، حتى انه دخل بعد ذلك بعشر سنوات طغمة الكهان ، بحيث أهمـل واجباتـه ومسؤولياته في الحكم فانهالت على الامبراطورية الازمات واضطرب حبل الامن فيها بعد ان اشتد ساعد الجند المرتزقة ، وراح احدهم يغتصب عام ٥٢٨/٢٩ ، الملك ويستأثر به لمدة ثلاث سنوات ، ويجعـــل من تانكين عاصمة ملكه . وفي سنة ٥٥٦ ، صار العرش الامبراطوري في الجنوب الى سلالة جديدة تولى الامر فيها اسرة تشن التي عجزت هي الاخرى ، عن ادخال أي اصلاح في الدولة ، فلم تمهلها اسرة سواي فاحتلت تانكين ممهدة بذلـــك السبيل لتوحيد الصين من جديد .

الصين الشمالية

وكانت قبائل البرابرة ، في هذه الحقبة ، قد انقضّت على الصين الشماليـــة واقامت فيها دولاً وممالك ناصبت بعضها العداء واخذت تناحر فيما بينها . من هذه الدويلات : هيونغ ـ نو في شانسي ، وتبغالش في منطقة تا ـ تونغ ، وهو ـ جونغ في ملشوريا الجنوبية . صحيح ان اسرة هيونغ ـ نو استطاعت ان تؤلف ، في الشمال ، مملكة قوية عاصمتها تشانغ ـ نغان لم تقل مساحتها عن مساحة الدولة التي نشأت في الصين الجنوبية . غير ان ما تعرضت له من المنازعات العنيفة الدامية ، في الداخل ، بين الغزاة ، جعل من المتعذر جداً قيام سيادة مركزية ، فلم تكن لترى الا مذابح لا حد لها ، وفساداً في الاخلاق وغير ذلك من الموبقات التي يندى لها الجبين خجلا . وكان لا بد من الانتظار حتى منتصف القرن الرابع ، اذ نهض ضابط من اصل مغولي ، كما هو الراجح ، يستقل بالامر في مدينة تشانغ ـ نغـــان ،

ويؤسس فيها دولة . وقد تمكن ابنه فو – كيان (٣٥٧ – ٣٨٥) من تدويخ مملكة مو – جونغ وضمها الى املاكه وأصبح بذلك سيد الصين الشمالية ، بالرغم من تصدّي امبراطورية الصين في الجنوب له ، وقيامها لاول مرة ، بهجوم معاكس . وكذلك يشتد في هذه الحقبة ساعد امارة تبغاتش ، التركية الاصل ، اذ استطاع زعماء اسرة توبا ان يؤسسوا لهم مملكة ويحكموها من ٣٩٦ – ٣٩٨ باسم ملوك واي *Wei* ، ثم الى سنة ٥٣٤ ، بعد ان دخل القسم الاكبر من الصين الشمالية تحت امرتهم ، بالرغم مما تعرضوا له من غزوات البدو الرحل في الفيافي المجاورة لهم ، فأنشأوا بذلك وحدة عاشت مائة وخمس سنين . ويقصّر القلم عن وصف العظمة التي بلغتها اسرة واي في الحكم ، اذ بفضلها رسخ امر البوذية في الصين ، وتلبست باخلاق الصينيين وطباعهم . فكانت ادارتهم من اكبر العوامل في نشر أسباب الحضارة في البلاد . فالتقوى التي عُرف بها ملوك هذه الدولة ، تركت اثرها عميقاً في النقش وفن الحفر ، اذ بلغ الفن الديني ، في هذه الحقبة الذروة من الاتقان ، كما يؤكد المؤرخ غروسيه ، بحيث يمكن مقارنتها بهذه الروح التقوية التي ميزت معاصريهم من ملوك الدولة الميروفنجية ، فكان ذلك خير اداة لتأمين وحدة البلاد وصهرها في بوتقة واحدة . وهنا ايضاً نرى الديانة تتلبس عادات واعرافاً تتنزى بالهمجية وان بقيت بعيدة ، مع ذلك ، عن المنكرات والفظائع التي اتاها التتري الملقب باللحية الزرقاء : شا – هو (٣٣٤ – ٣٤٩) الذي لم تمنعه غيرته على البوذية ورعايتُه لها ، من ان يتلفظ ، وهو الى مائدة الطعام ، بشواء لحم بعض محظياته الجميلات .

وتبقى ، مع ذلك ، قصة الامبراطورة هو (٥١٥ – ٥٢٨) خير مثال يُضرب على وحشية القوم وهمجيتهم بالرغم من اعتناقهم البوذية والعمل بفرائضها . فقد فُرض لها ان تدخل حَرَم الامبراطور ، محظية من محظياته المحببات ، سعياً من احدى عماتها وهي راهبة بوذية عُرفت بالبلاغة والفصاحة وذرابة اللسان وخرّجتها في تعاليم البوذية . فقد كانت الوحيدة من بين هؤلاء السراري التي رغبت بالحجاب صبي ، وهي رغبة تجر الوبال على صاحبتها لو تحققت ، اذ ان العرف المتبع عند ملوك دولة واي كان يحتم قتل ام ولية العهد ، تفادياً لقيام الامبراطورة الضرة بمحاولة اغتصاب العرش ، ومع ذلك ، ابت ان يجروا لها اية عملية اجهاض ، ووضعت ابناً دون ان يأمروا بقتلها ، ولم تعتم ان اصبحت بعد موت الامبراطور تشي – سونغ ، وصية على العرش ، تحكم باسم ابنها الذي لم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات . وتميز حكمها بالحزم والشدة والعزم بعد ان تسلمت زمام امور الدولة ، واشرفت على سير الادارة الحكومية ، الى ان توفي ابنها فجأة وله من العمر ١٨ سنة . وقد حامت حولها الشبهات فراحوا يتهمونها بانها دبرت قتله بدس السم له . ولكي تخفف من غضب الشعب راحت تدعي ان ابنها ترك وريثاً للعرش اتضح فيما بعد انها ابنة . واذ زينت لها النفس الامارة بالسوء ان الامور استقرت وان ثورة الشعب هدأت ، راحت تزعم ان القضية مجرد سهو بعد ان التبس الامر على القابلة ، واقترحت ان ترفع على العرش ابن عم ابنهـا ، وهو صبي لم يتجاوز الثالثة بعد ، تكون وصايتها عليه امتداداً

لادارتها وحكمها . ونشبت على الاثر ثورة حمراء قام بها الشاكون المتذمرون ، يتزعمهم احـــد قواد الجيش الذي امر بمحاصرة القصر الامبراطورة ولكي تتفادى غضبة الثائرين وانتقامهم ، التجأت الى احد اديار البوذيين وقصّت شعرها ، وادعت عبثاً انها سلكت الحياة الرهبانية . فبعد ان قبض عليها حكموا عليها بالموت غرقاً ، فطرحوها في نهر هوانغ ـ هو . كل هـــذا ، وقـــد برهنت الامبراطورة هو عن غيرة شديدة على البوذية والمحافظة على طقوس العبادة . فبإيماز منهـــا سافر سونغ ـ يان وصاحبه هواي ـ شانغ قاصدين الهند ، وحملا معهما ، لدى عودتهما ، ١٧٠ كتاباًمن كتب البوذية على مذهب الوسيلة الكبرى .

وفي سنة ٥٣٤ انشقت مملكة وايي على نفسها الى شطرين : شطر هو ـ تان الذي عاش ١٦ سنة ، وشطر شانسي الذي استمر سبع سنوات بعد زوال الاول . ولاسرة سواي يعود الفضل الاكبر في ضم الصين الشمالية التي رسفت طويلاً تحت حكم الغزاة الدخـــلاء ، الى امبراطورية الصين ، في الجنوب التي عانت ، الى عهدهم ، ما عانت من سوء الحكم وفساد الادارة .

استمرار العمل الحضاري في الصين

بقيت الحضارة في الصين آخذة بأسباب التطور ، بالرغم مما رنها من شوائب وعورات في الظاهر ، وبالرغم ممـــا تساقط عليها من ضربات ونزل بها من كوارث قاصمة . فقد كان لها من الحيوية والقوة والنشاط ما صانها من الانسياح ، وأمّن لها الاستمرار ، بالرغم ممـــا تحالف عليها من ويلات . فهؤلاء الملوك البرابرة أنفسهم أدركوا جيداً ضرورة المحافظة على هذه الحضارة وصيانتها من كل ما من شأنه ان يلحق بها الاذى او ينتقص من قيمتها . فامتد خيطها ولم ينقطع بالرغم مما دق واسترق وأمكن تمتينه بفضل ما أدخل على البلاد من اصلاحات جديدة منها تبني الخط الصيني ، وانشاء نظام عقاري جديد ، واقتباس البوذية .

فالخط الصيني تمتع باستقلاله بمعزل عن اللغة ، اذ هو تصور رمزي للافكاري ، لا يبالي كثيراً ولا يهتم لما يطرأ على الالفاظ من تغيير يتعلق بالنطق . ولهذا كان الخط في الصين ، كما يقول فيه ولهلم ، أشبه ما يكون بجريدة حية ناطقة للأطوار المختلفة التي مرت بها المدنية الصينية تشهد على ديمومة الافكار واستمرارها بالرغم من طروء الغزاة للبلاد واقتطاعهم لبعض اجزائها . واذا كان على اسياد البلاد الجدد ان يستعملوا اللغة الدارجة فيها، كان لا بد لهم من ان يتعلموها ويستعملوها فيسهل عليهم الاخذ بأسباب الحضارة الصينية .

ولم يقل نظام الاراضي المعمول به في البلاد، فعلا او اسما ، أهمية في تأمين استمرار الحضارة الصينية وديمومتها . فالمشكلة كانت لعمري تختلف في شمالي الصين والسلالات الملكية التي قامت فيها ، عنها في الجنوب . فقد انصرف جل هم الحكام، في الشمال، الى تشغيل اكبر عدد ممكن من اليد العاملة في الارض اكثر منه الى تأمين استغلال الاراضي الشاسعة المترامية الاطراف ولذا راح ملوك اسرة وايي يحاولون توزيع الاراضي بالسوية ، اذ ان الأملاك الصغيرة المتروك استثمارها

obeikandi.com

للفلاحين ، تتطلب ، اذا ما تساوت مساحات ، قدراً من اليد العاملة اكبر مما تتطلبه الاملاك الكبيرة . الا انها لم تستطع ، لوحدهـا اجراء اي تخفيض في مساحة الاراضي غير المزروعة ، ولا ان تؤمن المدخول العالي الذي كان من المتوقع ان يؤمنه نظام السقاية ونظام التصريف الذي عملت به الحكومة في الاملاك الزراعية الواسعة . ولذا عُمِل بالنظامين معاً في وقت واحد .

فغزوات البرابرة وسيطرتهم على شمالي الصين هـــدد البوذية بكارثة ماحقة ، اذ راح الغزاة يضيقون عليها الخناق ويضطهدونها لدرجة انهم حظروا على الشعب اعتناقها خلال القرن الرابع. وعندما استفحل شان هذه الغزوات ، اخذ الرهبان البوذيون ينزحون عن لو – يانغ ، ملتحقين بالبلاط الامبراطوري الذي إنتقل الى نانكين ، مخلفين وراءهم الهياكل والمعابد والاديار بعد ان عاث فيها الغزاة واستباحوا باحتها ، وسلبوا ما فيها من كنوز وتحف فنية ، بحيث لم يبق منها سوى ٤٢١ معبداً من اصل ١٣٧٥ . وغيّر اباطرة اسرة وابي ، فيما بعد ، موقفهم العدائي من البوذية ، وعاملوا اتباعها ومريديها بالحسنى ، فاعتنق بعضهم مقالتها وقالوا بتعاليمها ، حتى ان احدهم وهو الامبراطور هونغ ، تنازل عن العرش ، عام ٤٧١ ليدخل احد الاديرة ويقضي مـا تبقى من حياته راهباً . ان تصرفاً من هذا النوع كان ينبع ، ولا شك ، من تقوى هؤلاء المرتدين الحديثي العهد ، كما كان يرمي ، من جهة اخرى ، الى اهداف ديبلوماسية . فالبوذية ، هـــذه الديانة التي دخلت البلاد من الخارج، والتي كانت تزرع في روع أتباعها الايمان بقدرتها على خلاص نفوسهم ، كانت تتسع لاقامة علاقات مع البلدان التي كانت ، بالقوة ان لم نقل بالفعـل ، منطقة لانتشار الحضارة الصينية فيها . ومهما يكن ، فقد بلغت البوذية في الصين ، في القرن السادس ، ما بلغته المسيحية في جرمانيا ، خلال الحقبة ذاتها .

ومن الصين الشمالية انطلقت اولى بعثات المرسلين البوذيين الذين لم يكونوا ليقتنعوا بمـا لديهم من الكتب البوذية ، بينما كان الرهبان البوذيون في الهند ، يخاطرون بانفسهم ويتجشمون المخاطر والمشقات ، في اتجاه الصين، يدعون للبوذية فيها ويعملون على انتشارها في ارجائها. وقد تكونت من هذه الرحلات مكتبات كاملة ومجموعات كبيرة من كتب البوذيين الدينية. فقد قام في اواخر القرن السادس، برعاية الامبراطور فو – نيان، دائرة للترجمة والنقل كانت تعمل بنشاط في مدينة تشانغ – نغان . وخير من يمثل هذه الحرية الثقافيـة هو الراهب البوذي كومارا جيفا ، الذي اشرف على هذا العمل فلا بأس اذاً ، من الوقوف قليلاً عنده ، نستجلي شخصيته البارزة ، فقد رأى النور في اسرة هندية من مقاطعة كوكا ، واخذته امه ، التي كانت ابنة ملك هذه المقاطعة بالذات ، وهو بعد في ميعان الصبا ، الى مقاطعـة كشمير ليتخرج في الآداب الهندية والبوذية على علمائها ورهبانها . وقد كان ابوه بوذياً ورعاً ، راودته الرغبة من قبل، في ان يسلك الحياة الرهبانية . وقد غادر الفتى كشمير بعد ان أتم تحصيله،وتوقف في طريق عودته الى كوكا ، في مقاطعة كشجار ، سنة واحدة ، يلازم علماء مدرستين من مدارسها كانتا قبلة انظار طـلاب العلم ورواد المعرفة ، كما كانت معاهدها موئل الثقافة وبهجة الرحالة الصينيين في ذلك العهـد .

وفي تلك الاثناء ، هاجم نائب ملك فو ـ كيان مدينة كوكا. عام ٣٨٢/٣٨٣، واخذ اسيراً معه الراهب كومارا جيفا الذي كان لمع اسمه واشتهر امره بين علماء زمانه . وهكذا كُتِبَ لهذا الراهب الذي يجري في عروقه الدم الهندي والكوتشيني ، والذي إستبحر بعلوم البوذيين ، على يد علماء كشمير ، ان يَتقدم الى الصين حيث اخذ بترجمة اهم كتب البوذية الهندية وتماليمها ، ولا سيا الكتاب المسمى : « لوتوس الايمـان القويم أو *Lotus de la bonne foi* ، وكتاب *Sutralamkara* الذي وضعه الشاعر الهندي الاشهر اسفاغوزا بعنوان : « دليل الارض الطاهرة» وكتاب فينايا لأصحابه *Sarvastivadin* وكتاب المدرسة الناقدة أو *Madhyamika* .

ففي الوقت الذي كان فيه الراهب فا ـ بيان وصحبه يغادرون الصين في اتجاه آسيا الوسطى والهند ، كان عدد كبير من الرهبان الهنود ، يَصِلون باستمرار الى تشانغ ـ نغان او الى نانكين. فبعد قدوم فا ـ بيان بقليل، أي حوالي عام ٧٢٠، قام بوذا بهادرا يترجم الى الصينية : «اضفورة الزهر » ، وهي رسالة رمزية في وحدانية الكون ، هي بمثابة التوراة لدى القائلين بالباطنية في مقاطعة هوا ـ ين . ففي مطلع القرن السادس ، أقام راهب هندي آخر ، اسمه بوذيذارما من نانكين عند ملوك وايي في سونغ ـ تشان . وتولى رئاسة فرقة دينية ينقطع أصحابها للتفكير والتجريد الديني والفلسفي ، هي ديانا ُعرفت ، في الصين ، باسم تشان . وفي سنة ٥٤٨، قدم نانكين راهب هندي آخر يدعى بارامارتا وترجم فيها المجموعة الفلسفية الدينية المسماة: «الواسطة الصغرى » التي ألفها فازوباندو ، قبل ان يعتنق مقالة « الواسطة الكبرى » .

وبعد ان تم للفكر الفلسفي الصيني مثل هذه الكتب المهمة ، من قديمة وحديثة عرف الفكر الفلسفي الديني في الصين عهداً من الازدهار والتألق ، اتجه في كثير من مناحيه ليس شطر البوذية فحسب ، بل ايضاً نحو الكونفوشية والطاوية . وهكذا هيمن الفكر الهندي ، مع ان الفلسفة الصينية ، انتهت في أواخر القرن السابع ، بعد ان رفعت من سمو هـــذه التماليم ، الى تكوين فلسفة طاوية لا تقل سمواً ومثالية عن الفلسفة البوذية .

وهذه الحركة الفلسفية الجديدة التي برزت في الصين ، اذ ذاك ، وأدت الى ازدهار البوذية بحيث جعلت منها بحق ، منافساً للطاوية يُحسب لها ألف حساب ، لم تُلحق ، مع ذلك ، أي تغيير يذكر في صميم البوذية . فقد بقيت ديانة شعبية ، عمالية . فالى جانب العمل العظيم الذي حققه القائمون على حركة الترجمة ، اخذت اولى المعابد المنحوتة في الصخر تظهر للوجود ، عام ٤١٤/٤١٥ ، ولا سيا في مقاطعة يون ـ كانغ على شاكلة المعابد البوذية المحفورة في قلب الصخور العالية في توان ـ هوانغ ، احدى مقاطعات أفغانستان (باميان وككراك) ، والى ما وراء هذه البلاد في الهند ، حيث يكثر عددها . وكان إعداد هذه الهياكل وتوضيبها ينشط او يخمد وفقاً لصروف الدهر في عهد دولة وايي ، واستمر الاهتام بها حتى طلوع دولة تانغ ، بينا انصرفت العناية ، في الوقت ذاته ، الى حفر معابد صخرية اخرى في لونغ ـ من ، الواقعة الى الجنوب من

لو ـ يانغ ، كما كان انشىء ، عام ٥٢٣ معبد سونغ ـ يو ـ سو ، في مقاطعة هونان .

ففي الحين الذي انقطع فيه بعض الرهبان الصينيين للتأمل والتجرد واوغلوا بعيداً في حركة التجريد الفلسفي البوذي الى ان بلغوا فيها الأوج ، وقف السواد الاكبر من الشعب عند بعض الطقوس العملية البسيطة ، الكفيلة بان تفضي بصاحبها الى الولادة من الجديد ، في السماء ، مع الآلهة ، أو اقله ، الى تأمين حياة بشرية تتوفر فيها اسباب الغبطة والسعادة. فالحياة النسكية في الاديار العادية مقصورة اساساً ، على الاخذ ببعض القواعد المهمة، كعزوف الراهب عن الزواج ، وعن اقتنائه خيرات هذا العالم لنفسه ، وان يعيش من الصدقات التي تقدم له ، وان لا يأكل الا مرة واحدة في النهار ، قبل الظهر بقليل ، وان يقوم بفروض التأمل . وعلى مثال الطاوية انشأت البوذية في الصين ، مراسم وطقوساً غاية في الروحانيات ، مع ما فيها من تعقيد، مخصصة لتكريم الموتى . اما العبادة نفسها ، فقد بقيت على بساطتها ، اذ كانت تقوم على فعل العبادة ، وعلى تقديم النذور والتقادم ، من زهور وبخور .

وكان تأثير البوذية ظاهراً جداً على الطاوية ، في هذه الحقبة : فالعزوبية امر مفروض على التلاميذ أو الرهبان الذين يعيشون عيشاً مشتركاً ، وانتشر القول بتقمص الارواح وتناسخها بين الناس ، وقد أصبحت الآلهة كائنات سماوية ، حرية بكل احترام ، مهمتها الاولى إرشاد الناس وتأمين خلاصهم الابدي . والى جانب الديانة الشعبية يطلع من صميم الطاوية مفكرون وفلاسفة عرفوا باستقلالهم الفكري ، أشبعوا بتعاليم المدرسة الكونفوشية ، وان كانوا خرجوا عليها لما آلت اليه من تحجر في مبادئها واوضاعها العامة . من هؤلاء المفكرين ، مثلاً تاو ـ يوان ـ منغ (٣٧٢/٣٦٣ – ٤٢٧) اكبر شاعر عرفه الشعر الغنائي ، قبل تانغ . والشيء المميز لدى هؤلاء المفكرين ، هذه الحرية الفكرية التي كثيراً ما أفضت بهم الى مواقف مستقلة ،غيرت اساساً من مجرى حياتهم الوظائفية أو المسلكية. وفي عهدهم اخذت تظهر بوادر هذا الشعر الوجداني الذي بلغ الاوج في عهد اسرة تانغ ، هذا الشعر الذي غنى جمال الطبيعة ، وبرزت فيه رهافة الحس الصيني على أتمها .

الحياة الاجتماعية

ألحق دخول البرابرة الى الصين الشمالية الفوضى فيها والقلق بين الشعب . فبعد ان نزحت طبقة النبلاء باجمعها ونجت بنفسها نحو الامبراطورية الصينية في الجنوب ، راحت تعيد تنظيمها وتستولي على املاك شاسعة ، وتحيي الامتيازات التي كانت تنعم بها ، ومختصر القول ، العمل على تنظيم الامبراطورية . اما في الشمال ، فقد وجد اسياد البلاد الجدد أنفسهم ، في بلد يحول فقره بالموارد البشرية ، دون تنظيمه على الوجه الذي يرغبون . ولذا راحوا يستعينون على نطاق واسع ، بهذا الفريق من الادباء المفكرين الذي بقي قائماً في المقاطعات الشمالية في الريف ، والمتخذوا من بينهم ، الموظفين الذين يقتضي حسن سير الادارة وجودهم ، وقسموهم الى تسع طبقات ، على نسق مسلسل في علاقاتها ، تتألف منها الطبقة الارستقراطية في البلاد، تتميز فيما بينها بالقاب خاصة كالباب القديم – والباب الجديد – والباب

الشريف ، وغير ذلك من الكنى والالقاب . وهذه الارستقراطية الجديدة لم تكن لترضى قط بالزواج بغير الفريق الآخر او بمصاهرة من هو ادنى نسباً، ولا سيما مع الغزاة الدخلاء بعد استفحال الشعور بكره الاجنبي وكل ما هو اجنبي ، واحتدام الروح العرقية في هذه الديانات الواقعة تحت حكم وسيطرة سلطان دخيل . ومثل هذا الوضع لم يحل قط دون بعض التدابير والاجراءات العمالية كما أدى بالتالي ، الى امتصاص المجتمع الصيني لهذه العناصر الدخيلة على البلاد . وهكذا تكونت في البلاد أسر وعائلات كبيرة ، ذات املاك وعقارات واسعة ، يعيش رؤساؤهـــا في المدينة ، ويتدخلون بحسب الوظائف التي يقومون بها ، في امور الحكومة وشؤون الدولة ، وهكذا انتقلت السلطة شيئاً فشيئاً من الحكومة المركزية ، الى الارستقراطية صاحبة الاراضي الواسعة . وهذه الطبقات الاجتماعية متميزة ، تكاد تكون منغلقة على نفسها ، وتقسم الى النبلاء والبورجوازية والشعب . فالوظائف والمراكز الكبرى هي وقف على النبلاء ، اما ابن الشعب الذي يستحيل عليه ، الوصول الى اي منها ، فيترتب عليه ان يقنع بالدون منهـــا . فالفوارق الطبقية عظيمة جداً بين دولة وابي ، حيث الترابط المسلسل يتحجر ويقسو ، وبين المجتمع الصيني في عهد دولة تسن والهان ، حيث كان في مقدور شذاذ الآفاق ان يثروا ويرتفعوا اجتماعياً ، حتى يبلغوا العرش . وهذا التراكب الطبقي الاجتماعي تضاعف بشيء من الوحدة السياسية ، ازالت معها هذه الامارات والدويلات الصغيرة ، الواحدة تلو الاخرى . وكانت الامبراطورية الصينية في الجنوب لا تزال تعاني اعراض التفسخ الخلقي . وكان لا بد من انتظـــار مجيء دولة سواي للقضاء على هذا التفسخ الاخلاقي ، ولاعادة الوحدة الى الصين برمتها .

ولعل اهم اثر تركه لنا المجتمع الصيني في هذه الحقبة ، هي هذه التماثيل او الدمى الجنائزية التي عثر عليهـــا دون ان تمكنا الحفريات الاركيولوجية التي اجريت في هذا المجال ، من نسبة بعض منها الى الجنوب ، او ان نردها كلها الى الشمال . ومهما يكن من أمرها ، فهي تتيح لنا ان نتبين السمات التي طبعت بعض الشخصيات التاريخية في هـــذا العهد ، معظمهم من النبلاء كما يرجحون ، من فرسان بين نساء ورجال ، ولا عجب ، اذ ان اسياد البلاد الجدد هم اصلا من هؤلاء الفوارس البدو الرحل ، الظاعنين في الفيافي الرملية . ويستدل من هذه الدمى ما كانت عليه هامة الحصان من صغر وانحناء في العنق ، وارتفاع في المؤخرة ، بينما يرتدي الفارس منهم رداء فضفاضاً له قبعة ، واحياناً قبعة من اللباد ، بينما نرى منهم من يلبس رداء صيلياً ، ومشدداً عند خصره . اما الفرسان النساء فيرتدين فساطين طويلة ضيقة تصل اردان اكمامها المتدلية ، الى الارض ، بينما نرى بعض النساء يلبسن فساطين فصلت على قدودهن ، لها "ذنب" طويل جداً ، بحيث تضطر الواحدة للم اطرافه وحملهـــا على ساعدها ، اما شعرها فمرفوع ، تغطيه قبضة مفلطحة تنزل الى الاذنين ، لها طرطور ، ينتهي طرفه بعقفة ، وهو زي يشبه الزي الذي عرفت به المرأة المغولية .

واذا صح تاريخ نسخة الرق المنسوب الى كو — كاي — تشي (٣٤٤ — ٤٠٦) صح لنا ان

نستنتج بان ما درجت النساء على لبسه في الجنوب ، كان اخف وانعم ويحمل سحائب متماثلة. فامـــام تصلب ملوك وايي في الشمال ، تطالعنا في بلاط اسرة تسن رهافة، النوق والظرف. فالرسوم الجدارية القائمة في مغارة بن – يانغ ، في مقاطعة لنغ – من (حوالي عام ٥٣٥) حيث نرى صفوفاً من ملوك دولة وايي ، تبرز لنا مـــا هم عليه من لبس وثير وظرف كيّس َصيني الطابع ، له اردية طويـــلة الارداف ، متدلية الاكام ، وعمة مختلفة الاشكال والاذواق. وفي الطرف الاقصى من الصين، نرى في كوريا مقدمات النذور ، نساء تنانيرهن مطعجة ، مكسرة ، وفساطين مزينة بالفرو. والفرسان يمتطون صهوة جياد غنية السروج ، ويلبسون قبعة عـلاة بالريش ، سلاحهم القوس والنشاب وكنانة من الزي المغولي.

٤ ـ آسيا العليا وانتشار الهونز

يُفـْهَم من المصطلح الجغرافي : آسيا العليا ، هـــذه المناطق الشاسعة التي تشمل منغوليا والتركستان الصيني والتيبت وتفرعاتها السياسية والعرقية واللغوية ، مما يُلامس الهند او يشارف ايران : كمقاطعات كابيتسا وغندهارا ، وبكتريا ، وأركوسيا ، وبلاد الصُغـْد حتى مشارف نهر الأوكسوس ، اذا ما اقتصرنا على الأسماء القديمة. ففي هذه الفيافي الشاسعة رأينا ، منـذ القرن الرابع، بين الشعوب والقبائل والاقوام التي تمور فيها، حركة عارمة لشعوب تروح وتغدو، وقبائل تتحرك ، وأقوام تغلي بالنشاط المحموم ، وقوافل تروح وتجيء في هذه المسالك التي كان يسير عليها تجار الحرير والسلع الشرقية ، وسرايا الرهبان وكهنة البوذيين ، يقطعون هذه الصحارى ناشرين البوذية داعين الناس لاعتناقها ، وجيوشاً جرارة تسير ، هذه مظفـّرة منتصرة ، وتلك جارة وراءها أذيال اليأس والفشل. وتطالعك ، الفينة بعد الاخرى ، في هذه الصحارى المحرقة ، جزء من الاراضي الصالحة للحرث والزراعة ، هي واحات ُتطليع من الزرع والضرْع ، ما فيها صلاح الهابطين فيها ، او القائمين عليها ، كواحات تاريم مثلاً ، تليها قفار لا حد لها ولا قرار يرتد عنها الطرف وهو كليـــل ، تسمّر الخوف وتزرع الرعب في قلب من يشرف عليها ، فكيف بمن يجازف بالمرور فيها.

ففي هذه الحقبة التي نحن بصددها ، نرى موجات من البدو الرحل تـــدق أبواب المناطق الزراعية بشكل مقلق لم تأنس مثله من قبل ، طمعاً منها بما بلغته هـــذه المناطق من تطور في أساليب استثمارها ، او شهوة منها بما ينعم به سكانها من خيرات وافرة ، بعد ان نفرت نفوسها من خشونة الصحراء وجفوة الطبيعة ، امام ما تقع عليه العين من غنى وثراء بين اهل الحضر ، في وقت غصت فيه البادية بالفائض من سكانها وأهلها ، فاندفعوا كالشهاب الساطع ، يقتطعون منها ما رغبوا في اصطفائه من خيراتهـــا ، ويستبيحون ما طمعوا به من فيء ورقاء. ومعظم هؤلاء الاقوام الذين يسرحون ويمرحون في هذه الفيافي هم من الترك والمغل ، لم يتجاوزوا ، في تطورهم ،

obeikandi.com

نطاق حياة الظعن ، بالرغم مما عُرف عنهم من ذكاء وتوازن في القوى العقلية ، وما جبلوا عليه من روح عملية ، بينما اهل الحضر من سكان المدن والريف ، الذين يسيطرون على مساحات واسعة من الاملاك والارضين ، وسجلوا تطوراً لا بأس منه في زراعتهم ، قد استسلموا للدعة والسكينة ، واسترخت منهم الاخلاق .

وتقوم هذه الشعوب ، في القرن الرابع بدفع وضغط لا يقاوم اخذت معه تغلي كالقدر . ولاول مرة منذ عهد بعيد ، توصل البدو الى تأسيس ممالك لهم مستقلة ، أولاها مملكة جوان — جوان التي انشأتها قبائل الآفار بين ٤٠٧ — ٥٥٣ ، كما ان قبائل من المغول تشدهم الى الآفار وشائج الدم والقربى ، تأخذ بمهاجمة اوروبا ويتمكن شارلمان من كبح جماحهم فيما بعد ، وبسط سيطرته عليهم . وتكاد لا تقل بأساً عن هذه المملكة ، مملكة اخرى ، اسسها اقوام الهونز الهفتاليين ، فانقضت جحافلهم ، في مطلع القرن السادس (عام ٥٠٠) على الافغانستان والهند مخلفة وراءها الخراب والدمار ثم تطالعنا مملكة اخرى هي مملكة تو ـ كيو ، اسسها أقوام من الترك اخلوا الساحة ، فيما بعد ، في منطقة طرفان ، لقبائل الويغور *Uigurs* في أخريات القرن السادس .

ومع اختلاف عروق هذه الاقوام ، فقد جمعتهم خصائص مشتركة ، بعد ان صهرتهم ظروف البيئة القاسية ، وطبيعتهم بميسمها وتضرسوا بخشونتها . فلم يكونوا ، والحق يقال ، من البدو الخُلّص ، اذ كان ملوكهم يقطنون في المدن .

« وكانوا يظعنون وفقاً لمقتضيات الماء والكلأ ، يبنون لهم مساكن من اللباد ، يقصدون صيفاً المناطق الباردة بينما يهبطون شتاء المواقع المعتدلة. فالزوجة الواحدة هي مشتركة بين عدة اخوة، يفصلون نساءهم في اماكن منزوية، يتراوح بعدها عن مضارب القبيلة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ لي (قياس للمسافات عند الصينيين قديماً يوازي طوله ٥٧٦ متراً) . ويقوم الملك او رئيس القوم عندهم باسفار ورحلات متنقلاً ، ويغير مقره شهراً بعد شهر . يقبع في مقره خلال فصل الشتاء مدة ثلاثة اشهر . عرفوا بالعنف والشجاعة والاقدام . » (ماخوذ من *Pei Che* فصل ٩٧) .

وعندما يسافر الملك أو ينتقل :

« يصطحب معه خيمة مربعة من اللباد ، طول كل ضلع من اضلاعها ، ٤ قدماً ، جدرانها من السجاد والطنافس الجميلة . ويرتدي ثياباً من الديباج والحرير الموشى ، ويتربع فوق سرير من الذهب يقوم على اربع قوائم من الذهب بشكل عنقاء . وترتدي زوجته الاولى الحرير المزركش ، تجر وراءها ذيلاً لا يقل طوله عن ٨ اقدام تتدلى منه اللآلىء والحجارة الكريمة بالوان مختلفة . فاذا ما خرجت الملكة خرجت في هودج تحمله عربة . اما في المنزل ، فهي تتكىء على سرير من الذهب بشكل فيل ابيض ، له ستة انياب ، واربعة اسود » (من رحلة سونغ ـ يون بعنوان : « الهونز الهيتاليون ـ ترجمة شافان)

ويشرف هؤلاء الاقوام الرُحّل على كثير من المدن والارياف يسيل لعاب البدو لروّيتها لما فيها من رفاً وخيرات فتحدثهم نفوسهم بالاستيلاء عليها . وكانت مملكة خوتان منهـــا ، على الاخص ، مثالاً للشهوة ، لما كانت عليه من ثراء وغنى .

فالملك يعتمر قبعة يعلوها عرف كعرف الديك ، ويتدلى على رقبته من الوراء منديل من الحرير الخسام طوله قدمان وعرضه ٥ قراريط . فاذا ما حضر حفلات رسمية ، قرعت الطبول ، ونفخت الابواق ودقت الصنوج ، في جو يعبق ببرأى القوس والنشاب ، وحربتين وخمسة رماح ، ويحيط بالملك ، حرسه الذي لا يقل عن المائة بخناجرهم . وتلبس النساء نوعاً من السراويل ، وسترة مشدودة الى الخصر بزنار ويركبن الخيل كالرجال (المصدر ذاته) .

وعلى مثل هذا الوضع من الازدهار المثير ، تبدو مقاطعة غندهارا .

سهول خصبة فيحاء تتوسطها مدينة شاباس غارهي بما حولها من أرياض غناء ، عامرة بالسكان الناعمين بما هم عليه من دعة وازدهار ، والبلاد كثيرة الاحراج دافقة المياه ، والتربة خصبة تعطي بسخاء (المصدر ذاته) .

وكان هؤلاء البدو الرحل يصطدمون في تنقلاتهم اما بممالك قائمة ، منظمة او يعترض سيرهم وتقدمهم حواجز طبيعية ، يحول دون وصولهم الى الصين ، سورهـــا المنيع ، كما ان افغانستان كانت بدورها تتحكم بالمعابر والمجازات التي تفضي الى غندهارا والهند ، ويقع جزء منهـــا تحت سيطرة ايران الساسانية ، بينما تقوم في المناطق الاخرى جبـــال هماليا الصعبة المرتقى ، حائلا دون الوصول الى التيبت .

اما اواسط آسيا ، فسكانها من الهند الاوروبيين ، يتكلمون الطوخارية ، وهي لغة بينها وبين الارمنية والسلافية ، والايطالية والكلتية ، اكثر من آصرة ورابطة ، او يستعملون في تخاطبهم الايرانية الشرقية ومعظمهم شقر ، ولهم عيون زرقاء وهم على البوذية . وقد تأثر بعضهم بالحضارة الهيلينية كما يستدل من آثارهم الفنية ، ولا سيما من قام منهم في غندهارا والبكتريا ، بينما اخذ البعض الآخر ولا سيما من سكن منهم الواحات الشرقية ، باسباب الحضارة الصينية ، وتطبعوا بها ، فتبلغهم متأخرة جـــداً ، المؤثرات الايرانية ، كما يستوحون احياناً ، مبادىء الجمالية البيزنطية . فالافغانستان جزء لا يتجزأ من هذه المجموعة التي تؤلف كلا جغرافياً وحضارياً . وتصدر هذه المناطق القريبة التجانس ، عن طراز جديـــد مشترك فيما بينها ، ذي طابع ايراني بوذي ، يتزيّى بعنصر حضاري مشترك هو حصيلة هـــذا الاتصال الواقع بين ايران الساسانية والعالم البوذي . وهذا المزيج الذي تتمثل معالمه ، بين القرنين الثالث والرابع في باميان وكخراك ، ثم في طرفان وقزيل وكوكا (في القرن السادس والسابع) وصل الصين عن طريق اسرة وايي التي احتل ملوكها ، عام ٤٣٩ ، توان ـ هوانغ ، وهي موقع حربي وسوق تجارية تقع عند تخوم الصين الغربية ، عند مشارف صحراء غوبي ، في نقطة تتجه اليها وتلتقي عندها ، هذه المؤثرات التي تسلك طريق تجارة الحرير .

فلا عجب ، والحالة هذه ، ألا يقوى هؤلاء الاقوام الرحل الذين يحومون في هذه الفيافي ، على مقاومة الرغبة الشديدة التي تراودهم على احتلال هذه الاراضي الزراعية الخصبة ، ويتحرقون لاغتصابها من اصحابها ، والاستئثار بما فيها من مراكز حضارية جذابة ، مغرية ، وما اليها : من معابد وهياكل ، ومدارس وأديار ، قائمة بجوار القصور الملكية ، ومن اسواق تغص بالبضائع

والسلع والمواد الغذائية . فأخذوا يرنون باشتهاء وعُجْب، الى هذه المدهشات المغرية التي عرف اهل الحضر ان يطلعوا بها ، بعد ان يقابلوها بما هم عليه من قسوة الحظ وقسمته الضئزى ، أبداً في طلب الكلأ والماء ، وقد ضمرت اجسامهم ، وخوت بطونهم ، لما أصابهم من حرمان ، وقاسوا من جدب الارض وجفوة الاقليم ، وعضة الطبيعة . ففي القرن الثالث ، نرى قبائل الهونز تتحامل بصفوف مكتظة ، على سور الصين ، تربطهم الى ملوك الصين روابط أشبه ما تكون بتلك الروابط التي شدّت ، في الغرب ، القبائل الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع . وكثيراً ما كان زعماء الهونز يختلفون الى عاصمة الامبراطورية الصينية ويترددون عليها ، متكسبين من هذه الاتصالات . وكثيراً ما استعملتهم في الفرق المرتزقة من جيشها واتخذت منهم عوناً لها عندما اصيبت دولة الهان بالعجز والوهن . وهكذا أتيح للعديد من هؤلاء البدو الرحل الخيفين ، ان يجتازوا ، بأعداد متزايدة ، السور الكبير ، وان يعيشوا داخل الصين . وعندما انطلقت شعلة الحروب الاهلية ، اثر انهيار دولة الهان ، راح الهونز يثبتون وجودهم وقد شجعتهم الفوضى الضاربة أطنابها في البلاد ، فوضع المقيمون منهم في الداخل ، أيديهم على الاراضي التي كانت بتصرفهم ، تحت ستار شفاف من الشرعية ، ملوحين بأقدميتهم الصينية . اما من كان منهم في الخارج ، فقد توافدوا عملاً بسنة التضامن مع ابناء عمومتهم . وهكذا ، بفضل هذا الدفع المشترك ، اضطر ملوك تسن ان يتخلوا لهم عن شمالي الصين . وقد مر معنا كيف ان هذه الممالك التركية ـ المغولية ، العديدة ، التي تكونت ، اذ ذاك ، لم تلبث ان ذابت في قلب مملكة واسعة اقامها الهونز ، زالت بدورها ، هي الاخرى ، عام ٣٤٩ ، وراحت فريسة ممالك ودول أنشأها البرابرة فيما بعد ، انهارت بدورها هي ايضاً ، وزالت من الوجود ، عندما استطاع أتراك تبغاتش او توبا انشاء امبراطورية وايي ، عام ٣٩٦/٣٩٨ .

وفي الوقت ذاته ، قامت ، قبائل اخرى من الهونز — يُعرفون بالهونز الهفتاليين ، أي الهونز البيض ، كما يسميهم المؤرخون البيزنطيون ، وهبطت من اعالي جبال ألتاي ، واستقربهم المطاف في التركستان الروسي ، ثم إتجهوا نحو الصغديان (سمرقند) والبكتريا التي بلغوها في عهد الملك الساساني بهرام غور (٤٢٠ — ٤٣٨) . وبعد ان انتصروا على خليفته الثاني : فيروز (٤٥٩ — ٤٨٤) استقروا في مدينة مرو وهراة . الا ان ايران الساسانية كانت منيعة وعرفت ان تدافع عن ممتلكاتها . ولذا تحول الهونز ، بقضهم وقضيضهم ، باتجاه افغانستان ، بعد ان دفعوا امامهم ، باتجاه غندهارا ، الهندو — الفرز الذين كانوا يسيطرون على تلك المنطقة . ومن ثم ، راحوا يهاجمون الهند ، ويحاولون بسط سيطرتهم عليها ، في سلسلة من المعارك والحروب الدامية انهكت دولة الغوبتا . وامعن الهونز في همجيتهم : فساموا سكان هذه المنطقة الذين اخذوا ، منذ عهد بعيد ، باسباب الحضارة الهلينية واعتنقوا البوذية ، الوانا من العذاب واصنافاً من الآلام ، وأذاقوهم الذل والهوان ، بعد ان قاموا بمذابح هائلة بين السكان ، واضطهدوا بعنف ، الجماعات البوذية وهدموا اديارهم ، وقضوا على ما عندهم من روائع الفن الجميلة ، ودكوا

معالم الحضارة اليونانية ـ البوذية، كما يؤكد المؤرخ غروسيه. وعندما بدت ترتسم امارات الضعف على دولة الغوبتا، هاجمهـــا الهونز بعنف شديد، فتوالت غزواتهم الماحقة بقيادة طوراماناً وميهيراكولا، فزرعت الخراب والدمار وارزحت الهند لمدة قرن. واستهدفت الديانة البوذية للاضطهاد الشديد، فهدمت الاديار، واستبيحت المحرمات، وقضي على روائع الفن، فاتلفوا كل ما وصلت اليه ايديهم، وبفضل ما الحقوا بالبلاد من خراب ودمار، نرى انفسنا عاجزين عن درس معالم فن الغوبتا، الا من خلال بعض النماذج النادرة التي وصلت الينا. وخلافاً لابناء عمومتهم الذين استقروا في شمالي الصين واعرقوا فيها ورسخوا، نرى برابرة الهونز، في الهند، يزولون تماماً من أرجائها، منذ اواسط القرن السابع، اما لاستئصال شأفتهم، او لذوبانهم بين سكان البنجاب وغوجارات، حيث لم يلبث زعمـــاؤهم ونبلاؤهم ان انصهروا في بوتقة الارستوقراطية الهندية.

وكالاخطبوط يرسل مجسّاته في كل اتجاه، هكذا ارسلت قبائل البدو الرحـل في اواسط آسيا، سرايا جحافلها في كل مهب، مضيقة الخناق على العالم البوذي، دافعة امامهـــا كل من صدمته من شعوب واقوام، تدك منهم الممالك والامبراطوريات. فقد واجهتهم ايران بدرع منيع من قوة جيشها وبأسه، تحول معه الهونز في شمالي بحر ارال، نحو اوروبا ووطئوا بسنابك خيلهم ورجلهم الامبراطورية الرومانية (٣٧٦). فالوصف الذي ترك لنا عنهم المؤرخ اميان جاء يؤيد الى حد بعيد، ما ذكره عنهم المؤرخون الصينيون:

بز الهونز همجية، كل ما يمكن ان يتصوره العقل او يخطر على بال انسان. فقد جهلوا الزراعة ولم يفقهوا يوماً معنى لمنزل او بيت او كوخ. فهم ابداً في دوران، ألفوا منـــذ الصغر، زمهرير البرد شتاء وحمارة القيظ صيفاً، وانطوت بطونهم على الجوع رمـــا بالوا يوماً بطعماً. تجري قطعانهم من الماشية حثيثاً في اثرهم، ويجرون وراءهم عيالهم واولادهم بعد ان يكردسوم في عربات تسير متثاقلة. يلبسون صيفاً شتاء، اردية من الكتان، ومعاطف من جلود الجرذان خيطت بعضاً الى بعض، وقد اعتمروا خوذاً من الجلد والفوا افخاذهم الكثيفة الشعر بسيور من الجلد الخشن، وانتعلوا في ارجلهم احذية لا شكل لها ولا قوام، ولا تساعدهم على السير على الاقدام. ولهـــذا لم يصلحوا قط لحرب المشاة، بينما اذا ما صاروا على صهوة جيادهم، خلتهم قطعة من الجواد الذي يركبون، والهونز من هذا الجيل الصبور الجليد الذي ينطلق فارسه كالنسيم العاصف او كالشهاب الخاطف. ليس من يضاهيهم برمي القسي والنبال، عن بعد فهي لا تخطىء.

والفارس منهم مجهز بقوس شدّ وتره، وله نظر حديـــد يقدح شرراً من عين غارقة في محجرها الضيق، وأنف مفلطح ووجنتان بارزتان. هو من هؤلاء البرابرة بالذات الذين سيطلون علينا بعد ذلك بالف سنة، اي في القرن الثالث عشر، عندما تندفع الموجة المغولية ثانية، بعد ان تبلغ قوتها الذروة.

وبعد ان سيطر الهونز على منطقة السهول المترامية، بين جبال الاورال وجبال الكربات، أفضوا الى سهول فلاخيا، ومنها دخلوا هنغاريا. واجتاز احد زعمائهم أتيلا، نهر الدانوب، عام ٤٤١، واتجه بعد ذلك بعشر سنوات، بقضّه وقضيضه، نحو غاليا، فبلـــغ الرين، واضرم

الحرائق في مدينة ميلز ، يوم ٧ نيسان (ابريل) ٤٥١ ، وجاء يهاجم مدينة اورليان ويضرب الحصار حولها؛ ولم يلبث ان تراجع القهقري الى مدينة تروى حيث ابتُلِيَ بابشع هزيمة، ومنها عاد ادراجه الى الدانوب وها هو ينقض من جديد على ايطاليا، عام ٤٥٢، وعاد منها ليموت ويقضي نحبه في مقاطعة بانونيا بعد ذلك بسنة. وهذا الغازي المرعب الذي لقبوه بحق «سوط الله المصْلت» هو الانسان النموذجي للهونز . قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الرأس ، غارق العينين ، أفطس الانف ، كالح الوجه ، امرد او يكاد ، سريع الاستشاطة والغضب ، ومع ذلك فقد كان يؤثر السياسة والديبلوماسية ، وان شئت فقل الحيلة والمكر ، على عنف الحرب ؛ عُرِف عنه تكالبه على زرع الخراب والدمار، وان حدّث الناس عن روح النّصَفة عنده قاضياً بين اهله وذويه، مستسلم بكليته للخرافات . وعلى مثال الهونز في الصين الذين كانوا يتخذون مهذبين لهم من العلماء والادباء، نراه يحيط نفسه برهط محاتم من ادباء اليونان والرومان والجرمان. فهو صورة مسبقة ، ونذير بطلوع الغازي الفاتح المغولي الاشهر جنكيز خان . وكما زال كل اسم وذكر للهونز المقاتليين في الهند ، فقد تفتت جماهير الهونز التي استاقها اتيلا ، إثر ما نابها من تشمث وشتات في اعقاب موت رئيسها وقائدها . فانكفأت نحو سهول روسيا ومقاطعتي دبرودجا وميزيا . ونالت منهم بيزنطية ، عام ٤٦٨ ، عند مجرى الدانوب الاسفل ، ونالت منهم ثانية ، عام ٥٥٩ ، وفتت مشاحناتهم الداخلية والحروب الاهلية التي نشبت بينهم ، من عضدهم فتقلص ظلهم ، وانكمش امرهم ، عندما اطلت موجة جديدة كاسحة من هؤلاء البرابرة ، هي غزوة الآفار الذين انقضوا على الامبراطورية البيزنطية ، يوم كان يوستنيانوس يلفظ انفاسه الاخيرة (٥٦٥) واتجهوا الى اوروبا وارسوا لهم ملكاً امتد من الفولغا الى مشارف النمسا ، ولم يلبثوا ان دخلوا من جديد ، في عراك مميت مع القسطنطينية ، في القرن السابع .

وقد اسس « البدو » الرحل في القرن السادس ، امبراطورية اخرى ، في منغوليا والصحاري المجاورة ، كان الامر فيها لاسرة تو — كيو ، فتحالف ملوكها مع بيزنطية ضد ايران ، واعتنقوا المزدقية ، كما يرجح العارفون ، استناداً لما ذكره ثيو فيلكتس سيموكاتا .

يرسلون شعورهم لتدل على اكتافهم ويسكنون مضارب من اللباد ، ويتنقلون بين مقاطعة واخرى طلباً للماء والكلأ . ينصرفون لتربية الماشية والصيد . سلاحهم السهم والقوس الصافرة والدرع ، والرمح والخنجر والسيف . ويتمنطقون بمنطقة على حقويهم ، فخرهم الاكبر ان يموتوا في ساحة الوغى، والعار الاكبر عندهم، ان يموتوا مرضى على أسرتهم (من مؤلف غلل ، عام ٥٨١) .

ولم يحسن ملوك هذه الاسرة سياستهم ، فانقسمت دولتهم قسمين متنافسين ، لم يلبثا ان ضعف شأنهما ، فزالا من الوجود امام سيطرة اسرة سواي ، ثم اسرة تانغ ، وعفا كل اثر لهما .

فبالرغم من الفوارق التي باعدت بين هذه القبائل البدوية ، وبالرغم مما قام بينهما من حروب اهلية داخلية اقامتها بعضاً على البعض الآخر ، لقد شدها معاً : وشائج مشاركة ، وتقاليد واعراف متقاربة ، أمنت لها شيئاً من التجانس . فقد غلبت على هذه القبائل الأمّية ، وجهلوا القراءة والكتابة ، ونهجوا جميعاً نهجاً سوياً من حياة البداوة ، يقضون معظم اوقاتهم على

صهوة جيادهم ، كما يصف لنا اخبارهم كتاب القدامى ، يعيشون بين قطعانهم ومواشيهم ، ويستظلون مضارب من اللباد . طباعهم خشنة فظة وهم متوقدو الذهن والفهم ، يحيطون انفسهم برهط من الادباء ورجال الفكر والقلم ، مع ما كانوا عليه من سرعة الغضب ، وما عُرف عنهم من همجية ووحشية تزرع الارض خراباً ودماراً ، فكانوا خير سلف لهؤلاء المغول الذين طلعوا في القرن الثالث عشر واسسوا امبراطورية من اوسع ما عرف التاريخ من امثالها . وتدل آثارهم والمعالم التي تركوها وخلفوها على فن متجانس يعرف بفن الصحراء ، وهو فن قوامه تصوير الحيوان ، نجهل الكثير للآن من مقوماته ومفارقاته ، لعدم وجود حفريات اثرية منتظمة . ومع ذلك ، بالامكان الآن تمييز بعض مدارس خاصة في فن الصحراء تحمل في ثناياها الكثير من المؤثرات الايرانية والصينية ، حسبما تكون قامت وازدهرت على مقربة من الصين او من ايران . فاينما وقعت العين رأت رسوماً لحيوانات مختلفة : هنا أيّل جاثم ، وهناك عراك عنيف بين حيوانات حقيقية او وهمية ، فن تكاثر فيه ملامح الصيد والحياة بصحبة السائمة تظعن طلباً للماء والمرعى ، لا يخلو من اثر ظاهر على فنون اهل الحضر المقيمين على مقربة من البادية ، تبدو معالمه أكثر فأكثر كلما اتسعت اعمال التنبش والحفريات الاثرية .

٥ ـ الصين في عهد دولة سواي

عرفت الصين عهداً من الاضطراب والقلق ، إثر انقسام دولة واي على نفسها الى شطرين متميزين : هما دولة باي ـ تسي (عام ٥٥٠) ، ودولة باي ـ تشاو (٥٥٧) ، عُرفت الاولى بتمسكها الشديد بالبوذية كما قالت الثانية بالكونفوشية . واوشك هذا الوضع ان يلحق الاذى الكثير بالبوذية . فقد عرفت الدولة الاولى ، طوال عهدها الذي استمر ٢٧ سنة ، ازدهاراً غريباً للفن البوذي ، الذي اخذ ينأى ويبتعد ، اكثر فأكثر في تلك المملكة ، عن الفن الجاف الذي ساد عهد دولة واي ، واتجه نحو حركة تجددية ناشطة ، ممهداً بذلك الطريق لظهور المدرسة الفنية التي طلعت في عهد اسرة تانغ . وقد تميزت هذه الحقبة بالاضطهاد العنيف الذي شنه ملوك دولة باي ـ تشاو ضد البوذية واتباعها في المملكة . وعندما تم لهم ، عام ٥٧٧ ، الاستيلاء على دولة باي ـ تسي ، امتدت حركة الاضطهاد التي اطلقوها بحيث عمت الصين الشمالية . ولم يدم هذا الوضع الشاذ طويلاً ، اذ استبد بالامر احد سَدَنة القصر هو يانغ ـ كيان ، بعد ان استولى على الحكم عام ٥٨١ ، واسس دولة جديدة هي دولة ملوك سواي . وبعد ان ملك سبع سنوات ، على الصين الشمالية وحدها ، تمكن من فتح نانكين ، عام ٥٨٩ والاستيلاء على امبراطوريتها وبذلك تم له توحيد الصين بعد ان بقيت مجزأة نحواً من مائة وسبعين سنة .

وقد عُرف الامبراطور يانغ ـ كيان شخصياً ، برعايته للبوذية وبتعلقه بالطاوية ، بينما تنكّر للكونفوشية وراح يناصبها العداء . ففي الوقت الذي راح فيه يرمم هياكل البوذيين ومعابدهم ،

ويشارك في الحج الى مقدسات الديانة الطاوية ، تقيـة منه وتقرباً ، أصدر أوامره باقفال عدد كبير من المدارس الكونفوشية . خلفه على العرش ابنه يانغ – تي (٦٠٥ – ٦١٨) الذي انتهج له نهجاً جديداً اقل تمسكاً من ابيه بامور الدين . فصرف جهداً كبيراً في تجميل العاصمة لو – يانغ بعد ان آثرها على سن – غان – فو ، واتخذها دار سكنى له ، وفتح ترعة مائية ، بين يانغ – تشايو ويو – يانغ ، واستسلم للملذات يقضي أيامه بين الكأس والطاس . واضطرته النفقات البالغة التي اقتضتها هذه الانشاءات ان يفرض رسوماً وضرائب باهظة على رعاياه ، فأرزحها ، ونشب من جراء ذلك ثورة لاهبة أدّت الى قتله . وبموته انتهت دولة سواي التي استمر حكمها تسعاً وعشرين سنة .

وبالرغم من قصر مدى هذه الاسرة في الحكم ، فقد كان تأثيرها بالغاً في سير الحضارة وتطورها في الصين . وكان من جراء تحقيق وحدة الصين ، ان نشطت حركة فكرية عارمة : أدت الى محاولة توحيد بين الاديان الكبرى الثلاث في الصين ، الا وهي البوذية والطاوية والكونفوشية . والرهبان الهنود الذين غادروا الصين على اثر موجة الاضطهادات التي هبّت عليهـا ، استأنفوا العمل بتقليد قديم من الرحلة الى الصين : فالراهبان ناراندرياساس وجيناغوبتا اللذان فرا بنفسيهما ، عام ٥٧٤ ، عادا الى الصين في عهد دولة سواي . كذلك قام الراهب بوذيسري يكرز ويبشر في هو – نان واستطاع حمل الراهب الطاوي تان – لوان ، الذي توفي حوالي عام ٦٠٠ ، على اعتناق البوذية الصوفية التي عُرفت في اليابان ، باسم *Amidisme* . وقـد بذلت الجهود السخية ، من جهة اخرى ، لربط ما انقطع ، وازالة الضعف الذي أوهن العلاقات بين البلدين المتجاورين خلال القرنين الماضيين ، عرفت خلالها البلاد عهداً من أسوأ العهود استباحة واضطراباً وخراباً . وقد وضع عام ٦١٠ ، فهرس بالكتب والاسفار الدينية التي امكن انقاذها .

فاذا ما تمكن عهد سواي القصير من اعادة الامن والنظام والوحـدة الى الصين ، وأتاح للنفوس المهتاجة ان تهدأ وتعود سيرتها الاولى الى التجريد والتأمل الفلسفي ، فلم يكن هذا العهد لعمري ، بعهد مبدع خلاّق . فقد بدت على الفن سمات العهد : فهو فن جامد متثاقل ، جاف ، قاس ، تنقصه ، اساساً ، نبضة الحياة وهذا التألّق الذي عرفت دولة تانغ ان تضفيه على هـذا الفن . فالصين على شفا عهد جديد من الانبعاث والتوعية يبشر بطلع زاهر ، مجيد .

الفصل الرابع

فجر الاسلام
(من القرن السابع الى القرن التاسع)

بين اوروبا الغربية الآخذة مدنيتها بالقهقرى ، وبين العالم الآسيوي الذي لم يستجمع بعد نشاطه ويسترجع عافيته ، مما ألمّ به من ضربات موجعة أنزلتها به جحافل برابرة البدو الرحل ، ظهر الاسلام كالشهاب الساطع ، فحيّر العقول بفتوحاته السريعة القاصمة ، وباتساع رقعة الامبراطورية الجديدة التي أنشأها .

نحن امام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم ، مغمور الذكر ، فاذا به يتحد ويتضامّ في بوتقة الاسلام ، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية . اكتسحت جيوشه ببضع سنوات ، الدولة الساسانية وهدت منها الاركان ، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للامبراطورية البيزنطية في آسيا وافريقيا ، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرى ، ولم تلبث جيوشه ان استولت بعد قليل ، على معظم اسبانيا وصقلية ، وان تقتطع ، لأمدٍ من الزمن ، يقصر او يطول ، بعض المقاطعات الواقعة في غربي اوروبا وجنوبيها ، ودفعت جيوشه بعنف شديد ، ابواب الهند والصين ، والحبشة والسودان الغربي ، وهددت غاليا والقسطنطينية بشرٍ مستطير . وقد تهاوت الدول ، امام الدفع العربي الاسلامي ، كالأكر ، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم ، وهذه الاديان التي سيطرت على الشعوب والاقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال ، ذابت كما يذوب الشمع امام النار ، بعد ان أطل على الدنيا دين جديد له من الاتباع والمريدين ، اليوم ، ما يزيد على ثلاثمائة مليون . وانجلى غبار الفتح وصلصلة السلاح عن امبراطورية جديدة ولا اوسع ، وعن حضارة ولا اسطع ، وعن مدنية ولا اروع ، عول عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقيه البناء ، بعد ان نفخ الاسلام في قسم موات من التراث الانساني القديم روحاً جديدة عادت معه اليه الحياة ، فنبض وشعّ وأسرى . ولهذه الاسباب مجتمعة ، كان لا بد من ان يحتل تاريخ العالم الاسلامي محلاً مرموقاً في ثقافة رجل العصر ، كما كان لا بد لرجل العصر هذا من ان يفهم جيداً ان المدنية لا يقتصر مدلولها ، على شعب

او بلد متحيز في الزمان، وان يعرف جيداً انقبل توما الاكويني الذي رأى النور في ايطاليا، طلع ابن سينا المولود في احدى مقاطعات التركستان، وان مساجد دمشق وقرطبة ارتفعت قبابها قبل كاتدرائية نوتر دام في باريس بزمان ، والا ينتقص من شأن العالم الاسلامي اليوم في ما يعاني من غمرة ستنقشع بأسرع مما يظن ، وألا ينظر الى التاريخ الاسلامي من خلال مرئيات ألف ليلة وليلة ، هذا الأثر المدهش ، الاجنبي النشأة ، الذي دالت ايامه وزالت لياليه ، والذي ما لبث العرب ينظرون اليه بشيء من الحنين الى الفردوس المفقود ، بل علينا اعتبار هذا التاريخ قطعة من صميم التاريخ الانساني المتنوع بتنوع الازمنة والامكنة ، والذي لا يزال، بالرغم من جزئياته وخصوصياته ، تاريخ هذه البشرية الواحدة الجامعة الجمعاء .

يتحتم علينا ونحن نستعرض تاريخ العرب والاسلام ، التصريح، بكل تواضع هنا، انه بالنظر للظروف الماثلة في وضعها القائم ، لا نستطيع ان نجلو تاريخ الاسلام بالصورة التي جلونا بها تاريخ الغرب . فالنقص الفاضح الذي نراه في الوثائق التاريخية ، والفقر المدقع الذي عليه المحفوظات الاسلامية العربية ، لا تسده هذه الوفرة ، ولا يعوضه هذا الغنى الحافل في التراث الادبي الذي خلّفه العرب من طارف وتليد . فبالرغم من الجهد الطيب الذي بذله المستشرقون في الغرب ، في مجال فقه اللغة والألسنيّة اكثر منه في التاريخ ، وبالرغم من الحركة العلمية الحديثة التي اخذ الشرقيون باسبابها بعلم واصول ، فلا يزال العمل بحاجة بعد ، الى قرن واكثر ليلحق بركب المؤرخين في الغرب . فالشيء الذي سنقوله ونقرره بهذا الصدد سيكون لاقتضابه وإيجازه ، اقصر بكثير ، من الفصول التي مهدنا بها لهذا البحث .

الجزيرة العربية قبل الاسلام

لم يكن العرب ، في القرن السابع ، حديثي العهد بالوجود . فقد سكنوا شبه الجزيرة التي تحمل اسمهم قبل ظهور المسيحية بزمن طويل ، يعيشون فيها عيش البدو الرحل ، في وضع اشبه ما يكون باهل البادية والوبر ، اليوم، ذراريهم الاقحاح . وكانوا منقسمين قبائل يخضعون لمشيئة الشيخ او لرئيس القبيلة ويأتمرون بامره ويسيرون بهديه ، بينما تتفرع القبيلة نفسها الى بطون وافخاذ ، لكل منها زعيمها ، يجمعها بعضاً الى بعض عصبية قبيلية ، هي القاسم المشترك ايام الكر والفر ، يتألبون تحتها في حروبهم وغزواتهم . اما ديانتهم فكانت من التبسيط بحيث تتصل بالعقائد السامية المشتركة في جوهرها، مع جميع شعوب المنطقة، يخشون اكثر ما يخشون عمل الابالسة وكانوا يعبدون بعض الحجارة المؤلهة، كما هي الحال في مكة ، يقيمون في اعيادها مواسم للشعر والمفاخرة . وينقسم العرب في مجموعهم الى قسمين متميزين : اليمنيون في الجنوب ، والنزاريون القيسيون في الشمال . وقد حدثت موجات بشرية انتقلت معها بعض قبائل الجنوب متخطية الى الشمال ، ابناء عمومتهم هناك . وبالرغم من هذه الانقسامات ، كان يخامر العرب شعور بشيء من الوحدة ممثلة خير تمثيل بهذه اللغة الشعرية التي قطعت شوطاً بعيداً في التكمل والاستقرار . ومن بين مشاهير الشعراء في هذه الحقبة امرؤ القيس . فقد فاخروا بامجادهم الوطنية ومآتيهم الحربية ، كما فاخروا « بايامهم »

التاريخية ونظموا الحكمة فاوجزوا واعجزوا .

وقام عند أطراف الجزيرة العربية في اليمن مثلاً ، مجتمعات بشرية قطعت شوطاً قصياً في تطورها . فقد قام في اليمن ، قبل طلوع المسيحية بعهد كبير ، مملكة اشتهرت باحدى ملكاتها هي الملكة بلقيس أو ملكة سبأ . وقد قام بعد ذلك بكثير ، عدد من الممالك اشتهر أمرها في عهد الرومان ، كمملكة النبطيين أو الانبـــاط ، في بتراء ، تقع الى الجنوب الشرقي من البحر الميت ، والمملكة زنوبيا التي ملكت على المنطقة الواقعة غربي الفرات ، كما قام في عهد البيزنطيين مملكتان ملوكها من النصارى ، هما مملكة آل غسان أو الغساسنة ، ومملكة اللخميين ، تتوازر الأولى منها ملوك بيزنطية وتدور في فلكهم ، بينما يدور اللخميون في فلك ملوك فارس ويشدون منهم الأزر . فبينما كان الغساسنة يقيمون في اذرع ، اتخذ اللخميون طيسفون (الحيرة) قاعدة لهم . والجدير بالذكر هنا هو ان قبيلة كندة استطاعت ان تؤلف في القرن الخامس ، في قلب الجزيرة العربية ، تحالفاً حقيقياً . وقد انشأت بعض القبائل ، في بعض المدن لها ، نوعـــاً من الحكم على اساس من النظام الارستوقراطي تولى الأمر فيه كبار التجار اصحاب القوافل التجارية كما في مكة مثلاً ، اذ كان الامر بيد قبيلة قريش . وكانت الحركة التجارية قـد نشطت في شبه الجزيرة العربية ، اما عن طريق البحر الاحمر ، او عن طريق القوافـــل البرية التي تحولت عن موانىء البحر المذكور تفادياً للاخطار التي كانت تتهددها . وكانت هذه المنطقة قـــد اخذت تتأثر ، الى حد بعيد ، بنفوذ الدول القومية المجاورة ، فتتجاوب اصداؤها هـذه المؤثرات . فقد حاول الساسانيون ان يحققوا لمصلحتهم الخاصة ويسيطروا على الحركة التجارية في المحيـــط الهندي ، بينما اخذت بيزنطية تحاول ، عن طريق مصر ، تحويل هذه التجارة ، الى مرافقهـا بمساعدة حلفائها من الاحباش . وهكذا راح الفرس والاحباش يتجاذبون السيطرة على المراكز التجارية الكبرى . وليس من المستبعد قط ان تكون المشاحنات التي قامت بين الطرفين ، بهذا الصدد ، سبباً من الاسباب التي ادت الى انهيار سد مأرب ، وخراب نظام السقاية الذي عمل به مدة طويلة ، والى هذه الهجرات الواسعة التي عقبت انهيار السد . كما أدت الى هـذه اليقظة التي اخذت تتململ بها القبائل العربية ، اذ ذاك . وقد حدث في الوقت ذاته ان تغلغلت المؤثرات الاجنبية في البلاد العربية ، اما بواسطة القبائـل المقيمة على الخط الدائري ، او بواسطة الجوالي المسيحية واليهودية التي نشأت في بعض المدن ، كالجالية اليهودية في يثرب التي أصبحت المدينة بعد ان هاجر اليها النبي العربي . وهكذا نرى جيداً ان العرب لم يبقوا في عزلتهم ، كما كانوا من قبل ، بل بدت عليهم معالم يقظة عارمة زاد من أوارها وقوعهم الى أطراف المدنيات الكبيرة . صحيح ان البلاد التي جاوروها لم يتوفر لها جماعة من كبار اللاهوتيين ، ولذا تنزّت عقائد سكانها الدينية ، بكل ديانات الشرق وعقائده الشعبية ، الا انها ديانات جديدة ، حديثة لمن كان مثلهم ضالعاً بالشرك الاكبر ، منذ أجيال سحيقة ، في هذه الحقبة بالذات ، اذ ساعدت الظروف المادية القائمة ، اذ ذاك على ايجاد حالة من القلق والاضطراب كان يكفيها شيء بسيط جداً لاضرامها وتحويلها الى غليان دائم .

هذا هو بايجاز ، الوسط الذي رأى فيه النبي العربي النور ، وشب في جو تجاري شارك ببعض نشاطه قبل ان يتفرغ للدعوة التي قام بها .

محمد

في هذا المحيط الذي وصفنا ، ولد محمد بن عبدالله ، النبي العربي وخاتمة النبيين ، الذي جاء يبشر العرب والناس اجمعين بدين جديد ، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد ، وليكمل الوحي الذي نزل من قبل ، مجزوءاً ، على اليهود والنصارى ، وهو على يقين من امره انه يتلو آي الله في خلقه ، ولم يدّع يوماً انه غير انسان مخلوق ، وهو من سلالة الانبياء ، وليس باسم يسوع الناصري ، نبيهم الكريم كانت تعاليمه في غاية البساطة ، تذكرنا من وجوه عديدة ، بتعاليم موسى ووصاياه ، في نطاق القربى العنصرية التي تشد العرب الى العبرانيين الاقدمين. فالله الذي يدعو الى عبادته هو الواحد الأحد القيوم الكلي القدرة . يدعو الانسان الى الطاعة والتسليم المطلق ، الى الاسلام ، اذ ان الله كريم رحيم يعد عباده ومن يُسلّم امره اليه ، اي المسلم ، بالجنة ، ويبعث في قلبه الايمان والثقة بوعد الله . وهو لا ينهي المسلم عن السعي وراء خيرات هذه الدنيا ، انما بالشكر تدوم النعم ، اذ ان الله هو واهب الاشياء ومقسم الارزاق . وهذا الموقف ، وهذه القناعة الداخلية لا تلزم صاحبها الا بالدعاء لله والشكر له ، والسير على تعاليمه ووصاياه ، والجهاد في سبيله حسبما يدعو اليه نبيه ورسوله ، والاعتصام بمكارم الاخلاق ، والتزام سبل الفضيلة ، والتصدق للغير ، من اي لون او جنس كانوا ، وفقاً للتقاليد العربية المرعية ، والرفق بالمرأة . هذه هي بايجاز الرسالة التي قام محمد يدعو اليهـــا العرب في مكة ، باسلوب جزل ، وعبارة جمعت بين الايجاز والاعجاز .

غير ان قريش خشيت على نفسها من أمر هذه الدعوة الجديدة ، ووجد أسيادها فيها تهديداً لعقيدتهم وخطرا على نفوذهم . فقاموا يضطهدون النبي وصحبه ، مما حمله على الهجرة الى يثرب ، عام ٦٢٢ ، التي عرفت منذ ذلك الحين باسم «المدينة» او مدينة الرسول. ومن هذا التاريخ او الهجرة اخذ العرب يؤرخون ، ومنها يبتدىء الحساب الهجري. وقد تغير موقف النبي العربي في المدينة : فلم يعد ليكتفي بالدعوة ، بل راح ينظم جماعته من الانصار والصحابة . اذ كانت الشريعة لا تختلف عن العقيدة او الايمان ، وتتمتع مثلها بسلطة الهية ملزمة ، تضبط ليس الامور الدينية فحسب ، بل ايضاً الامور الدنيوية ، فتفرض على المسلم الزكاة ، والجهاد ضد المشركين لحملهم على الاسلام ونشر الدين الحنيف . وبعد مواقع عديدة مع قريش ، استطاع محمد فتح مكة فأسلم أهلها وأقبلوا على الدعوة الجديدة محافظة منهم على ما كان لهم من مكانة في الجاهلية . وقد فُرض على كل مسلم ومسلمة الحج مرة الى بيت الله الحرام لكل من يستطيعه . ولم تلبث القبائل ان اقبلت على الدعوة تقدم خضوعها . وعندما قُبض النبي العربي ، عام ٦٣٢ ، كان محمد انتهى من دعوته ، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الاسلام ، وصهرهم في وحدة قوية ، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة ، لم تعرف مثلها من قبل .

وقد اوشك موت النبي ان يقلب الوضع في الجزيرة ، رأساً على عقب ، لو لم يتـدارك الامر ابو بكر خليفة الرسول ، وامير المؤمنين بعـده ، في سلسلة من الحروب العنيفة تُعرف بحروب الردّة . وولي الامر، بعد ابي بكر، الفاروق عمر بن الخطاب ٦٣٤ — ٦٤٤ ثاني الخلفاء الراشدين، بعد الرسول . ولكي يبقي العرب كتلة متراصة ، كان لا بد من تجنيدهم في خدمة الدين الحنيف، وارسالهم في سرايا لفتح الاقطار المجاورة .

الفتوحات العربية

تم الفتح العربي بسرعة ادهشت الفاتحين انفسهم . ولم يكن الغرض من هذه الحروب ، في الاساس سوى الغزو ، فجاء الاصطدام يكشف عن عورات الخصم والضعف الذي ينتابه ، فاستحالت الفكرة الاولى ، الغزو ، الى فتح ، ساعـد عليه ، وسهل امره ، الحماسة التي جاش بها الغزاة الفاتحون . وهذا الضعف يتكشف عنه العدو قام اصلاً في هذا الكره الذي حمله الاهلون لحكم الروم ، فآثروا عدم مقاومة الغزاة ، بل ان قسماً من سكان البلاد تواطأ مع الغزاة وعمل على نصرتهم. «ليس بالامر اليسير قط ان نتخلص من ربقة حكم الروم » كما جاء على لسان احـد المؤرخين من النساطرة . تم فتح سوريا سنة ٦٣٦ ، بعد ان بوشر به عام ٦٣٣ ، وقد بوشر بفتح العراق في الوقت ذاته وتم نهائياً عام ٦٣٧ ، امـا فتح مصر فقد تم بين ٦٣٩ و ٦٤٢ ، وقد تم فتح ايران نهائياً، باستثناء بعض المقاطعات الدائرية، عام ٦٥١ . وقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية ، على تنظيم شيء من الدفـاع « الوطني » خلافاً للامر في الولايات البيزنطية ، اذ ما كادت جيوش العرب تطل على هـذه الولايات حتى راح حكامها يخلونها بسرعة ، ويفرون الى القسطنطينية ان لم يتواطأوا مع الغزاة الفاتحين . وقد بات من الصعب على المسلمين ، بعد ان خفّت حماستهم وخَفّ اندفاعهم ، ان يفتحوا آسيا الصغرى بعد ان فشلت محاولتان لهم للاستيلاء على القسطنطينية ، وبسط سيطرتهم على آسيا الوسطى حيث اصبح نهر السير داريا ، منذ اواسط القرن الثامن ، الحـد الفاصل ، بين الامبراطورية الاسلامية وبين المقاطعات الواقعة تحت سيطرة الصين وقبائـل البدو الرحل من تتر ومغول . كذلك لم يكن فتح شمالي افريقيا ، بالامر الهين لشدة مقاومة البربر لهذا الفتح ، ولم يستقم الامر امامهم الا بعد ان جروهم للمساهمة بفتح اسبانيا، ثم صقلية، بعد ذلك بنحو قرن من الزمن. اما تقدمهم في غاليـا فامتد حتى بلغوا مدينة بواتيه حيث كتب لشارل مارتيل ان يكسر الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢ .

وهكذا دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين اقاليم شاسعة امتـدت من نهر الهندوس ، شرقاً ، الى نهر التاج ، في اسبانيا ، غرباً ، ومن بحر أرال شمالاً الى اقليم السنغال جنوباً ، وكلها مناطق تأتلف مع طبيعة العرب ، وتتوافق عاداتها ومعايشها ومفهومهم للامور المعايشية من حيث احتياجاتهم اليومية التي لا تختلف عند الكثيرين من سكان هـذه البلاد الاصليين ، عن احتياجات العرب ومطالبهم الاساسية . وهنالك مفارقات شتى في الجغرافية والتاريخ ، جعلت الفرق كبيراً بين هذه البلاد . لا بد من التنويه عالياً هنا ، انه بعد الفتح ، جرى تنظيم هـذه

البلدان في إطار وحـــدة فضفاضة على اساس من الاتفاقات المشروطة لتأمين خضوع السكان واستسلامهم . بقي ان نقول انه اذا مـــا ادت الفتوحات الجرمانية الى تقسيم اوروبا ، فالفتح العربي ادى بدوره الى وحدة الشرق الاوسط .

وبدلاً من ان يذوب الفاتحون العرب بين اكثرية سكان البلاد الاصليين، مع ما بين الجانبين من فوارق العادات والاخلاق ، نراهم ينزلون في مخيمات عسكرية خاصة بهم ؛ في مقاطعات لم تأخذ بعد تماماً باسباب الحضارة والتطور ، فاذا بسكان البلاد يفدون على هذه المخيمات التي لم تلبث ان اصبحت مـــدناً عامرة ، كالكوفة والبصرة مثلاً ، في جنوبي العراق ، والفسطاط في مصر ، والقيروان في المغرب ، وكلها مراكز زراعية ، عامرة تقع على مقربة من الصحراء في الداخل ، بعيدة عن البحر ومواصلاته اذ لم يكونوا قد طوعوه بعد ، ولا ألفوا ركوبه . اما الجيش الذي كان يتألف من كل من يستطيع حمل السلاح ، فينقسم الى فرق ، تتمركز في مقاطعات عسكرية تعرف عندهم باسم « جند » تجري عليهم الارزاق والمرتبات من الاسلاب والمغـــانم الحربية كل بحسب مرتبته ، او من الرسوم والضرائب المفروضة على الذميين وعلى من يدخل منهم في طاعة المسلمين مستأمنين . وتبقى القبيلة وحدة لها شأنها الاجتماعي، بالرغم مما تتعرض له من انقسامات تقتضيها مستلزمات الفتح العسكري ، تحت امرة الخليفة ومن يعاونه من الصحابـة والانصار والتابعين . وكثيراً ما ادت العصبية القبلية الى الاقتتال والتناحر بين قبائل الشمال والجنوب ، مناصرة منها للحزبية الناشطة التي دعا اليها الوضع الجديد في العالم العربي والاسلامي ، فمزقت شمله وفرقته شيعاً واحزاباً ادت الى اشتباكات دامية استمرت قرناً واكثر .

كان لزاماً ان تفضي الاوضاع الجديدة ، بعد هذه الفتوحات الواسعة التي ساعدت على حـل ازمة خلافة النبي العربي محمد ، الى ازمة جديدة ، اطول من الاولى واكثر تعقيداً . فقـد واجه تنظيم الدولة الجديدة، مشكلات ضخمة لم تكن بالحسبان ولا خطرت على البال، منها مثلاً قضية الحكم ، انطلقت من صميم هذه الفوارق العميقة والاختلافات الجذرية التي تلازم اختلاف المصالح والاهواء الشخصية ، في الظاهر ، والتي اقامت الجماعة واقعدتها ، بعد ان زال الجيل الاول الذي صحب النبي وناصره . ويمكن رد هـذه الاختلافات الى اعتبارات قد تبدو غريبة في نظر البعض ، والتي يمكن ردها اصلاً الى هذا الترابط الداخلي القوي الذي يشد العقيدة الدينية الى النظام الاجتماعي . فالتكتلات السياسية التي طلعت علينـــا ، اذ ذاك ، لم تلبث ان اصبحت احزاباً وشيعاً لها عقائدهـــا وتعاليمها اللاهوتية التي اصبحت جزءاً لا يتجزأ من وضعهـــا السياسي والديني .

الدولة الاموية

في هذا العراك السياسي العنيف الذي وقف فيه الخليفة عثمان ، ثالث الخلفـاء الراشدين ، ومن بعده معاوية امير الشام ، ضد علي بن ابي طالب ، ابن عم النبي وصهره ، ورابع الخلفاء الراشدين ، تبرز للعين والنظر ثلاث نزعات لا بد من الوقوف عندها . فمنذ البدء ، نرى فئة الذين يراودهم الحلم المعسول ، الصعب المنال ، الذي يتبدّى لكل دين

جديد ، والذي يرمي للمحافظة على مظاهر الحياة البدائية الاولى واحيائها ، ممثلة خير تمثيل « بقدامى المسلمين »، والفئة الاخرى التي تتألف من هذا الفريق الجريء الذي يعمل على الافادة من الظروف القائمة وتسخير السلطان لمصلحته ومنفعته الشخصية ، وبعبارة اخرى ، بين من يقول بالتفية ويتمسك باهداب الدين الحنيف ، وبين هؤلاء الحكام الاداريين ، ممن يتولون تصريف الامور ، ومعظمهم من آل قريش الذين يهمهم في الدرجة الاولى ، ان يسترجعوا ، في الامة ، النفوذ الذي كان لقريش في مكة ، أبّان عهد الجاهلية ويعيدوا اليها ، السيادة والنفوذ اللذين تمتعت بهما من قبل . وظهر بين الفئة الاولى نزعتان . فالخوارج رأوا ان المؤمنين سواء فيما بينهم اصلاً ، فاذا كان لا بد لهم من امير يتولى الامر بينهم فأولاهم به اقربهم الى الله ، دون نظر الى الاصل او العرق ، مع وجوب محاربة من كان بين بين في دينه ، من المسلمين ، باعتباره مارقاً ، خارجاً عن جادة السبيل . ومثل هذا الرأي يتفق تماماً والعرف التقليدي المرعي الجانب بين العرب. اما الشيعة، فالتمسك بالاسلام الحنيف ، انما يعني في نظرهم، التمسك بعترة النبي ولا سيما باهل بيته وولده من ابنته فاطمة وصهره علي بن ابي طالب . فالامر عندهم اكثر من مجرد مبدأ خلافة بشرية ، هو الرفض بالتسليم بما يذهب اليه خصومهم بان صاحب الامر : الامام ، ليس سوى مجرد حاكم ،بل اعتقدوا عن يقين ان الوحي المحمدي يجب ان يستمر وان يبقى في اهل عترته ، وبذلك يبقى الخليفة الإمام الهادي المهدي في امور الدين ، وبالتالي العزم على عدم التفريق بين الدين والسياسة . فلا عجب ان يفوز ، بنهاية الامر ، السياسيون بشخص معاوية بن ابي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية في دمشق (٦٦١) . وقام الخوارج بحوادث دامية وفتن في معظم انحاء الدولة الاسلامية دون ترابط قط . اما الشيعة ، فقد رأوا اهل البيت منهم يستشهدون في كربلاء ، عام ٦٨٠ ، وينالون شرف الشهادة ، بينما انصرف بنو امية لتثبيت دعائم ملكهم وتوطيد سلطانهم .

وعندما بُويع معاوية بالخلافة ، جعل دمشق عاصمة لملكه ، مكرساً بذلك ما كان لا بد منه ، وهو التحول عن الجزيرة العربية ، مؤذناً بانتهاء الدور التاريخي الذي لعبته باعطاء العالم ديناً جديداً وجيشاً شمّا الى خارج الجزيرة العربية ، ليغمرها الصمت من جديد . صحيح ان لفريضة الحج الى مكة ، واستمرار ابناء الانصار والصحابة في المدينة المنورة حفظا لهاتين المدينتين اللتين يقدسهما المسلمون ، منزلة كبيرة في القلوب ، غذت في نفوس البعض الرغبة في الثورة والانتفاضة في وجه السلطة ، الا انها محاولات باءت جميعها بالفشل . وقد اضفى انتقال مركز الخلافة الى دمشق اهمية متزايدة لعرب الشام فاصبحوا عماد الدولة الجديدة وذخرها ، واصبحت الشام في المنزلة الاولى بين الاقطار الاسلامية تفضلها جميعاً ولا سيما العراق حيث كان انصار اهل البيت اقوياء يتخذون من الكوفة مركزاً لدعايتهم ولدعوتهم . واضطرت الدولة الناشئة ان تعتمد في ادارتها على اهل الشام الذين اصبحوا عماد الدولة فأمدّوها بالعمال والموظفين من ابناء البلاد ، وهكذا رجحت كفة التقاليد البيزنطية على التقاليد الساسانية .

قلما عرف التاريخ والحق يقال ، فتوحات كان لها ، في المدى القريب ، على الاهلين ، مثل هذا النزر الصغير من الاضطراب يحدثه الفتح العربي لهذه الاقطار . فمن لم يكن عربياً من الاهلين لم يشعر باي اضطهاد قط . فاليهود والنصارى الذين هم أيضاً من اهل الكتاب ، حق لهم ان يتمتعوا بالتساهل وان لا يُضاموا . وكان لا بد من الوقوف هـذا الموقف نفسه من الزردشتية والمانوية والبوذية وصائبة حران ، هذه الطائفة التي كان اصحابها يعبدون النجوم والكواكب ، وغيرهـا من الملل والنحل الاخرى . والمطلوب من هؤلاء السكان ان يظهروا الولاء للاسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه ، وان يؤدوا له الرسوم المترتبة على اهل الذمة تأديتها ، والامتناع عن كل دعوة دينية لهم لدى المسلمين ، وان يحافظوا على عروبة الجيش . وفي نطاق هـذه التحفظات التي لم تكن لتؤثر كثيراً على الحياة العادية ، تمتع الذميون بكافة حرياتهم . والى هذا ، فقد كان من الصعب جداً على العرب المسلمين الذين ألفوا اقلية ضئيلة جداً في وسط هذا الخضم من الأمم والاقوام التي يسّر الله لهم السيطرة عليها ، ان ينهجوا نهجاً آخر ، ويأخذوا النـاس بالشدة والا لكانت الحروب افتتهم واكلتهم .

وتألفت ادارة الدولة من قطاعين ، ينتظم الاول سياسية المسلمين ، فينظم منهم شؤون الحرب والسلم وامور العبادات ، ويؤمن اقتسام المرتبات والاعطيات وجمع الزكاة ويتولى شؤون هذه الادارة ، في عاصمة الخلافة دمشق ، وفي الاقاليم موظفون عرب . اما الثاني فيعنى بشؤون سكان البلاد ولا سيما بتنظيم الضرائب وجبايتها ، يتولى القيام به والاشراف عليه عمال وموظفون من اهل البلاد ، يتولون كتابة الديوان وضرب السكة بلغة البلاد ، وبغير ذلك من امور الادارة التي لا علاقة لها بشؤون الدين . ونرى في القطاع الاول ، يزداد التباعد أو الانفصال بين الدولة والدين . فالدين ينظم مبدئياً كل شيء في الحيـاة العامة والحياة الخاصة ، بحيث لا يمكن ادخال أي تغيير عليها أو تعـديل .

وقد انتظمت العلاقات بين الدولة وسكان البلاد الاصليين بسهولة كلية وفقاً لروح القانون المعمول به في البلاد ، والنظام الساري المفعول ، كما هي الحال مع كل فتح جديد . وبقيت كل ملة أو طائفة محتفظة بقانونها الخاص وبالموظفين الذين يسهرون على الشؤون الدينية عندهـا ، باستثناء ما كان منها تابعاً للحق العام ، فمرجعه الحكومة ، أو ما تعلق بالعلاقات الخاصة بين هذه الطوائف بعضها ببعض ، فكان امره متروكاً للقضاة الذين كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال بالنسبة للحكومة ، مع انها هي التي تتولى امر تعيينهم وتأمين مرتباتهم ، ويسهرون على تطبيق قانون لم تكن الدولة اصدرته . ونلاحظ تطوراً ملحوظاً يطرأ على وضع النصارى بعـد ان احتفظت بيعهم بجانب من ممارسة العدالة في الامور الخاصة ولا سيما العائلية منهـا . وهكذا برز البطاركة والاساقفة ، الرؤساء الاعلين لطوائفهم تعلو سلطتهم سلطـة الموظفين الاداريين المحليين ، حتى ان اليهود انفسهم لم يجـدوا بأساً في الاحتفاظ برؤسائهم الدينيين وبرابنتهم وبمحاخامهم الاكبر .

الشريعة الاسلامية اساسها الوحي المحمدي وهو وحي وتعاليم لم تكتب في عهد محمد، فتناقله الصحابة في قلوبهم كما تناقل الرواة الشعر من قبل ومن بعد. فهل يمكن، لعمري، القول او التسليم بوجود او بامكان وجود اختلاف، او تناقض في كلام الله؟ وامام خصومة الذين راحوا يتهمونه بعدم التدين او المروق، راح ثالث الخلفاء الراشدين، عثمان ابن عفان، يجمع القرآن من حامليه ويدونه بحرف عربي لم يبلغ بعد الطواعية اللازمة، وهكذا ظهر القرآن بوضعه الحاضر. ولم يكن الغرض من جمع آي القرآن على هذه الصورة إعداد ترجمة مفصّلة لحياة النبي العربي او ترجمة مسهبة له، بل بالاحرى جمع وقائع حياته وتعاليمه التي حدثت او وقعت في ظروف وامكنة مختلفة، والخروج من ذلك كله بكتاب او قرآن، منهجي، نهائي، غير مربوط بزمان او مكان. ولذا جاء ترتيب آيات هذا القرآن وسوره لا يراعي التطور التاريخي لهبوط الوحي المحمدي، اذ يجد العلماء اليوم من الصعوبة بمكان، تحديد اماكن هذا الوحي وتحديد الظروف التي نزل فيها.

ومع ان القرآن هو اصل العقيدة الاسلامية وركنها الركين، فهو ليس مع ذلك، مصدر الشريعة والعقيدة الاسلامية الوحيد. فالقرآن هو كلام الله المنزل. الا ان سلوك الرسول العربي، واقواله، واحاديثه، حتى ما كان منها لا يتعلق بالوحي، لها قوة تعليمية اسمى بكثير مما للناس من امثالها. ولذا بدا من المفيد لا بل من اللازم، الرجوع الى هذا كله والاسترشاد به والهدي بما فيه من موعظة وحكمة وعبرة لاتمام الشريعة المحمدية، اذ هنالك حالات وظروف واوضاع طرأت على الامبراطورية العربية، لم يرد في القرآن ما يعرض لها او ما يسمح بمعالجتها. وهكذا راح المهتمون، بالامر يدرسون التقليد او سنة الرسول يستخرجون منها الاحكام والقياسات المرتجاة، يستخدمونها ضد الشيعة والخوارج. وهكذا اخذوا يجمع اقوال النبي واحاديثه بالرجوع الى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ولم يلبث ان نشأ من هذه الحركة علم جديد هو علم الحديث، كما اطلقوا على من يعنون به اسم المحدثين. وقد قام اصحاب الملل والبدع الاسلامية، تعزيزاً لمقالتهم او لمواقفهم، يدعون احاديث نبوية، بعضها محرف وبعضها منحول من الاساس، بحيث راح المحدثون يضعون حدوداً صارمة ليميزوا بين الصحيح منها والزائف. ويرى مؤرخو العصر في هذه الاحاديث، وثائق تتعلق بتطور الاسلام اكثر منها وثائق تنير جوانب غامضة، في حياة النبي العربي.

وهكذا اخذت تتضح مبادىء العقيدة الدينية في الاسلام، كما تحددت اركانه الخمسة أو القواعد الكبرى التي ينهض عليها الدين الجديد، الا وهي: الشهادتان، والزكاة وصوم رمضان والجهاد أو الحرب المقدسة ضد المشركين، والحج الى بيت الله الحرام، مرة في الحياة على الاقل، وإقامة الصلاة خمساً في النهار. وهي تقام، بالافضل، في موضع معين للعبادة هو المسجد، ولا سيما يوم الجمعة جرياً على عادة إقامتها يوم السبت، عند اليهود، ويوم الاحد، عند النصارى. فالمسجد، كالكنيسة، هو مكان للعبادة كما هو مكان تعقد فيه الجماعة اجتماعاتها العامة للنظر

وتبادل الرأي . وقد حدث ان حوّلوا كنائس الى مساجد ، غير ان العرف المتبع هو ان يُعهد، في أكثر الحالات ، بتشييد المساجد ، الى عمال من أبناء البلاد . وهـذا المسجد يتألف ، في الداخل ، من بهو فسيح الارجاء الى صحن كبير أبهاء فرعية وأروقة تقوم جميعها على صفوف من الاعمدة ، تنتهي الى حائط مستقيم الخط تقوم امامه حَنِيّة تتجـه الى القبلة ، والمحراب والمنبر حيث يقف الامام مصلياً وخطيباً . ويمتد امام البهو فناء رحب أُعِدّت فيـه أماكن للوضوء تجري فيها المياه . ويعلو المسجد عادة ، مئذنة تشبه القبة في كنائس النصارى ، يعتليها المؤذن خمساً في النهار يدعو الجماعـة : « حيا على الصلاة » . فالصلاة لا تستدعي ولا تتطلب ، مبدئياً ، أية رتبة دينية لترؤسها . فمن السهل على كل مسلم ان يتفهم دينه ويحفظ ما فيه من حدود. وما من احد يتلقى من الله عن طريق التكريس أي مراسم اخرى ، عوناً خاصاً او نعمة ليسير بحسب هدى دينه . ومع ذلك ، فلم يلبث ان ظهر بين الجماعة طائفة من الفقهـاء تخصصوا بأمور الدين وتفقّهوا بفرائضه، كتب لأصحابها انيلعبوا دوراً بارزاً في الاسلام، هم طائفة العلماء.

سكان البلاد الوطنيون

لم يطرأ على مجموع سكان الريف تقريباً، ولا على السواد الاعظم من سكان المدن ، وكلهم غير مسلم ، أي تغيير يذكر في سير الحياة ونهجها . فقد اخذ المسيحيون الخارجون عن طاعة بيزنطية ، ينظمون أحوالهم ويضبطون شؤونهم الدينيـة والكنسية الخاصة بعد ان تخلصوا من مضايقات العاصمة وازعاجها. وسيدفعون غالياً ، في المستقبل، ثمن تسرعهم للتقليل من اتصالاتهم بباقي العالم المسيحي، فقد اقتصرت علاقاتهم، مع الامبراطورية البيزنطية في الوقت الحاضر ، على بعض الاتصالات الانسانية ، بالرغم من الحروب التي كثيراً ما شجرت بين المسلمين والروم . وقد راحت بيزنطية ، بالاحرى ، تشعر بالاسف المرير لفقدانهـا أغنى ولاياتها مادياً وروحياً . وخير من يمثل هذا الوضع ويصور هذا الواقع ، احسن تصوير ، هو يوحنا الدمشقي، احد كبار الموظفين في البلاط الاموي، الذي كفر بالعالم بعد حين، وانقطع لعبادة الله راهباً في دير القديس سابا، القريب من القدس، واشهر لاهوتيي الكنيسة الشرقية الملكية في هذه الحقبة ، ولعب دوراً بارزاً في الجدل الديني الذي احتدم في بيزنطية حول تكريم صور القديسين . وقد عُرفت هذه الكنيسة بالملكية ، لبقائها على الولاء « للملـك » او لامبراطور بيزنطية ، وللعقيدة التي ترعاها القسطنطينية ؛ كما لحقها أذىً كبير من جراء فقدانهـا السلطة الكنسية ولشغور كراسي بطريركيتها ، في المرحلة الاولى ، ثم لتوليها ، فيما بعـد ، من قبل بطاركة أكثر التصاقاً بمركز الخلافـة الاسلامية ، منهم بطريركية القسطنطينية . وقد بقيت ، بالرغم من هذا ، نشيطة حية ، كما نرى من سيرة القديس يوحنا الدمشقي .

والى جانب الكنيسة الملكية قامت الكنيسة المارونية التي اخذت اسمهـا من اسم راهب يدعى مارون ، الا ان ابتعادها عن بيزنطية وعدم الاستقرار في بطريركية انطاكية ، جعلهـا تتردى في الهرطقة المونوثولية او القول بمشيئة واحدة في السيد المسيح ، في الوقت الذي تنكرت لها كنيسة القسطنطينية وتحولت عنها. وقد اخذت هذه الكنيسة تنظم شؤونها في وضع بين بين،

من الانشقاق والانفصال ، تحت ادارة بطريرك خاص بها ، وبدون قصد معين . وبالرغم من عداوة اتباع عقيدة الطبيعة الواحدة الذين كانوا ينعمون برعاية الخلفاء وينالون حظوة في اعينهم ، اخذ الموارنة يستقرون تدريجياً على سفوح جبل لبنان الغربية ، بعد ان اخذوا في حرثها واستغلالها ، وبعد ان رأوها امنع جانباً وآمن لسكناهم من تلك الهضاب والنواحي الواقعة الى الشمال من سوريا والتي سكنوها ردحاً من الزمن في بدء امرهم . اما اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة من يعاقبة واقباط وارمن ، والنساطرة ، فقد استطاعوا في اول عهد السيطرة الاسلامية ، ان يحافظوا على عدد اتباعهم وكنائسهم . وقد هب البطريرك إيشونيهب الثالث النسطوري ، الى وضع سلسلة من التشريعات الليتورجية والقانونية ، ثم انصرف الى التأليف في الامور الرهبانية وسير القديسين والتاريخ الكنسي مع الحرص الشديد على السير مع الحركة العلمية التي نشطت اذ ذاك ، ولا سيا في الطب . وقد برز عند اليعاقبة في هذه الحقبة ، ولا سيا في الحياة الرهبانية ، يعقوب الرهاوي الذي كان اوحد علماء زمانه ، بل قطبهم وعميدهم ، اديب ، شاعر ، ناقل ، مؤرخ ، مفسر ، مشترع ، وفيلسوف لاهوتي صاحب التصانيف العجيبة المفيدة . ما ازدحم العلم في صدر احد ازدحامه في صدره ، فكان ملفان البيعة الاكبر. وبالرغم من موقفه المعادي لبيزنطية من الوجهة العقائدية فقد بقي عقله متفتحاً للقبس من التراث المسيحي اليوناني . وبالرغم من الفروق اللاهوتية التي قامت بين الكنيستين ، فقد جمعها العداء ضد الكنيسة اليونانية ، وتأثرت الواحدة منها بالثانية فاستعملتا في الطقوس الدينية والليتورجية لغة واحدة بالرغم من بعض الفوارق الطفيفة . فقد أثر اليعاقبة تأثيراً بالغاً على الاقباط والارمن ، بينما تابع النساطرة جهودهم لنشر المسيحية في الاقطار الوسطى من آسيا .

وهذا الاستمرار نراه قائماً في حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية . فقد وُزّعت الاراضي في الريف الى قسمين متميزين : الاملاك الخاصة ، والاملاك العامة ، ثم اضيفت اليها الاملاك التي فقد اصحابها ملكيتهم لها ، لفرارهم من البلاد عند الفتح او لوفاتهم في الحروب التي دارت رحاها اذ ذاك . فالقسم الاول من هذه الاراضي ترك لاصحابها ، شريطة ان يدفعوا عنها ضريبة عقارية هي الخراج التي كانوا يدفعونها من قبل للدولة البيزنطية او الساسانية . اما القسم الثاني من هذه الاراضي ، فقد أجر الى مزارعين او مرابعين (إقطاع) معظمهم من العرب ، بقصد استثمارها واستغلالها وفقاً لعقود خاصة ، رأى فيها بعض الفقهاء من اهل البلاد استمراراً لنظام الحكم الذي عرفه البيزنطيون وعملوا به طويلاً ، مع ان الدولة الجديدة التي لم تكن ألفت بعد مثل الفروق الدقيقة ، اعتبرتها املاكاً تشبه في ملكيتها ، هذه الاملاك التي كان معمولاً بها في الجزيرة العربية قبل الفتح . فالاقطاع هو ملكية عقار يولي صاحبه جميع الحقوق الاقتصادية ، مع ما لذلك من حدود . فعلى سيد الارض ان يدفع الضريبة المترتبة على كل مسلم ، ويجعل مما يتصدق به عُشر ربحه او مدخوله . فهو لا يتمتع باي من الامتيازات التي تحق قانوناً للسلطات العامة ، على المرابعين او المستأجرين ، فسلطته عليهم هي اخف من سلطة اصحاب

الاملاك على مزارعيهم ، في عهد البيزنطيين والساسانيين . وعلى هؤلاء المزارعين ان يدفعوا رسوماً شبيهة برسوم الخراج المترتبة على أصحاب الاملاك من الفلاحين ، وهكذا نرى ان هاتين الفئتين من الاراضي لم تخضعا لنظامين اقتصاديين يختلف الواحد عن الآخر اختلافاً جذرياً . وهكذا لا نرى وجهاً « للاستعمار » العربي ، الا ما جاء استثماراً او استغلالاً للاراضي الموات غير القابلة للحرث والزراعة . وهكذا نرى ان الفتح العربي ، كان اخف وقعاً بكثير على الاهلين ، وكان شعورهم به أقل بكثير من شعور الناس ، في الغرب ، بغزوات الجرمان واحتلالهم لاوروبا الغربية .

ان هرب « ارباب » الاراضي البيزنطيين من البلاد ، وحلول ملاكين عرب محلهم أقل دراية وخبرة منهم بنظم الاقطاع ، لم يجلب معه الحرية للفلاحين . وكان من المحظور على العرب ، مبدئياً ، ان يصادروا أو ان يختلسوا أملاك سكان البلاد . اما في الواقع ، فقد ساعد الشعور والسرور بالخلاص من المحتل المستعبد ، وفقدان الادارة والنظام الذي ران على البلاد ، في اول الفتح ، بعض قادة العرب وزعمائهم ، على اقتناء قرى وضياع ضموها الى ممتلكاتهم السابقة ، وأعفيت من ضريبة الخراج ، فلم تستفد الدولة منها غير استيفاء العُشر ، ومثل هذا الوضع لم يكن واحداً سوياً في جميع انحاء الامبراطورية الاسلامية . ففي ايران مثلاً ، أسقط في ايدي أسياد البلاد وكبار الملاكين ، وسُدّت في وجوههم منافذ البلاد فلم يستطيعوا ان ينجوا بانفسهم ، ولذا بقي عدد كبير منهم داخل البلاد لم يستطع النجاة بنفسه . واذ رأى زعماء العرب انفسهم بمعزل عن كل رقابة حكومية ، قاموا بعدد من التجاوزات ، حدّ منها اضطرارهم للتغيب كثيراً عن املاكهم بداعي الجهاد ، وعدم خبرتهم ودرايتهم بسياسة الأرض والعناية بها . وتمسك الفلاحين بالارض وتعلقهم بها في عهد الادارة السابقة ، لم يتأثر كثيراً مع الفتح العربي . ولذا كان لا بد من الكشف عن الهاربين لاجبارهم على دفع ما يترتب عليهم دفعه عن املاكهم في الريف ، من ضرائب ورسوم ، لانهم لا يزالون مسؤولين ، قانوناً ، عنها امام الادارة المالية . ولذا نرى الوثائق البردية في مصر ، حيث كانت أعمال المراقبة المالية لا تزال فيها على اشدها ، تأتي على ذكر هؤلاء الفارين ، لدرجة انها اصطلحت على تسمية ضريبة الاعناق او الجزية المستحقة عليهم ، بكلمة « جوالي » أي اللاجئيين ، وهم هؤلاء الذين يترتب عليهم شخصياً دفع ضريبة الاعناق أو الجزية ، بقطع النظر عن الاراضي أو العقارات التي يملكونها . وهذه الضريبة الثانية ، أي الجزية ، التي فرضت على غير المسلمين لم تكن ضريبة جديدة فرضها الفتح عليهم ، اذ كانت بيزنطية تفرضها على كل من لم يكن نصرانياً ، او لم يكن حراً . وهكذا فالحياة وطرق الجباة ، كل هذا بقي على ما كان عليه قبل الفتح ، ولم يتغير غير المستفيدين من هذه الضريبة . وهو أمر لم يكن ليكترث له الاهلون ، او ليهتموا له ، بقليل او كثير .

أما المؤسسات البلدية والخاصة ، في المدن ، فقد بقيت دونما تغيير يذكر وبقيت تعمل كالمعتاد في ظل النظم التي سارت عليها الادارة الجديدة .

وهل من تغيير يطرأ على التجارة ، يا ترى ؟ فقد تم بالطبع ، الغاء الاحتكارات الرسمية ، كما نسخت سيطرة الدولة البيزنطية ، على الاسواق في مصر ، وهي سيطرة كان يقصد منها تأمين اسباب تموين العاصمة القسطنطينية . وقد تكون خفت ، ان لم تتوقف تماماً ، الحركة التجارية في شمالي الشام ، ولا سيما تصدير الزيت والزيتون ، الى مقاطعات آسيا الصغرى . والذي نرى انه لم يحدث اي توقف أو انقطاع في حركة التصدير من مصر التي استمرت قائمة على ايدي بعض التجار ، كما ان الانتاج بقي على وفرته ، حتى في حال توقف حركة التصدير ، وتحولت الى أسواق جديدة تتمثل في هذه المدن الواقعة على مشارف الصحراء ، جديدة كانت ام قديمة ، وفي مقدمتها دمشق عاصمة الخلافة الاموية . ومن الجائز ان نفترض هنا بان الوحدة السياسية التي لفت هذه الاقطار بعضاً الى بعض ، مما وقع بين العراق وآسيا الوسطى ، والتي كانت ، الى ذلك الحين ، بين دفع وجذب ، بين امبراطوريتين متجاورتين ، متنافستين ، كان لها وقع طيب في الاوساط التجارية ، مع ان الناس لم يتبينوا فائدة هذه الوحدة ، إلا بعد حين . والمهم ان نلاحظ هنا ، على ضوء سوء الفهم الناتج عن نظرية عرفت بعض الشهرة ، ستطالعنا بعد حين ، انه لم يحصل تغيير كبير في التجارة البحرية : لا في بحر الهند الذي سيطر على التجارة فيه الايرانيون ولا في البحر المتوسط : فالعرب لم يكونوا رجال بحر كالبيزنطيين ، فلم يروا ما يمنع الا في بعض الحالات والاصطدامات المسلحة ، استمرار العلاقات التقليدية التي ربطت ، منذ اجيال ، بين البلاد المسيحية الواقعة الى الشمال من البحر المتوسط ، وبين سكان البلاد الواقعة في جنوبي هذا البحر والتي دخلت تحت سيطرة العرب والمسلمين . فقد يكون لحق ، بعض الاذى بالثغور السورية الواقعة على مقربة من الحدود الشمالية ، أو لوجودها على مقربة من جزيرة قبرص . والظاهر ان نشاط الاسكندرية التجاري لم يتأثر بشيء يذكر من هذا كله .

حضارات متقاربة

وهذا الاستمرار عينه يلازم الحياة الفكرية : فحضارة سكان البلاد الوطنيين وحضارة العرب تسير كل منهما في خط أو اتجاه معاكس ، الا ما اتصل بمجال الفن . فالادب عند العرب ، في القرن الاول للهجرة يسيطر عليه الشعر وفقاً لعمود الشعر العربي في العصر الجاهلي ، بعد ان اخذ ينعم برعاية الامراء والخلفاء يستدنون رجاله ويقطعون السنة الشعراء ، فقد تلقح بموضوعات جديدة لم تكن مطروقة من قبل كمدح الامراء ، استدراراً لعطائهم ، أو كتصوير حياة الاحزاب ، وغير ذلك من الموضوعات التي تصف لنا حياة الدعة التي اخذ العرب باسبابها . ومن بين الشعراء الذين برّزوا في هذه الحقبة في المدح والهجو على السواء ، ثلاثة هم أنبغ شعراء عهد بين امية اسماً ، واعلاهم شأناً وذكراً ، الاخطل من قبائل الشام النصرانية ، والفرزدق وجرير . هنالك شعراء غيرهم ساروا على عمود الشعر العربي فتغنّوا ، في نظمهم ، بما تي الجيوش العربية في فتوحاتها المظفرة ، كما نظموا في موضوعات شتى ، كالحماسة والموعظة والرثاء ، وفي العقائد وفقاً للاحزاب التي ينتمون اليها . ونرى كذلك ضروباً من النسيب والتشبيب ، شعراً يلتهب حباً عذرياً ، كما نرى في شعر مجنون ليلى ، أو يفيض اسىً ولوعة فيصف لنا محاسن دمشق والمدينة ومكة ، على انغام المغنين

والقيان . اما النثر ، فيبقى باستثناء القرآن ، وقفاً على التغني بايام العرب والحوادث المروية . كل هذا ، واللغة تزداد طواعية ومرونة ويسلس قيادهـــا مع المفسرين والمحدثين ، لتصبح في اواخر القرن السابع لغة الادارة والدواوين .

اما الادب القومي ، فمجال الكلام فيه قصير ، اذ لا يخرج معظمه ، عن التأليف الكنسي ، كما سبق وأشرنا الى ذلك من قبل . ومع ذلك ، اخذت تطالعنا بوادر جركة علمية ، تتمثل خير تمثيل في حركة الترجمة ونقل العلوم الدخيلة كعلوم اليونان والفرس والهند الى العربية ، على يد النصارى من سريان ونسأطرة . فبينما لا نرى احـــداً يبرز في التاريخ عند الروم ، يلتمع امام نواظرنا اسم المؤرخ الارمني سَبَيُوس اذ بقيت بلاده تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري ، في العهد الذي كتب فيه (القرن السابع) ؛ كما نرى ، عند الاقباط ، يرتفع اسم الكاتب يوحنا نيكيو. وهذان الكاتبان عاشا الفتح العربي وتركا لنا شيئاً عنه . وهكذا فالحضارة المسيحية ، في الشرق الادنى ، في القرنين السابع والثامن ، تتمثل خير تمثيل في الامبراطورية العربية ، بينما لا نرى في هذه الحقبة ، شيئاً عند الروم يستأهل الذكر والتنويه ، باستثناء بعض الآثار في التاريخ والتصوف ، وذلك في هذه الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع حتى مطلع القرن التاسع .

وقد اشتركت الحضارتان معاً في ما نرى من انتاج فني ، يعهـــد به العرب الى المهندسين المعماريين من أبناء البلاد ويستخدمون له مواداً هي ، في معظمها ، من مخلفات العهود الماضية . فاذا ما اقتضت فروض العبادة ومناسك الدين في الاسلام ، ان يتميز بناء المسجد بالاصالة والاتساع من حيث مقاييسه ، فنقوشه وزينته من الداخـــل وتحليته تبقى مستوحاة من الطراز الوطني المعمول به في البلاد . وهذا الاستمرار في الوسائل التقنية والمضي في استلهام الموضوعات والنماذج الاهلية ، يبرز أكثر فأكثر ، في المباني المدنية بحيث ان نسبة قصر المشتى في الاردن ، تبقى أمراً مشكوكاً فيه جداً ، ولا يمكن بالتالي ، التسليم به بصورة مطلقة . ومن أشهر هذه الآثار الهندسية الباقية الى يومنا هذا ، مسجد عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، في الفسطاط ، ومسجد قبة الصخرة الذي يسميه البعض غلطاً مسجد عمر ، والمسجد الاقصى ، في القدس ، وكلاهما من انجازات الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، ويرجع تاريخ بنائها الى أواخر القرن السابع . وبعد ذلك بقليل المسجد الكبير في دمشق ، المعروف بالمسجد الاموي ، الذي كان ، أساساً ، كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان ، ولا يقل شهرة عن هذه المساجد مسجد القيروان الذي لم يبق منه شيء يذكر .

اقبال سكان البلاد الاصليين على اعتنـــاق الاســـلام

اخـــذ الوضع الناجم عن الفتح العربي يتغير تدريجياً ، وينقلب ظهراً لبطن ، تحت عوامل جديدة عديدة . منهـــا في الدرجة الاولى ، إقبال الاهلين على اعتناق الاسلام افواجاً افواجاً . وهي حركة تثير الدهش في مظهرها ، اذ يقوم بها اصحاب اديان اوفر غنى ، مادياً وحضارياً ، واوفر عدداً . الا ان هذه الحركة لم تأتِ سواءً ، في كل مكان ، اذ بقي في بعض الاقطار اقليات دينية

متراصة العدد ، كما هي الحال مثلاً ، مع الطائفة المارونية في لبنان . وقد كان المسيحيون ، على الاجمال ، اكثر تمسكاً بعقيدتهم ودينهم من الزردشتية ، مثلاً ، وهي ظاهرة يمكن ردهـا بالاحرى ، الى اسباب عديدة ، منها مثلاً القوة الادبية التي كانت للمسيحية في كثير من الاقطار الاخرى ، ومن جهة اخرى ، تغلغل المسيحية بين الطبقات الشعبية في المجتمع القـائم اذ ذاك . ويتضح من جهة اخرى ، ان العرب ، خلافاً لما سار عليه الفاتحون من قبل ، اخـذوا يدعون سكان البلاد لاعتناق دينهم ، بينما اعتاد الفاتحون فيما مضى ، ان يقبلوا على اقتباس ديانة البـلاد التي فتحوها ، وهي في مستوى ثقافي اعلى وارفع . ومهما بلغ من حـدة الجدل الديني ، وعنف الحروب التي قامت بين الاسلام والديانات الاخرى ، فقـد كانت هذه وتلك ديانات من نفس المستوى الذهني للمؤمن المتوسط ، اذ كان من العسير على المؤمن العادي ان يدرك ، او ان يفهم كما يجب ، او ان يميز بين مفارقات رجال اللاهوت . فبعد ان ملّ النصارى وسئمت نفوسهم عطشَ المناقشات التي ادت اليه المشاقات الدينية والمذهبية ، وهـذه الشروح ، والتفاسير والتعاليق الفلسفية اللاهوتية التي آلت اليها او شجرت عنهـا ، فقد رأوا في الاسلام تبسيطاً معقولاً لمعتقداتهم ، غاية في الاستمرار والتركيز . وهـذا الاسلام الذي اقبلوا عليه يعتنقونه زرافات ووحداناً ، كأنه لم يكن في نظرهم ، هذا الاسلام الذي خرج من بين يدي محمد : فهو دين طرأ على اتباعه تطور كبير منذ ان اصبح في تماس شديد مـع الشعوب والبلدان التي تم إخضاعها ، بعد ان ادخل عليه معتنقوه من الاعاجم ما ادخلوا من رواسب تراثهم الروحي ، وبعد ان لقحوه بما لقحوا من صور ونماذج وقوالب جديدة. ولكي نفهم ، من جهة اخرى ، حركة اعتناق الاسلام بالجملة ، علينا ان لا نسقط من حسابنا الفوائد والمنافع المادية والادبية والاجتماعية التي طمح المؤمنون الجدد في قطفها من اعتناقهم الاسلام ، اذ ان اتخـاذ الاسلام ديناً لهم ، يجعلهم من أبناء الطبقة السائـدة المهيمنة في الدولة ، ومن أعضاء المجتمع المسيطر . وهكذا فاعتناق الاسلام ، كان في نظر القوم اشباعاً لنهم طبقي ، ولشهوة اجتماعية ، وتحقيقاً لرغبة او لحلم طالما راودهم بتحسين وضع اجتماعي ، وطالما اوردهم ، وهذا وضعهم ، مورد الذل والهوان ، أكثر مما هو ارضاء لنزعة دينية ، او لمطلب اسمى من مطالب النفس البشرية السامية . فالمرتدون الاسلام ، لم ينالوا حالاً ، المساواة مع العرب من الوجهة الاجتماعية ، التي طمعوا بالحصول عليها . فالاسلام الذي اعتنقوه لم يكن دوماً هذا الاسلام المتمثل في الحكومة والادارة المركزية . فهو كثيراً ما كان ، اسلام هذه الملل والنحل الاسلامية المعارضة . وهكذا فلكي تقوّي هـذه الملل من جانبها المستضعف ، وتشد من أزرها امام الاسلام الدولة او الاسلام الرسمي ، نرى اتباعها يقومون بجهد كبير لدى سكان البلاد الوطنيين ، لحملهم عـلى اعتناق الاسلام ، وفقاً لمقالتهم او حزبيتهم الخاصة .

فالدولة الاموية كرّست سيادة العرب وسيطرتهم . ففي نظر الفاتحين ، العربي والمسلم شيئان او وضعان مترادفان . فالاقبال على الاسلام واعتناقه بالجملة ، من قبل سكان البلاد ، ميعان هذا

الترادف ، وذهاب بهذا التوافق ، اذ في مثل هذه الحركة تغليب عنصر على عنصر آخر وترجيح فريق مسلم على فريق مسلم آخر ، والدين الجديد لا يقر مثل هذا الامر البتة . فالأول الذين اعتنقوا الاسلام من غير العرب ، أنزلوا منزلة القوم من القبيلة ، فجعلت منهم أشبه ما يكونون أبناء لها بالتبني، هم « الموالي »، بأخذ زعماء القبيلة لهم تحت رعايتهم وحمايتهم . ومع ذلك فوضع هؤلاء الموالي كان بالفعل ، دون أبنـــاء القبيلة ، وهو وضع بَرِموا منهُ ، وتألموا له كلما ازداد عددهم ، وكلما تباعدت عن الاذهان ذكريات الفتح ، واخذت الدولة الجديدة في تنظيم امورها بعد ان اصبحوا ذخر الدولة يرفدونها بالعنصر الاداري . وقد اقتصر وضعهم في الحروب ، على دور ثانوي ، لا يخولهم أي حق بالغنائم والاسلاب التي يصيبها العرب في فتوحاتهم . وفوق هذا، فلم يكن وضعهم بالمنسبة لنظام الضرائب مما يُرغَب فيه . فاعتناقهم الاسلام ، كان يجب ان يؤدي ، في نظرهم ، الى اعفائهم من الجزية المضروبة عليهم قبل اعتناقهم الاسلام ، كما كان يجب ان تُحوَّل ضريبة الخراج المترتبة عليهم ، الى عُشر . فلم يحدث شيء من هذا عملياً . أفكان من المعقول ، ان تقبل الدولة بمثل هذا الرأي الخطل وقد أوشكت حروب الفتح ان تنتهي ، وان تقبل بمثل هذا الفيء المتدني من الرسوم والضرائب ؟ والحل الذي انتهوا اليه مع الوقت، هو الغاء الجزية ، هذا الميسم الذي يدمغ الذميين والخاضعين للاسلام ، على ان تستبدل ، فيما بعد برسوم اخرى تحل محلها ، وان بقي تصنيف الاراضي ، من الوجهة الضرائبية ، على ما كان عليه ، منذ الفتح : فتبقى ارضاً يترتب عليها الخراج ، هذه الاراضي التي يملكها صاحبها حتى بعد اعتناقه الاسلام . وهكذا استمرت قائمة، هذه الظاهرة ، ظاهرة عدم المساواة ، ممثلة خير تمثيل بالنظام المالي وجباية الضرائب ، هذا النظام الذي سارت عليه الدولة الجديدة . وأمام هذه الظاهرة من عدم المساواة ، قام المرتدون الى الاسلام يطالبون باجراء العدل بالسوية وتأمين المساواة بـــين المسلمين ، من أي جنس او عرق كانوا ، وليس بين العرب فقط . وهكذا ، فحركة التذمر التي ارتفعت ، اذ ذاك ، بين سكان البلاد ، لم تتجه ضد سيادة الاسلام وسيطرته ، ولا ضد الديانـة الجديدة . فقد هدفت الى السيطرة على الاسلام من الداخل ، في هذه الأطر ذاتها التي ارتضاها الاسلام له وعمل بها. وعلى هذا الاساس، قامت الحركة في ايران، بلد الموالي الامثل، وفي المغرب الاقصى ، بين البربر من سكان البلاد الذين راح العرب يحيلون فتيانهم عبيداً ، وبعـد ذلك ، في اسبانيا ، بين طبقة المولدين ، هذه الطبقـة التي تألفت من ملاطي المسلمين او من الذين اعتنقوا الاسلام ، من سكان البلاد الاصليين . وبلغت الحركة اشدها في ايران ، وقد ساءهـــا ان يعتمد الامويون على اهل الشام دونهم ، في تدبير امور دولتهم ، بينما رأى سكان الولايات الاخرى أنفسهم يذهبون هم أيضاً ضحية هذا النظام . والحال فقد كانت ايران ، من بين هذه الولايات ، القطر الوحيد الذي كانت له تقاليده الوطنية أو القومية .

وهكذا تلتقي في مجال النظام الضرائبي ، جنباً الى جنب ، القضية القوميـــة والقضية الاجتماعية ، وزادتا تداخـــلاً وتشابكاً وتعاظلاً في نظام الملكية الذي عُمل به في الدولة الاسلاميـــة . ففي ابان الفتح ، تُركت للعرب ، الحرية في ان يقتنوا ، شراءً او غلاباً ،

الاراضي التي كان على سكان البلاد ، مبدئياً ، ان يحتفظوا بها . الا انهم راحوا يوسعون من نطاق هذه الملكية عن طريق التَلْجئة ، وهي ضرب من التوصية او من الإرتفاق ، في الغرب ، يلجأ اليه من الناس المستضعفو الجانب ، ليأمنوا شر الجباة الشرهين ، وسوء معاملاتهم ، او لعجزهم عن تأدية الرسوم المتأخرة عليهم من السنين المؤجلة الدفع ، فيطلبون الانضواء تحت حماية زعيم قوي بعد ان يجعلوا املاكهم في استثماره وتحت تصرفه بصورة وراثية . اما في المقاطعات والولايات الواقعة على الحدود ، فكثيراً ما عمد العرب ، في غفلة من الخليفة او الأمير ، الى اغتصاب املاك السكان الذين لا يزالون متخلفين في تطورهم ، بعد ان يسيموهم الهوان الواناً ، كما فعلوا مثلاً ، مع قبائل البربر ، في المغرب . وقد رأينا في اماكن اخرى ، كايران مثلاً ، كبار الملاكين من سكان البلاد ، يعقدون صلحاً مع القادة من امراء الجيش ، من مندرجاته : استثمار الطبقات الشعبية السفلى ، بحيث يعارضون اعتناقها الاسلام ، لئلا يزعجهم مثل هذا الارتداد، في طريقة تأمين المنافع التي تؤمنها لهم هذه الترتيبات الخاصة التي عقدوها مع اولي الشأن . وهكذا نرى عدم المساواة تفرق بين النزعات الوطنية والنزعات الاجتماعية ، وفي هذه المعارك التي لن تلبث ان قامت بين المسلمين ، نرى فيها كل فريق يضم بين صفوفه ، عرباً وغير عرب من الانصار .

اما على صعيد العواطف والمشاعر ، فالاصطدام وقع بشكل مدهش : بين اشد العرب استمساكاً بالتقاليد ، من جهة ، وبين اشد سكان البلاد ثورة ومطلباً . فبينما راح الفريق الاول منهم يطالب بتطبيق الشريعة الاسلامية والتمسك بالتقاليد الاسلامية الاولى ، وهذا يعني الوقوف في وجه الدولة الاموية النصف العلمانية ، بينما رأى الفريق الثاني ، في تطبيق الشريعة الاسلامية، المساواة بين المسلمين ، على صعيد الأُطر والملاكات التي تنتظم الادارة العربية ، منذ الفتح . وبدون ان يوضحوا مطاليبهم والاهداف التي يرمون اليها ، نرى كلا الفريقين يطالب الأخذ بتعميم النظام الاسلامي وتوسيعه. وهذا التحالف لم يكن قائماً على ما فيه لبس او غموض. فمن المعقول جداً ان تجمع الناس على استبدال نظام بغيض استطاع ان يطفىء بالدم الانتفاضات التي قامت هنا وهناك ، باتحاد اوسع واشمل ، وهو اتحاد ادى ، على ما حف به من غموض ، الى النصر المرتجى .

ثورة بني العباس وانقلاب الحكم

وقد اتخذت المعارضة اشكالاً شتى . فالخوارج نالوا تأييداً مؤزّراً في كل من ايران ومصر ، ولا سيما في المغرب حيث استفحل امرهم وعظم شأنهم بعد ان استجاب الاهلون من البربر لهذه الدعوة لتوافقها مع النزعات الفوضوية الديلية المتأصلة بينهم ، غير ان بُعْد بلاد البربر من جهة ، وانقسام فرق الخوارج على بعضها من جهة اخرى ، اذ كانت طبائعهم طبائع اهل البادية الذين عُرفوا بالعنف والتهور ، كل ذلك حال دون ان يحققوا فوزاً فاصلاً . وقد وجدت الثورة خير تعبير لها في فرقة الشيعة ، او بالاحرى ، في هذا الشعور العارم الذي كان الشيعة خير من يمثله ، الا وهي صورة سلطة يتلقى صاحبها من الله رأساً ، مناقب خاصة ، فكرة تستهوي معاً

اصحاب النظرية التقليدية الذين يقدرون ما في رسالة محمد من قيمة سامية ، كما تبسم للايرانيين الذين ألِفوا حكم الساسانيين وارتاحوا اليه . وقد اخذ البعض يضيفون الى نظرية الحكم هـذه ، آراء وتعاليم تعكس امجاد السلف والجدود عند الاعاجم . وكان الشيعة يطالبون بان يكون الحكم في اولاد علي بن ابي طالب وذريته ، بينما راح غيرهم يتمسك باسرة النبي دون ان يخصوا منها فرعاً معيناً ، واظهروا استعدادهم لمناصرة اية حركة ذات شأن . واستطاع احـد اولاد العباس ، عم الرسول العربي ، بما تم له من دراية وحسن سياسة ، ان يقيم له داعية في خراسان (مقاطعة تقع الى الشمال الشرقي من ايران) ، هو ابو مسلم الخراساني ، وان يوجه هذه المعارضة لمناصرة آل العباس ، وان يسقطوا الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ، فيؤسسوا هكذا دولة جديدة استطاعت ان تستمر في الحكم ، ولو نظرياً او مبدئياً ، على الاقـل ، الى مطلع القرن السادس عشر .

حاولت الدولة الاموية، لعمري، ان تكيف نفسها حسب مقتضيات الوضع القائم، واستطاع الخليفة عبد الملك ، ان يُوحّد ، لاسباب اقتصادية وسياسية مما اقتضتها حروب الامويين ضد البيزنطيين ، ضرب السكة والنقود في ايام حكمه ، فضرب نقوداً تحمل كتابة عربية ، منهـا الدينار الذهب ، وزنته ٤ غرامات و٣٥ سنتيغراماً ، والدرهم الفضة ، وزنته غرامـان و ٧٩ سنتيغراماً ، وهي اسماء مشتقة أصلاً من الدينـار والدراخم البيزنطيين ، وكانت قيمة الثاني الى الاول بنسبة ٧ الى ١٠٠ على اساس الفضة ، اي بمعدل ١ : ١٠ من سعر الذهب . ومن الاعمال التي حققها الخليفة عبد الملك ، في عهده ، تعريب الادارة ولغة الدواوين ، اقله في مركز الخلافة . وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهو الملك المثالي ، في نظر المؤرخين العرب بتقواه ، ان يطبق خلال حكمه الذي دام سنتين لا غير ، البرنامج المالي أو الضرائبي الذي طالب به أهل المدينة . وعلى ضوء حالة الحرب مع بيزنطية التي لم تعد ، كما في الماضي ، سلسلة متصلة الحلقـات من الانتصارات ، ندرك بعض الشيء ، سياسة الشدة والتدابير القاسية التي اتخذها الخليفة ، ولا سيما يزيد الثاني ، ضد النصارى ، في بعض المناطق ، ولا سيما ضد الملكيين ، اذ فرض عليهم ابراز جواز سفر في تنقلاتهم في أطراف مصر ، كما فرض عليهم زيّاً خاصاً من اللباس ، وتحطيم الشارات المسيحية البارزة للعيان . كل هذه التدابير ، لم تكن على شيء من الرصانة ، ولم تأت باي علاج للمشكلة المتأتية عن اعتناق الايرانيين للاسلام بالجملة ، كما انها لم تفد شيئاً ولم تجدِ فتيلاً في تأخير اعلان الثورة ، ولا في إنساء أجل سقوط الخلافة الاموية .

بالطبع لم يستطع النظام العباسي الجديد الرجوع بالنظام المالي الى ما كان عليه من بساطة في عهد محمد . فلم يُدخِل أي تغيير على نظام الخراج . ومع ذلك ، فقد كانت الدولة الجديدة تختلف كثيراً عن السابقة . فالفضل في النصر الذي حققه العباسيون وبه استطاعوا الإطاحـة بالخلافة الاموية ، انما يعود ، أصلاً ، لعرب العراق الذين ناصبوا الامويين في الشام العداء ، ولا سيما للموالي من الايرانيين ، وعلى الاخص ، للخراسانيين من بينهم ، اذ كانوا ذخر الدولة العباسية وسيفها المصلت ، فأعادوا الاعراف المتبعة في عهد الدولة الساسانية . امـا البدو من العرب ،

فقد أبعدوا الى الصحراء بعد ان يئسوا من تطويرهم وتكييفهم ، كما أبعدوا كذلك، عن الجيش ، الذي تألفت صفوفه من الخرسانيين ، فاقبلوا ينخرطون في كتائبه واصبحوا العنصر الفني فيه ، ورمزاً لهذه التغييرات الجديدة أو تكملة لها ، تأسست عاصمة جديدة للدولة العباسية ، هي بغداد ، التي قامت على مقربة من مدينة طيسفون ، عاصمة الساسانيين من قبل. وقد انتقل معظم سكانها الى العاصمة الجديدة ، ونقلوا معهم عاداتهم واعرافهم . وهكذا زالت سيادة اهل الشام وذهبت سيطرتهم مع ذهاب الدولة الاموية ، فتحول قطب الجذب ونقطة الدائرة ، من البحر المتوسط ، الى المحيط الهندي وبحر العرب .

هدف النظام العباسي الجديد الى وصل ما انقطع من التراث الساساني ، كما رمى ، من جهة اخرى ، الى إحلال التمسك باهداب الدين محل « الالحاد » الاموي . فالنظام القائم هو نظام إسلامي ، لان صاحب الامر فيه هو من سلالة النبي ، فاتاح له ذلك ، ان يتمتع ، بوصفه الإمام، بكل ما لهذا المركز من المهابة والجلال والوقار ، دون ان تكون له القوة ، بالفعل ، ليغير شيئاً من الشريعة او ان يكملها . وهذه الصفة الفائقة للبشر التي تلبّستها ، الامامة ، تجعلنا ندرك جيداً البذخ الذي كان عليه بلاط الخليفة ، وعزلته عن الناس ، بحيث لا يتيسر لهم رؤيته ، الا في مناسبات خاصة ، كالاعياد العامة مثلاً ، وهو يرتدي بابهة وجلال ، ملابسه الفخمة تحفّ به كل مظاهر المهابة والوقار ، تشبهاً بملوك الدولة الساسانية ، من قبل . اسلامي كذلك هذا النظام القائم ، لانه قضى على كل ما يشتمّ منه امتيازات سياسية ومالية ، وقضائية وعسكرية ، بحيث تعود فائدتها على المسلمين كافة ولا تقتصر على العرب وحدهم . اسلامية أيضاً هذه الدولة لاعتمادها كل الاعتماد على علماء الدين والفقهاء ، حتى اذا ما اجمعوا على امر كان اجماعهم هذا تبريراً له ، واعترافاً بعدم مخالفته او مغايرته للعقيدة الاسلامية ، بحيث ان جميع المؤسسات والنُظُم التي طلع بها الحكم قد تبدو وكأنها من مستلزمات التنظيم الاداري للدولة . وعلى هذا الاساس يجب ان نفهم « كتاب الخراج » الذي ألّفه ابو يوسف الانصاري ، المتوفى ٧٩٨ ، بأمر من الخليفة هارون الرشيد .

فقد اعتمدت الادارة العباسية المناهج الادارية التي عول عليها البيزنطيون والساسانيون، من قبل ، وهي ادارة ، تألفت أصلاً من عدد من الدواوين المتلاصقة – ومن كلمة ديوان هذه اشتقت كلمتان فرنسيتان ، هما *Divan* و *Douane* – يشرف عليها موظفون اداريون كبار ، اشبه ما يكونون ب *Sekreta* لدى البيزنطيين ، دون ان يتألف من مجموع رؤوساء هذه الدواوين ، مجلس وزراء . وخلافاً لما كان يجري في بيزنطية حيث كان الامبراطور هو نفسه ، روح هذه الدواوين وهمزة الوصل بينها ، كان الخليفة العباسي ، في بغداد ، يعهد بالاشراف على الديوان ، الى وزير يشبه من بعيد ، *bozorg - frahmadâr* لدى الساسانيين. وكان الوزير يتعهد تأمين العمل الاداري ، مستعيناً على ذلك بعدد من العمال يأتي بهم من بين انصاره ورجاله. ولذا كان يُخشى من نفوذ سلطانه ، وهذا ما حدث بالفعل للبرامكة ، هذه الاسرة الفارسية التي

اثارت ، بما بلغته من غنى وسؤدد وسلطان ، هواجس الخليفة هارون الرشيد ، فنكبها شر نكبة ونكل برجالها وقضى عليهم . ومن اهم الدوائر التي يهم الوزير انتظام العمل فيها دائرة جباية الرسوم والبريد ، وديوان الرسائل . وكان البريد يؤمّن ، احياناً نقل بعض الامتعة الخاصة ، انما الغاية الكبرى منه تأمين تبليغ العمال ، في الولايات ، الاوامر والتعليمات الصادرة من الحكومة ، كما يحمل الى الادارة المركزية مطالب الاهلين في الملحقات ، ومظالمهم . فالبريد كان يلعب ، في هذا المجال ، دور الامن العام ، في حكومات هذا العصر . ويقوم باعمال البريد سعاة يستخدمون الخيل لقطع الطرقات ، وهي على الاجمال حسنة ، يقوم على ابعاد متساوية ، محطات خاصة لتأمين حاجة المسافرين ، وتسهيل متابعة سفر البريد بالسرعة المرجوة . أما الدواوين القائمة بمعية الوزير ، فكانت تقوم باعداد الاوامر ، وتعيين الموظفين والكتبة والعمال ، وتأمين المراسلات الديبلوماسية بعد ان يمهرها الوزير بخاتم السلطان .

وهذه الادارة التي عولت اكثر ما عولت على الدواوين ، كانت تكثر من القراطيس والوثائق والمحفوظات ، كما تكثر من السجلات الرسمية . وهي ادارة مركزية ، قائمة دوائرها الكبرى في العاصمة بغداد . وهذا لا يعني قط ان الفوارق الاقليمية مثلاً ، ولا سيما ما تعلق منها بجباية الرسوم والضرائب ، قد زالت واختفى كل اثر لها من الوجود . وكانت هذه الدواوين تجمع في مكاتب الادارة العامة ما تحتاج اليه من المعلومات ، كما كانت تشرف على اصدار الاوامر والتبليغات ، وتؤمن استلام رسوم الجباية ، بعد حسم تكاليف الادارة المحلية . وكانت ادارة الملحقات تمتاز ، هي ايضاً بالدقة كالادارة المركزية . وكان يقوم في الولاية قائد يمثل الخليفة ، كما ان الوزير كان يتمثل فيها بحاكم مدني او عامل ، اليه امر الولاية وضبط الادارة ، يستقل الواحد عن الآخر ، يشرف الاول على الجيش كما يؤمن الثاني الولاء للخليفة والموارد المالية التي تحتاج اليها الادارة .

اما العدل الذي كان امره ، ابداً على هامش الادارة او الحكم ، فقد بقي من اختصاص القاضي . غير ان عدم كفاءة القانون احياناً ، وعدم وجود الموجبات القانونية للمراجعة او الاعتراض ، وعجز القاضي عن تنفيذ الاحكام التي كان يصدرها على الزعماء النافذين ، كل هذا اضطر الدولة لايجاد دائرة خاصة يشرف عليها قاضٍ ، هي ديوان المظالم الذي كان ينظر في امور التجاوزات على حقوق الآخرين . اما الفقهاء فكانوا يعملون بالتعاون مع القضاة في كل ما يساعد على تطبيق احكام الشريعة . وهكذا رأينا يطل علينا قضاء دولة الى جانب قضاء شرعي يمثله القاضي . وقام في حواضر البلاد الكبرى ، دوائر للشرطة كان يعهد اليها السهر على الأمن وتأمين راحة العباد ، مستعينة في تحقيق هذا كله ، على فرقة « الاحداث » ، او الفتوّة .

استمرار الاضطرابات

وهذا النظام او الحكم الاسلامي القائم ، كان اعجز من ان يحل كل المشاكل العارضة ، أو ان يزيل اسباب شكوى الشاكين او الناقمين ،

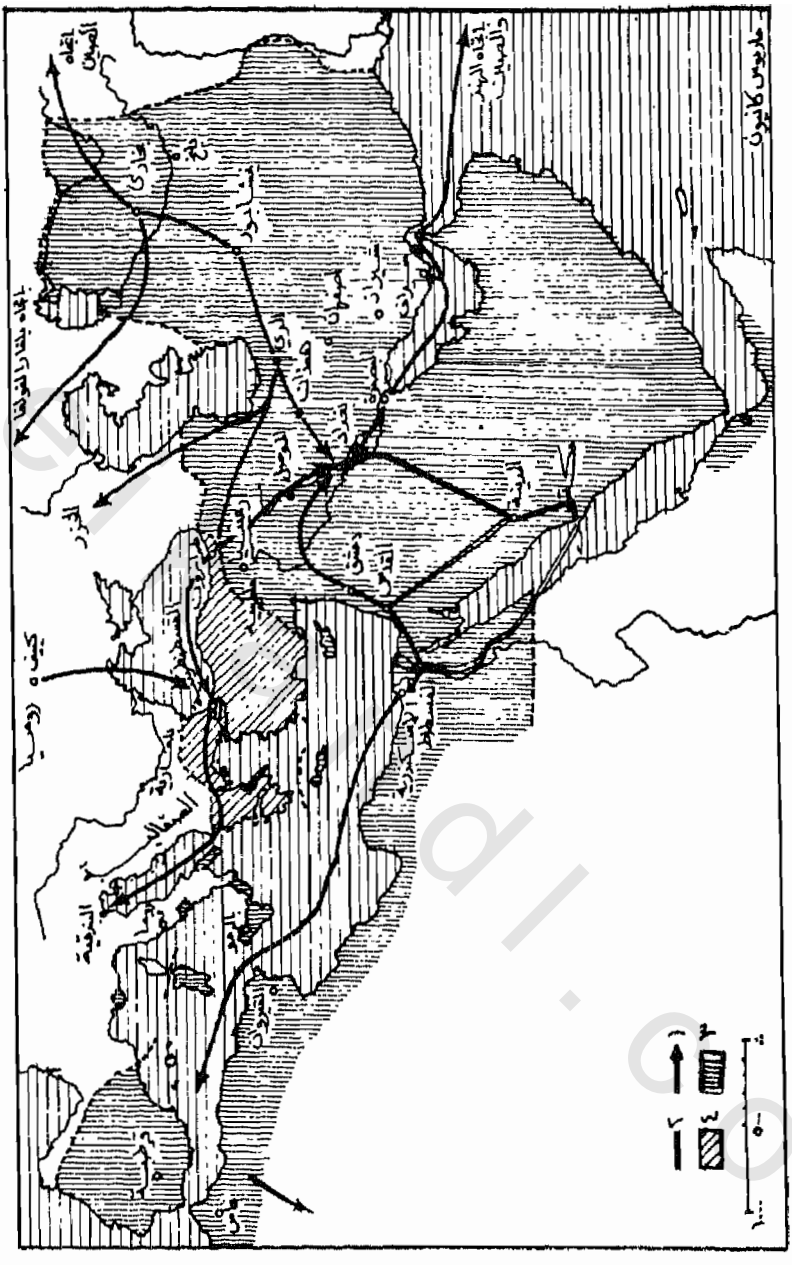

شكل (رقم ٥) ـ العالم الاسلامي حوالي القرن التاسع

١ ـ الطرق التجارية ٢ ـ طرق الحج ٣ ـ اراض اسلامية ٤ ـ اراض بيزنطية

التي اتخذت منها الثوره العباسية "تكأة" لها . فالفوارق السياسية والاجتماعية لم تفقد شيئاً من حدتها ، اذ لم يؤخذ شيء من اصحاب الاملاك الكبيرة ، عرباً كانوا ام اعاجم ، لارضاء هذه الطبقات، او للحد من هذه المعارضة الدينية، عن طريق فوز حلف تألف من اشتات الاحزاب، فكيف يرضى الشيعة مثلاً ، عن عهد ، ليس رجاله والقائمون على امره من ولد الامام علي بن ابي طالب ، وبين انصار الامويين ، فريق من الاكراد، تشبع بالتقاليد القديمة ، وبينهم ظهرت فرقة الزيدية . كذلك بقيت راكدة تحت الرماد ، هذه الحزبيات والعصبيات التي فرقت بين العصبيات ، او انها انبعثت من جديد تحت مظاهر واشكال جديدة . فانتصار الايرانيين لم يزحزح العرب من طريقهم ، بل إضطرهم احياناً للوقوف موقف المعارض . اما المنتصرون الحقيقيون ، فقد كانوا اهل خراسان الذين تركوا جانباً ، فئات كثيرة من الايرانيين تعرضت من قبل لأذى الساسانيين ولسوء معاملتهم ، فبقوا على تشكياتهم يتذمرون بمرارة . ولعلهم قابلوا بشيء من الاسف والحسرة ، بروز بعض الاعراب الذين ساعدهم انتصارهم على الظهور، فسارعوا ، بعد ان تمت لهم الغلبة، للتخلص من بَطَلهم القومي بالقضاء على ابي مسلم الخراساني الذي امّن النصر للعباسيين . كل هذه الامور تبقى غامضة ، مبهمة ، مجهولة ، تصعب معرفتها بالتفصيل المرتجى ، الا انها واضحة في خطوطها الكبرى بحيث نفهم جيداً وندرك تماماً ان هذا الغليان الفكري والاجتماعي الذي هيأ الثورة العباسية لم يهدأ بعد ان تمت له الغلبة وتحقق النصر .

وهذا الاضطراب الذي ضرب سرادقه عالياً في كل مكان : في اسبانيا حيث إستطاع احد الامراء الامويين بعد ان نجا بنفسه من المذابح التي اعدها لهم العباسيون ، ان ينشيء له دولة مستقلة ، وفي المغرب، مع الخوارج كما سنفصّل ذلك بعد حين ، وفي مصر، تحت ضغط عمال الخراج الذين زاد وضعهم حرجاً ، الصعوبات الناجمة عن الاتجار مع بيزنطية ، وفي سوريا التي لم تغفر للعهد الجديد ، إغتصابه السلطة منها والاستئثار به دونها . وبما هو اوقع مدلولاً من هذا كله ، واقدح نتيجة ، الاضطرابات التي شجرت في ايران نفسها ، حيث نرى تطل علينا ، تحت مظاهر دينية ، مطالب ادهى واكثر تعقيداً . وبجمل القول ، فهذه المنطقة الجبلية الممتدة بين خراسان وارمينيا وما اليها من سكان ، سوادهم يعيشون على جوانب الاسلام في هذه المناطق الجبلية التي تشرف على قزوين ، تبقى ابداً في غليان من جراء هذه الدعوات الدينية المتتالية التي ادت اليها بعض التعاليم الدينية الاسلامية المنحرفة مما يعتمل به سكان هذه المناطق من رواسب المانوية والزردشتية ، هذه القوالب الدينية التي حنّت اليها دوماً نفوس الطبقات الشعبية في ايران القديمة . وهكذا كشفت هذه الاقوام عن وجود معارضة قوية ، قومية ، واجتماعية ، انتصبت في وجه هذه الاوساط الحاكمة التي ربطت مصيرها ، في المجالين الديني والسياسي ، بمصير العباسيين « الشعوبيين » . ومن اعماق بعض هذه الانتفاضات انطلق عجيج المطالب الصاخبة ، فرددت اصداءها طبقات الفلاحين الرازحين تحت جور كبار الملاكين ،

فراحوا ينزلونهم ، وفقاً لنزعاتهم الدينية ، منزلة الغريب المغتصب . ولعل ادهى هذه الثورات طراً ، الثورة التي قام بهـــا الخرمية ، فانطلقت من بدعة اسلامية منحرفة قالت بمبدأ الخير والشر ، واقرت عبادة ابي مسلم الخرساني ، وقالت بالتناسخ والاباحة الجنسية ، وباستواء الاديان جميعاً ، وذهبت للمطالبة بالمساواة الاجتماعية . فبعد ان هُزِم زعيمهم بابك الخرمي ، في مطلع القرن التاسع ، في اذربيجان ، انضمت بعض فرقهم ، فيما بعد ، الى الثورة التي قام بها مزيار . واذ ذاك ، قام صعاليك الفلاحين يهاجمون كبار الملاكين من العرب ، في هذه الاقطـــار الجبلية الواقعة الى الجنوب من بحر قزوين ، مما اضفى على هذا العراك طابعاً قاسياً . وبعد ان سيطر الخرميون واتباع مزيار على المنطقة سيطرة تامة ، حقبة من الدهر ، انهزموا شر هزيمة ، في عهد المعتصم ، على يد قائده الافشين . الا ان ابادتهم لم تؤدِ قط الى اية تهدئة في المعارضة التي اخذت تعتمد ، منـــذ ذاك ، على عناصر اسلامية خارجية . صحيح ان العباسيين خرجوا من المعمة ظافرين ، كاسبين ، الا ان المجهود القومي الذي بذلوه لم يبق بدون تأثير على هـــذه التغييرات العسكرية التي ستفضي بهم الى الهاوية ، بعد حين .

الفكرة الدينية

وهذا التطور ليس باقـل وضوحاً منه في الاخرى ، ان دخول السكان في حظيرة الاسلام واقحام الاسلام بالتالي في الحضارات القوميـــة وتغلغله في الطبقات الشعبية كان بمثابة اقحامه في هذه المشكلات الملازمة لهذه الحضارات ، واعطاء العالم الاسلامي حضارة واحدة حلت محل الحضارتين المتجاورتين اللتين رافقتا قيـام الدولة الاموية . ففي هذه المحاولة لتوحيد الحضارة ، راح اهالي البلاد الوطنيون يطالبون عالياً ، في ان يكون لهم دور بارز ليس في المجال الروحي فحسب بل ايضاً على الصعيد الاجتماعي ، ولا سيما الايرانيون بينهم ، عن طريق اعتمادهم الشعوبية . فالعنصر العربي لم يكن ليهمل جانبه ، مع هذا فالاسلام نفسه ، منذ دعوته الاولى ، اثار ضمناً هذه المشكلات ، ووعد اتباعه بالثراء والنعمى ، فجـاء الاعاجم بينهم يسهمون بتحقيق الوعود المقطوعة . في هذا الايغال عميقاً في الفكرة ، وفي هذا التوسيع في جنبات المعرفة ، ساهم عدد كبير من العرب ، كما ساهم باعداد اكبر ، الاهلون من سكان البلاد ، لا سيما الموالي بينهم . وهذا التمييز العرقي العنصري الذي تلبسه الغموض وسيطر عليه الابهام احياناً ، لم يُعد له من اهمية أو قيمة . فالكل يشاركون في نهج واحد من الحيـاة : فالشيء المهم الآن هو ان الثقافة الجديدة التي تطلع على البلاد ، لم يعـــد يعبر عنها باليونانية او السريانية ، بل بالعربية . وهكذا صح لنا ان ندعي قيام ثقافة عربية . ولغة العلم والعلمـــاء انفسهم ، التي أينعت وأثرت ، فارتاضت ولانت ، لم تعد هي العربية الدارجة . صحيح ان العربية الدارجة تغلغلت عميقاً بين الطبقات الشعبية ولا سيما بين الجماعـــات اليونانية والقبطية والسريانية ، بعد ان اصبحت اللهجات المحلية من قبل لدى هذه الطوائف ، لا يفهمها غير رجال الدين . فكان لا بد للعربية من ان تظهر وتظفر ، بعد ان اصبحت لغة القادة والزعماء والشريعة الاسلامية . وهل كانت بلغت ما وصلت اليه من سيطرة وسيادة وسؤدد ، لو لم يتم لها ما تم من

دقة البيان في التعبير ؟ الا ان الانتصار الذي حققته كان لعمري ، ابعد من ان يكون كاملاً . فاللغة البربرية بقيت اللغة المحكية في المغرب . والجدير بالملاحظة هنا هو ان الايرانيين الذين لم يجدوا قط غضاضة عليهم في ان يعتنقوا دين الفاتحين ، احتفظوا في معاملاتهم بلهجاتهم المحكية ، ولم يلبث بعضها ان اصبح لغة الفكر والادب ، بعد ان تأثرت كثيراً ، في مفرداتها تأثراً لم نر له مثيلاً في دراسة علم اللغات وتطورها .

فان لم نستطع ان نحدد بالفعل ، هذه الفوارق بوضوح وجلاء ، فسهولة العرض تقتضينا ان نلقي تباعاً نظرة عجلى على النشاط الفكري الذي تجلى باحسن مظاهره ، اذ ذاك ، في هذا التيار الذي رمى الى تفهم اعمق وتطبيق ادق للاسلام ، او التيار الآخر الذي يتمثل في ثقافة اغنى واوسع ، هي على الغالب ، خارجية عن الاسلام . فتفهم الاسلام يقوم اساساً على تفهم القرآن ، فادت هذه الحركة الى هذا الفيض من التفسير والشرح والتعليق ، وتعدد مجامع الاحاديث النبوية ، وغربلتها وتخلها لانتقاء صحاحها ، بعد ان ارتاب كثيرون في صحة جانب كبير منها ، مما اقتضى عدداً من الاسانيد التي ، وان لم ترضِ النقد الحديث ، تشهد ، أقله ، على هذا الاهتمام ، وعلى هذا الحرص لتمييز الصحيح من المدخول أو المنحول أو المدسوس منها ، فكانت هذه الصحاح التي من اثبتها صحيح البخاري ، ومسلم (اواسط القرن التاسع) . ولكي يطمئن المرء الى انه يفهم فهماً صحيحاً منطوق الآيات الكريمة ومدلولها ، اضطر الناس لدرس مباني اللغة من صرف ونحو ، ومعنى المفردات واشتقاقها واصولها ، وكلها علوم قام عليها علماء اعلام ، ولا سيما بين الاعاجم من سكان البلاد الاصليين . وقد سيطر في هذه الحقبة التي امتدت اكثر من قرن مذهبان في اللغة : مذهب البصريين وزعيمهم غير المنازع سيبويه ، ومذهب الكوفيين .

وبعد ان استقرت النصوص واتضحت منها المعاني والمدلولات ، كان لا بد من لاهوت يشرح أحكام العبادة ، ويوضح الحق العام والخاص ، ويؤمن له الانسجام ويوضح معاينه . كل هذا تم في القرن الاول من الدولة العباسية ، على يد كبار علماء الدين والفقهاء . فالذين باعد بينهم نظرياً ، ليس اختلاف النص ، بل الروح الذي يستعملون فيه تطبيق هذه الآيات ، وغيرها من الأحاديث الدينية . فالمذهب المالكي اعتمد النص الحرفي . اما الشروح والتفاسير التي لا بدّ منها فيتقبلها اذا ما حازت اجماع علماء المدينة ، لأنها مدينة الرسول ومهد الاسلام . اما مذهب ابي حنيفة ، فهو على عكس المذهب السابق الذكر ، يرتكز على الفكر الشخصي ، أي على الاجتهاد ، شرط ان يحظى بالاجماع ، وليس بآراء فقهاء المدينة وحدهم . فأمام هذا التجاوز في الحرية الذي قلق له البعض ، ومع اعتقادهم انه من المستحيل ان ينص الكتاب على كل شيء ، راحوا يقولون بالقياس جوازاً . وهو ما قال به المذهب الشافعي بالذات . وبحركة رجعية ضدّ المذهبين الأخيرين اللذين رماهما بالتجديد المذموم ، وامام المشاكل التي عانت منها الجماعة كثيراً ، راح ابن حنبل يدعو للتمسك بالتفسير الحرفي للكتاب ، دون ان يبالي برأي الفقهاء وغيرهم من علماء الأمة . هذه هي المذاهب الفقهية الاسلامية الاربعة الكبرى التي يعترف بها السنة والتي يجوز لأي مسلم ان يتشيع

منها ما يريد ، وبالتالي القاضي الذي يعهد اليه النظر بأمور الناس ويقضي فيهم .

وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب الاقصى ، بينما سيطر المذهب الشافعي ، خلال الأجيال الوسطى ، على العالم الشرقي الذي نطق باللسان العربي ، قبل ان يتنكر له الأتراك ليقتصر ، فيما بعد ، على جزر الملايو. وقد كان للمذهب الحنفي مثل هذا النفوذ وسعة الانتشار، عند العباسيين ولا سيما عند اهل خراسان فيما بعد ، وعمل الأتراك على نشره في جميع البلدان والأقطار التي رفرف فوقها لواؤهم . اما المذهب الحنبلي الذي لم يعرف له رواجاً كبيراً الا في العصر الحديث ، عند الوهابيين ، في الجزيرة العربية ، فقد كان أثره بارزاً في عدد من الأقطار التي يتكلم أهلها العربية . وهذه المذاهب الفقهية الرئيسية الأربعة التي يجب ان يضاف اليها المذهب الجعفري المعمول به لدى الشيعة ، تمتاز فيما بينها باعتمادها على الاجماع ، أي اتفاق الفقهاء والعلماء رأياً في موضوع معين . وهكذا فلا نرى عند المسلمين قانوناً او تشريعاً واحداً ينبثق عن هيئة تشريعية في الدولة ، انما يوجد لديهم قوانين تأتي من خارج الدولة ، وعلى الدولة ان تأخذ بها وان تطبقها . فالقضية تقوم كلها على معرفة ما تقوم عليه دكتاتورية الفقهاء في وجه الدولة . ففي مطلع العصر العباسي نرى أنفسنا لا نزال من الاسلام الدولة في طور التنظيم .

وهكذا بعد ان اعتمد الفكر الاسلامي على اللاهوت والفلسفة ، وجد نفسه ، وجهاً لوجه أو أخذ لحسابه مواجهة هذه القضايا البشرية الخالدة التي تلازم كل الديانات الكبرى . منها مثلاً قضية الحرية والقدر . فبين قدرة الله الكلي القدرة وعدله الالهي، وبين القدرة والحرية الشخصية، راحت نصوص القرآن والحديث تتسع لكل التفسيرات . فالقدرية التي قال اصحابها بحرية الارادة، في اواخر الدولة الاموية، بدا اصحابها في نظر الأمويين عناصر تدعو للعصيان والثورة، الامر الذي جعل العباسيين يرحبون بهم . ثم طلعت علناً قضية العقل والايمان . وهكذا ظهر علم الكلام أو القياس الفلسفي ، والمتكلمون ، اي جماعة الذين يعتمدون على الكلام لتوضيح ما غمض من الوحي المحمدي وتفسيره . وهكذا طلعت النظرية الدينية الشعبية التي أخذت بمبدأ التشبيه . ولما كانت هذه النظريات مجردة ، أي عقلانية ، كان يخشى ان تبدو مخالفة للدين أو مغايرة له بعض الشيء . فقد نشب ، في هذا المجال ، جدل عنيف كان له اثره العظيم على التطوير الفكري في الاسلام ، تمثل في مذهب المعتزلة ، الذي ضم ، في الاساس ، قوماً مهم جداً النقد الادبي ، والإتزان السياسي ، فناصروا الدعوة العباسية . فراح بعض خلفائها يؤيدون الاعتزال ويفرضون على الناس الاخذ به والدعوة له . وقد علّمت المعتزلة القول بخلق القرآن فادخلت القلق والاضطراب على القلوب والاذهان ، وانتهى الامر الى محاربة الخلفاء العباسيين الذين جاؤا بعد المأمون ، للقائلين بالاعتزال .

الثقافة القديمة والنزعات الدينية

وهكذا بلغنا عطفة حساسة من تاريخ الثقافة في الشرق الادنى. فقد نظر العرب الى التراث الادبي القديم نظرتهم الى عنصر دخيل جاءهم من الخارج . فقد عني الداخلون في الاسلام حديثاً ، بدمج الديانة الجديدة في تقاليدهم

واعرافهم الفكرية . ومثل هذا الاهتمام واجهـــه المسيحيون في العصور السابقة . الا ان ادماج ادب دين جديد في تراث امة ما ، كان بحاجة الى عمليـــة توضيح ، أي الى شيء من التكييف والتركيز . ومن جهة اخرى ، اتخذت هذه الثقافة ، اللغة العربية اداة تعبير لها واقتضت جهداً طيباً من الترجمة والتعريب ، والتفسير والتعليق والتلخيص . فهذا التشابك والتداخل بين التقليد والأعراف المتباينة الذي شهدناه في العصر العباسي ، لم يلبث ان ادى سريعاً الى وضع هـــذا العصر ، وجهاً لوجه مع التفاعل والانفعال المتبادل ، وبالتالي الى اغناء بعضهـــا البعض ، والى طلوع عدد من الاكتشافات الجديدة . وهكذا ، بدون ان يحدث أي تغيير جذري على أسس الفكر ، في تلك الحقبة ، شهد العالم ، مع ذلك ، يقظة عارمة تشبه من نواح كثيرة ، الانبعاث الفني والفكري الذي شهدته اوروبا في القرن السادس عشر ، فادى الى نجاحـــات وتطورات مدهشة .

انصرفت الجهود ، بادىء ذي بدء ، لتأمين حركة نقل العلوم الدخيلة وترجمتها ، وهي حركة اخذت بوادرها تظهر في عهد الدولتين البيزنطية والساسانية ، على يد علماء السريان ومفكريهم ، وادبائهم . وقد اعتمدت الترجمات الجديدة على نقول سبق وضعهـــا بالسريانية ، الى ان عادت تعول على النصوص اليونانية الاصيلة . ولقيت حركة الترجمة والنقل تشجيعاً حـــاراً من الخليفة المأمون الذي اخذ تحت رعايته ، عدداً كبيراً من المترجمين في الشرق ، فنهلوا ، على نطـــاق واسع ، من الادب اليوناني ، كما نهلوا ، على نطـــاق اضيق ، من اللغة الفهلوية التي كانت اداة الاتصال ، بين الهند والبحر الابيض المتوسط . وقد اقتصرت حركة النقل هذه ، على المؤلفات العلمية التي يسهل تطبيقها عملياً ، وعلى الفلسفة ، بعد ان حاولت البدع الدينية التي أطلّت اذ ذاك ، ان تجد فيها سلاحاً لها في هذه الخصومات والمجادلات الدينية التي شجرت ، اذ ذاك . اما الآثار اليونانية الادبية او التاريخية الصبغة ، فقد استبعدها النقلة العرب ، عمـــداً وقصداً ، كما استبعدها من قبل واهمل نقلها السريان والنساطرة ، هم ايضاً . وقد سار الغرب ، فيما بعـــد ، على هذا النهج ، عندما راح ينقل ، بدوره ، الآثار الادبية التي خلفها الاسلام والمسلمون . فقد نقل العرب ، عن الفهلوية او الهندية ، في عداد مـــا نقلوا من الآثار العلمية ، القصص والحكايات والامثال التي وصل منها قدر كبير الى عهد لافونتين فاستخدمه ، كما نقلوا غير ذلك من القصص التي لقيت رواجاً عظيماً لدى الشعب . والجدير بالملاحظـــة والتنويه عالياً ، هو ان ، في دولة سيطر فيها الايرانيون ، ورجحت فيها كفتهم ، استمر المسلمون ، في نقل كل ما يتصل بتاريخ ايران وتاريخ العرب القديم معاً ، بينما بقي التاريخ اليوناني الروماني مستبعداً .

فكل الملل والنحل والاعتقادات شاركت ، على اقدار متفاوتة ، بهذه الحركة . ان اعتناق عدد كبير من سكان البلاد ، الدين الاسلامي ، وانتشار اللغة العربية في الاقطار وبين الطوائف التي بقيت على النصرانية او على اليهودية ، والاتصالات العلمية بين العلماء المتخصصين ، ولا سيما بين الاطباء ، كل هذا وما اليه هو من بعض النتائج التي اتيح لنا تسجيلها ، بحيث ان الثقافات

الاصلية وجدت نفسها منقسمة الى قسمين متباينين. دخل اولهما كعنصر مقوّم، في ما اصطلحوا على تسميته بالثقافة الاسلامية ، بعد ان أسقِط في ايديهم ايجـــاد صفة اخرى اكثر ملاءمة. اما الثاني الذي يجب قصره على المجال الديني ، والتسلم بتمتعه بشيء من الاستقلال الذاتي ، فقد تبلور في ما بدا من آثار اللغات السريانية والقبطية والفهلوية والعربية ، حتى بعد ان استعربت، فقد بقيت على هامش التيار الكبير، وظهرت مظهر المستحاثات المتحجرة وهو طابع ما لبث ان زال من الوجود في اواخر الاجيال الوسطى .

وهكذا انتشرت ، في الشرق ، مؤلفات ارسطو الحقيقية او تلـــك التي انتحلها أصحاب الافلاطونية الحديثة ، كما انتشرت مؤلفات ابوقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس ، وبين هؤلاء النـقَـلة الذين كانوا، في الوقت ذاته، كتاباً مشهوداً لهم بالابحاث الدينية والفلسفية، الراهب النسطوري حنين بن اسحق ، والرياضي الصابيء ثابت بن قرّه من حران ، وكلاهما من رجـال القرن التاسع ، وقد كان سبق لابن المقفع ، احد اعلام الكتاب العرب في ذلـــك العصر ، ومن كتاب الرسائل المشهورين ، ان ترجم عن الفهلوية كتاب كيلة ودمنة .

وتجند لهذا الغرض عدد كبير من المترجمين ، كما قام للترجمة مدارس عديدة . وحدث ايضاً ان الادب المسيحي وجد طريقه الى اللغة العربية لتقريبه من اذهان المسيحيين. فاذا كان البطريرك ديونيسيوس التلمحري (+ ٨٤٥) كتب بالسريانية ما كتب في العلوم الدينية والتاريخ ، فقـد وضع الراهب الملكي ثيودسيوس ابو قره مصنفاته باللغة العربية ، ناهجاً في ذلك ، نهج القديس يوحنا الدمشقي .

فقد كان من جراء اختيار الافكار ، وظهور بعض الصعوبات التي اعترضت عمليـة الانسجام والتكيف مع الوضع الجديد، ان احدث الهيجان بين اليهود فالترحيب الذي كان يلاقيه، من حين لآخر ، من يدعون انهم المسيح المنتظر القادمون من اسبانيـــا الى فارس ، كان يسبب سَجّـَـاً كبيراً بين أتباع هذه الديانة من جراء اجترارهم للتعاليم التلمودية . وكانت الولايات تشعر ، في الصميم بوطأة الدكتاتورية الادبية والسيطرة الاقتصادية التي تمت لعلماء الناموس في العراق . وقد حدث ان اشتد شأن شوكة فرقة القرّائين التي وُجد عدد من اتباعها في بلاد القرم. فقد كانوا ، وهم يحاولون الرجوع لأسفار العهد القديم ، يحاولون تفسير عقائدهم الدينية ، وفقاً للمبادىء التي قالت بها المعتزلة .

لا نعرف شيئاً يذكر عن طائفة الزردشتية. وجُل ما نعرف عنها ان في القرن التاسع تم جمع النصوص الدينية القديمة المعروفة بالنصوص الأفسستية ، كما تم وضع مؤلفات دينية جديدة لهذه الطائفة ، محاولة من اصحابها المحافظة على تراثهم امام الاسلام ، كما ان في هـــذا النشاط شهادة عالية على حيوية هذه الطائفة . وقد يكون مسلكها هذا اوحى للعباسيين الموقف الذي وقفوه من أتباع المانوية ، بعد ان نعم أصحابها بالتسامح الديني الذي نعم به أتباع المذاهب الدينيـة ،

الاخرى ، فقد اخذوا بمطاردة رجالها بعد ان رموهم بالزندقة ، وهي التهمة التي ألبسوها ، بعد ثورة بابك الخرمي؛ لكل هذه الدعوات الدينية التي خشيت السلطة جانبها وأوجست منها شراً، باستثناء الشيعة والخوارج. وقد رأى العباسيون أثراً للمانوية وتعاليمها في هذه الثورات الاسلامية والحركات الهدّامة التي قامت بها بعض الفرق الدينية ، في ايران ، بعد ان هدد نشوبها الدولة العباسية بأخطار شديدة .

فالازدهار الفكري والادبي ، وهذه الانتفاضات التي جرّت اليها بعض المعتقدات الدينية . لم تكفِ لتملأ وحدها كل نشاط الاسلام. هنالك اناس ظمئت نفوسهم للكمال الانساني، وهامت قلوبهم بمكارم الاخلاق والتقرب من الله . من المحال التساؤل ما اذا كان التصوف الاسلامي نص عليه الاسلام الاول، ام اذا كان نشأ عن العادات والاعراف الدينية التي حملها معهم السكان الذين اعتنقوا الاسلام، ام اذا كان نشأ عن الحياة الرهبانية عند المسيحيين والهنود. فقد كان التصوف، في مظاهره الاولى ، لدى بعض الاشخاص ، نوعاً من الزهد . وقد تمثل على أتمه في عهد الدولة الأموية ، في شخص الحسن البصري . ولما راح يستعيض عن الادعية الاسلامية بطلبات تهيء قائلها للانخطاف الروحي ، راح العلماء والحكام ينظرون اليه نظرة كلها التشكك والتحسب . وقد استطاع رجال الصوفية ان يتعرفوا ، تدريجياً ، الى النظريات التي تقول بها الافلاطونية الحديثة ، مما أدى الى تجديد في الافكار الصوفية . فقد راح المتصوفة يلبسون « الصوف » مسوحاً لهم ، ولعل من هذه الكلمة اشتقت ، في الاسلام ، كلمة « الصوفية » .

الآداب والفنون

بعد ظهور الآثار الفلسفية والدينية ، في القرن الاول من الدولة العباسية ، ازدهرت حركة أدبية عارمة عادت على اللغة العربية وآدابها بالثراء والنمو ، بما اطلعت من الروائع الادبية في الشعر والنثر، فصقلت معها العقول والاذواق، وهذبت الخيال والعاطفة ، بقطع النظر عن القصص والحكايات الشعبية التي كان يتناقلها الناس ابراً عن جد . وهكذا ظهر « الادب » الذي كان يراود ظهور الرجل الاديب ، في القرن التاسع والعصور التالية . وقد دخل الانشاء الادبي كل المؤلفات الادبية والدينية ، اذ اضفى عليها عبارة رشيقة وبياناً ناصع الاسلوب ، يقبل على الاخذ به ، كل من تعشق الحرف ومال اليه . والفضل في ظهور الادب على هذا الشكل ، يعود للكاتب البصري المشهور الجاحظ (٧٧٦ – ٨٦٨) الذي عرف ان يوفّق بين مذهب البصريين والكوفيين . كذلك عرف ان يوائم بين تعاليم المعتزلة وبين ما تم له من ثقافة عريضة ، متنوعة ، كل ذلك في بيان عربي ناصع ، ولغة ساخرة ، متهكمة ، كما يبدو لنا ذلك في كتابه «الحيوان» وهو كتاب في العلوم الطبيعية، حشاه معلومات لا تثمن وأقاصيص كل مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية التي هزّت مشاعر جميع معاصريه . وبعد الجاحظ بقليل ظهر الكاتب الفارسي المشهور ابن قتيبة الذي شارك الجاحظ في تكييف الادب العربي .

اما الشعر فهو اكثر تمسكاً من النثر ، بالتقاليد العربية . وقد لمع في هذا العصر شاعران كبيران ، هما : ابو تمام والبحتري . وضع كل منهما « حماسته » التي بالرغم مما فيها من شعر

منحول ، وسرقات شعرية ، تبقى اثراً لا تبلى جدّتُه . فالشعر « الحديث » يطـــل علينا من شعراء ايرانيين ، شعرهم عطـــل من اية مسحة اسلامية ، يفتقر كلياً للترصن والاخلاق الرضية ينضح احياناً بالفجور ومجون البلاط ، ويفح منه الحب العابث الذي تعتعه السكر يسير مترنحاً في الازقة والشوارع ، انما هو شعر ينبض بالرقة والاحاسيس المرهفة ، بانتظـــار طلوع الشعراء الناجحين الذين يأخذون بمعالجة الموضوعات السياسية والدينية، وما لبثوا ان فضلوا على القصيدة العامرة الابيات المبنية، على عمود الشعر العربي ، شعراً مهفهف العاطفة، يتمثل خير تمثيل بالرمز. ولعل اكبر هؤلاء الشعراء وأسيرهم ذكراً هو ابو نواس (+ ٨١٥) ويجب ان نذكر معه شاعراً آخر ، عُرف بالوصف الدقيق ، تولى الخلافة ليوم واحـــد ، هو ابن المعتز (اواسط القرن التاسع) .

وبنسبة ما نستطيع ان نتبين الامور ، نرى ان الفن العباسي اخذ يزدهر بدوره ، محاولاً ان يوحد بين مختلف المذاهب : فالمساجد ازداد عددها ازدياداً كبيراً لاستيعاب المسلمين المتزايـد عددهم باستمرار، وذلك عن طريق بناء مساجد جديدة او بتوسيع القديم منها. فمسجدالقيروان، يعود القسم الاساسي منه الباقي لليوم ، الى مطلع القرن التاسع ، وبقي طراز بنائه منسجماً مع الطراز الهندسي للمساجد السورية التي اقيمت في العهد الاموي . وعلى عكس ذلك ، نرى قصور الخلفاء العباسيين في العراق ، تستوحي في عمارتها التقاليد الساسانية . فان لم يصلنا بالفعل شيء من المدينة « المستديرة » اي بغداد القديمة ، فقد وصلنا من الفن المعماري العباسي المدني ، بقايا حرية بكل ملاحظة ، هي كل ما تبقى من مدينة حلمت يوماً ان تحل محل بغداد كمركز للخلافة، هي مدينة سامراء التي كان يعلوها برج عالٍ يشبه ابراج النار المعروفة لدى اتباع الزرادشتية . وهذا الفن يستفيق على نفسه وينشط ، مـــع ان معظم الانشاءات الباقية منه لليوم ، تعود الى تاريخ لاحق للعهد الاول من دولة العباسيين . ويجب ان نشير ، منذ الآن الى الفارق الذي يزداد اتساعاً وتبايناً بين المباني المدنية والمباني الدينية . ففي الاولى نرى رسوماً بشرية وحيوانيـة كثيراً ما عمد اليها الرسامون في تزيين الحاجيات العادية ، مهما كان من تأثير حركة تطورية ظهرت فيما بعد ، وسيطرت على بعض المناطق دون غيرها . امـا في الثانية ، فلم تلبث هذه الرسوم ان حُرّم استعمالها ، اذ كان مرآها يبعث ، كما هي الحيال في الديانة العبرية ، على الاعتقاد بشيء من عبادة الاصنام .

*

الحياة القلقة في بيزنطية

تبدو بيزنطية ، ازاء العالم الاسلامي في القرن الثامن ، مدعاة للاسف وللسخرية معاً . فقد خرجت من العاصفة التي هبت عليهـا في القرن الماضي ، مثخنة الجراح ، مهشمة الجناح ، فراحت ببطء وتمهل كلي ، تستجمع قواها وتسوّي من حالها وتعيد تنظيم شؤونها في الداخل . والأزمة الدينية التي اخذت تتربص بهـا من جديد ،

تنسجم الى حد بعيد ، مع الاحداث والافكار التي تتفاعل بها وتعتلج، هذه الولايات التي اقتطعها منهـا الاسلام .

وقد أرغمت الامبراطورية على التخلي عن الكثير من المقاطعات الاخرى : فقد اخـذ سكان ايطاليا في الولايات التي لا يزال مصيرها مرتبطاً بمصير بيزنطية ، ينفضون عنهم تباعـاً ، سيطرة اجنبية طالما بَرِموا منها ، ارهقتهم فارزحتهم : تحت وطأة جباية صارمة زادت تهجماً وتجهماً بعد فقدانها الشرق ، ونفرتهم بهذه الارهاصات الدينية ولم تمنع عنهم خطر الغزو اللمبـاردي . وستفلت منها صقلية في القرن التاسع . ولكن ما العمل وهذه كلهـا ممتلكات نأت عن قلب الامبراطورية ومركزها، يغلب في الحفاظ عليها الغرم على الغنم. اما في البلقان ، فقد أصبح الخطر البلغاري ، بعد عام ٧٥٠ ، في المنطقة الواقعة عند الدانوب الاسفل ، سيفاً مصلتاً فوق رأسها وكابوساً يقض مضجعها . وقد استقر الصقالبة في الباقي من اطراف شبه الجزيرة البلقانية ، بعـد ان أقصوا قليلاً الى الشمال . وبفضل عملية تبادل السكان الصقالبة في اسيا الصغرى ، والاسيويين في اليونان وتراقيا ، استطاعت الامبراطورية ان تعيد سيطرتها التامة على مناطق حيوية جداً لها. أما الى الشرق ، فلم يقم بين المسلمين والبيزنطيين ، اثر الفشل الذي آل اليه حصار العرب الثاني للقسطنطينية ، عام ٧١٨ ، سوى غزوات دورية ، عرفت عند المسلمين « بالصوائف » لم تحدث تغييرات جوهرية في مناطق الحدود الدائرية بين الجانبين ، وان كانت انزلت فيهـا الخراب والدمار. وهكذا اقتصرت الامبراطورية بالفعل، على المناطق المحيطة ببحر ايجه ، وهي مناطق معظم سكانها اغريق أو متأغرقون، انتفت منها أو كادت تنتفي ، الفوارق العنصرية او العرقية.

وهذا الانكماش او التقلص الجغرافي لرقعـة الامبراطورية ، تم وسط تغييرات وتطورات اجتماعية من الصعب على المؤرخ ان يتبين مداها ، وان يحدد ابعادها . فالحاجـة الشديدة لليد العاملة التي عانت منها المقاطعات الصالحة للزراعة ، في القرون الماضية ، حل محلها الآن ، فيض من الشغيلة ونقص في الاراضي الصالحة للزراعة ، بقطع النظر عن الوسائل التقنيـة الزراعية . والذي يبدو للمدقق ، مع انه من العسير جداً تحديد الكيفية ، ان الممتلكات الواسعة والاقطان الشاسعة ، انكمشت رقعتهـا بعض الشيء ، بينما ازدادت الملكية الصغيرة ، وهو تطور جاء ، لعمري ، مفيداً جداً ، للتنظيم العسكري . ولعل خير دليل على ذلك ، القانون الزراعي ، هذا القانون الذي صدر في مطلع القرن السابع ، والذي ينوّه بوجود جماعات او فرق ريفية ، بدا لبعض المؤرخين ان يروا في طلوعها، أثراً من آثار الجماعات الصقلبية التي تكاثر عددها بين طبقات الفلاحين وسكان الريف . وهذا الاثر لا يمكن تجاهله او التغاضي عنه. فهو يتمثل، خير تمثيل، في هذه المستعمرات الريفية التي عرفت ان تندمج وتنصهر في هذه الأطر والملاكات البيزنطية ، مع ان المبالغة في تقدير هذا التفوذ وتقييمه لا تخلو من خطر ، اذ ان هذه الجماعات التي يشير اليهـا القانون الزراعي لا تتضامن فيما بينها الا امام جباية الرسوم وفرض الضرائب ، مع العلم ان هـذه الجماعات القروية الصقلبية لم تتعرف على نظام الا بعد ذلك . ومن جهة ثانية ، نرى ان نمو الملكية

الصغيرة وتوسعها لم يقض على الملكيات العلمانية الكبيرة، ولا حال دون اتساع الملكية الكنسية. فادّخار الاوقاف، والهبات التي كان يجود بها المؤمنون ليرفع الله غضب السماء عنهم، وليجنبهم الويلات التي ما زالت تنتابهم، ورغبتهم في استيداع املاكهم ومقتيناتهم في حماية الكنيسة، كل ذلك ساعد كثيراً في اثراء وثراء الاكليروس القانوني والعلماني، ولا سيما الاديار التي ما زال نفوذها الادبي والمادي، آخذاً بالنمو والازدياد في جميع انحاء العالم المسيحي.

والصفة العسكرية التي طبعت نظام الحكم والادارة في بيزنطية اذ ذاك، ولا سيما البلاط الامبراطوري، أدّت عن طريق التجديدات التي أتّخذت والتي يعود بعضها أصلاً، الى عهد الامبراطور يوستنيانوس، ومعظمها في عهد اسرة الامبراطور هرقل، الى اعادة تنظيم الجيش والادارة معاً. فقد كانت ادارة الولايات، من قبل، بيد الحكام المدنيين، مهما دعت الاعمال الحربية، الادارة العسكرية والجيش الى التدخل، حتى عندما يضطر الوضع العسكري الجيش للبقاء في الولاية، فتقوم الادارة المدنية فيها بتأمين أود الجيش وما يلزمه من تجهيزات، ولو التجأ أحياناً الى اعمال المصادرة والاستملاك. اما الآن فقد انقلبت الامور أمام خطر الوضع القائم، وانعكست الادوار وبسطت الادارة. فقد انقسمت البلاد الى دوائر عسكرية أو «ايالة» يقيم فيها جيش يتولى قيادته قائد، يضطلع نفسه بكل اعباء الادارة المدنية ويشرف على اعمالها المختلفة. وتوريدات الجيش ووسائل اعالته تتأمن محلياً، ليس عن طريق المصادرات الادارية، كما في السابق، بل عن طريق اقطاع افراد الجيش، حصصاً في الارض يستثمرونها في ما يؤمن معيشتهم وأوَد ذويهم. وهكذا عمموا على كل الجيش في الامبراطورية البيزنطية نظاماً خاصاً يعرف عندهم بـ *Limitanei* (وباليونانية *Akritai*) جرى تطبيقه، منذ عهد بعيد، على «حلفاء» روما من البرابرة. وهذا النظام الذي جاء تكملة طبيعية لقيام المستعمرات العسكرية، كان له تأثير بالغ على روح الجيش ومعنوياته، اذ انه ساعد كثيراً على نمو الملكية الصغيرة وما ادّت اليه من نتائج اجتماعية.

من المفارقات الصارخة التي استبدت بالخواطر اذ ذاك، هو ان الاعمال الحربية، بين المسلمين وبيزنطية التي ركدت ريحها وخفّ أوارها، قد اعقبتها بالفعل على ما يظهر، حرب إقتصادية. ان اخفاء الطابع الاسلامي على النقد المتداول، واحتكار الدولة لمصانع ورق البردي، والتدابير التي تتسم بالحذر وعدم الثقة، التي اتخذها المسلمون ضد النصارى، ولا سيما ضد الملكيين اوغرت صدر اباطرة بيزنطية وحملتهم على اتخاذ تدابير زجرية، انتقامية. فاذا كانت رقعة الامبراطورية تقلصت وانكشت، فقد بقيت بيزنطية سيدة البحر، كما يشهد على ذلك القانون المعروف بقانون الرودسيين، وهو اشبه ما يكون بالقانون البحري الذي تمّ وضعه في ذلك العهد. فالاباطرة البيزنطيون المعروفون باسم الاسرة الايصورية، الذين انتهجوا هذه السياسة الحازمة، لم يكن يوسعهم قط ان يحولوا دون ذهاب سيطرة الامبراطورية على التجارة مع آسيا وتفلتها

من ايديهم ، حتى انهم رأوا انفسهم مضطرين للتنازل للتجار ولكبار اصحاب الاقطاعات الواسعة المسيطرين على القطاع الخاص ، عن تأمين تمويل القسطنطينية الذي كان تحت اشرافهم المباشر ، والتوقف عن توزيع المواد الغذائية على الفقراء من سكان المدينة . ولذا راحوا يحاولون الحؤول دون إتجار الدول الاسلامية مع اوروبا ، كما سعوا لابقاء القسطنطينية وبعض الموانىء البحرية الكبرى التي يسيطر عليها البيزنطيون ، تتحكم بالنقل التجاري وتأمين الاشراف على الملاحة في البحر المتوسط ، ناهجين النهج الذي كانت نهجته انكلترا في العصر الحديث بتحكمها بمسالك البحار على نطاق اوسع . غير ان النجاح لم يحالف قط هذه السياسة البعيدة المرمى . فاذا ما امكن الاستمرار في عملية تأمين أو'د العاصمة والبلاط الامبراطوري ، وهما هدف الحكومة الاول والاكبر ، فلم يعرفوا ان يحولوا دون هبوط الحركة التجارية في حوض البحر المتوسط الغربي .

فاذا ما اخذنا بوجهة نظر المؤرخ البلجكي هنري بيرين الذي كان رائداً من رواد البحث في هذا المجال ، فالاسلام هو المسؤول عن تدهور التجارة في البحر المتوسط ، في هذه الحقبة ، وعن انقطاعها المفاجىء الذي ادى الى زرع الاضطراب والبلبلة في حياة الغرب الاقتصادية ، اذ ذاك وتدهور الوضع التجاري الذي لم يكن كاملاً ، يمكن رده مع ذلك الى اسباب ودوافع اخرى فقد رأى فريق من المؤرخين ان الاسلام احدث يقظة عارمة في الحركة التجارية في الغرب : ألم يكن مؤسسه ورجاله الأول تجاراً ماهرين من قبل ؟ أو لم يُكتب لاتباعه ان ينشروا ألوية الاسلام في كل قطر وصقع ، فرفرفت اعلامه وخفقت بنوده ، فوق هذه الاقطار الواقعة بين السودان في الجنوب ، ونهر الفولغا في الشمال ، او الممتدة من الصين شرقاً الى مشارف جزيرة مدغسكر جنوباً ؟ ومن جهة ثانية ، ان تدهور الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، تم قبل الفتح العربي الاسلامي بكثير ، ولم يكن للاسلام كبير اثر عليه . فقد عرفت بيزنطية ان تحافظ على تجارتها وعلاقاتها الاقتصادية مع ممتلكاتها الواقعة الى الجنوب من ايطاليا ، وعلى شواطىء البحر الادرياتيكي . فالركود التجاري الذي اصيبت به البلدان الواقعة الى ما وراء هذا القطاع الجغرافي المحدود ، يجب رده ، الى هذا التطور الداخلي الذي اخذت به اوروبا ، اكثر منه الى هذه السياسة التي انتهجتها بيزنطية فأبت عليها ، لاغراض مالية ، ان تتجر مع اي قطر ، او تقيم علاقات اقتصادية مع اي مرفأ لا يقع تحت سيطرتها واشرافها المباشر ، وهو وضع لم يلبث ان ادى ، بعد لأي قصير ، الى سيطرة مدينة البندقية على الملاحة البحرية سيطرة كادت تكون تامة ، وتحكمها شبه المطلق ، بالاسواق التجارية ، اذ ذاك . ومن جهة اخرى ، فالغرب الاسلامي كان بَعدُ ، طري العود ، تَخشِن الطباع ، ليبعث النشاط في الحركة التجارية مع بلدان الشرق الادنى . ولم يحدث هذا كله الا بعد ان تم للاسلام السيطرة على جزر البحر المتوسط والتحكم ، بالتالي ، بالملاحة البحرية بين اطرافه المتباعدة ، وذلك منذ القرن التاسع .

تكريم الايقونات المقدسة وتحطيمها يقيم بيزنطيـــة ويقعدهـــا

عانت بيزنطية ، في هذه الحقبة ، من قضية دينية اقامت الاهلين واقعدتهم في جميع انحاء الامبراطورية البيزنطية ، لم يكن من الصدف قط ان تحدث، في هذا الوقت بالذات الذي شهدت فيه آسيا الغربية ، ولا سيما الولايات التي تجاذب اطرافها المسلمون والبيزنطيون ، هـذه الاضطرابات التي كانت ارمينيا نقطة الدائرة منها . فالحماية التي تمتعت بها هذه المقاطعات الناعمة بشيء من الاستقلال الداخلي تحت اشراف الاسلام، فصلت بين الكنيسة الارمنية والقسطنطينية، وباعدت بين الطرفين . وقد ساعدها الوضع السياسي المضطرب الذي ساد تلك المنطقة وسيطر عليها ، في نشوب هرطقات دينية حادة ، كالهرطقة « البولسية » ، التي لا نعرف شيئاً يذكر عن تعاليمها ولا عن نشأتها والتي ترتبط بعض الشيء ، بتعاليم مرقيون التي انتشرت من قبـل ، في مصر والشام وفارس ، وآلى امرهـا الى مذهب مانى الذي كان اساس تعليمه الثَنَوية اي القول بوجود عنصرين الهيين : الخير والشر ، وهي مقالة سيطرت ردحاً من الدهر ، على اذهان الناس وتفكيرهم وتحكمت بايران قبل الفتح الاسلامي . وقد كان من اشد المنكرات لدى اتباعها القول : بالتشبيه ووضع الصور للمقدسات والمؤلهات ، وهو مَحنَق شاركهم فيه ، الى درجـة اخف ، جيرانهم اتباع العقيدة القائلة بطبيعة واحـدة في السيد المسيح ، اذ كانوا يأبون التسليم برسم صورته لانه يتنافى والألوهية . ففي هذا الجو العابق بالكره للصور والحنق الشديد عـلى من يرسمها ، نشأت هرطقة تحطيم الايقونات والتنكر لتكريمها ، هـــذه الهرطقة التي اقامت الناس واقعدتهم ، ومزقت الامبراطورية كل ممزق ، اذ لم يعـــد الامر محصوراً كما في العصور الماضية ، بجدل لاهوتي ، بـــل تعداه الى العبادة ، ليستحيل ، بعد قليل ، قضية سياسية واجتماعية ، هزّت الخواطر واقلقتها .

من مظاهر التقوى والعبـــادة لدى الشعب البيزنطي ، تكريم صُوَر القديسين والايقونات المقدسة ، وهى عبادة غالى الشعب في بعض مظاهرها وخرج عـن الصدد المرسوم ، اذ اتجهت بالاكثر ، الى الرمز منه الى المرموز اليه ، وأوشكت ان تفضي الى الصنمية او عبادة الاصنام . وهذا الانحراف في التقوى عن هدفها الاسمى ، كان يسبب صدمة عنيفة في النفوس العطشى الى النقاء الروحي ذات الحساسية الدينية المرهفة التي احبت ان ترى في نائبات الدهر والنكبات التي توالت على البشرية ، في ذلك العصر ، صواعق السماء وذاجر غضبها ، تأديباً لهم على معاصيهم . فما كان من الامبراطور ليون الثالث الأيصوري ان اصدر ، عام ٧٣٠ ، امراً بتحطيم الايقونات المقدسة ، بعد ان حرّم تكريمها ، وتقديم أي احترام لها . فليس من عجب ان يقابل المؤرخون المسيحيون هذه التدابير التعسفية ، وهذه الاضطهادات ، بالحقد ويناصبوها العداء ، ويروا فيها رجع صدى للتدابير التي اتخذها الخليفة الاموي يزيد الثاني ، بهـذا المعنى . ومن الثابت ان فكرة محطمي الصور من البيزنطيين ومعظمهم ينتمون الى الولايات الشرقية في الامبراطورية ، تتصل من قريب ، بالمسلك الاسلامي المسيحي ، وتمت الى الدعاوة البولسية والمونوفيزية بأوثق

الصلات ، وتنضح بل تنثرى بالكثير من مقالة المعتزلة التي احـدثت ثورة في قلب الاسلام . وقد انطلق صوت يوحنا الدمشقي مدوياً في الشرق ، يمـدّ القائلين بتكريم الايقونات المقدسة بالحجج الدافعة والبراهين الدامغة : فاذا وجب رذل عبادة الصور والايقونات ، فليس من ينكر ما لها من قيمة تهذيبية مثالية تحتذى، ورمز مستطاب لا بد منه للحفاظ على ايمان حيّ ، محي ، يخشى عليه من التجريد الجاف .

ولم تلبث المعركة الدائرة حول الصور ان ارتدت مظاهر جديدة وتلبست وجوهاً جديدة وكثر المناضلون عنها والمكافحون دون شرعيتها بين الرهبان،وفي مقدمتهم ثيوذوروس الستودي (مطلع القرن التاسع) ، اذ ان الحياة الرهبانية بدت منفرّة للعقليين ، كما ان عدداً كبيراً من الايقونات المقدسة الموجودة في الاديار ، كانت تولي اصحابها الكثير من النفوذ والسلطان ، كما تجلب لهم وللاديار التي تحتفظ بها ، الكثير من الربح الحلال والدخل الوافر ، ممثلا بهـذه النذور والأعطيات التي يغدقها المؤمنون بسخاء . ولم يكن بمستطاع هؤلاء الاباطرة العسكريين، ولا في مقدورهم قط ان يتصرفوا بهذه الكنوز ولا ان يتسلحوا بها للاديار من هيبة ونفوذ ، كما تشهد على ذلك الاجراءات والتدابير المالية التي اصدرهـا ضد الاديار ، في مطلع القرن التاسع الامبراطور نيقوفورس الاول ، مع كونه من اتباع القائلين بتكريم الصور، ومن انصارهم. وقد احتدمت هذه المعركة وبلغت ذروتها من الشدة ، في حقبتين متواليتين (منتصف القرن الثامن والربع الثاني من القرن التاسع) واصبحت حدثاً مميزاً في هذا الصراع الطويل يقوم به الامبراطور للسيطرة على الكنيسة ، وللحد، على الاخص ، من نفوذ الرهبـان ، والخفض من سيطرتهم الاقتصادية والاجتماعية . فلاعجب ، والحالة هذه ان تثير هذه المعركة المحتدمـة ، صعوبات جمة مع الغرب ولا سيما مع البابوية حيث لم تتجاوز عادة تكريم الايقونات الحد العدل ، ولم تبلغ الزبى من الغلو ما بلغته في الشرق ، ولذا لم تستصوب الاسباب والدوافع الكامنة وراء الدعوة لتحطيم الصور وتحريم تكريمها . وفي النهاية لم تلبث السلطة الامبراطورية ان نكصت على اعقابها وانثنت وتحطمت التدابير التعسفية التي اتخذتهـا على صخرة التقوى الشعبية والتضامن الشديد الذي قابل به الشعب المؤمن والرهبان ، استعداء الدولة للايقونات والتنكر لتكريمها .

وهكذا استحال هذا التضامن الديني الصلب شكلاً من اشكال الوطنية الواعية ، واصبح شعاراً يرفع في وجه هذه المقاطعات والولايات التي يتسكع سكانها في مهاوي الهرطقات والتعاليم الدينية الهدامة ، والطابع المميز للتاريخ البيزنطي ، ليس بالنسبة لماضي هذه الامبراطوريـة فحسب بل ايضاً بالنسبة للعالم الاسلامي المجاور لها. كل ذلك جاء نتيجة لخفوت النشاط الفكري والادبي ، البارز هنـا بروزه في كنيسة الغرب ، ولا سيما منذ ان جرى التعبير عن خواطر الجماعات الاسيوية وافكارها، في أُطر المدنية الاسلامية وحضارتها . وقد بقيت مقالة البولسيين الدينية الهرطقة الوحيدة ذات الصولة في الامبراطورية البيزنطية ، الى ان حفلت بالدم واطاشت جذوتها ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، في هذه العمليات الحربية التي اقتضتها تقويـة

الحدود ، ودعا اليها تدريع الثغور ضد الهرطقة ، الطابور الخامس للمسلمين بين صفوف الارثوذكسية . وهكذا خرجت الكنيسة من محنة بدعة تحطيم الايقونات ، ممحصة ، مطهّرة منقاة ؛ مجلوة كالعروس في خدرها ، كما يتمثل الوضع خير تمثيل في صورة ثيوذوروس الستودي وهكذا بمؤازرة قوى الشعب وأيده ، خرجت الكنيسة في الشرق اقوى جانباً واصفى عقيدة وأدل فناً ، وابين تعبيراً ، وانصع رمزاً بما اعترف للايقونات المقدسة من تكريم يتجه للرموز اليه اكثر منه للرمز .

ومع ذلك ، فقد كان من توالي الضربات ، وفقدان الامبراطورية لخير ولاياتها واغناها ، اكبر الاثر على الآداب والفنون . فقد مر معنا كيف انه حتى مطلع القرن التاسع ، لم يمدنا الادب بغير عدد وجيز من سير القديسين . فلا مؤرخين ، ولا فلاسفة ولا مفكرين حتى ولا لاهوتيين . فالقديس يوحنا الدمشقي ، ابرز رجال العصر فلسفة ونضالاً عن تعاليم الكنيسة ، لمع اسمه وشاع ذكره في محيط اسلامي . والفن ، عاودته الحياة وعرف شيئاً من النشاط ، وان لم تترك لنا بدعة تحطيم الصور وتحريمها ، شيئاً من اثر العهد يمكن التعويل عليه لابداء رأي معلل مسنود . واستناداً الى مخلفات الفن في العصر اللاحق ، يحق لنا ان نقرر بان التنكر للايقونات وتحريم صنعها ، ساعد كثيراً على البحث عن رسوم للتحلية والزينة . وقد راح فنانون شرقيون ، ولا سيا الارمن منهم ، يعنون ، باحياء رسوم التحلية والتزيين ، من حيوان ونبات ، مما هو متبع في بلادهم الام . والبعض منهم يحيون تقاليد مدرسة الاسكندرية الفنية ويبعثونها حية . وهكذا يصح لنا ان نتكلم عن ظهور فن علماني ، بينما الفن الديني ، بعد ان عم انتشاره بين طبقات الشعب أصبح يقنع برسوم عادية من الحياة اليومية ، توحي الكثير من السخرية اللاذعة التي تذكرنا بفن الغرب ، اذ ذاك . فزوال بدعة تحطيم الصور والايقونات وضع حداً لتحلية الكنائس بالرسوم الدنيوية . اما في مجالات الفن والفكر الاخرى ، فسنشهد ، منذ منتصف القرن التاسع ، يقظة فنية وادبية حرية بالذكر .

الفصل الخامس

أوروبا في عزلة وانزواء
(القرن ٨ ـ ١٠)

رأت اوروبا نفسها، في مطلع القرن الثامن مهددة بشر مستطير أطلّ عليها من الفتح الاسلامي العربي ، بعد ان وطئت سنابك خيل العرب ارض جزيرة الاندلس ، فاذا بهذه القارة موحشة بعد إيناس ، تعاني البقية الباقية من الثقافة القديمة فيها سكرات الموت ، باستثناء بعض ملاجىء لها معزولة ، بينما كادت تلتبس على الرائي معالم النصرانية فيها ، بعد ان تداخلها ما تداخل من رواسب الوثنية ، انتقلت اليها فيما انتقل ، من اعراف برابرة الجرمان وأساطيرهم ، بعد ان استباحوا باحة البلاد وعاثوا فيها خراباً ودماراً . فاوروبا ارض العنف والعسف على ألوانه ، تسيطر عليها ارستوقراطية عطل من كل ثقافة ، صاخبة ، جَشِعة ، هي ابداً وراء لذاذاتها ، وقد أطلقت لها العنان ، فاستبطرت، وعبثت، دون حسيب او رقيب ، ولا من يكبح جماحها. واوروبا هذه ، أوحشها سكانها ، وافقرت اقطارها ، فراح من يُعنى بالارض منهم ، يحرثها بأساليب بدائية ، فيؤها محدود ودخلها مقسوط .

تفتتها السياسي

صحيح انه يطالعنا ، هنا وهنالك ، بعض مراكز ، للحياة الروحية ، فيها وزن ومقام، وبعض ملاجىء للفكر، فيها حيوية واشعاع، وبعض تشكيلات سياسية اقل تخلفاً من غيرها ، وهي عناصر ، على طيبتها ، مشتتة ، موزعة ، معزولة ليس لها من أثر كبير . فانكلترا التي تحتفظ في أديارها البندكتية بأغنى المكتبات وأحفلها طراً ، بالتراث المسيحي وبالثقافة الكلاسيكيه القديمة ، هي منقسمة على نفسها ، متفسخة ، تتقاسمها ممالك ، سواء في ضعفها، تتناحر فيما بينها وتتقاتل لأتفه الاسباب . وبالمقابل ، فاذا ما تم لسادن القصر في مملكة اوسترازيا ، بابن دو هرستال ، ان يروّض الارستوقراطية في المقاطعات الثلاث الاخرى ، ويكبح من جماحها ، ويخفف من غلوائهـا ، واستطاع ، بقوة السلاح ، اخضاع الشعوب الجرمانية المجاورة له ، فبفضل ما له من سلطة وشكيمة شخصية ، لا اساس لها مبدئياً

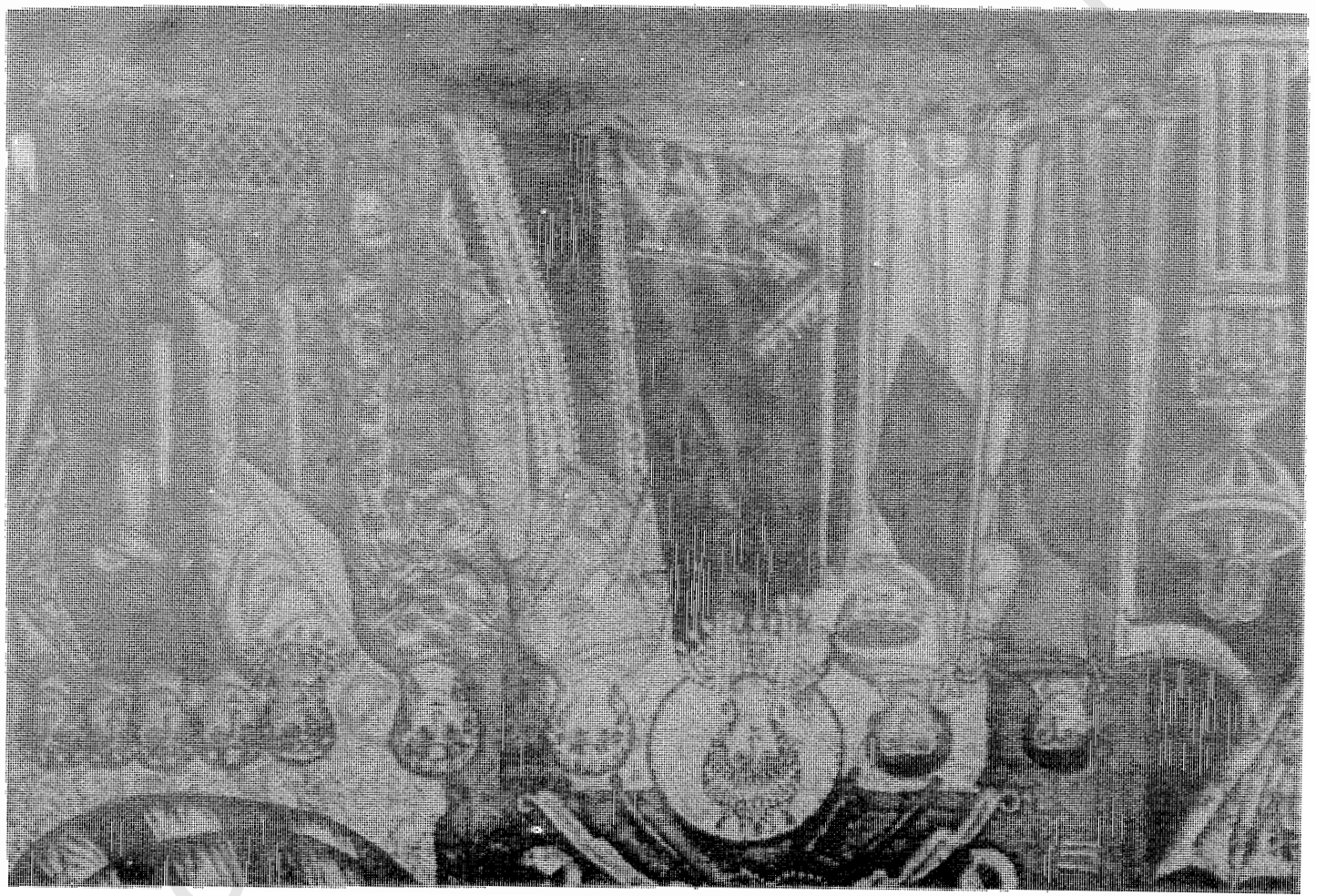

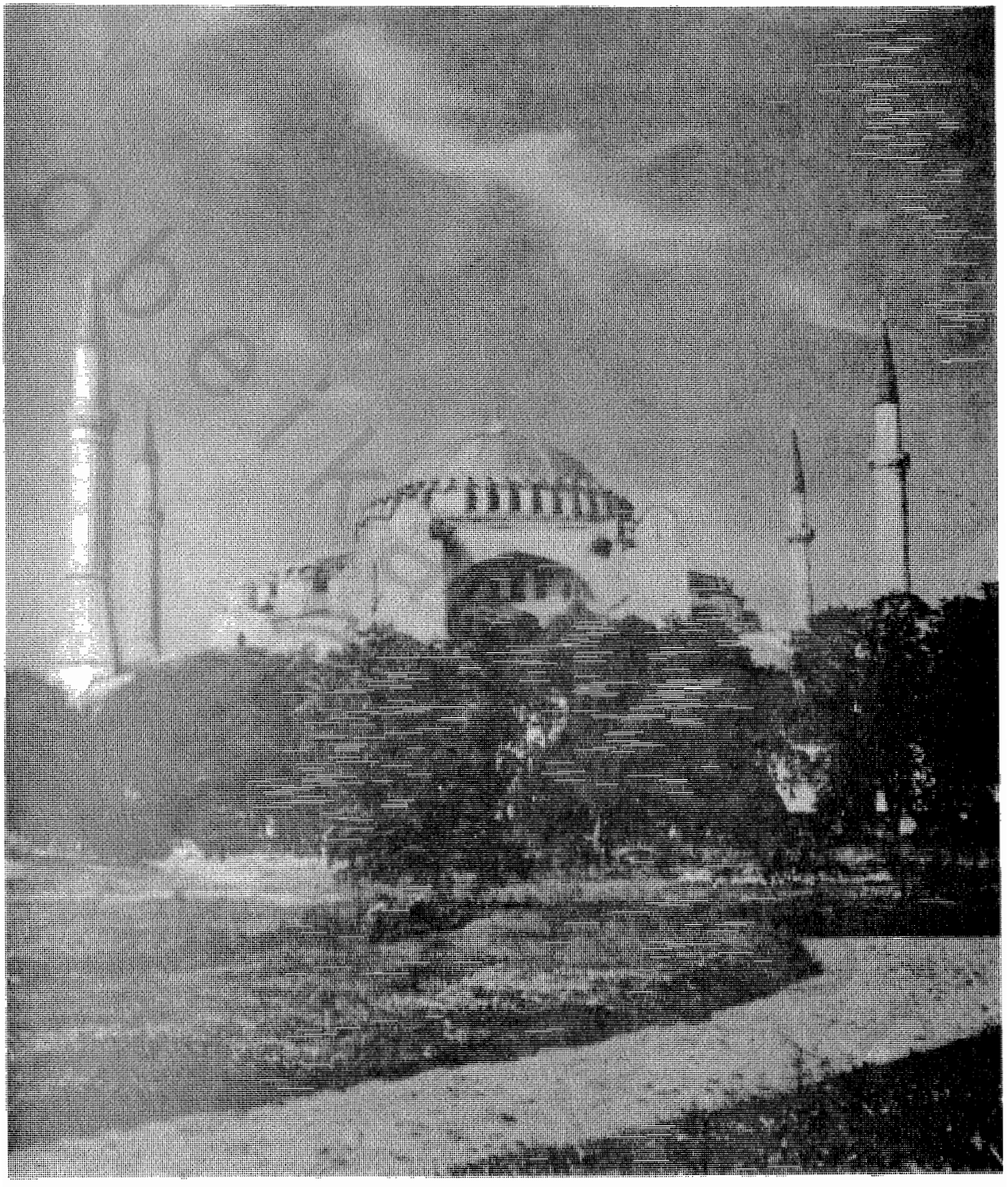

اللوحة ٢ – كنيسة اجيا صوفيا في اسطنبول (القرن السادس) .

اللوحة ٣ – شاهد مدفني من حجر يمثل شهيدين مصلوبين (القرن الثامن) .

اللوحة ٤ — الملك شارل الاصلع

اللوحة ٥ — حديث صوفي بين بوذيين . نصب بروتزي مذهب يرتقي الى السنة ٥١٨ .

اللوحة ٦ — محاربون يشتركون فى حرب الاديان .

اللوحة ٧ – لاعبة الصنوج

اللوحة ٨ – فارس وخادمه .

اللوحة ٩ — كيلاسيا في التورا (الهند)

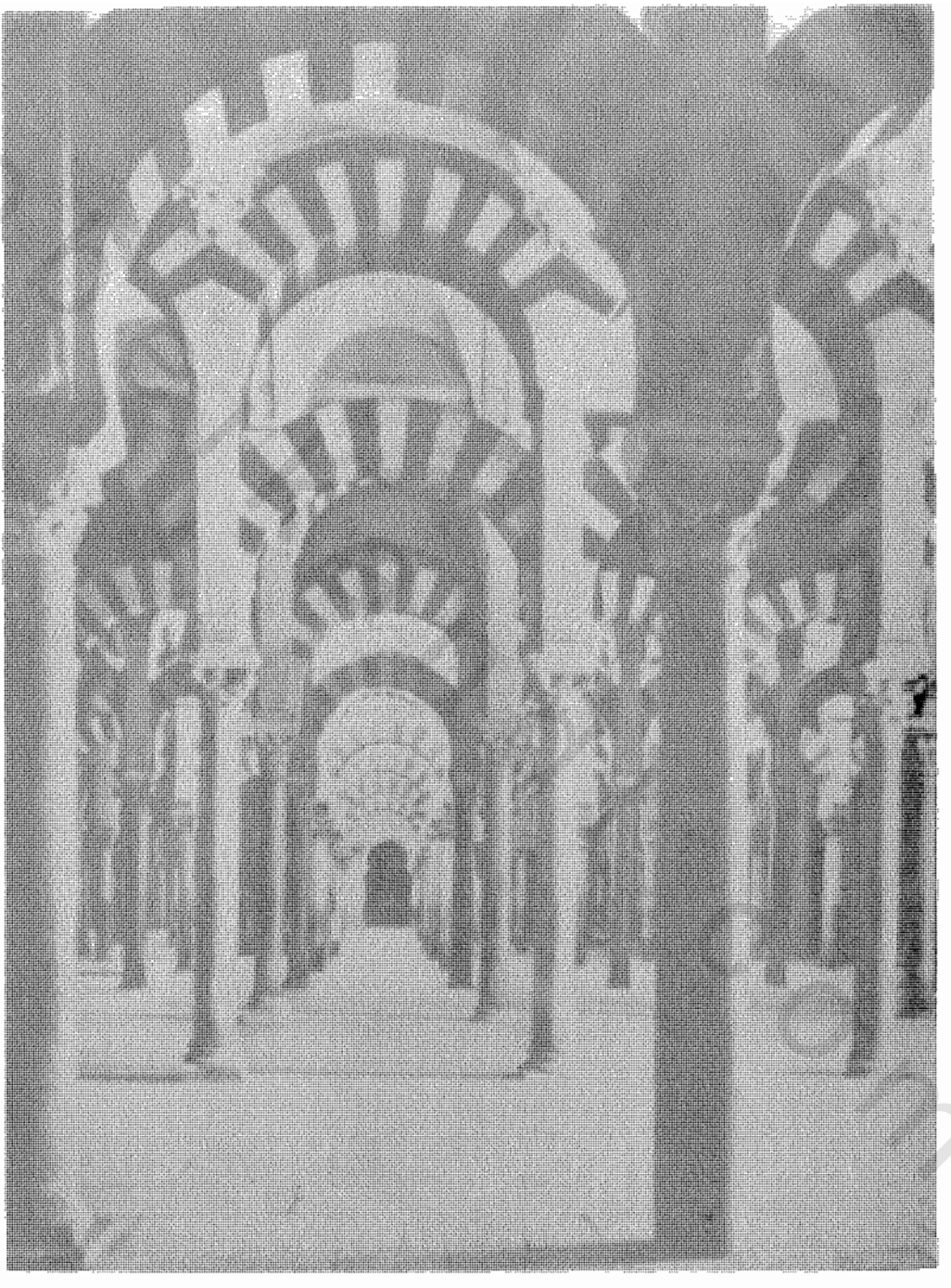

اللوحة ١٠ – المنظر الداخلي لجامع قرطبة الكبير (اسبانيا) ، القرن الثامن – القرن العاشر .

اللوحة ١١ – الـ « ياكوشيجي » في نارا (اليابان) .

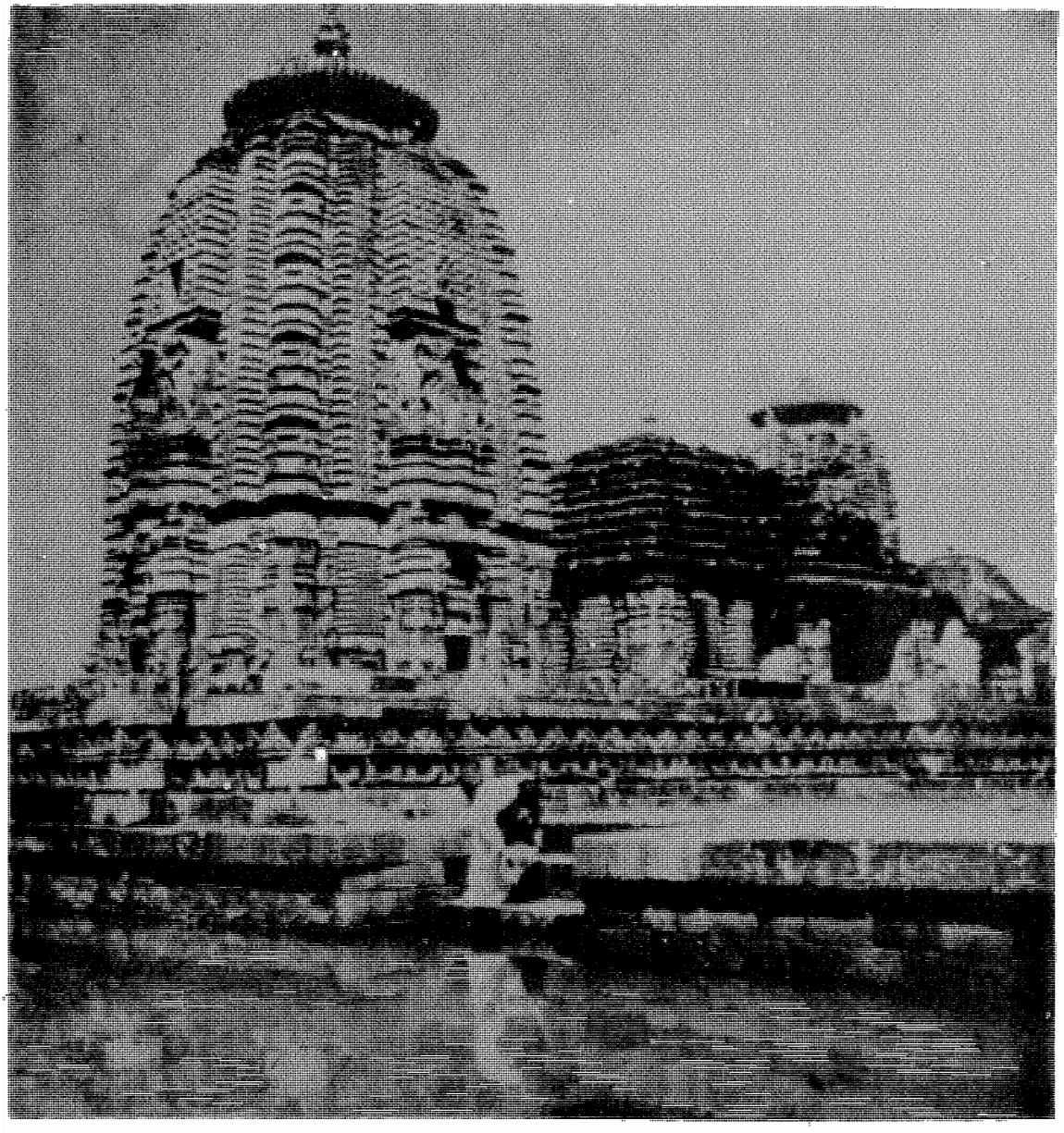

اللوحة ١٢ — معبد بهوفانشفارا (الهند) ، القرن العاشر .

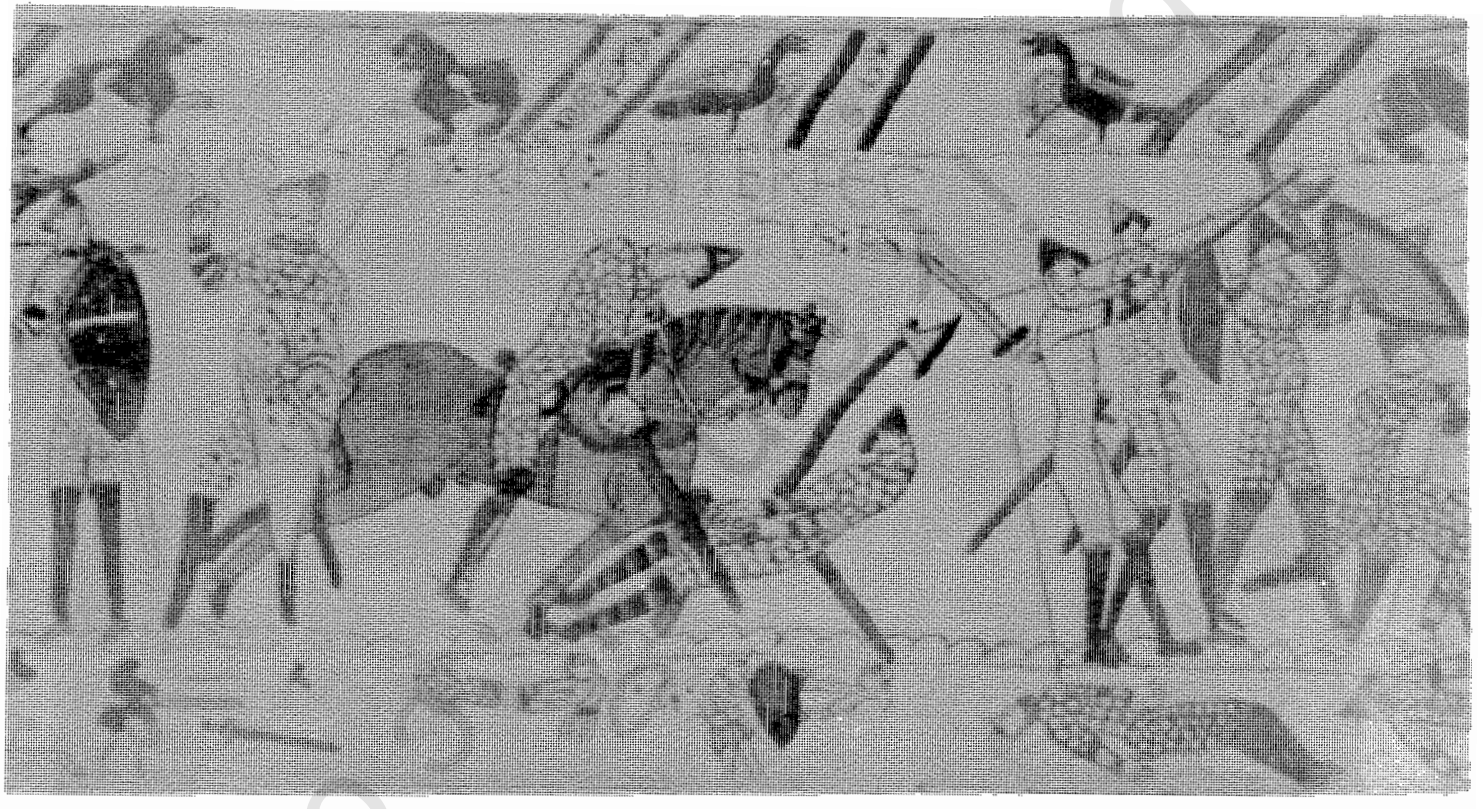

اللوحة ١٣ – موت هارولد .

اللوحة ١٤ – جوفروا بلانتاجنيه .

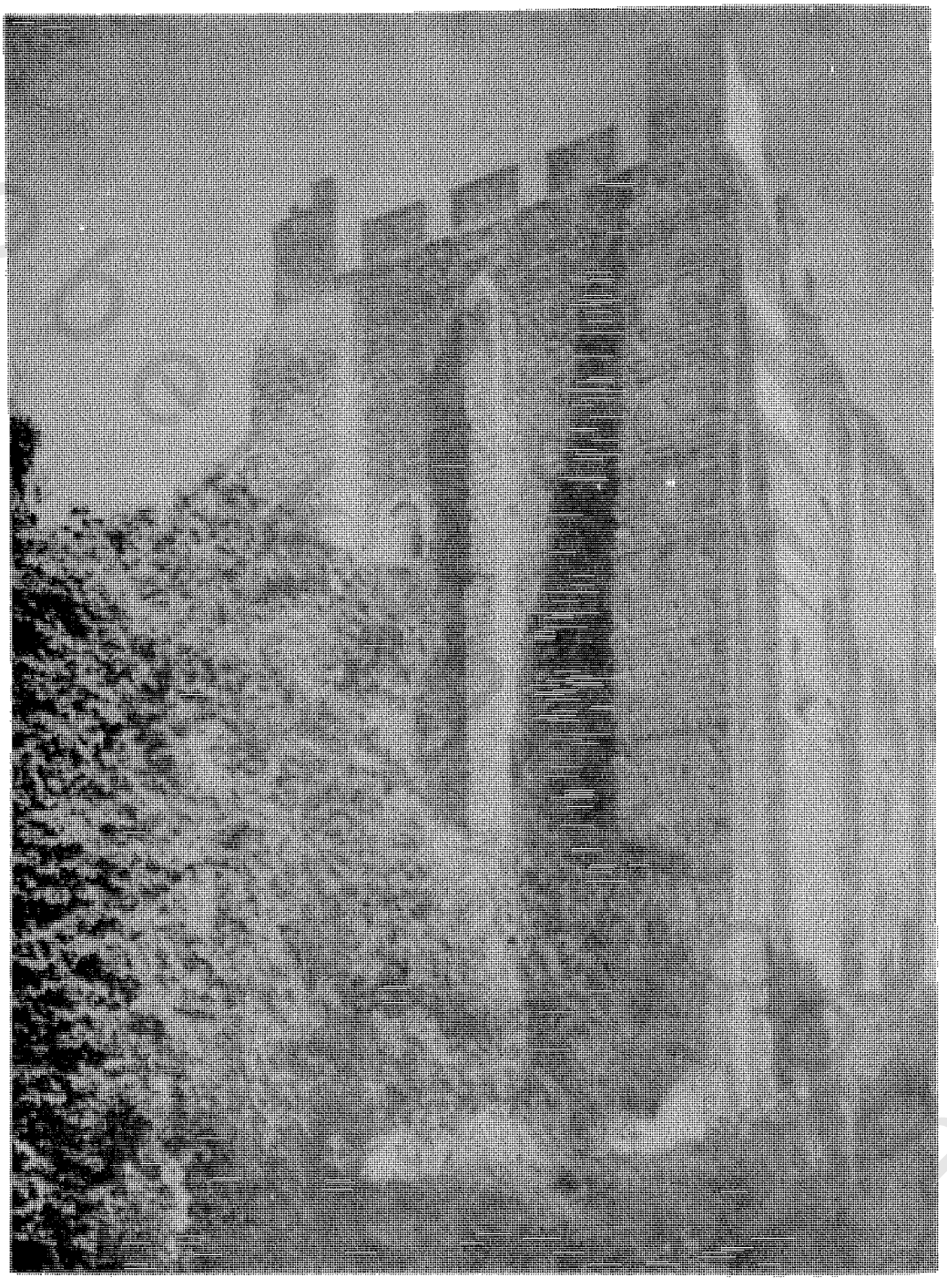

اللوحة ١٥ – البرج الكبير في حصن سان جان في «نوجان-لو-روترو» (القرن الحادي عشر).

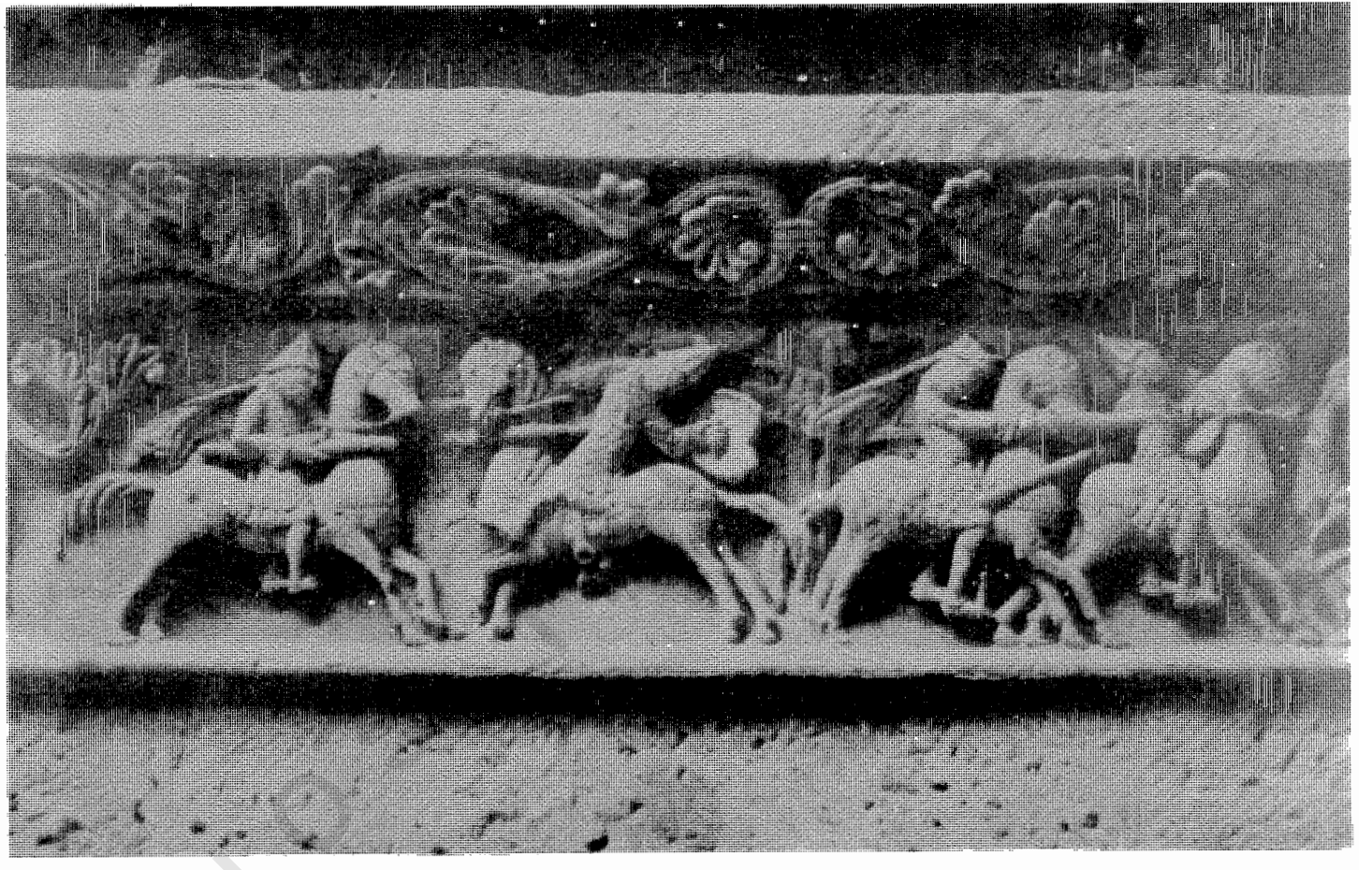

اللوحة ١٦ – المسايفة بالرمح على الطريقة الجديدة .

ولا قوام ، في وقت انحدرت فيه الحضارة في شمالي غاليا الى الدرك الاسفل ، بينما كانت الأطر الكنسية من الركاكة والضعف بحيث تعجز عن مساندة ومعاضدة أي بعث سياسي قويم في البلاد . اما مملكة اللمبارديين في شمالي ايطاليا ، فذكريات أمجاد روما وأيامها الغر لا تزال حية في النفوس ، والتقاليد الفنية فيها محترمة مرعية ، والمدن في ازدهار ، والنخبة بين العلمانيين لا تزال بعد ، على اتصال بالثقافة القديمة . وقد جعلت هذه العوامل نفسها العمل الاداري في البلاد صعباً عسيراً : فالدوقة من اهل الحسب والنسب ، في نزاع موصول مع نظام ملكي لا سند له ولا عماد ، لنهك قواه في محاولات للاستيلاء على الولايات البيزنطية ، بغيـــة ضم ايطاليا تحت سيطرته . واخيراً وليس آخراً ، فاذا ما استطاعت البابوية ، بفضل الرهبان الانكلو سكسون ، ان توطد من نفوذها بـين الجماعات المسيحية المتكاثر عددها في الغرب ، فالبلاط البابوي الذي تهيمن عليه جوالٍ من الاغريق والسريان والدلمات ، محاولة اضفاء الطابع البيزنطي على الطقوس الليتورجية ، يقع تحت تأثـــير بطاركة القسطنطينية العقائدية ، كما يرزح تحت وطأة ولاية الامبراطور الثقيلة بينما نراه يعاني مريراً في الشمال ، من ضغط اللمبارديين الذين أصبحوا خطراً مداهماً يتهدد باستمرار ، املاك الكرسي الرسولي وسلامتها . فانتفاء أي تعاون بين هذه القوى القائمة ، المتنافسة فيما بينها ، والتي يقعدها انفصالها ويشل فيها كل حركة ونشاط ، جعل اوروبا المسيحية منطقة مكشوفة يُنال منها بيسر وسهولة . فالغزوات الموسمية التي تشنها عليها قبائل الفريز والسكسون الوثنية من الشمال ، توهنها وتنهكهـا . اما في الشرق ، فقبائل الآفار الذين استقروا في مقاطعة بانونيا ، تهدد بخطر مستطير ، سكان مقاطعة فنيسيا ، ولذا فروا هاربين وفزعوا الى الغياض والمستنقعات الواقعة عند مصب نهر البو ، يعتصمون بجزرها وخلجانها . اما الجنوب من أوروبا ، فموجة الاسلام العارمة ، تهدد ابتلاعه تحت جرف من الغزوات الكاسحة . والكتائب العربية التي سحقت ببضعة معارك ، مملكة الفيزيغوط في اسبانيا ، تجاوز مدها شمالاً ، جبال البرانيس ، واحتلت ، عام ٧١٩ — ٧٢٠ ، مقاطعة الروسيّون ، والقسم السفلي من اللانغدوق ، وفي سنة ٧٢٥ اتجهت كتيبة من فرسان المسلمين ، عبر وادي الرون ، ونهبت مدينة أوتون . وبعد ذلـــك بسبع سنين ، أنفذ الامير عبد الرحمن الغافقي سراياه على طريق بوردو وبواتيه ، في اتجاه نهر اللوار .

واتفق في هـــذا الوقت بالذات ان تمّ شيء من تجمع القوى ، في الغرب . ونشأت روابط زادتهـــا الايام متانة خلال القرن الثامن ، وحدّت بين زعماء الفرنج وقادتهم ، وبين المرسلين الانكليز والبابوية ، التي راحت تسعى للتحرر من سيطرة الامبراطورية البيزنطية . وكان من شأن هذا التيار الوحدوي القوي ، ان لاحم بين اجزاء الغرب اجمع وقوى من عضدها ، وكون منها درعاً تتقي به شر الغزوات وما تجره من ويلات ، ولو لفترة قصيرة او لأمَد وجيز . وفترة التمهل هذه واستجماع القوى ، كان لها تأثير حاسم على مجرى التاريخ ، في الاجيال الوسطى ، اذ افسحت المجال لاول عملية تأليف ذاتي في اوروبا ، كانت الاساس الركين والمحور الوطيد الذي ستبنى عليه نهضة اوروبا وبعثها ، فيما بعد .

نشأت على سواعد فريق من عبادة الاصلاح السياسي ، يمتون الى اسرة من كبار الملاكين في منطقة الموز ، فاتخذوا "تكأة" لهم في ما ينشدون من اصلاح ، وظيفة سادن او قيّم القصر ، وهي وظيفة لم يلبث شاغلها ان أصبح ، بعد ما آلت اليه النُظُم الملكية في عهد الدولة الميروفنجية من هلهلة وانهيار ، الاداة الطيّعة للقيادة والتوجيه ، واتخذوا قاعدة لانطلاقهم احدى ممالك الفرنج الثلاث ، اكثرها خشونة طباع ، واقلها سكاناً ، هي مملكة « اوسترازيا » ، حيث بدت الطبقة الارستقراطية فيها ، اكثر مرونة ، واقل حرثاً وتهذيباً ، والمسيحية الحديثة النشأة فيها ، اكثر رواء ونشاطاً ونقاءً . فعند وفاة بابين ده هرستال ، عام ٧١٤ ، إستولى على الحكم والادارة بعده ، احد اولاده الطبيعيين ، هو شارل ، الملقب بـ مارتل ، يشد ازره معظم رعاياه ويلتفون حوله . فما لبث ان اخمد الفتن واخضع لسلطانه مملكة « نوستريا » ، وصد في مقاطعة « بواتو » ، عام ٧٣٢ تدفق سيل الغزاة العرب بقيادة اميرهم عبد الرحمن الغافقي ، فبرز للناس اجمع مخلّص البلاد ومنقذ المسيحية في الغرب . واستطاع ، بعد حروب ومعارك لاحقة ، ان يوقف سيل الغزو الاسلامي ويحول دون تقدمه الى الشمال ، ويخضع لسيطرته ، بضربة معلم حاذق ، مقاطعتين : الاكويتان وبروفانس . واسند الوظائف الكبرى في الحكم والادارة ، الى موظفين اكفاء يتمتعون بثقته ، إصطفاهم من بين اعضاء اسرته ومن خاصة الأسر الكبيرة في اوسترازيا ، واعتمد على مناصرة رجال الاكليروس يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من عدّة وعتاد . واذ بدا له ان لا بد من اخضاع جرمانيا لسيطرته ، قرر ان يساعد المرسلين والمبشرين على نشر المسيحية فيها ، ولذا وضع جميع امكاناته ونفوذه تحت تصرف المبشرين الانكلوسكسون ، امثال « فيليبرورد » ، رسول قبائل الفريز ، وفيرمان ، الذي اسس ، عام ٧٢٤ ، في رايخنو ، على ضفاف بحيرة كونستانس ، اول دير انشىء على ارض جرمانيا ، واخيراً بونيفاسيو ، واسمه الاول « فنفريد » ، الذي عمل بعد ان تزود بتوجيهات البابا وارشاداته ، على تنظيم الحياة الرهبانية في مقاطعتي هس ، والتورينج ، وكنيسة بافاريا .

ولما كان اولاد شارل مارتل ، قد نشأوا نشأتهم الاولى في الاديار ، فقد وقعوا ، الى حد بعيد ، تحت تأثير رجال الدين ، فأخذوا ، بمساعدة القديس بونيفاسيو ، القيام بعملية اصلاح شامل المؤسسات والنظم الكنسية ، اذ ذاك . ولما تم الامر لبابين ، عام ٧٤٧ ، واصبح سادن القصر وحده ، اخذ بمؤازرة رسول جرمانيا ومبشرها الاكبر ، في اقامة صلات له مع الكرسي الرسولي الذي استجاب لهذه المبادرة وعطف عليها مشجعاً تخلصاً من ولاية بيزنطية البغيضة ومن اللمبارديين بعد ان ازداد ضغطهم عليه . ورغبة من البابا في توطيد سلطة سادن القصر ، مصلح الكنيسة وحامي المرسلين الغيور ، سمح له رسمياً ان يحل محل آخر ملوك الميروفنجيين الضعيف . وفي سنة ٧٥١ تمّ انتخاب بابين ملكاً على الفرنج . ولكي يزكي هذا التبدل في الاسرة الحاكمة ، باسرة اخرى ويبرره ، فيضفي بذلك على مغتصب السلطة هالة من المهابة والوقار تفوق

بقيمتها الهالة التي كانت تحف بخلفاء كلوفيس الشرعيين ، راح القديس بونيفاسيو يدهن الملك الجديد بالزيت المقدس . وهكذا تم تكريس العاهل الجديد وتنصيبه رسمياً . وقد جدد البابا نفسه ، عام ٧٥٤ ، تكريس الملك الجديد ومسحه بالزيت المقدس ، كما بارك ذريته من بعده ، وبهذه البركة يمنحها لعائلة بابين ، تكريساً للاتفاق أو التحالف المعقود بين ملك فرنسا واسقف روما ، وتوطيداً له ، راح الملك بابين يأخذ تحت رعايته الخاصة البابا غريغوريوس الثاني ونزع من ملوك بافيا اللمبارديين ، الولايات التي اغتصبوها حديثاً واقتطعوها من بيزنطية ووقفها ، بكل احتفال ، على الكرسي الرسولي . فانعم عليه البابا ، بالمقابل ، بلقب : « بطريق الرومان » وهو تصرف فيه الكثير من الاعتباط والتعسف ، بدا لذا ، غير قانوني ، اذ انتزع ممتلكات كانت تابعة ، من قبل ، للامبراطورية البيزنطية ، كما ان البابا انعم برتبة ليس من حقه ولا من صلاحياته ان ينعم بها ، بل هي من صلاحيات الامبراطور . وقد كانت هذه الاحداث والخطوات التي رافقتها ، الحجر الاساسي في إقامة سلطة البابا الزمنية ، كما كانت المسعف على تحريرها نهائياً ، من تابعية القسطنطينية ، وجعلها تتوّل دوماً ، على حماية دولة الفرنج لها . وهكذا تهيأت من بعيد اسباب اعادة الامبراطورية في الغرب .

وقد سهّل القيام بهذه السياسة ويسّر تنفيذها ، الفتوحات الحربية التي حققها ابن بابين ، المعروف باسم كارلوس الكبير او شارلمان ، الذي قاد جيوش الفرنجة كل سنة الى ظفر مؤثّل ، موسعاً بذلك حدود المملكة الى اقصى ما بلغه تغلغل المسيحية في الغرب . واستولى على عرش اللمبارديين وبسط سلطانه على الدويلات المستقلة اداريا ، في جرمانيا المسيحية ، وبذل جهوداً مريرة في اخضاع السكسون وحملهم على إعتناق النصرانية ، وقضى على سيادة « الآفار » الشديدة الشكيمة ، وحمل كتائب الاسلام على التراجع والانكفاء ، عبر جبال البرانيس . وبلغ من اتساع رقعة مملكة الفرنج عام ٨٠٠ ، ومن قوة نفوذها ان راحت الاوساط الكلسية تفكر جدياً ببعث الامبراطورية الى الوجود ، لصالح الدولة الجديدة ، والرجوع بذلك الى التقليد القديم الذي انقطع عام ٤٧٦ ، عند سقوط روما بيد ادواسر ملك الهيرول ، وامتد هذا الانقطاع ثلاثة قرون بات فيها الغرب منقسماً على نفسه ، دائم القلق والاضطراب ، لا يعرف الاستقرار ، وبذلك عادت اليه وحدته السياسية والروحية . ويوم عيد الميلاد بالذات من سنة ٨٠٠ ، جرى تكريس شارلمان في كنيسة القديس بطرس ، وفقاً للطقوس والمراسم المتبعة في القسطنطينية ، وألبس التاج ونودي به امبراطوراً على الرومان . وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اعترفت بيزنطية بواقع الامبراطورية ، وإعادتها من جديد في الغرب .

ومع ذلك فقد كان من نصيب الجيل التالي اي الجيل الذي عاصر الامبراطور لويس الوَرِع وشهد النفوذ الذي كان يتمتع به ، اذ ذاك ، رجال الكنيسة ذوو الثقافة العالية ، تطبيق المبادىء التي أدّت الى بعث الامبراطورية . فالامبراطور هو القائد الاكبر للشعب المسيحي ، عليه ان يؤمن ادارة كل القضايا الزمنية ، كما ان سلطته او خلافته لا يمكن تجزئتها . وهكذا

فالمرسوم الامبراطوري الذي اصدره عام ٨١٧ بعنوان *Ordinatio Imperii* . يكون قد وضع حداً للتقليد الجرماني الذي عُمِل به الى ذلك الحين ، والذي كان يوجب بان يتقاسم وَرَثة الملك مملكته من بعده ، بينما ادعى الامبراطور نفسه عام ٨٢٤ ، حق الاشراف على دولة الكرسي الرسولي والتدخل بانتخاب البابا .

ساعد ما كانت عليه الاسرة الكارولنجية من ثراء وغنى ، وانبساط سلطان الفرنج واتساع مملكتهم ، على النهوض باسباب المدنية الغربية ، وهي مدنية محدودة الطاقات مع ذلك ، فلم يطرأ سوى تغيير بسيط على المقومات والعناصر المادية ، والاتصالات التجارية ، والتأليف الطبقي الاجتماعي في البلاد ، بينما نلحظ تطوراً محسوساً في القطاع المدني ، هذا القطاع كان يتردى في احط دركات الفوضى والانحطاط . وقد امكن استدراك هذه الاوضاع غير الملائمة ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، عن طريق تقوية النظم والاجهزة السياسية ، مما ادّى الى إستتباب النظام وتوطيد اسباب الوحدة . وهكذا نشأ جو ملائم ، حليم ، يسمح بازدهار امور الفكر وانتشار الثقافة التي كادت شعلتها تنطفىء في اواخر العهد الميروفنجي ، وهي ثقافة أطلّت علينا فكرية ذهنية ، في البلدان الانكلوسكسونية ، وفنية في المقاطعات الشمالية من غاليا ، فأدّت طوالع حركة الانبعاث هذه الى نتائج طيبة ، مهدّت الطريق لطلوع نهضة أخذت تنمو وتتسع دونما انقطاع . وقد عادت هذه الحركة التجددية بالغنم والنفع على المناطق الواقعة بين نهري اللوار والرين ، اي على هذه الولايات الفرنجية القديمة ، قلب الدولة الكارولنجية ونقطة الدائرة فيها . ففي هذه الولايات قامت اوطد الاسس وارسخها . ومن هذه المنطقة جاءتنا اكثر الوثائق والمستندات . فمن هنا يجب ان نُطيل لنرى الصفات والميزات التي طبعت بين ٧٨٠ و ٨٣٠ المدنية الكارولنجية ، قبل ان نتبين ما كان لها من أثر بيّن ، على الاقطار الاخرى ، في الغرب المسيحي .

ضعف الوضع الاقتصادي ورهنه

فلا عجب من ان تأتي الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، في شمالي غاليا ، والحالة هذه ، واهية ، ركيكة ، بدائية المظهر والمخبر ، بعد هذا التردي الطويل خلال هذه المدة . فالسكان فيها قليلون ، وتوزيعهم ليس على سواء ، والوسائل التقنية المتبعة في الزراعة لم تكن لتصلح الا للاراضي الخفيفة التربة ، السهلة الحرث والفلاحة ، سوادها من الدلغان والرمل ، بينما الاراضي العميقة التربة والكثيرة الرطوبة أهمِل امرها للاحراج والغابات والغياض والمستنقعات . ويفصل بين رقاع الارض المزروعة مساحات واسعة من الغابات والاحراج ، خالية تقريباً من السكان ، يرتادها من حين الى آخر بعض الحطابين والرعاة . والظاهر ان استتباب الأمن في هذه المنطقة ، بين ٧٥٠ — ٨٥٠ احدث تبدلاً ملحوظاً من الوجهة السكانية او الديموغرافية . فالقرى القائمة في السهل المحيط بمنطقة باريس حيث يقوم باستثمار الاراضي واستغلالها ، العديد من الأسر ، كانت تضم من السكان ، اذ ذاك ، ما كانت تضمه ، تقريباً ، في اواخر القرن الثامن عشر . وهي كثافة كبيرة

اذا ما نظرنا اليها من خلال عطاء الارض ومحصولها . ومع ذلك ، فهذه النسبة العالية في معدل السكان لم تتسبب بأية هجرة نحو الاراضي البكر . ويبدو ان الناس في ذلك القرن ، كانوا اعجز من ان يوسّعوا نطاق اراضيهم الزراعية عن طريق احياء اراضٍ جديدة للزراعة . ولم يَحِن الوقت بعد ليسمح باستمرار الازدهار الديموغرافي واطراد نموه ، بحيث يتضاعف عدد العاملين في الارض والمستهلكين على السواء ، فيؤمنوا استمرار نموّ ثروة البلاد باطراد .

فليس من عجب ، بعد هذا ، ألا يكون أي أثر يذكر للحركة التجارية ، اذ ذاك . ان استمرار غزوات العرب في الجنوب ، والحروب التي ساقها كل من شارل مارتل وبابين ، أخذ بعضها برقاب البعض الآخر ، وقد قضت على كل ما بقي من اثر النظام الاقتصادي القديم ، وذهبت بمعالمه في تلك المنطقة ، فاتجهت الحركة التجارية صوب البحر المتوسط. فالمستعمرات الصغيرة التي نشأت في عهد الميروفنجيين بفضل تجار مشارقة ، والتي تتألف منها محطات على طريق القوافل ، قد تلاشت واندرست ، وحل محلها ، مع الزمن ، تجار من أبناء البلاد يتعاطون البيع والشراء وفقاً للمناسبات ، بقوا ، مع هذا ، ندرةً . ومع ذلك ، نرى كيف ان هذا الاصلاح البدائي من جهة وتوطيد اسباب الامن ، في شمالي غاليا ، من جهة اخرى ، ساعد ، منذ عام ٧٥٠ ، على اضفاء شيء من النشاط ، على الحركة التجارية في البلاد .

ومن جهة ثانية ، استمرت حركة استيراد المصنوعات الشرقية الغالية الثمن : كالأفاويه والطيوب والعطور والديباج وغير ذلك من الانسجة الجميلة التي يتهافت على اقتنائها الأثرياء وأبناء الارستوقراطية من علمانيين وكنسيين ، على السواء . والشيء الوحيد الذي تبدّل هنا وتغير ، هو تحول التجارة عن المسالك القديمة التي كانت تسلكها في طريقها الى الغرب ، الى مسالك جديدة . فراحت تعتمد بالأكثر ، اما على الموانىء البيزنطية الواقعة في جنوبي ايطاليا ، وعلى البحر الادرياتيكي ، وعبر وادي البو ، او على مجازات جبال الالب وممراتها ومعابرها ، او انها كانت ترِد براً ، متتبعة الطرقات التي تجتاز البلدان الصقلبية او طريق البحر البلطيقي المائية ، وهي ، اذ ذاك ، اخطر الطرق ، وقاعدتها الكبرى جزيرة غوتلاند ، ومنها تدخل مجاري الأنهر الكبيرة في اوروبا الشمالية . ومن ناحية اخرى ، تطلع علينا تيارات جديدة تتمثل بحركة المقايضات التجارية ، بعد ان اخذوا بنسج الاقمشة وحياكة الاجواخ في بعض البلدان الواقعة حول البحر الشمالي ، مما كان يغذي ، بعض الشيء ، حركة تصدير بطيئة . كذلك اخذ تجار الفرنج ، ابتداءً من القرن الثامن ، يبيعون في الاسواق الاسلامية ، بعض مصنوعاتهم كالأسلحة الجميلة الصنع التي كانت تصنع في المعامل الواقعة الى الشمال من غاليا ، كما كانوا يتولون الاتجار بالرقيق ، فيبيعون ارقاء وقعوا في الأسر ، من البلدان الوثنية ، وهي تجارة رابحة انما كانت تجري بتحفظ كلي ، وبالخفاء . وذهب بعضهم الى القول ان حركة التصدير هذه ونموها المطرد كانت ذات شأن كبير على الغرب ، الذي كان اقتصر حتى الآن ، على استيراد المواد الشرقية لقاء أثمان باهظة ، معتمداً في دفع أثمانها على ما كان لديه ، بعد ، من احتياطي النقد ، دون ان

تكون له القدرة على تعويض التّلِيف او المتسرب منها الى الخارج . وهكذا فتح التيار التجاري مع العالم الاسلامي ، المجال لادخال معادن ثمينة وعملات قوية وطرحها للتداول لتُغذي الحركة الاقتصادية والمقايضات التجارية ، الأمر الذي مكّن الغرب من دفع ثمن السلع والبضائع التي كان يستوردها عن طريق بيزنطية والتي كادت حركة استيرادها تنقطع لانعدام وسائل الدفع فكان ذلك بدء حركة لم تلبث بعد لأي من الزمن ، ان قلبت الوضع تماماً .

وهذا الانتعاش ، الوَجِيل ـ انما مؤكد ـ للحركة التجارية، والاتجاهات الجديدة التي اتجهتها، أدّى الى نتيجتين ثابتتين : تبدو الاولى في هذا الاصلاح التدريجي للنقد والعملة ، عند الفرنج ، وهو اصلاح تم بين ٧٥٤ و ٧٦٥ ، وعام ٨٢٠ . فأمام تداول النقد العربي والصقلي ، في البلاد ، كالدينار الذهب او الدرهم الفضة ، استطاع ملوك الفرنج، عن طريق سك عملات مماثلة لها ، من حين الى آخر ، ان يعيدوا الى التداول دينار الفضة ويثبتوا قيمته ، وربما تم لهم ذلك بربطه بالنظام النقدي المتبع في العالم الاسلامي . فليس من عجب قط ان يكون لاصلاح النظام المالي وتقويته اثر كبير على الحركة التجارية . ثم ان هذا النشاط التجاري جاء نتيجة طبيعية لهذه الحركة الديموغرافية السكانية التي برزت بوادرها في هذه المنطقة الواقعة بين نهري السين والرين ، فأدّت بين ٧٥٠ ـ ٨٥٠ ، الى نمو عدد من المدن القديمة وتوسعها ، امثال : أرّاس وفردون ومتز، بينما نرى مناطق سكانية تطلع وتكبر وتتوسع، حول مراكز ناشطة للتجارة، او لتفريغ البضائع وشحنها ، تقع على مجرى نهر السين الاسفل ، ونهر الموز والاسكو ، او على ساحل المانش والبحر الشمالي .

ومع ذلك ، لا بد من الاعتراف هنا ان تباشير هذا الانبعاث الاقتصادي كانت ضعيفة وخفيفة للغاية ، يكاد المرء لا يشعر بها ولا يلمسها . فاذا ما اخذ المؤرخ على نفسه الاشارة اليها والتنويه بها ، فلانها تهيء من بعيد ، وتمهد الطريق للنهضة العمرانية والاقتصادية التي انطلقت موجهتا في القرن الحادي عشر، اذ لم يكن، في مقدور المرء، ان ينسى، اوليتناسى التدهور العميق والانكماش الذي طبع ، على العموم ، الوضع الزري الذي كان عليه القطاع الاقتصادي في العهد الكارولنجي ، وهو اقتصاد ريفي الطابع ، لا شأن يذكر للمدن فيه ، اذ كانت المعادن الكريمة مجمدة بشكل مجوهرات يختزنها الصاغة ، والنقد المتداول نادراً للغاية ، كما يستدل على ذلك من الرهونات على الاملاك ، ومن المسابك الكثيرة للعملة ، اذ كان يقوم على مقربة من كل مركز تجاري هام ، معمل لضرب السكة يؤمن ما يحتاج اليه الناس والعملاء من نقود ، عند الاقتضاء . وهذا النوع من الاقتصاد هدفه الاول تأمين أوّد العيش للتاجر ، دون ان يأبه لتحقيق أي ربح اضافي ، معتمداً في ذلك على غلة الارض دون سواها .

الاقتصاد العقاري : الامـلاك

لهذه الاسباب التي اتينا على ذكرها ، كان عماد الاقتصاد ، في هذه الحقبة ، الثروة العقارية أو الملكية العقارية ، متكأ النظام الاجتماعي منذ اقدم العصور ، ولكن لا يبرز شأن هذه المؤسسة على حقيقته الا على ضوء الوثائق

والمستندات العائدة لمطلع القرن التاسع . وقد اطلقوا على هذه العقارات أو الملكيات الضخمة اسم *Villae*، وهي مزدرعات كبيرة قام منها عدد كبير في ايالات نوستريا وأوستر ازيا، ولا يدخل تحت هذا المسمى الاملاك الصغيرة الحجم التي يستقل اصحابها في استثمارها . وهذه الامـــلاك الواسعة الاطراف لا يستقر وضعها على صورة ثابتة ، لما ينتابهـــا من تغيير وتبديل ، ناتجين عن الإرث والبيع ، والشراء والهبة ، وغير ذلك من الاسباب التي تعتور الملكية من عوامـــل التصرف . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان تتفاوت فيا بينها مساحة واتساعاً . فبينا تكون مساحة العقار هنا مائة هكتار ، مثلاً اذ بها ، هنالك ١٨،٠٠٠ أو ٢٥،٠٠٠ هكتار . وبالرغم من هذا الفارق في المساحة ، فطريقة استثمارها واحدة هي ، يُعمَل بهـــا على شيء من التوافق والانسجام . فهي على العموم تقسم في استثمارها ، الى قسمين أو شقين : القسم المحفوظ لصاحب الارض أو مالكها ، ونسميه: « الرباعة » ، والقسم المؤجر للاستثمار . فالقسم المحفوظ هو الذي يحتفظ صاحب العقار باستثماره لحسابه الخاص بمحوره الفيلا أو الدارة وهو نقطته الدائرة في العقار ومحوره، الذي يضم، عدا منزل صاحب العقار،عدداً من المنازل وبيوت السكن لمن في خدمته من خدم وحشم ومزارعين، كما يشتمل عادة على كنيسة او مصلّى. وهذه الرباعة تضم قطعاً مختلفة من الاراضي الزراعية ، يؤلف مجموعها ثلث او ربع مساحة العقار القابل للحرث والزراعة، بينها قطع الكرمة عندما تسمح طبيعة الاقليم بزرعها، ومروج،واراض بور،ومراع للماشية،وغابات واحراج للصيد والقنص. أما القسم الثاني من العقار، فيتألف من قطع للزراعة هي الدوّار *Manse* الذي يقسم بدوره الى عدد من قُطع قابلة للزراعة، توضع تحت تصرف المرابعين يستثمرونها ويستغلونها، وفقاً لشروط معينة ، ولهم حقوق الإرتفاق على بعض القطع البور في القسم المحفوظ لسيد الارض . ولبعض هذه القطع الزراعية مميزات خاصة تنعم بها وتميزهـــا ، ولذا سميت *Ingénuiles* ، تمتاز عن سواها بالاتساع . وكثيراً ما يستغل الدوّار الواحد لاتساعه ، اكثر من مرابع واحد فيقسم حصصاً بينهم .

وتقسم الاملاك الكبرى والعقارات الواسعة على النحو الذي اقتضته الطريقـــة المستعملة اذ ذاك للاستثمار . فالفيلا هي اضخم واوسع من ان يستطيع صاحب الارض تشغيلها واستثمارهـــا لوحده . فهي تحتاج ، بالنظر لما كانت عليه وسائل الزراعة ، اذ ذاك ، الى عـــدد كبير من المزارعين والشغيلة . غير ، ان ندرة النقد بين ايدي الناس ، كثيراً ما حالت دون اكتراء مـــا يلزم لها من اليد العاملة. كذلك كان من المرهق والمرزح معاً لصاحب الاملاك الواسعة، استخدام أو تشغيل عدد كبير من الارقاء والعبيد ليس من السهل ايجادهم أو توفيرهم ، ولا سيا ونتيجـــة العمل لم تكن قط مشجعة . ولهذه الاسباب ، فضّل أصحاب العقارات الواسعة استثمار قسم من املاكهم هذه على يد عبيدهم او احرار المزارعين ، فيستثمرون وفقاً لشروط معينة ، الارض المقطوعة لهم ، كما يرغبون ، على ان يؤمّنوا أودهم وأوَد ذويهم ، لقاء تعهدهم بشيئين : الاول تقديم مبلغ من المال ، كل سنة ، لصاحب الارض، وفي هذا دلالة واضحة على ان هؤلاء الفلاحين كان باستطاعتهم ان يقوموا ببعض الاعمال التجارية التي تعود عليهم ببعض الدخل ، مهما كان

ضئيلاً ، كما كان عليهم ان يقدّموا ، موسمياً ، بعض محاصيل الارض وشيئاً معيناً من غلالها ، وشيئاً مما تنتجه العائلة من الاشغال اليدوية ، كقطع من الخشب المشغول أو المنقوش ، وبعض الاقمشة مما ينسج على اليد أو يحاك في المنزل . كذلك يترتب عليهم ان يساعدوا بالجان ، صاحب الارض على استثمار القسم المحتفظ باستثماره لنفسه ، كما يترتب عليهم ان يقدموا له ، عـــدداً من أيام السخرة ، في السنة يتبرعون بها لفلاحة أرضه ، أو مساعدته في الحصـــاد ، وقطع العشب والقصيل ونقل الغلال ، والسهر على سلامة وصيانة المباني القائمة على املاكه . وهذه الخدمات يتبرع بها الفلاحون ، هي في نظر صاحب الارض ، اهم بكثير من الرسوم النقدية أوالعينية التي يترتب عليهم تقديمها له . وبالفعل ، فقد كان كبار الملاكين ، في القرن التاسع ، يؤجرون قسماً من اراضيهم ، ليس طمعاً منهم بما تدره عليهم من دخل وغلال ، بل ليؤمنوا لانفسهم الخدمات الثانوية التي كان يتوجب على المرابعين تقديمها لهم ، بعد ان يوفروا لهم الشيء الصعب أو العسير في الامر ، الا وهو دفع اجورهم . من الطبيعي جداً الا تؤمن هذه الطريقة لسيد الأرض في السنة الواحدة ، سوى دخل بسيط . غير ان كبار الملاكين كان يهمهم جداً ان تؤمن نفقات معيشتهم ومعيشة ذويهم ، وان ترسل الى اهرائهم وحواصلهم بانتظام ، المواد الغذائية عن طريق نقلها بالسخرة ، وان تساعدهم هذه الحفنة من الدراهم التي يقبضونها من المرابعين أو من بيع المواد الغذائية الفائضة عن حاجتهم ، على شراء ما يرغبون في شرائه من الكماليات ، التي يبتاعها من وقت لآخر ، من التجار المتجولين .

المجتمع الريفي

فالمجتمع في عهد الدولة الكارولنجية هو مجتمع يرتكز في الاساس ، على الثروة العقارية ، ويحمل تنظيمه الطبقي سمات الملكية العقارية . فهو مجتمع يقوم أصلاً ، على الرق والاسترقاق او الموالي ، شأن المجتمع الروماني في عهد الامبراطورية الرومانية المتأخر ، والدولة الميروفنجية . فالتمييز التقليدي المتوارث بين الملاكين وبين الموالي ، أساسه نظرة اهل العصر في ذلك الزمان . فالملاكون هم وحدهم اعضاء في المجتمع ويشاركون وحدهم بنشاطاته العسكرية والقضائية ، كما يستدل على ذلك من بعض المصطلحات والمترادفات اللغوية كما نرى في كلمتي *Libre* و *Franc* ، مع ان الرق كان ، والحق يقال ، سائراً القهقرى ، كما هو ثابت .

فالآداب والاخـــلاق المسيحية التي كانت تحظّر استعباد المعمّد او المتنصّر ، كانت تعتبر تحرير الرقيق عملاً يستحق الاجر والمثوبة . فلا عجب ان تكون ساعدت بعض الشيء عـلى الانتقاص من قيمة الطبقة العاملة . فالأسباب التي تكمن وراء هـذا الوضع ، هي ، في صميمها ، اسباب اقتصادية صرفة . فالارقاء الذين كان يؤتى بهم من البلدان الوثنيـة ، اصبح الاتجار بهم عملية رابحة منذ ان اصبحوا سلعة تشرى وتباع ، يشد التجـار المسلمون اليها الرحال . ومـن جهة اخرى ، فالاخذ بنظام التملك الواسع والعمل به ، أدّى الى اهمال استعمال فرقاء الارقاء في الاعمال الزراعية الباهظة التكاليف . ففي مطلع القرن التاسع كان الارقاء يؤلفون عشرة في المائة من مجموع سكان الريف ، سوادهم الاكبر يعمل في المزارع والحقول . وقد ساعد وضعهم هذا

على التخفيف ، بصورة محسوسة ، من الروابط التي كانت تشدهم بسيد الارض ، مع العلم ان هذا الوضع كان عندهم وراثياً ، يجعلهم دوماً مرتبطين ، دونمـــا محيص ، بسيدهم ، فيسومهم القصاص ألواناً والعذاب أصنافاً ، وله الحق المطلق والاخير ، على كل ما يملكون حتى على ولدهم وذراريهم . فهم لا يستطيعون الافلات او التنقل ، ولا ان يتزوجوا الا بناءً على رغبة سيدهم وباذن صريح منه ، كما عليهم ان يستجيبوا ، سريعاً ، لكل مطالبه . فاذا ما استقر احدهم مع اسرته في الدوار الزراعي الذي تحت تصرفه ، فواجباتـه تخف نوعاً ، اذ ينحصر معظمها في استثمار الارض المقطوعة له ، وهو استثمار باستطاعته ان يورثه اولاده من بعده . ففي الايام التي لا سخرة عليهم فيها ، يستطيع الواحد ان يعمل في ارضه دونما اعتراض من احد ، وان يتصرف بغلاله كيفما يشاء ، فيبيع قسماً منها . كذلك باستطاعتهم ان يوفّروا ، وان يدخّروا لهم مالاً ، وان يؤمنوا لهم ربحاً حلالاً ، كما باستطاعة من كان بينهم على شيء من النشاط والاقدام ، ان يشتروا ارضاً حرة ويتصرفوا بكل حرية باستغلالها . وكلما ازداد انتشار النصرانية في الريف اندمجوا ، أكثر فأكثر ، في المجتمعات المسيحية واكتسبوا ، بالتالي ، شيئاً من الشخصية الادبية ، فزواجهم لا يصبح مجرد مساكنة وتسرّ ، بل يتم وفقاً لمراسم الاسرار المسيحية ، له ذات القيمة ويجري على النمط الذي يجري مع الاحرار .

فاذا كان وضع العدد الاكبر من الأرقاء اخـذ يتحسن في نطاق الملكية العقارية الواسعـة ، فوضع المرابعين الذين تسميهم الوثائق التاريخية التي ترجع لهذا العهد بـ *'oloni* ، لا ينعم بسوى شيء ضئيل جداً من الحرية . فهم بالاسم ، جزء لا يتجزأ من الشعب الحر ، ويخضع بالاسم للنظم التي يخضع لها العامة . غير انهم يخضعون ، بالفعل ، لمشيئة رب الارض الذي ينظر اليهم نظرته الى متاع ، يستغلهم كيفما يشاء . ويصدّر اليهم اوامره دونمـــا رقيب او حسيب . فهم ، في الاساس معفون من الواجبات العسكرية ، الا انهم ملزمون الدخول في تنظيمات سيد الارض التي يعملون عليها ، كما انهم مجبرون على دفع رسوم خاصة اذا ما رغبوا في تكليف من يحل محلهم ، كما أن من كان منهم يعمل في اراضٍ خاصة بعمل العبيد ، يلزمون القيام بالاعمـــال الشاقة التي يطلب الى العبيد ، القيام بها . فالمدلول بين الحرية والعبودية لا يزال بعيداً ، والفارق بينهما قوياً ، ليصبح انزال المولى او الفلاح المعمر ، قانوناً ، منزلة العامل الشغيل . ومـــع ذلك فهم يؤلفون معهم ، عملياً ، طبقة واحدة مرهقة ، رازحة . وهـــذا الفارق الاجتماعي الاقتصادي الطابـع الذي يفصل بين العمال الذين يعملون في الاملاك الواسعة ، وبين الرجال الاحرار الذين يعملون في اراضيهم الخاصة ، يزداد اهمية يوماً بعد يوم .

والفلاحون الاحرار يشاركون بجميع النشاطات العسكرية والقضائيـة في مجتمع الفرنج . الا انه عندما تكون ثروة الواحد منهم متواضعة ، فليس في وسعهم ان يعهدوا باستثمارهـا الى آخر ، يكبدهم حضورهم امام المحاكم واشتراكهم خلال الصيف بالحملات العسكرية ، مصارفات ونفقات لا قِبَل لهم بها ، يتفادى الكثيرون منهم تحملها ، وذلـك عن طريق وضـع انفسهم

تحت حماية احد كبار الملاكين ، ورعايته فيحوّلون قطعة الارض التي يملكونها الى اقطاع يستثمرونه كفلاحين في حماية متنفذ كبير . وهكذا لم تلبث الطبقة الوسطى ان ذابت فذابت تدريجياً . والانهيار الذي اصيبت به الطبقة الحرة ُيبرز بصورة اجلى ، تفوق كبار الملاكين العقاريين الذين يعمل في استثمار اراضيهم ، اثنتا عشرة عائلة على الاقل ، بحيث يلتحقون بخدمة الجيش فرساناً لابسي الدروع . وهذه الطبقة التي تتميز في الشرائع البربرية والقوانين الكارولنجية بالقاب فخرية وشرفية ، ونعوت طنانة ، منها *Proceres* ، و *Optimates* و *Nobiles* ، تزداد ثراءً وغنىً بما ينهال عليها من الانعامات والأعطيات العقارية الموقوفة على الوظائف العالية واصحاب المراتب السامية ، عسكرية كانت ام كنسية . فهم اسياد الفلاحين العاملين في املاكهم ، لهم وحدهم الحق بمراتب الجيش ومجالس القضاء والمحاكم ، والدنو من الملك والاتصال به مباشرة ، والتمتع بالحرية التامة . فهذا المجتمع الريفي الطابع حيث المراتب تعطى بنسبة ما يملك الفرد فيه من اطيان واملاك ، منقسم الى طبقات منعزلة بعضها عن بعض ، مغلق عليها ضمن الاراضي التي تستثمرها ، لا منفذ لها على الخارج ، جماع السلطة والشأن فيها بيد قلة من كبار الملاكين .

وسائل الحكم

لما كان سدَنة القصر في مقاطعة اوسترازيا هم اكبر اصحاب الاملاك ، فقد استطاعوا ان يقبضوا على زمام الحكم فيها ويستولوا على السلطة . فحاولوا ان يحكموا بالفعل ، وهي مهمة شاقة للغاية دونها خرط القتاد . صحيح ان الوضع الاقتصادي الذي كان عليه المجتمع ، اذ ذاك ، كان يساعدهم على ذلك ويجعل مهمة الحكم سهلة نسبياً ، اذ ان معظم سكان الريف والطبقة العاملة في الارض ، كانوا كلهم يخضعون ، بحكم ظروفهم الاجتماعية ، لملاّك كبير ، يقوم في منطقتهم . وتحقيق هذا الهدف لم يكن يطلب اكثر من المحافظة على التاج وعلى احترام ما للملك من سيطرة اقتصادية ، واكتساب ولاء بضع مئين من كبار النبلاء في البلاد . ومن جهة اخرى ، فقد كان المفهوم العام للدولة وللواجب الوطني لا يزال بعد غامضاً ، غائماً مستغلقاً . فاكتساب ولاء كبار النبلاء انما كان يتم عن طريق اغراقهم بالهدايا والهبات ، أو باخضاعهم بالقوة والبطش . وهذا الاستسلام والخضوع هو بالطبع موقوت ، ووضع متأرجح ، وذلك لعدم وجود اجهزة تمتّن من العلاقات بين البلاط والرئاسات الاقليمية . ففي وقت كان فيه تجول الافراد ونقل الارزاق والمقتنيات ضيّقاً للغاية ، والقراءة والكتابة في سبيلها الى العفاء والزوال ، فالعلاقات السياسية كان لا بد من ان ترتكز على العهد المباشر المقطوع ، وعلى الاتصالات الشخصية وعلى الذكريات ، اذ ان الملك الذي لم يكن في وسعه ان يكون في كل مكان ، لم يكن له من ممثل في المقاطعات سوى الكونتية ، هؤلاء الموظفين الكبار الذين كانوا ، على الاجمال ، دون المهمة الموكولة اليهم ، يعاونهم قلة من العملاء يعملون في الوظائف القضائية الدنيا ، يفتقرون كلياً ، الى عدد كاف من صغار المساعدين ، ليتمكنوا من القيام بمهام الادارة في دوائرهم ، كما يجب . وهؤلاء الحكام الاداريون هم انفسهم من كبار الملاكين ، غير

obeikandi.com

قابلين للرفت أو العزل ، مبدئياً ، بعيدون عن الملك، ويعتمدون محلياً على انصارهم في المنطقة. فكثيراً ما تمرّدوا هم انفسهم على النظام ، وضربوا بالانضباط عرض الحائط . ومن جهة اخرى فالرسوم المجباة من افراد الشعب ، والتقاديم التي كان عليهم ان يرفعوها للملك ، وهي عـــادة يُعمل بها منذ عهد الميروفنجيين ، لم تكن تمـــد الملك بموارد كافية ، منتظمة الدخل ، بحيث يستطيع معها ان يجتذب ولاء الامراء ، ويصطنع النبلاء حوله عن طريق توزيعه ، الفينة بعـد الفينة ، الاعطيات والهبات السخية .

ومـع ذلك ، فقد استطـاع الكارولنجيون ان يسيطروا ، في اواخر القرن الثامن ، على الارستقراطية معتمدين ، في ذلك ، على وسائل وذرائع شتى . منهـا انهم كانوا ينظمون كل سنة ، حملات عسكرية يرسلونها وراء الحدود . فالملكية الفرنجية ، هي عسكرية في الاساس ، لانها جرمانية ، بربرية في صميم طبيعتها . فالشعب هو قبل كل شيء ، الجيش ، والملك هو ، قبل كل شيء ، قائد حرب وقائد سلاح . فبمجرد ما كان يقوم بوظيفته هذه ، ويؤدي هـــذه الخدمة ، كان ذلك امتداداً لسلطته وسلطانه ، فيتقوّى ويتوطد ، وعندما يحند شعبه ويدعوه لحمل السلاح ، يصبح هذا الشعب في قبضة يده وتحت تصرفه . فكل من كان حراً ، ولا سيما الاغنياء ، عليه ان يلبي نداء الملك بدقة وان يتقيد بالموعد المعين ، وإلاّ تعرض لجزاء ثقيـل ولغرامة باهظة . فأقل تلكؤ او تأخر يبدر منهم خلال العمليات الحربية ، يجر على المذنب او المخالف اشد العقوبات . ففي كل صيف يتوجب على الارستوقراطيـــة الفرنجية ان تحتشد على ادق ما يكون من الانضباط والنظام ، في فترة تطول من حزيران الى تشرين الاول ، فتشعر ، فيما بينها ، بتضامن اكبر عن طريق مـــا بينها من زمالة السلاح ورفاقة الحرب ، تحت ادارة الملك وقيادته . ثم فالحرب كانت دوماً حرفة مربّحة ، مغذّية . فالغزو والاسلاب والمغانم ، والاراضي المفتوحة ، كل ذلك يمد الملك ويوفر للملك ، ويعـــد له ظروفاً جديدة ومناسبات ناهزة ، ليوزع عوارفه ومكافآته على الذين يتفانون في خدمته ، وبهـذا السخاء يكسب ولاء الآخرين . والشيء الجدير بالملاحظة هنا هو ان محاولات التمرد او شق عصا الطاعة ، حوادث لا تقع الا في اعقاب معركة خاسرة او موقعة فاشلة . فالحرب وما تتيحه للجيش من اسلاب وغنائم ، هي اولى ادوات الحكم وأمثلها على الاطلاق .

واذا كانت الحرب تتجدد في كل سنة ، فهي ليست بذلـــك مستمرة دائماً ، والا أصبحت سلطة الملك نفسه فصلية موسمية او حينية ، عليها ان تتوارى وتختفي في الاشهر القعود ، أي عندما يكون المحاربون ملازمين بيوتهم ومنازلهم . من العسير ان لم نقل من المستحيل، الاتصال بهم لوعورة المسلك ، وصعوبة المرتفعات معزولين بعضهم عن البعض لاتساع رقعة المملكة ، أثر حرب ناجحة وسّعت من اطراف البلاد . ولذا كان من المهم جـــداً ان يبقى استنفار الملك لوحدات جيشه معمولاً به والبلاد في حالة حرب معلنة ، من حين الى آخر ، بحيث يتم للجميع مشاهدة ما للملك من قوة وبأس ، وما له من بطش حتى في أيام السلم ، عندما يكون الجيش

مرابطاً في قواعده خلال فصل الشتاء. ولذا كان من المحتم على الملك ان يكون له عيون وارصاد، له بهم كل الثقة ، يبثّهم في جميع الولايات ، تشدهم الى الملك او الى الأسرة المالكة ، وشائج القربى الوثقى ، وأخلص روابط الود عن طريق علاقات شخصية لها من المتانة ما لآصرة الدم. ولذا بين ١١٠ كونتاً الذين كانوا يمارسون الحكم ويضطلعون بمهام الادارة في مختلف الإيالات والولايات ، في عهد شارلمان والامبراطور لويس الوَرِع وتحديد مراكز اقامتهم ، كان ٧٠ من بينهم اصلهم من مقاطعة اوسترازيا ، و ٥٢ بينهم من اقارب الملك وأنسبائه . ولهذه الاسباب عينها ، يهم الملك ان يترعرع تحت انظاره ، في البلاط الملكي ، أبناء النبلاء ، وهكذا يصبح لدى هؤلاء اليافعين الذين عاشوا في رفاقة الملك مباشرة ، واتصلوا به ، وسكنوا في غرف القصر وحجراته العديدة الفسيحة، شعور الابن نحو الاب، كما يجعلهم تذكرهم لهذه الالفة ، أكثر ولاء له ، وأكثر ثقة به عندما يعودون ، بعد انفراطهم من الخدمة ، الى ايالاتهم الخاصة. ولهذه الاسباب لجأ الكارولنجيون الى طريقة عملية طالما عُمل بها منذ عهد بعيد ، في الاوساط الارستوقراطية في شمالي غاليا ، وهي ان يجعل الملك ، عظماء الدولة ووجوه البلاد وأعيانها ، أتباعاً له .

ملكية وتبعية

في مطلع القرن الثامن كان عدد الرجال الاحرار الذين يضعون انفسهم تحت كنف عميد يحميهم ، او رئيس يسيج عليهم بجناحيه ، كبيراً جداً دون ان يفقدوا شيئاً من حريتهم وحقوقهم . وهذا الخضوع او التكريس الذاتي كان يتم وفقاً لمراسم وطقوس ، نقرأ وصفاً لها ، وبياناً عنها ، لاول مرة ، في وثيقة حررت عام ٧٥٧ ، فيجثو طالب الحماية ويضع يديه بين يدي السيد السند الذي يلتمس رعايته ، فيصبح بذلك من « ازلامه » ، مديناً له بالولاء والخضوع والامتثال . ثم يؤيد او يختم تكريسه هذا بتأدية قسم احتفالي ، ويُشهد الله والناس ، على صدق ولائه وامانته . وكان يتلقى بالمقابل ، الحماية وغير ذلك من المنافع المادية ، منها مثلاً اقطاعه ، بالمجان ، ارضاً يستثمرها طالما بقي موالياً ومحافظاً على العهد المقطوع ، تعرف عندهم « باقطاع » او أخاذة . وينشأ بين الرجلين شيء من القرابة الروحية والادبية . فالضعف الذي كانت الدولة تتردى فيه، واضطراب حبل الأمن في البلاد، وتطبع الاقتصاد بطابع ريفي محض ، كل ذلك ساعد على ترسيخ هذه التقاليد ، والتمكين لها في النفوس ، وهي اعراف وتقاليد لها جذور عميقة في المجتمع الغالي ، الروماني ، وجرمانيا البدائية. ان اسلاف بابين وشارلمان استخدموا الطريقة ذاتها، وبهذه الطريقة بسطوا نفوذهم على اوسترازيا باكملها ، وهي تقاليد تغلغلت في صلب الحكومة بعد التغيير الذي طرأ على دولة الفرنج ، بحلول الاسرة الكارولنجية محل الاسرة الميروفنجية .

فالملوك تشبثوا ، قبل كل شيء ، بان ينالوا ممن يعهدون اليهم بمهات رسمية ، كونتية كانوا أم من ارباب المناصب الكنسية العليا ، الاعتراف بالولاء والطاعة ، وان يُتمّوا الواجبات الملقاة عليهم من جراء الوظائف التي يعهدون بها اليهم ، منها خدمتهم للملك ، سيدهم وزعيمهم، خدمة

نصوحة. وعن طريق انابتهم لبعض دوائر الجباية ، او بتوزيعهم عليهم قطعاً من هذه العقارات الواسعة الارجاء التي يملكونها ، استطاع اوائل الكارولنجيين ان يحملوا ، في عداد زبائنهم أو تابعيهم ، اغنى الملاكين ، وكبارهم الذين لم يلبثوا ان امسوا « توابع للملك » ، ولذا ترتب عليهم اكثر مما يترتب على غيرهم من الناس ، ان يقوموا بواجباتهم كرعايا مخلصين ، فينخرطوا في الجيش وهم باحسن عدة وعتاد ، والاختلاف الى محكمة الملك ، ومساعدته بكل قوام ، على تأمين اسباب الراحة واستتباب الامن في البلاد . اما الصغار من بين اصحاب الاملاك ، فكان عليهم ان يضموا انفسهم تحت كنف اتباع الملك انفسهم . وهكذا ، فالطبقة العليا في هذا المجتمع الحر رأت نفسها مندمجة كل الاندماج ، في نظام مترابط من الولاء المسلسل ، والمواثيق المقطوعة للتابع ولتابع التابع ، حتى تصل الى شخص الملك .

وقد جاء هذا النظام مجدياً فعالا ، ثابتاً ارتكز عليه كل بنيان الدولة وكيانها ، بعد ان مكنت تقاليد التبعية والولاء في نفوس القوم ، وانتظم الأخذ بها عرفاً ونصاً . ومدة الاستمهاد تحددت بكل دقة ووضوح ، فالفريقان مرتبطان الواحد بالآخر مدى الحياة ، الا ان يتجاوز السيد واجباته تجاوزاً يخرج بعيداً عن الصدد ، واقطاع التابع أخاذة يستغلها ويستثمرها ما دامت قائمة رابطة الملاء ، هو ما يميز ، اكثر فاكثر ، العمل بنظام التَّبَعِيَّة . وهذه المنافع تعود على التابع ، تأتي ثمناً لولائه وخضوعه ، ولذا استثمرها مدى الحياة . اما اذا أخلّ بواجباته وحنث بقسمه ، كان من حق سيد الارض ان يستخلصها منه وان يقطعها عنه . وهكذا فالكَرَم الملكي يبقى مشروطاً ، واحتمال المصادرة يبقى اكبر وسائل الضغط والتأثير . اما طبيعة التبعية نفسها ، وطبيعة واجباتها ، فتبقى غامضة ، مبهمة . غير ان الملك يتوقع ان يقوم رجاله بواجباتهم بكل اخلاص ، وان يأتوا بالدليل على تعاونهم تعاوناً نيراً ، في حالتي الحرب والسلم على السواء .

وبعد ان أخضع الكارولنجيون ، بواسطة نظام عسكري شدّت من متانته ومداه روابط الدم ، ومتّنته روابط التبعية والمواكلة ، بعض عشرات من الأسر والبيوتات الشريفة المسيطرة على الثروة العقارية في البلاد ، اخذوا يحاولون ادخال بعض التحسينات على النظم الادارية التي توارثوها من الميروفنجيين . فعبثاً طلبوا من الكونتية ان ينظموا اعمالهم الادارية ويضبطوها ويحكموا قيدها ، وان ينشئوا لهم دوائر خاصة لحفظ الوثائق والمحفوظات . وقد راحوا هم أنفسهم يضعون مذكرات وملكرات تبلورت ، في آخر الامر عن هذه القوانين التي جاءت تضبط الأوامر الشفوية الصادرة التي كانوا يسُنّونها في ربيع كل سنة ، امام الجيش المحتشد والمتأهب للانتفاض . وحاولوا ان يتشددوا في مراقبة عملائهم الاقليميين . وفي سنة ٧٨٩ ، تُلمِّح الوثائق التاريخية ، لأول مرة ، الى نشاط مفتشين متجولين يسمونهم : *Missi Dominici* ، لم تلبث صلاحياتهم ان اتضحت ، شيئاً فشيئاً وارتسمت . فقد كان موفدو الملك ، في مطلع القرن التاسع ، يجوبون ، في فرق مختلفة ، تضم الواحدة منها دوماً : اسقفاً وكونتاً ، وعدداً من

الإيالات يتراوح عددها بين ٦ – ١٠ ليس للبلاط فيها أي ممثل . وقد انتظمت هذه الدورات ، وأصبح القيام بها فرضاً لازماً اربع مرات في السنة . فبعد ان يتزود موفدو الملك بالتعليمات اللازمة وينصرفوا للنظر في امر تنفيذ أوامر الامبراطور وكيفية تطبيقها ، يشرفون على اوضاع الامن في ربوع البلاد . كذلك كان عليهم ان يجمعوا شكاوى الرجال الاحرار ، اذا كان لهم الجرأة على الاعراب عنها ، وان يُصلحوا ما ساء او اختلط امره من شؤون ادارة الكونت في الإيالة التي عُهد اليه بادارتها .

واذ تبين للكارولنجيين بأن هذا التفتيش لم يفِ دوماً بالغرض وليس بالتالي كافياً ، فقد راحوا يحدّون كثيراً من حرية تصرف الكونتية ، لا سيما في ما لهم من صلاحيات تخولهم النظر في امور العدل وشؤون القضاء ، في أثر توسيع صلاحيات محاكم البلاد ، عندما انشىء في قلب كل ايالة ، هيئة من القضاة المسلكيين المعروفين بـ *Echevins* ، غير قابلين العزل والرفت ، يجري اصطفاؤهم وانتخابهم من قبل المفتشين . وقد كلفوا حضور الجلسات الاحتفالية العامة لمحكمة البلاط وكان على الكونت ان يأخذ رأيهم بعين الاعتبار والاحترام .

ثم ان امتداد سلطة الملك وسلطانه الى مناطق شاسعة ، جعل من المحتم انشاء حلقات اضافية متوسطة ، بين البلاط والكونتية ، اتسمت بالاحكام . والى جانب الولايات والايالات الفرنجية امثال نوستريا واوسترازيا وبورغونيا ، هنالك مناطق اخرى في الامبراطورية كايطاليا والاكويتين والبافيار ، اصبحت ممالك لها استقلالها الاداري ، بينها الولايات الواقعة تماماً على الحدود : في الشرق ، باتجاه شعوب الدانمارك والصقالبة والآفار ، وفي الغرب ، على حدود بريطانيا ، وفي الجنوب في هذه المناطق التي استخلصوها من سيطرة العرب المسلمين ، فقد انشئت فيها ادارة عسكرية خاصة هي دائماً في حالة تأهب للحرب ، تحت ادارة قائد عسكري مباشر ، يراقب ، عن كثب ، أعمال الكونتية ويخضعهم لاوامره . وهذه الاعفاءات التي اعطيت لعدد كبير من المؤسسات الدينية ، في عهد الدولة الميروفنجية ، جرى توسيعها . فمنذ القرن التاسع ، اخذنا نرى أملاك الاساقفة ، ورؤساء الاديار خارجة عن سلطة الكونتية ، ومُداخلات معاونيهم ، وبذلك أصبح صاحب المركز الديني ، في نظر الرجال الاحرار ، القاطنين على املاك هذه العقارات ، الممثل الوحيد للسلطة الملكية . فهو الذي يقودهم للجيش ، والذي يقتص من مخالفاتهم ، ويقدم للمحاكم الملكية ، المجرمين الذين اقترفوا جرائم كبرى . وهكذا اخذ الاحبار ورؤساء الاديار يمارسون ، بالنظر لما يتمتعون به من نزاهة ، ومن ولاء للبلاط ، جانباً من الادارة الحكومية في قسم كبير من المملكة . وهكذا نرى ان الميزة الاخيرة التي اتصفت بها النظم والمؤسسات السياسية ، في عهد الدولة الكارولنجية انما كانت الاتحاد الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

وبالفعل ، فقد ارتدت السلطة الملكية ، خلال القرن الثامن ، في كل من مملكة الفرنج وبيزنطية والعالم الاسلامي ، صبغة دينية ظاهرة ، أدخلت تغييراً عميقاً على طبيعة السلطة

ومفهومها . فقد جاء ذلك نتيجة منطقية لحفلة التكريس . فبعد ان يكون الملك مختاراً من الله ، ليمثله على الارض ، اصبح من حقه ان يمارس شيئاً من الكهنوت وواجباته . فلم يعد حاكماً مطلقاً . فقد ترتبت عليه مسؤوليات ، وتحمل واجبات جديدة نحو شعبه ورعيته ، عليه ان يسهر على الكنيسة وان يدافع عن الضعفاء والمساكين وان ينشر على الارض العدل والسلام، وهما اهم ما يراود خواطر مستشاري الملك من رجال الدين والكنيسة . فاذا ما تحددت سلطته على مثل هذا النحو ، كان لزاماً على رعاياه ، ان يتعاونوا معه وان يبذلوا اقصى ما بيدهم، لتأمين السلام وتوطيد اركانه . وهكذا تبدو الفكرة الذهنية، المجردة، للدولة، هذه الفكرة التي غامت كثيراً في عهد الدولة الميروفنجية ، وتتبلور على هذا الشكل الشؤون المسيحية العامة لتختلط بشؤون الشعب الذي اصطبغ بالعماد والذي تؤلف الكنيسة فيه ، قوامه الادبي والديني والعنصر الضابط له . قد يشك المرء في ان تكون هذه الفكرة الذهنية لهيكل الدولة السياسي قد وجدت لها صدى قوياً في خواطر الارستقراطيه العلمانية ، في عهد شارلمان . فليس بالقليل النافل ان تمسي هذه الفكرة ، التي ظهرت واطلّت علينا في هذا العهد ، الاطار الاساسي لكل النظم الملكية التي عرفتها الاجيال الوسطى . هنالك مراسم او تدابير خاصة ، ليتورجية الطابع ، رآها شارلمان خليقة بان توطد حكمه وتشيد سيادته ، تتمثل في هذا القسم او اليمين المغلظة يؤديها صاحبها ويده على بعض المقدسات . فقد بعث الى الوجود تقليد قديم تنوسي امره ، وذلك عندما اوجب ، عام ٧٨٩ ، على كل رعاياه ، ان يقسموا بإلاّ يأتوا شيئاً إدّا، يسيء الى الملك او يضر به، ثم فرض ، عام ٨٠٢ ، الالتزام والتقيد فعلاً ، بواجباتهم الدينية من حيث تناول الاسرار ، والتعهد بالامتناع عن كل مخالفة للشرائع الكنسية والمدنية، والعمل على ما فيه مرضاة الله وخدمته . وتحت طائلة قسم يؤدونه وايديهم على الانجيل او على ذخائر القديسين ، يضعون بموجبه نفوسهم وقواهم تحت تصرف الامبراطور ، اصبح المجتمع في مملكة الفرنج مرتبطاً بالملك ، الملزم ، بحسب التكريس الذي تم له ، بتوجيه شعبه وقيادته الى الخلاص . وهكذا فالمشاعر الدينية ، كوّنت عضداً ادبياً قوياً شد من أزر القوى المادية العظيمة التي تمت للدولة الكارولنجية .

ومع ذلك ، فهذا التنظيم السياسي للدولة يبقى ، لعمري ، واهناً لما هو عليه من طابع بدائي . وبين ٧٨٠ و ٨٣٠ أخضع اصحاب الملكيات الواسعة لشيء من الانضباط والانتظام ، وهو تدبير ضروري لم يكن بدّ منه ، فلاقى نجاحاً مدهشاً ، اذا ما نظرنا اليه من خلال الاوضاع الاقتصادية والمجتمعية غير الملائمة جداً ، فاصبحت مملكة الفرنج ، اذ ذاك ، اشبه شيء بمملكة يرفرف فوقها النظام وتنعم بالسلام الداخلي ، مدة نصف قرن ، وهي نعمة بقي ذكرها طويلاً في اذهان الناس وخواطرهم ، وهكذا ، اتاح بعث السلطة واعادة النظام في البلاد للحياة الدينية وللثقافة ان تحققا الكثير من التطور والازدهار .

الكنيسة الكارولنجية

الرواد الأوّل لهذه النهضة ، هم المرسلون الانكلوسكسون الذين نشروا لواء المسيحية فوق ربوع جرمانيا، بعد ان شدّ من ازرهم، سدّة القصر في اوسترازيا وجعلوهم يفكرون بان التعاون بين الكنيسة المتجددة بالاصلاح من شأنه ان يوطد سلطتها . وبطلب صادر عن بابين القصير القامة واخيه كارولمان ، قام القديس بونيفاسيو باصلاح شامـــل عم الكنيسة الفرنجية وتناولها من جميع نواحيها ، وذلك وفقاً للمبادىء والمناهج التي وضعت خلال المجامع الاقليمية الثلاثة المعقودة تباعاً ، عام ٧٤٢ و ٧٤٤ ، في اوسترازيا ونوستريا وقد تابع عملية الاصلاح هذه ونهض باسبابهـــا ، ملك الفرنج الذي اصبح ، عقب تكريسه ، شخصية كهنوتية الى جانب كونه حليفاً للبابا ، ليصبح ، عام ٨٠٠ ، الامبراطور ، اي رائد المسيحية ومرشدها . وقـد تمّ في مطلع القرن التاسع ، اصلاح كل النظم والمؤسسات الكنسية وتنقيتها من الشوائب اللاصقة بها . وهكذا برزت كنيسة الاجيال الوسطى .

لهذه الكنيسة قانونيتها المميزة . ففي أواخر عهد الدولة الميروفنجية ، كانت قام في شمالي غاليا ، العديد من الأديار التي ، عانت الامرين من الفوضى الضاربة أطنابهـــا ، اذ ذاك ، ومن مداخلات العلمانيين ، واختلاف نهج الحياة الرهبانية لدى الكثير من هذه الرهبانيات التي لم يحافظ عليها اصحابها ، وتوزيع شارل مارتيل جانباً كبيراً من املاك هذه الاديار ، على اتباعه ورعاياه . ومع ذلك فقد كانت هذه الاديار أسلم وأتقى هذه المؤسسات على الاطلاق ، فقد كاد اهتمام القديس بونيفاسيو بها لا يذكر . ولم يتمكن قط من حمل جميع الرهبان على اتباع قانون بندكتوس وفرائضه ، هـذا القانون الذي كان على احسن ما يكون تطبيقاً وعملاً به ، في الاديار الجرمانية، الحديثة النشأة، ومنها انتقل، على النمط ذاته، الى أديار اوسترازيا . وفي هذه الاديار ازدهرت الحياة الرهبانية وفقاً للنزعات والمناهج الانكلو سكسونية ، اذ لم يكن رؤساء هـذه الاديار مجرد مديرين قابعين بين رهبانياتهم ، كما ارادهم ان يكونوا القديس بندكتوس ، بل رسلاً ومبشرين ، النشاط ملء وفاضهم ، يقومون بأعمال الكرازة بالانجيـــل ، تحت اشراف روما مباشرة . ولم يلبث البحث والدرس ان رجحت كفته في هذه الاديار على كفة الاشغال اليدوية .

وقد حرص كل من بابين وشارلمان على ابقاء هذه الاديار ، في حالة جيدة وعلى مستوى عالٍ ، محاولين مع ذلك استخدامها لسياستهم الخاصة . فقد استمروا ينعمون ببعض الاملاك المأخوذة من عقارات الاديار ، ويقطعون بعض انصارهم وخدّامهم من العلمانيين الذين ينعمون بألقـــاب رهبانية ، اطيب املاك الاديار وأجودها . الا انهم حرصوا على ان تنال الاملاك الباقيـــة بين ايدي الرهبان ، احسن عناية وأتمها . وبالفعل فقد تمتعت الجماعات الرهبانية ، في عهـــدهم ، بجميع اسباب اليسر والراحة . وفي هذا الوقت بالذات برزت الدعوات التي انصرف اصحابها للعلم والدرس ، اذ ان الاخذ بالنظام العقاري على النهج المعمول به اذ ذاك ، والسير بأمـــلاك الاديار على الطريقة العقارية التي وزعت بموجبها الامـــلاك ، حرر الكثيرين من الرهبـــان من

الانصراف للاعمال اليدوية التي يتطلبها تأمين أوَد الحياة . وقد نظر الملوك الى رؤساء هـذه الاديار نظرتهم الى موظفي الادارة ومأموري الحكومة ، فراحوا يصطفونهم ويتخيرونهم من نفس الوسط او مستوى الطبقة الاجتماعية التي يختارون منها الكونتية ، او من بين اولاد النبلاء الذين نشئوا في البلاط الملكي ، وعهدوا الى هـذه النخبة وهم عادةً من الشباب الذي يزخر بالنشاط ، بمهمات ادارية وسياسية دقيقة . فقد كانت الكنيسة ، بين ٧٥٠ - ٨١٤ ملاذاً لثقافة ، وموئل العلم والفكر ، والبوتقة الاولى التي صاغت وافرغت النهضة الفكرية والفنية التي اخذت تظهر اذ ذاك ، كما كانت بلا منازع ، الاداة المثلى والعنصر الفعّال ، والعامـل الاقوى في نحت الحضارة الفرنجية وافراغها وفقاً للقالب الاقتصادي الذي تحكم بالوضع الاجتماعي ، في هـذه الحقبة ، وبذلك كانت الكنيسة السند الاقوى والدعامة الكبرى في هذا الانبعاث الذي انطلق في العهد الكارولنجي .

في عهد لويس الورع ، وقع حادث هام يمكن رده لتأثير رئيس احد الاديار هو بندكتوس انيان الاكويتيني الذي ناقت نفسه للأخذ بتفسير جديـد اكثر صرامة ، للفرائض الرهبانية البندكتية . فقد اقلع الامبراطور من جهة ، عن الاغتراف من اموال الاديار واملاكهم ، ووهب علانية عدداً منها ، حق انتخاب رؤسائها بكل حرية ، كما ان القانون الذي صدر عـام ٨١٧ ، اوجب العمل بفرائض القديس بندكتوس بعد ان اجرى فيها تعديلات مهمة ، اذ ابطل الاخذ بالنظرية الانكلوسكسونية للحياة الرهبانية المفتوحة التي تتوزع بين الدرس والتبشير ، واحـل محلها نزعات ، تنسجم ، اكثر فاكثر ، مع الحياة الرهبانية المشتركة التي عُمِل بها في دنيا البحر المتوسط ، والتي تتميز بالتشدد في عزلة الرهبان ، والاقلال من الدروس ، والاكثار من التمارين الليتورجية . ومنذ ذلك الحين ، اخـذ عمل الاديار التبشيري بالتضاؤل شيئاً فشيئاً ، واخذت الاسقفية تلعب في الكنيسة الدور الاول في هذا المضمار .

كانت الرتبة الاسقفية قد بلغ منها الانحطاط كل مبلغ ، في مطلع القرن الثامن ، مع انها لها الحمل الاول والدور الابرز في التنظيم الكنسي . وقد كان اصلاح هذه الرتبة ، الشغل الشاغـل للقديس بونيفاسيو الذي اولى جـل اهتمامه اصلاح الناحية المادية للكنائس القائمة في كراسي الابراشيات ، واملاء الكراسي الشاغرة منها باساقفة اكفاء ، واقصاء من كان غير اهـل منهم وقطعهم عن شراكة الكنيسة ، وتنظيم المجامع الكنسية . وقد كان هذا الاصلاح عملية شاقة ، بطيئة ، ولم ينته منهـا الا في عهد الامبراطور شارلمان . فكان الاسقف ، اذ ذاك ، يجري اختياره من بين كهنة البلاط او من بين رؤساء الاديار المتقدمين في السن ، شريطة ان يكونوا من اصحاب الكفاءات ، مشهوداً لهم بالفضـل والتقى ، اذ كان الامر يتعلق بتنصيب اسقف راعياً روحياً لمنطقة يقوم مركزه في قاعدة هي على الاجمال ، مدينة رومانية الاصل ، يتولى هو نفسه تدبير الكهنة رعاة الكنائس ، ويتولى امر تربيتهم وتخريجهم في امور الدين ، ومراسم الطقوس الكنسية والعبـادة ، في مدارس خاصة تقوم على مقربة من المقر الاسقفي ، ويشرف

على مسلك المؤمنين وتصرفهم ، ويساعدهم على القيـــام بواجباتهم الدينية والمدنية على احسن وجه ، وبذلك يمهدون السبيل امام الكونت والملك ، لاستتباب الامن والسلام في البـــلاد ، واشاعة العدل بين الناس وخضع الاساقفة انفسهم لمراقبة شديدة من قبل موفدي الملـــك ومفتشيه ، وكانوا عرضة للقطع والفصل من مناصبهم ، من قبل مجمع كنسي يجتمع بتوجيه الملك او تحت رئاسته ، كما ان مجالس الاكليروس العـــامة كانت تزودهم بارشادات وتعليمات عليهم بالتقيد بهـا ، وتدرج اهم قراراتها في القوانين الرسمية . فالاساقفة ومصف المطارنة هم اجهزة ضرورية في دولة تتداخل فيهـا الامور الروحية والزمنية بصورة لا يمكن انفصامها .. وتمكيناً للاساقفة القيام بخدمة امثـــل ، واحياءً للتقاليد المعمول بها في الكنيسة ، راح الامبراطور شارلمان في مطلع القرن التاسع ، يعطي انعامـــات مميزة للمتقدمين من الاساقفة او المتروبوليت الموكول اليهم امر الاشراف على الاساقفة التـــابعين لهم ، والذين اصبحوا يُعرَفون ، كما في الكنيسة الانكلوسكسونية ، برؤساء اساقفة . وهكذا بعد ان تم على مثل هذا النحو ، اصلاح الاسقفية ، وتنقيتها من الادران والشوائب التي تسربت اليهـــا ، وبعد ان أمدّت بالأطر والملاكات اللازمة ، احتل المصف الاسقفي ، في الامبراطورية الكارولنجية ، بعد عام ٨١٤ ، محلاً بارزاً ، ورأى نفسه مدعواً ، كما جاء عـلى لسان يونان الاورليانى ، في كتابه : « حول النظام الملكي » ، ليس فقط لقيادة الرهبان وتوجيههم ، فحسب ، بل ايضاً العلمانيين والرهبان على السواء ، وعلى السير احسن مما تستطيعه السلطة الملكية الآخذة بالتقهقر ، بجماعة المسيحيين الى معارج الفضيلة والكمال المسيحي .

وهذا الاصلاح الذي تناول الرتبة الاسقفية والمصف الاسقفي ، ادّى ، من جهة ثانية ، الى تقوية الاجهزة والمؤسسات الكنسية والعلمانية السفلى . فقد اخـــذ الكهنة ، في المدن يعيشون عيشاً مشتركاً ، تحت اشراف ورئاسة المقدم بين الكهنة ، وفقاً للفرائض والقوانين التي سنهـا الاسقف كرودغانغ ، مطران مدينة متز ، في منتصف القرن الثامن ، للفيف الكهنة الذين يخدمون في الكاتدرائية الاسقفية . اما الريف ، فقد اخذ بتنظيم كنائسه على اساس راعويات ، وذلك منذ عهد الدولة الميروفنجية . فقد بقي امر خدّام هذه الكنائس الريفية مرتبطاً الى حد بعيد ، بكبير الملاكين ، ولي الكنيسة الاول ، لا سيما وهم على الغالب ، في جهل مدقع لمـا هم عليه من تربية سطحية للغاية ، تزداد انحداراً وسوءً لمعاشرتهم اناساً مخشوشنين ، اجلافاً . ومع ذلك فالتطور جاء عظيماً ، اذ اتاح لهـــذه المجتمعات الوثنية ، المنعزلة في هذه المقاطعات المسيحية ، ان تذوب تدريجياً وتندمج معها ، بحيث اصبح تحت تصرف اكثر الجماعات الريفية خشونة ، كاهن يعنى بخدمتهم الروحية .

وهكذا بفضل الجهود المشتركة التي بذلها كل من البابا وملك فرنسا ، أمكن توحيد الاعراف الكنسية ومناهج الانضباط بين رجال الكنيسة . فقد تلقى شارلمان من روما ، عام ٧٧٤ ، المجموعة القانونية المسماة *Hadriana* التي لم تلبث ان اصبحت القانون الذي تمشت عليه كنيسة

الفرنج ، كما تلقى على التوالي ، فيما بعد، نصوصاً ليتورجية طقسية منها: «الليتورجية الغريغورية» التي أحلت الليتورجية الرومانية محل العادات والطقوس الغالية المتباينة

وهذا الاصلاح الكنسي الذي مكّن من تحقيقه ، اعادة السلطة الملكية وتقويتها كان بحق ، النقطة الاساسية التي انطلقت منها نهضة ثقافية وحركة تجددية تناولت الآداب والاخـــلاق . وبفضل هذا الاصلاح للاخلاق والآداب الذي تم بفعل ما كان لرجال الاكليروس من تأثير فعّال، اصبح العلمانيون أسلس قيادة ، واقل خشونة في طباعهم . يجب ألا يذهب المرء للظن ان الناس ، في هذا العصر ، كانوا يسيرون بهدي التعاليم الانجيلية بكل دقة . فقد كانت الامور الدينية خارج الأديار ، على جانب كبير من البساطة والسذاجة ، لا يتحرج الناس فيها كثيراً ، ولا يتورعون في ركوب المركب الخشن . الا انه هنالك تطور ملحوظ يبدو بوضوح في الاسرة الملكية . فمنذ عهد بابين ، لم يعد القتل السياسي القاعدة المطردة للوصول الى الحكم ، كما ان عادة التسري اخذت في الانتساخ من الاذهان، كما ان الاولاد السفاح اصبحوا من الندورة بمكان، كما انصرف الامبراطور لويس الورع الى اصلاح البلاط منذ ان اعتلى العرش، وحرص على استئصال الموبقات والمنكرات. وهكذا اخذت الامة الفرنجية تتخلص تدريجياً مما علق بها من شوائب الهمجية .

ازدهار الآداب

هنالك ، كذلك ، بعث ثقافي وفكري، انما على نطاق أضيق واشعاع اخف، افاد منه قلّة من رجال الكنيسة ، وبضعة آلاف من الرهبان وبضع مئات من رجال الدين العلمانيين . ففي نظر روّاد هذه النهضة والناهضين بأمرها ، كالقديس بونيفاسيو ومساعديه الاقربين ، فالحياة الدينية يجب ان تسير جنباً الى جنب مع الدرس والبحث والتعلم ، الامر الذي حمل المبشرين على تأسيس مدرسة في كل دير أنشأوه ، في جميع اطراف اوسترازيا . وهكذا جاء الاصلاح الديني للكنيسة في الغرب مقروناً ، منذ البدء ، ببعث الحيـــاة الفكرية والثقافية . وهذه الثقافة هي دينية بحتة تهدف ، في النهاية ، الى خدمة الله والى انتهاج نهج قويم في الحياة ، قواعدها الكبرى : الديارات الرهبانية والكاتدرائيات المتوزعة بين شعب مخشوشن الطباع ، بليد الذهن ، متبلّد الفهم . وهي كذلك ثقافة لاتينية الطابع ، لغوية في جوهرها ، لم يكن الغرض منها سوى تبسيط فهم نصوص الكتب المقدسة، كما نقلها الينا مترجمة ايرونيموس، ومؤلفات آباء الكنيسة في الغرب ، عن طريق دراسة الادب الكلاسيكي اللاتيني . وهي الى هذا كله، ثقافة من وحي الطقوس الليتورجية، ساعدت الاماديح والأناشيد الغنية الرائعة التي أبدعتها على تحلية وتزويق الكتب التقوية والكنسية والكتاب المقدس .

انطلقت هذه الحركة الاصلاحية من بين المرسلين الانكلوسكسون ، ولم تلبث ان اتجهت الاتجاه السديد في السنوات الاخيرة من القرن الثامن ، عندما وضعت الفتوحات الكارولنجية ، الولايات الفرنجية ، وجهاً لوجه مع البلدان الجنوبية ، حيث كان التراث اللاتيني الروماني اقـــل اندثاراً وانحطاطاً مما صار اليه امره في البلدان الاخرى، وعندما اخذ شارلمان نفسه يهتم برفع المستوى

الثقافي بين رجال الاكليروس ، في شمـــالي غاليا . وفي هذا السبيل ادخل العاهل الفرنجي في بطانته ، وألحق بحاشيته ، فريقين من اهل الفكر والادب من الاغراب ، أتى بهـم من بلاط اللمبارديين ، امثال بطرس البيزي ، وبولين الاكيلي ، والشماس بولس ، كما استقدم بعضهم ، مـن بين الاسبانيين ، امثال ثيودولف الذي سِيم ، فيما بعد ، اسقفاً على مدينة اورليان ، ومن بين الانكليز : ألكوينس احد مدرسي مدرسة يورك ، بعد ان اجتمع به اتفاقاً ، في ايطاليا ، واستقدمه الى بلاطه عام ٧٨٢ . وقـــد كان هؤلاء المثقفون عوناً له وعضداً قوياً اذ كلفهم اعداد الأطلُس والملاكات اللازمة لتعليم منهجي يعطى بانتظـــام في مدارس الكنائس الاسقفية ، والديارات الرهبانيـــة او في مدرسة البلاط ، يرتادها رجال الاكليروس من أبناء النبلاء وسراة القوم اذ اعتاد الامبراطور ان يختار من بينهم ، أساقفة الكنيسة وأحبارها . وقد وضع ألكوينس بنوع خاص برنامجاً نموذجيـــاً للدرس أمّن ذيوعه وانتشاره في سلاسل من كتب النصوص التي هيأها وأخرجها للناس ، وهو نهج جاء عن طريق مرتيانوس كابيلا ، امتداداً للنهج الذي كان عليـــه المعوّل في الادب الكلاسيكي القديم . ويتألف البرنامج المذكور من حلقتـين متميزتين ، تُعرف الاولى باسم *Trivium* وتشمل التعليم الاساسي الذي يضم ثلاثة فروع :الصرف والنحو ، مع شروح وتفاسير للنصوص الكتابية لتيسير فهم اللغة اللاتينية ، والخطابـة او فن الانشاء ، والجدّل او فن المنطق . اما الثـــاني فيعرف باسم *Quadrivium* ، وهو يهدف عن طريق تعليم الحساب والموسيقى و « الهندسة » اي الجغرافية الى تزويد الطالب بدورة موسوعية من المعلومات حول الطبيعة والعالم .

سارت هذه الحركة الهوينا في البدء ، فجاءت نتائجها متواضعة ، اذ لم يكن لدى المفكرين والكتّاب المعاصرين لشارلمان ، ومعظمهم اغراب ، باستثناء الراهب سان ريكيـه انجلبرت ، رغبة في وضع مؤلفات اصيلة ، بل كان جل رغبتهم ان يحتذوا ، ما استطاعوا ، النماذج والقواعد التي بلغت اليهم من التاريخ القديم . وقد تصرف ، هؤلاء الاساتذة ، تصرف طلاب متواضعين ، ليس لهم من هاجس سوى طلب العـــلم والسعي اليه . فالمهم عندهم وضع الادوات والاجهزة الموصلة للعلم ، واعادة النقاء والاصالة اللغوية الى النصوص المسيحيـــة ، وتنقيح نص الكتاب المقدس .وفي هذا السبيل ، وتوفيراً لنصوص واضحة ، مُوثّقة ، وتيسيراً لعدد اكبر من النسخ ، طلع علينا طراز جديد من الخط يعرف عنـدهم بالكارولينجي الصغير ، وهو حرف اعتمدته على نطاق واسع ، دار النسخ (*Scriptorium*) التي أنشئت في مدينة تورس . وهكذا لم يتجاوزوا كثيراً الدرجة الابتدائية من الحلقة الاولى *Trivium* ، أي درس الصرف والنحو على أساس من الشروح والتعاليق التي وضعها دوناتس ، وبريسيانوس . وقد امكن بعد هذا الجهـد الطيب ، وبعد عدة قرون من الهمجية والبربرية ربط ما انقطع ، ووصل من انفصم من امور اللاتينيـــة الكلاسيكية ، اذ بفضل ما تحلى به النساخ من الرهبان ، من صبر جميل واحترام لهذه النصوص ، امكن انقاذ القسم الاوفى من تراث روما الادبي والفكري . وهكذا اصبحت للغـة اللاتينية ،

في غاليا ، المنزلة التي بلغت اليها في البلاد الانكلوسكسونيـة : لغة علم وانضباط ودقة ، تتميز جيداً عن اللهجات الشعبية المحكية ، وتسمو فوقها بكثير . ومن الحوادث الاساسية البارزة التي ادت اليها هذه المرحلة الاولى من الانبعاث الكارولنجي ، هو ان اللهجات الرومانية اتجهت كل منها ، في اتجاه مفرّد . وهكذا أصبحت البلاد المسيحية ثنائية اللغة ، مزدوجتها .

وهكذا ُقيّض للجيل الذي تخرج على هذه المناهج واخذ ينتج في الحقبة التي عقبت وفـاة شارلمان ، ان يمضي قدماً في مضمار التقـدم والرقي . فالحركة الاصلاحية التي قام بها بندكتوس الانياني الذي خشي من انصراف الرهبان نحو الادب العلماني وانقطاعهم اليه وراح ينقص من الساعات المخصصة للدرس ، في الاديار ، تؤلف دليلاً آخر على الاتساع الذي بلغته حركة البعث الادبي ، يجب اضافته الى الدليل الآخر القائم في هذه المقاومة التي لقيتها هذه الحركة الاصلاحية ، في الاوساط الكنسية الاكثر تطوراً . فقد جاء يقوّي من هذا التيار فريق من المثقفين الاجانب معظمهم ارلنديون ، هذه المرة ، فرّوا من وجه الغزو السكنديناڤي الذي تعرضت له بلادهم ، بينهم سيدوليوس سكوطس ، وجون أريجينا الذي كان على اتصال مباشر بالفكر الفلسفي ، وهو اول فيلسوف نبغ ، خلال الاجيال الوسطى ، في الغرب تميز بالجودة والإصالة ، مع ان معظم رجال الفكر اللامعين ، في القرن التاسع هم من الفرنج . وقـد اعرقت ثقافتهم ورسخت ، واتسعت مداركهم ورحبت منها الجنبات تشهد على ذلك رسائل لو ده فاريار . فاذا كان البعض منهم امثال رابان مور سار على خطى ألكوينس ووضع لجيله كتب نصوص للمدارس ، كما وضع نصب عينيه تثقيف الرهبان ورجال الاكليروس ، فالسواد الاعظم بينهم حاول ان يشق طريقه بوضع آثار شخصية تتميز بالاصالة ، رامياً منها الى اربعـة اغراض رئيسية . اولها اغناء الليتورجيا والطقوس الكنسية عن طريق وضع اناشيد وتراتيل دينية تأتي منسجمة مع الروح الموسيقية التي تجددت بعد ان روعي فيها التناغم المسلسل على أساس من الرموز الجديدة . والثاني هو النظر في المؤسسات والنظم السياسية المعمول بها ، اذ قام أحبـار واساقفة ُعرفوا بقوة عارضتهم ومقدرتهم على الجدل والمناقشة ، أمثال اغوبار ده ليون وجوناس الاورلياني بمحاولات التنسيب والتكييف وتأمين الانسجام بين المجتمع العلماني والمجتمع المسيحي . والثالث هو التاريخ الذي يمثله ، في هـذه الحقبـة أدْجنهارد ، وأرْمولد الاسود المعروف ايضاً باسم نيثارد ، اذ في علم التاريخ تتبع ، واقتفـاء أثر سير الشعب المسيحي نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه . واخيراً اللاهوت ، وهو الغاية القصوى لكل ثقافـة دينية تحاول مع بسكاسيوس ردبرتوس ، المتوفى ٨٥٦ ، اكبر لاهوتي الفرنج في القرن التاسع ، وغوتشالك ده فولدا تقريب فهم قضايا الايمان الكبرى . صحيح انه يجب الا نغلو كثيراً في تقدير هذه لآثار الادبية التي يثقلها ويرزحها كثرة الاستشهادات ، والتي كثيراً ما تفتقر الى بساطة العفوية والبداهة ، وتبقى تعليمية بحتة ، الا ان ما فيها من زخم وقوة ، يكوّن بوادر اليقظة الفكرية ، في الغرب .

نهضة الفنون

كما في الادب والفكر ، كذلك نهضة في الفن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاصلاح الذي تناول الوضع السياسي والحياة الدينية . وقد جاء هذا الاصلاح اسبق من غيره مما رافقه من وجوه الاصلاح الاخرى ، واكثر اصالة ، وأقل اتكالاً وتعويلاً على الماضي ، اذ لم يعد الفنانون كالادباء ، مثلاً ، منهمكين باحتذاء النماذج الكلاسيكية ، فتتنزّى انجازاتهم الفنية ، بنوازع وتيارات فنية بدت طوالعهـا منذ اواخر القرن السابع ، بين نهري اللوار والرين ، في هذه المنطقة بالذات التي تم فيها التقاء التقاليد القديمة مـع العنصر البربري الجديد ، فتمازجا بعضاً ببعض .

وقد تجلت قدرة الفنانين والرسامين الغاليين الفنية ، في هذه الانشاءات الهندسيـة التي تمت خلال عهد شارلمان ، ممثلة خير تمثيل ، في كنيسة جرميني التي شُيدت وجرى تزيينهـا وفقاً للاساليب والمناهج القومية المرعية الاجراء . واذا كان ملك الفرنج الذي بنى كنيسة البلاط في مدينة اكس ، ارادها دليلاً على ان قوته هي من طبيعة قوة اباطرة بيزنطية ، فالمهندس أويد ده متز ، هو ايضاً من مقاطعة اوسترازيا .

فالعهد الخصب بالانجازات ، هو ، هنا كما في مجال الادب والفكر ، العهد الذي جاء بعـد عام ٨١٤ ، فالكنائس والمباني الاخرى التي ترجع الى زمن لويس الوَرِع ولوثير ، امثـال كاتدرائية ريمس القديمة ، وبزيليكا سان جرمين دوكسير ، تحوي هندستها المعمارية ، ما ينمّ جيـداً على التجديدات التي جاءت تعبيراً عن حاجات الليتورجيا الجديدة والتي تمهد السبيل مباشرة ، للهندسة الرومانية . ان انتشار عادة تكريم ذخائر القديسين ادى الى الحاق البزيليكا من الطراز القديم ، والتي نرى منها وجهاً في كل من الشرق والغرب ، بمبان جديدة لاستعمال الزوار والحجاج ، اذ يقوم الى الامام ، حَنِيّة بشكل مغارة حيث نرى جدَث القديس في صحن من صحون الكنيسة ، يعلوه معبد بشكل محدّب ، وفي الداخل اروقة ، قليلة الارتفاع يعلوهـا منصّات ، وكنيسة فرعية يعلوها برج من كل جانب . والشيء الجدير بالملاحظات هنا ، هو هذا التغيير الاساسي الفاصل ، اذ نرى الانشاءات الفرعية ، الضخمة تحل فيهـا الاعمدة المتخذة من الحجارة ، محل الاعمدة الرخامية التي ساروا على استعمالها في البزيليكات ، كما حـل الخشب محل العقود .

وهذا الفن الكارولنجي يبلغ ذروته في تزويق الكتب والمخطوطات والتوشيات البديعة التي وُشّيت بهـا انواع الجلود المستعملة لتغليف الكتب ، وهو ازدهار يكاد يكون مفاجئاً ، لم يوطىء له العهد الميروفنجي السابق ، بشيء ، اذ ان زركشة الانجيل المعروف بانجيل غودسكال تمت قبل قدوم العلماء الاجانب الى بلاط شارلمان . وتجديد الليتورجيا لم يكن بعيداً عن هـذه الانشاءات بعد ان جرى تبني الليتورجيا الرومانية وتجديد نسخ الكتب المقدسة ، كل ذلـك تسبب عن إنشاء مدارس خاصة لتحلية المخطوطات وزركشتها بالعـاج ، كمدرسة سان دنيس وتورس ، ومتز ، وهوتفلر ، وكوربي ، واكس لاشابيل ، وقد اطلعت هذه الورش او المعامـل

الفنية كبار الفنانين الذين بعد ان استوحوا الصور والرسوم البشرية المرسومة على الافاريز ، كما هي الحال في مغـارة اوكسير ، والنقوش الظاهرة على بعض الاقمشة المستوردة من الشرق ، وحفر المصنوعات الحديدية في منطقة الموزيل ، طلعت علينا بروائع فنيـة ، كتوراة كنسة القديس بولس خارج الاسوار ، وكتاب القداس المعروف بكتاب دروغون، ومزامير اوترخت، او توراة شارل الأصلع .

وحدة الحضارة في الغرب

هذا هو الوضع الذي بدت عليه الحضارة في الغرب ، بين ٧٨٠ – ٨٣٠ ، في هذه البلدان الواقعة بين نهري اللوار والرين ، وهو وضع اخـذت تتأثر به وتتفاعل معه جميع اجزاء الامبراطورية الكارولنجية . واذ كانت هـذه الامبراطورية تتجه ، مشبعة الى حد بعيد ، بالعوامـل والمؤثرات الدينية ، وكان جميع الذين يقومون بالتوجيه الروحي فيهـا من رجال الدين ، فليس من عجب ان تتجه افكارهم ، في الدرجة الاولى ، اتجاهاً مسيحياً وان يروا ، كما رأى اغوبارد الليوني ، بان كل النزعات الخاصة يجب ان تنصّب وتنسكب في وحدة شاملة . ولما كانت الولايات التي تشع منها هذه الحضارة هي محور هذه الدولة التي تغطي رقعتها الجغرافية جميع ارجاء الغرب تقريباً ، وملك الفرنج هو المالك للقسم الاكبر من العقارات الواقعة الى الشمال من غاليا ، ورأس الطبقة الارستوقراطية في كل من اوسترازيا ونوستريا ، فقد اصبح الامبراطور الروماني ، والرائد المشارك للبابا ، ولجميع المؤمنين بالسيد المسيح . وقد مهد لانتشار هـذه الحضارة الكارولنجية ، العلاقات التي شدت الفكر ورجال الدين بعضاً الى بعض ، شداً محكماً عن طريق الزيارات والرسائل التي يتبادلونهـا فيما بينهم ، والكتب التي يتعاورونها ، كما ربطت بينها هذه الاجتماعات الدورية التي تعقدهـا الارستوقراطية العلمانية بمناسبة الحملات والسرايا العسكرية، والاصل الواحد المشترك الذي يجمع بين مختلف القائمين باعمال الادارة : من اساقفة ورهبان وكونتية ، الذين ، بالرغم من توزعهم في جميع انحاء الامبراطورية ، يعودون تقريباً للاسرة الكبيرة الواحدة ، اذ قضوا معاً في البلاط الواحد ، حداثة واحدة مشتركة . صحيح ان الامبراطورية ليست الغرب كله او بكامله ، وانه لا يزال في بعض الاقاليم ، تقاليد ونزعات محلية قومية . ولهـذا لم يكن الاشعاع الحضاري في هذه المدنية الكارولنجية ، على نسبة واحـدة ، وبمعدل واحـد في جميع انحاء هـذه المناطق على السواء .

عرفت الاقطار الواقعة عبر نهر الرين ، من نهر الإلب حتى جبال الألب ، كيف تنصهر في بوتقة واحدة. فقد قام الكارولنجيون بتحضير جرمانيا في الوقت الذي كانت تجري فيه حروب الفتح ليخضعوا هذه الاقطار لنفوذهم . فبتعيينهم الكونتية في هذه المقاطعات ، وبانشاء الولايات العسكرية على الحدود ، أو "ثغور" ، من حيث يدرون او لا يدرون، الاقوام المتأرجحة في تحالفها اتجاهها المرسوم وأطـرها السياسية . ان دمج هـذه الولايات في صلب المملكة الفرنجيـة ساعد كثيراً على تشجيع النشاط التجاري على اختلاف وجوهه ، وعلى تمهيد السبل لظهور التجمعات

المدينية الكبرى . ولم يلبث النظام العقاري ان عم الريف وانتشر فيه ، دون ان يبلغ ، مع ذلك ، من التوسع والامتداد ، ما بلغه في القسم الشمالي من غاليا ، اذ بقيت الملكية الصغيرة الحرة معمولاً بها بكثرة ، ورائجة كل الرواج في الولايات الدائرية : في الفريز ، وسكسونيا والمقاطعات الألبية الاخرى . وقد قام المبشرون بنشر الدين والثقافة معاً ، بعد ان أقاموا لهما مراكز اشعاع واحدة تتمثل ، خير تمثيل ، في هذه الديارات البندكتية ، امثال دير راينخو ، وسان غال وفولدا ، وكو في (كوربي الجديدة). ولما كان من الواجب لهذه الثقافة اللاتينية ان يتلقفها رهبان ورجال الاكليروس من اصل جرماني ، فقد ساعدت ، عن طريق المعاجم التي أدّت الى وضعها وتصنيفها ، الى تثبيت بعض اللهجات الالمانية القومية . وهذه الثقافة التي تغلغلت في محيط لا يخشى ان يزاحمها فيه منافس او مزاحم لغوي يفسد عليها نقاء الاصل والمصدر ، لم تأتِ الحضارة الكارولنجية ، في أي مكان ، بأنقى منها في المانيا ، وقُيّض لها ان تستمر في تطورها الصاعد مدة اطول لم يتم مثلها لأي منطقة اخرى .

وعلى عكس ذلك ، فقد اصطدمت العوامل والمؤثرات الفرنجية ، في الاقاليم الواقعة الى الجنوب من مدينة تورس وشالون على الصون ، وجبال الألب ، بتقاليد وطنية متأصلة في نفوس اصحابها ، لا تلين ولا تني ، في قليل او كثير . فالجنوب من غاليا كان يؤلف محيطاً شديد التماسك والتضامّ ، صعب النفاذ اليه : فلا النظام العقاري المعمول به على نطاق واسع في غير هذه المقاطعات ، ولا أعراف التبعية وتقاليدها تأصلت فيها او أعرقت في ارضها . فالنظم والمظاهر الثقافية المعمول بها في هذه الاقاليم عانت كثيراً ، وأصابها المزيد من الاذى ، خلال هذه الحملات والغزوات العسكرية التي تعرضت لها تلك الاقطار خلال النصف الاول من القرن الثامن ، والمقاومة العنيفة التي قام بها السكان هناك ، حالت دون تجددها عن طريق المؤثرات الفرنجية المتسربة اليها من الشمال . وهكذا نرى مقاطعتي الاكويتين وبروفانس تؤلفان ، في عهد شارلمان ولويس الوَرِع ، فراغاً في خريطة الغرب الثقافية ، في هذا العصر . وعلى عكس ذلك ، فبقايا الحضارة القديمة في ايطاليا اللمباردية وفي المقاطعات التابعة للكرسي الرسولي ، دب اليها النشاط وفاضت بالحياة عندما نعمت بالأمن والسلام الكارولنجي ؛ والحركة التجارية مع الشرق شقت لها مسالك جديدة عبر شبه الجزيرة الايطالية ، بعد ان تعطلت او تهلت الاتصالات والمقايضات التجارية في البحر التيريني ، فعادت هذه الحركة بالنشاط على التقاليد المدنية ، وعادت الحياة تزخر من جديد في هذه المدن العريقة ، ولا سيما تلك التي وقعت منها في سهل البو ، أمثال ميلانو ، وكومّارشيو ، وفراره . وقامت في نفس هذه المدن ثقافة لم تنقطع وشائجها بالثقافة الهيلينية لانها بمنجى عن السيطرة الكنسية . اما في الفن فتعود الصور والاشكال الرومانية للظهور بشيء من الجمود ، تحت تأثير العوامل البيزنطية ، سواء في محفورات العاج اللمباردية الاصل أو في الصفائح الذهبية التي تغطي كنيسة القديس امبروسيوس في ميلانو ، أو في الفسيفساء الرومانية الموجودة في كنيسة القديسة براكسيدس ، أو في تماثيل سيفيدالده فريول

المستوعة من الملك. وولاية اسبانيا العسكرية هي في الوضع ذاته: فالروح العسكرية الفرنجية قليلة الاثر في هذه المقاطعة التي يأهلها لاجئون من الفيزيغوط ، وهي نقطة عبور ومركز تجـــاري كثير الاتصال بالعالم الاسلامي .

وهنالك اخيراً ، بعض المقاطعات في العـــالم المسيحي اللاتيني التي لا تخضع للامبراطورية ، كالممالك الصغيرة التي قامت الى الشمال من اسبانيا او في الجزر البريطانية ، اذ لم تخـــلُ النهضة الكارولنجية من اثر على مملكة أستوريا حيث سيطر التبادل بالنظام النقدي الفرنجي ، وحيث اخذ تدريس الآداب اللاتينية يزدهر وفقاً للمناهج ذاتها ، وحيث راجت بعض نمـاذج الهندسة المعمارية المعمول بها في الشمال . اما الجزر فبقيت في شبه عزلة . فانكلترا وحدها لها حساب ، اذ ان المقاطعات الكلتية الاخرى التي دبّ اليها الانحطاط منذ عهد بعيد، أي منذ ان تعرضت، في اواخر القرن الثامن ، لغزوات السكنديناڤيين ، هي في حالة تضعضع كلي . ومع ان البلدان الانكلوسكسونية لم تقع مباشرة تحت تأثير نفوذ الدولة الكارولنجية الا في ما يتصل بنظامها النقدي، فالفرق يكاد لا يذكر ، في الوضع الحضاري ، بين الطرف الواحد والآخر من المانش . فقد اخذت حضارة القارة ، من انكلترا ، بعض العناصر والمؤثرات الاساسية ، من بينها النظم الكنسية والتعليمية ، فاذا كانت الخطوات التي قطعتها النهضة الفكرية في الدولة الفرنجية اقل بروزاً من العنصر الذي استمدته من ثقافة الجزيرة البريطانية ،فالمدرسة الاسقفية في يورك ،لا تقل شأناً ، حتى بعد ان غادرها الكويلس ، عما لمدارس غاليا الشمالية من سطوع وتألق ، ولا شك في انه تمّ في خلال القرن الثامن، وضع الرائعة الشعرية باللهجة القومية، المعروفة باسم *Beowulf* . ومن جهة اخرى ، فكلا الطرفين ، مشبعان بالتقاليد الجرمانية الواحدة . ومع ان النظـــام القضائي المعمول به في المجتمع الانكلوسكسوني ، والنظام الآخر الجاري الاخذ به ، في بلدان الفرنج ، ينمّان عن كثير من مواطن الغربي وفيهما الكثير من الوشائج الوثقى ، فالاول هو ، مع ذلك ، اكثر تحرراً لان روابط التبعية فيه ليست من التماسك والترابط في نظامها ما هي عليه في الثانية ، واوضاع الأطر التي يتم فيها استثمار الملكية العقارية ليست محكمة الحلقات . فانكلترا افادت كثيراً ، كما افادت غاليـــا الشمالية ، من ازدياد النشاط في حركة المبادلات والمقايضات التجارية . فتجارها يصدّرون المنسوجات الصوفية للاقطار المجاورة لبحر الشمال ، ويبيعون من التجار المسلمين القصدير والعبيـــد . كذلك أفادت انكلترا ، بين القرنين السابع والتاسع ، من الناحية الادبية ، اذ ان ملكها « أوفتا » تعامل مع شارلمان ، كالند للنـــد . وهكذا كانت حضارة الغرب المسيحي ، حوالي عام ٨٠٠ ، لاول مرة منذ انطلاق موجات الغزوات الجرمانية الكبرى ، ذات تأثير بيّن ، ومتجانسة كل التجانس ، بالرغم من الفوارق المحلية العارضة .

انقسام الامبراطورية الكارولنجية

ومنذ الربع الثاني من القرن التاسع ، اصيبت هذه الوحدة ، وهذا الزخم الذي جاشت به المدنية الكارولنجية بصدمتين عنيفتين ، متلازمتين الواحدة مع الاخرى : من جهة : انحطاط الملكية الكارولنجية التي كانت

الركن الركين لهذا البيان السياسي الذي قام في الغرب، ومن جهة اخرى، الغزوات التي تعرضت لها هذه المملكة في وقت واحد من الجنوب والشمال والشرق .

ففي عهد بابين وشارلمان ، وتحت تأثير الانصهار التدريجي للسلطات الروحية والزمنية ، دخل على النظام الملكي الفرنجي عاملان متضادان : الاول عامل بدائي قديم ، يقوم على مبدأ عسكري ، اساسه العنف والحرب والسلب ، وبفضل هذا العامل ، امكن السيطرة على ارستوقراطية الفرنج . اما الثاني فمبدأ ديني اصلاً ، وعنصر جديد رأى ان يقيم السلطة ويُقعد سيادتها على مراسم وانظمة طقسية ، ليتورجية ، اساسها مراسم التكريس الرسمي والقسم الاحتفالي تصبح معها مسؤولية الملك الاولى والكبرى ، المحافظة على السلام وتأمين العدالة بين الناس ، وتؤمن له مناصرة النخبة الممتازة من رجال الفكر واهل الرأي والثقافة بين رجال الكنيسة . وهذا التوازن الذي قام واستمر ردحاً من الدهر ، كان واهي الاساس اصلاً ، فلم يعتم ان اختل واضطرب . فمنذ ان تولى لويس الورع مقاليد الحكم ، افضى تطور النهضة الادبية والفكرية الى المزيد من نفوذ رجال الكنيسة ، فراحوا يُقنّنون الامبراطور بالتزام حدود واجباته في المحافظة على السلام ، والسهر على اشاعة العدل بين الناس

وهكذا بدا الامبراطور وديعاً ، مسالماً ، وانقطع عن تراس الحملات والتجريدات العسكرية وقيادتها الى ما وراء الحدود . ومضى المبشرون في دعوتهم للمسيحية والتبشير بتعاليمها ، يحاولون اقناع رؤساء القبائل الوثنية باعتناقهم الدين الجديد . وكان من جراء هذا الموقف والوضع الموصوفين ان فوّت على الملك فرص النهب والسلب التي كانت تتيح لها الغزوات والحملات العسكرية ، اي ان ذلك حرمه من الوسيلة الوحيدة التي كانت تمكّنه من بسط عوارفه ، والجود بانعاماته على رعاياه ، دون ان يمسّ هذا الكرم والسخاء بثيء ثروته العقارية . ولذا لم تلبث ثروة الكارولنجيين العقارية الضخمة ان ذابت وتطايرت بدداً .

وحاول الملك ان يبرز للناس ، متصفاً بالعدل والعدالة ، وان يتم واجباته بكل دقة ويقوم بالمسؤوليات التي تولاها في حفلة التكريس الرسمية ، وهذه الواجبات التي فرضتها عليه روابط التَبَعيّة التي تشدّه الى النبلاء . والحال ان حفلة التكريس ، وهذه التبعية ، اللتان زادتا كثيراً من نفوذ الملك الكارولنجي الاول ، ورفعت عالياً من شأنه ، وزادته مهابة ووقاراً ، اخفتا ضمناً ، تحديداً ضيقاً لسلطة الملك .

فحفلة التكريس الرسمية التي كانت تتم بحضور رجال الاكليروس الاعلين ، وتحت اشرافهم ونفوذهم ، لم تلبث ان صحبها وعد رسمي يقطعه الممسوح باسم الرب ، على نفسه ، بان يضع حدوداً لسلطته وسيادته . فمنذ عام ٨٤٣ ، راح الامبراطور شارل الاصلع ، يتعهد في كولين ، وهو بحضور كبار رجال الدين والدنيا في مملكته ، ويقسم مغلظاً ، انه سيتصرف وفقاً « لمقتضيات العقل والعدالة » ، وان يعطي لكل واحد : « مهما كانت الطبقة التي ينتمي اليها ،

والوظيفة التي يشغلها ، والمرتبة التي يحتلها ، الحق بالمحافظة على القانون » . اما الترابط القائم

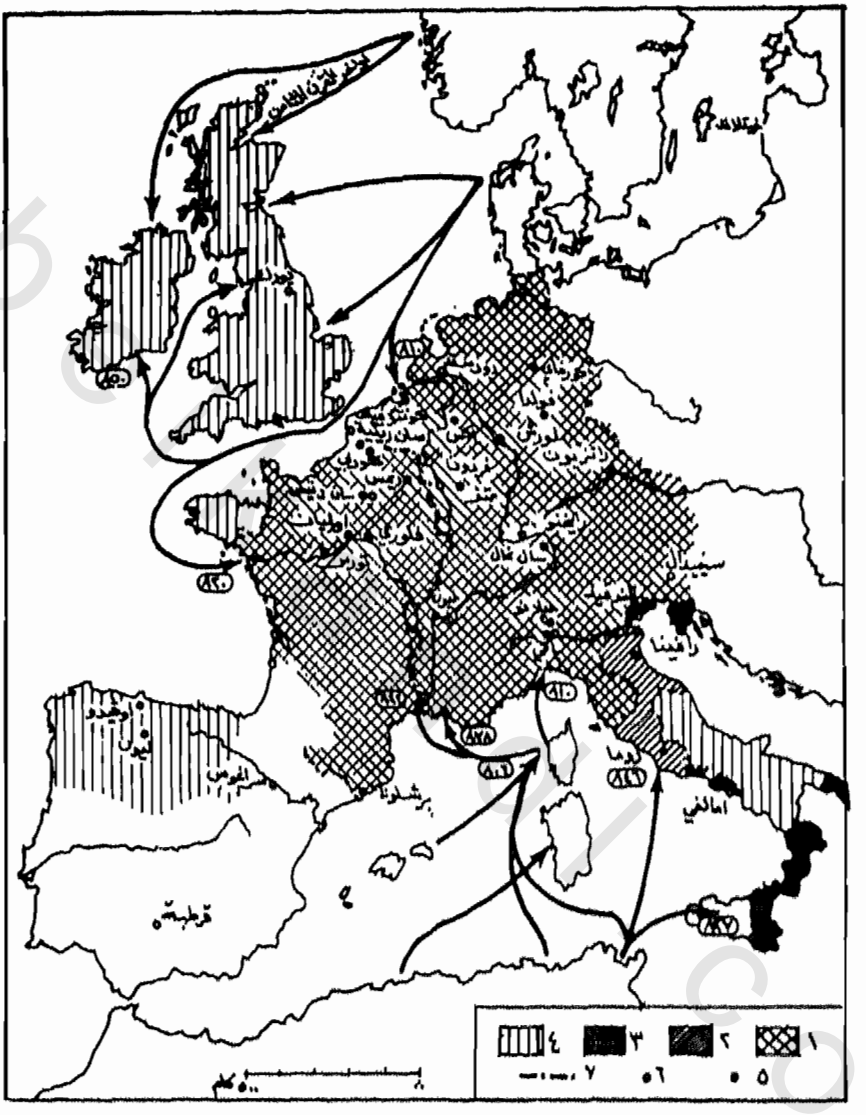

الشكل (رقم ٦) ـ اوروبا الغربية في القسم الاول من القرن التاسع
١ ـ الامبراطورية الكارولنجية ٢ ـ الدولة البابوية ٣ ـ الممتلكات البيزنطية ٤ ـ بلاد مسيحية اخرى
٥ ـ مراكز الاشعاع الثقافي الرئيسية ٦ ـ المحطات التجارية الكبرى ٧ ـ الحدود الشرقية « لفرنسا الغربية » عند اقتسام الامبراطورية الكارولنجية ، عام ٨٤٣ .

على التبعية ، فلم يكن يقيم سلطة غير مشروطة من قبل السيد الرئيس ، على التابع المرؤوس ، بل على عكس ذلك ، كان يلزم السيد ان يهب لمساعدة تابعه والدفاع عنه ، اذ كان من حقه ان

لا يتوقع اي ضرّ او أذى من سيده . وهكذا ، فالملـــك كان يتردد في استرجاع الامتيازات والالقاب الشرفية التي كان يُنعِم بها على رعاياه ، عندما تحين وفاتهم ، او ان يعاقب ، بالمصادرة لهذه الانعامات ، مَن مِن رعاياه يتهاون او يقبل بما يلطخ هذا الشرف او يشينه . وهكذا كان الملك يفوّت عليه فرصة تجديد الموظفين كلمـــا سنحت له ، من وقت الى آخر ، وان يزيدهم شعوراً بقيمة الولاء له عن طريق اعطائهم درساً في قصاص مثالي يكون عبرة لمعتبر . وهكـذا فالرابطة التي قامت على الولاء اخذت تتحلل شيئاً فشيئاً ، ولم تعـــد لتؤدي ما يرجى لها من خدمات ومنافع . وهكذا بدا في الثلث الثاني من القرن التاسع ، ان نظام التبعية الذي أحكم وضعه رؤساء الدولة الكارولنجية الأوَل ، بات اعجز من ان يليح ، إخضاع عظماء هذه الدولة لسلطان ملك متردد ، كثير الوساوس والهواجس وهو لم يعد عندهم ، بقائـد حرب يقود جيشه للنصر ، ولا بالواهب الجوّاد الذي يوزع عوارفه ، وأعطياته بسخاء . اما في اوساط الطبقات الاجتماعية السفلى التي لم تتأثر بعيداً بهذه الافكار والنظريات الكنسية ، فقد عرف هذا النظام ان يَبقى محكمة ، الروابط التي شدّت ممثلي الأسر الارستوقراطية الدنيـــا الى رؤساء الأسر الاستوقراطية العليا . وعلى هذا الاساس تألفت تدريجياً ، هيآت سياسية صغيرة ، جاشت نفسها بالنزوع للمزيد من الاستقلال ، التي ، بالرغم مما تمّ لها من شأن محدود ، وجدت نفسها اكثر استعداداً للانسجام مع البنيان الاقتصادي الذي لم يترك مجالاً واسعاً للعلاقات ، من بعد ، ومع البنيان الاجتماعي الذي كان يؤمن السيطرة والسيادة لكبار الملاكين من اصحـــاب العقارات الشاسعة . فالسلطة الملكية ، رأت نفسها مشلولة ، لا تبدي ولا تعيد ، امـــام الاعتبارات الادبية المشدودة اليها ، وامام مشارفة المصف الاسقفي ومراقبته ، فاخذت بالانقسام على نفسها تتوازعها اجزاء مملكة الفرنج ، وتتجاذب اطرافها وصلاحياتها ، كل لنفسه .

والذي عجل في هذا الانقسام ، الاختلافات التي مزقت الاسرة الكارولنجية ، عندما رأى لويس الوَرِع ، بعد ان طعن في السن وشاخ ، نفسه تتنازعها الرغبة في الحفاظ على وحـــدة الامبراطورية والميل الى الاخذ بالتقاليد العائلية القديمة التي كانت توحي بان يوزع امبراطوريته على اولاده بالتساوي . نجم عن هذا الوضع عراك عنيف بين الامبراطور الوالد واولاده ، زاده احتداما آراء رجال الاكليروس الذين أفتوا بضرورة المحافظة على سلامـــة الامبراطورية . ثم اشتدت عنفاً بعد موت الاب ، بين الاخوة المتنافسين . وقـــد راح كل من هؤلاء ينثر الوعود ويُغدِق الأعطيات ، جذباً منه للانصار من ابناء الارستوقراطية ، الذين راحوا بدورهم يبيعون ولاءهم بالمزاد ، يرسو على من يدفع أعلى الاثمان واسناها ، مما زادهم ثراءً وغنى . واخيراً تم اقتسام اوروبا الغربية فتوزعت الى ممالك متباينة ، وذلك وفقاً لمعاهدة فردان ، المعقودة عام ٨٤٣ ، اما الحدود الفاصلة بين هذه الممالك فخطوط الطول ، بحيث دخل في هذه الممالك واحدة من هذه الدويلات التي احترم شارلمان استقلالها ، الا وهي الاكويتين ، وبافاريا وايطاليا ، يضاف اليها جزء متساوٍ من الولايات التي تألفت منها مملكة الفرنج . وهكذا أطلّت علينا مملكة فرنسا

أو فرانكيا ، في الغرب ، وقفت حدودها الشرقية عند نهر الاسكو والموز والصون وجبال السيفين ؛ ومملكة فرنج الشرق الواقعة ما وراء الرين وجبال الألب ، ودولة ثالثة تتوسطهما امتدت من البحر الشمالي الى ايطاليا في الجنوب ، فضمت المدينتين الامبراطوريتين : روما واكس لاشابيل، وهي الحصة التي عادت للامبراطور، هذه الرقبة المشرفية التي لم تكن تؤمن لحاملها سوى صدارة اسمية لا غير . أما المملكة الشرقية حيث النظم والمؤسسات الملكية كانت احدث عهداً ، وأعلق في النفوس ، فقد عرفت السلطة الملكية فيها ان تحافظ ، لمدة اطول ، على تماسكها ، مع انه اخذت تبرز فيها أكثر فأكثر ، نزعات اقليمية هي تعبير عن نوازع الشعوب الجرمانية الدفينة . ومقابل ذلك ، رأينا المملكة الوسطى تتناثر اشلاؤها الغربية حيث اخذ ممثلو السلطة الملكية المحليون ، من مركيز ودوق ، الذين كانوا يتولون إيالات حربية كبيرة ، ينظرون اليها كأنها اقطاعات عائلية ، دون ان يقطعوا أو ان يصرموا ، على المكشوف ، روابط التَبَعية المتخلخلة التي كانت تشدهم الى الملك ، فاستطاعوا ان يتحرروا ، بسرعة ، من كل وصاية أو ولاية ، وان ينشئوا لهم امارات وراثية . وقد راح بعضهم ، بعد ان اصبح التكريس ، وليس الدم ، هو الذي يولي الشرعية ، يغتنمون وضع الانحطاط الطبيعي الذي آل اليه حَفَدة احفاد شارلمان ، وانتزعوا منهم ، بالقوة ، الرتبة الملكية عن طريق انتخابهم من قبل طبقة الاشراف في الامارة .

ولم يخلُ اقتسام الامبراطورية وتناثرها ، كما رأينا ، من أثر سيء على وحدة الكنيسة نفسها . فقد حاول رؤساء الاساقفة ، في الغرب ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع ، ناهجين في ذلك نهج المركيزة ، بسط سيطرتهم على المطارنة الذين تحت ولايتهم ، كما حاولوا التحرر او التخفيف من مراقبة الكرسي الرسولي واشرافه ، كما فعل مثلاً ، هنكمار ، رئيس أساقفة ريمس (٨٤٥-٨٨٢) وقد رد الكرسي الرسولي ، بالطبع ، على هذه المحاولة ، متذرعاً بمجموعة من القوانين ، تعرف في التاريخ باسم *Fausses Décrétales* ، مع انه لم يشك احد في صحتها. وقد اغتنم البابا نيقولاوس الاول فقدان هيبة الامبراطور ، وراح يدعي الأولوية الادبية لخليفة القديس بطرس ، ويعلن بالتالي ، انه القائد الوحيد لجماعة المسيحيين ، كما ادعى لنفسه الحق بمحاكمة الملوك والجزم قطعاً بقضاياهم. ولكن هذا الحبر الروماني، رئيس دولة صغيرة عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، واسقف روما، هو ابداً عرضة لاضطرابات تثيرها في وجهه الارستوقراطية الرومانية والشعب في روما، وهو بأشد الحاجة لحماية فعّالة من قبل الامبراطور. وهكذا في مطلع القرن العاشر ، والامبراطورية ليست بعد، سوى لقب هزيل يتنافس على حمله عظماء سهول لمبرديا، رأى الكرسي الرسولي نفسه ينحدر الى أدنى دركات الانحطاط ، دون ان يفقد ، مع ذلك ، سلطته الروحية تماماً ، على الكنيسة في الغرب .

وهكذا، في الوقت الذي لم تستطع فيه مملكة مرسيا الاحتفاظ بسيادتها في انكلترا ، جعل

التصدع الذي اصيبت به الدولة الكارولنجية في القرن التاسع ، اوروبا كلها هدفاً لاطماع الغزاة يحاولون نهشها وقضمها من جميع الجهات .

العرب والنورمنديون والمجر

تعرضت المسيحية في الغرب ، للهجوم من كل الجهات : فقد هاجمها المسلمون في الجنوب ، فاستطاعت جيوش الفرنج ، في القرن الثامن ان تصد هجوم العرب وان تحملهم على التراجع والنكوص على أعقابهم الى ما وراء جبال البرانيس . فقد كانت الولاية الواقعة على الحدود الاسبانية ، وهي ولاية عسكرية ، في الاساس ، درعاً قوياً تولى أمر الدفاع عنها اسرة من القادة العسكريين الاشداء ، وقفت سداً منيعاً ضد توسع العرب والمسلمين ، من هذه الناحية . غير ان البحر كان حراً والبلاد الواقعة على سيفه مكشوفة . فمن اسبانيا الى المغرب ، استطاع قراصنة المسلمين ان يحتلوا الجزر الواقعة الى الغرب من البحر الابيض المتوسط ، كجزر البليار وكورسكا منذ عام ٨٠٦ ، ثم صقلية التي تم فتحها تدريجياً بين ٨٢٧ ـ ٩٠٢ ، ومن هذه الفتوحات المتقدمة اخذوا يرسلون سراياهم لغزو السواحل البحرية الواقعة تحت سيطرة المسيحيين ، بقصد السلب والنهب . وهكذا تعرضت لغزواتهم المتعاقبة مدينة نيس (٨١٠) ومرسيليا (٨٣٨) ، وآرل (٨٤٢) وروما نفسها (٨٤٦) ، كما ان مقاطعات بويل وكمبانيا تعرضتا مراراً لهذه المغازي . وفي السنوات الاخيرة من القرن التاسع ، أنشأ فريق من المسلمين ، في جبال المورس ، الى الجنوب من الالب ، قاعدة لهم ، تحصنوا فيها ، واخذوا يتسللون منها الى كل جهات الألب ، قاطعين بذلك طرق المواصلات ، بين غاليا وايطاليا ، فارضين الرسوم الباهظة على التجار ووفود الحجاج ، مدة ثلاثة اجيال .

ومن البحر ايضاً جاء الغزاة يطرقون ابواب غاليا من الشمال ويهزونها بعنف . فالقبائل الجرمانية المستوطنة حول الاقطار السكندينافية ، كالنرويج والدانيمارك ، كانت بلغت شاوأ بعيداً بفن الملاحة ، واستطاعت ، خلال القرنين السابع والثامن ، ان تحسن كثيراً من بناء السفن التي تستعملها ، وهي ، على الغالب ، قوارب لا ظهر لها ، متوسطة الحجم ، تسع الواحدة منها من ٤٠ الى ١٠٠ رجل ، يمكن استخدامها في الملاحة النهرية وبجاري الانهر الخفيفة المياه . وبفضل ما كان عليه هذا الجيل من تقدم ففي وجرأة واقدام ، راح هؤلاء الاقوام الذين اصطلح الغرب على تسميتهم باسم النورمان او النورمنديين (أي رجال الشمال) يهاجمون الامبراطورية مدفوعين الى ذلك بعوامل عديدة . من ذلك مثلاً ، الضغط الذي تعرضت له البلدان المسيحية ، وازدياد السكان في سكندينافيا ، الامر الذي حدا بهم للبحث عن موارد جديدة للعيش . وقد انطلق النرويجيون افواجاً صغيرة ، يبحثون لهم عن اراض جديدة يعمّرونها . وهكذا لم يلبثوا ان احتلوا ، دون ان يحدث احتلالهم أي دويّ او صدى له في الخارج ، جزر شتلاند وجزر الاوركايد وارخبيل هبريدس ، وراحوا ، منذ عام ٨٣٤ يحاولون ، من سواحل لانكشير ، الاستيلاء على ارلندا واستباحتها ، بينما استطاعوا ، في أواخر القرن التاسع ، ان يحتلوا اسكتلاندا نفسها . اما قبائل الدانيمارك فقامت بسلسلة من الغزوات الجريئة اشتركت بها فرق أكبر واوفر عدداً

يتولى قيادتها زعماء من الشعب .

وهذا الايغال يتم هذه المرة ليس على ايدي مزارعين او صيادين، بل على ايدي تجار قراصنة، تعاطوا ، منذ عهد بعيد ، الاتجار مع التجار المسيحيين في البحر الشمالي، وهم يعرفون جيداً ما عليه سكان مناطقه المتاخمة ، من غنىً وازدهار ، في شمالي غاليا او في المقاطعات الانكلوسكسونية فكلما أنِسوا وجود حامية بوليسية تحافظ على الامن ، في المرافىء التي كانوا يأتونها ، اقتصرت معاملاتهم على تأمين الربح الحلال من المقايضات التجارية ، التي يقومون بها . الا انهم عندما كانوا يأنسون مكمناً للضعف او مقاومة خفيفة ، كانوا يتخلون عن التجارة فيقبضون بالقوة والبطش ، على ما في الموانىء التي يؤمونها ، والمدن التي يهبطونها ، من ثروة ومتاع ، ويأخذون السكان عبيداً وارقاء ، ويستولون على ما تقع عليه ايديهم من مال وفضة ، ويوغلون في داخل البلاد بحثاً عن مغانم جديدة . فقد اقتصرت غزواتهم ، في بادىء الامر ، على سواحل الفريز ، منذ عام ٨١٠ ، وسواحل انكلترا والمنطقة الواقعة عند مصب نهر السين ، ثم تحولوا من المانش ، فنهبوا نوارموتييه ، عام ٨٢٠ ، وسواحل النافار ، عام ٨٥٩ ، واخيراً داروا حول شبه الجزيرة الايبيرية ، فدخلوا البحر المتوسط ، واذ لم يبق شيء في المناطق الساحلية توغلوا في الداخل على متن سفنهم ، ثم نراهم يتخلون عنها ويتحولون فرساناً . وليس ما يمثل تغلغلهم مثل قصة جلاء رهبان دين سان فيلبرت ، الذين غادروا ديرهم في نوارموتييه ، قبل عام ٨١٩ ، وراحوا يبحثون عبثاً لهم عن ملاذ يلجأون اليه ، الى ان استقر بهم المطاف في بلدة تورنوس ، على نهر الصون ، عام ٨٧٥ . ومنذ منتصف القرن التاسع اخذت هذه الفرق الدانيماركية تستقر في المناطق التي يغزونها ويستبيحونها ويلتشون فيها مستعمرات لهم بعد ان استخدموها قواعد مؤقتة يقضون فيها فصل الشتاء . وهكذا ، فقد انشئت دولة سكندينافية شملت القسم الشمالي الشرقي من انكلترا، قامت حول يورك. وفي سنة ٩١١، انتزع النورمنديون ، من ملك فرنسا ، الاعتراف رسمياً باحتلالهم المنطقة الواقعة عند مصب نهر السين واقامتهم فيها نهائياً ، فعرفت باسمهم « نورمنديا » .

وبعد ان استُبيحت اوروبا ونُهبت على مثل هذا النحو ، تعرضت ، في النصف الاول من القرن العاشر ، لغزو جديد ، قام به فرسان جاؤوا من بوادي آسيا ، هم الهنغاريون أو المجر . فقد كان استقر بهم المطاف في سهول بانونيا . ومن هناك ، قاموا ، قبل عام ٩٠٦ ، بغزوات خاطفة ، بقصد النهب ، باتجاه المانيا الجنوبية ، ومنها يمموا شطر اللورين ولمبارديا ووادي الرون، وبلغوا مقاطعة بورغونيا ، ومقاطعة برّي ، عام ٩٣٥، وروما عام ٩٣٧ ، والأكويتين، عام ٩٥١ ، وهكذا لم تسلم اية مقاطعة في الغرب من ويلات الغزو .

نتائج الغزو الجديدة

يدهش المرء عندما يفكر بهذا النجاح البعيد تصيبه غزوات القرصنة والنهب والسلب . فالمسيحية اللاتينية لم تكن معبّأة لحرب دفاعية . فقد قاد ملوكها حتى الآن ، هم انفسهم ، حملات دائرية ، وجيش الفرنج الذي كان بطيئاً في تحركاته

للحشد والتجمع ، كان مكيفاً لمثل هذه التجريدات العسكرية توجه ضد عدد معين يمكن تحديد موعد الهجوم عليه مسبقاً ، قبل المباشرة بالهجوم بكثير ، وكان دفاعه يرتكز على سلسلة من الحصون ، القلاع تقوم فيها حاميات بعدد واف تستطيع ، كما هي الحال في كتلونيا ومصب نهر الإلب ، الدفاع عن حدود الامبراطورية ضد عدو طارىء يهاجم بوسائل واساليب شبيهة كل الشبه ، بالاساليب والوسائل التي كانت تحت تصرفه . الا ان هذه الترتيبات والتجهيزات برهنت عن عجز تام في مواجهتها غزوات طارئة ، غير متوقعة ، تتجه ، بالاحرى ، ضد السواحل البحرية التي اهمل تحصينها لعدم توقع الهجوم عليها ، أضف الى ذلك عنصر المفاجأة ، وتأثير الفشل الذي لحق بالمدافعين في الاصطدامات الاولى ، فاثارت فيهم عقدة نفسية وشعوراً بالعجز فتّ من عضدهم وزادهم ضعفاً وايهاناً . لهذه الاسباب مجتمعة ، وقعت اوروبا ، خلال قرن كامل ، فريسة سهلة المنال ، وتألب عليها من الويلات والذل والهوان ما كان له التأثير السيء في المناطق الواقعة الى الغرب حيث كانت الحدود البحرية مكشوفة في كل من الجزر البريطانية ومملكة الفرنج .

فقد ساعدت هذه الغزوات ، على هلهلة النظم وتفسخ المؤسسات الملكية وانتقصت كثيراً من هيبة الملوك وخفضت من شوكتهم ، بعد ان عجز الجيش عن ردّ غائلة هذه الغزوات ، فحاولوا ، منذ عام ٨٤٥ ، الحد من اعمال النهب ، في غاليا وانكلترا ، عن طريق شراء سلامة ممالكهم بتنظيم جباية خاصة ودفع غرامة سنوية للنورمانديين، وهو حل ليس فيه ما يشرفهم ، كما انه ينفّر الشعب ولا يعطي نتائج يمكن الاطمئنان اليها . ومن جهة اخرى ، ان تفاقم اضطراب حبل الامن والشعور بعدم الاطمئنان اضطر الدولة لتوسيع نظام الولايات العسكرية (*Marches*) الى جميع اطراف المملكة والاكثار من القلاع والحصون ، وعلى توزيع الجيش الملكي على نقاط معينة للقيام باعمال السهر على الامن ، وان يتخلّوا عن المبادره في الاعمال العسكرية ، لممثليهم الاقليميين . وهكذا أعدّ النفوس وتهيأت افكارهم لقبول فكرة توزيع سلطات القيادة .

وقد سببت هذه الغزوات خسائر مادية جسيمة للغاية . فقد نهب الغزاة اوروبا وسلبوها جانباً كبيراً مما لديها من مخزن المعادن الكريمة . واذا لم يحدث فقدان المجوهرات المذخورة في الاديار ، تأثيراً مباشراً على تداول النقد ، بين الناس وعلى الحركة التجارية ، فالامر جاء على عكس ذلك من هذه الفديات والغرامات التي كانت تفرض بانتظام على الممالك والمقاطعات ، اذ حرمت البلاد من كميات كبيرة من العملات المسكوكة. وقد قاست الارياف على الاخص ، كثيراً من هذه الغزوات، اذ ان سكان المدن كثيراً ما وجدوا لهم مأمناً وملاذاً ضمن الاسوار الحصينة التي ردّت عنهم هجوماً مفاجئاً . وهذا التطور الديموغرافي الذي لوحظ في المقاطعات الواقعة الى الشمال من غاليا ، في مطلع القرن التاسع ، توقف فجأة وانقطع بغتة فاقفرت اجزاء البلاد الاكثر تعرضاً لهذه المخاطر، من جراء ما تعرّض له الاهلون من اعمال القتل والمذابح، والخطف

والإجلاء ، والفرار ، ونقص المواد الغذائية ، فعادت الأرض بوراً ليس من يعنى بها .

كذلك لحق بالتراث الادبي والفكري الكثير من الاذى ، اذ ان الغزاة اخذوا يهاجمون على الاخص ، الديارات ، في ارلندا وانكلترا وشمالي مملكة الفرنج ، للنهب والسلب والخراب، بينما فر عدد كبير من الرهبان من الاديار الاخرى ، هرباً من الغضب المداهم ، حاملين معهم ذخائر القديسين وما خف حمله من الحلى والجوهرات والاواني الكريمة ، سعياً منهم وراء ملجأ يأمنون اليه ويطمئنون الى سكناه، وقد استهدفوا، بعد ان انقطعت اسباب العيش للصروف والظروف المريرة التي يخفيها الجلاء المفاجىء ، لمن عضتهم الاقدار بانياب حداد ، فتحللوا من فرائضهم الكهنوتية ، واستبيحت مكتباتهم ، وتفرقت محتوياتها من المخطوطات ايدي سبا ، واهملت الدروس ، وانقطعت كل عناية بها . وهكذا قضي على الحركة الفكرية التي كانت اخذت تزدهر في عهد الدولة الكارولنجية مع ان هذه الحركة لم تتأثر كثيراً من جراء التقهقر الذي بدت بوادره مع انحطاط الدولة المذكورة . وقد انحدر المستوى الثقافي والحضاري بعد ان تغلغلت في البلاد وانسرحت فيها عوامل البربرية والهمجية والوثنية ، وعمت الفوضى التي يحملها معه البؤس والشقاء ، ومثول الخطر الماحق باستمرار .

صحيح انها رجعة او حركة الى الوراء ، انما حركة محدودة ، موقوتة . أما انها محدودة فلأن كل بلدان اوروبا الغربية لم تتضرّس بدرجة واحدة من الخراب والدمار ، الذي جرته هذه الموجة من الغزوات على الناس ، كما انها كانت قصيرة المدى ومرت بسرعة باستثناء تلك التي تعرضت لها الجزر البريطانية ، وغاليا الشمالية ، ومقاطعة بروفانس ، تخللها فترات طويلة من الهدوء والسلام، أمكن رتق الفتق واصلاح ما تعطل او اختل من شؤون الادارة والامن، ولأنه قام ، في كل مكان تقريباً ، ملاجىء وغابات ومدن حصينة وأديار امكن تسويرها وتحصينها بسرعة، حيث يمكن التخفي فيها والتواري وراءها، عند اول بادرة خطر ، ووضع أثمن الاشياء بمأمن من عبث الغزاة . وأما انها حركة موقوتة ، فلأن الغزوات توقفت ، وقد أُلِف الناس ، في الغرب، شيئاً فشيئاً هذه الاساليب الحربية. فكلما ازدادات أعمال التحصينات حول الصروح والقصور ، قلّت ، بالتالي المخاطر التي تنطوي عليها هذه الغزوات ، كما عادت على القائمين بها بكسب اقل . وفي الوقت ذاته ، وقمت في البلدان الاصلية التي خرجت منها هذه الغزوات ، تغييرات جذرية خففت من شوكتها وكسرت من حدتها. فالجو الرُحّل استقروا نهائياً في سهول هنغاريا حيث انقطعوا للفلاحة والزراعة . والسلطة الملكية ، اشتد منها الساعد وقوي العَضُد في البلدان السكندينافية : في النروج ، في اخريات القرن التاسع، مع الملك هارالد هارفغر ؛ وفي الدانيمارك ، خلال القرن العاشر ، مع الملكين غورم و « هارالد ذي السن الزرقاء » . وهكذا خفّت وطأة الخطر الى ان توارى تماماً . وآخر مرة استهدفت بلاد الفرنج لخطر جلل ، كانت عندما تعرضت ، عام ٩٢٦ ، لغزو جيش لجب من الدانيماركيين ، والنصر الذي سجله ملك جرمانيا ، عام ٩٥٥ ، عند نهر اللخ ، فوضع حداً نهائياً لخطر المجر . وعندما سقط ، عام

٩٧٢، المعقل الذي اتخذ منه المسلمون قاعدة لهم في جبال *Maures* من اعمال مقاطعة بروفانس، امكن تطهير منطقة جبال الألب من هؤلاء القراصنة الذين عاثوا فساداً في تلك المنطقة ، مدة طويلة . وهكذا انقضى عهد الغزوات دونما رجعة لتبقى انكلترا تعاني وحدها ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ضغط قبائل النوروى ، بحيث اصبحت اوروبا البرية في مأمن من اي غزو اجنبي.

ومع هذا ، فالغزوات التي وقعت في القرنين التاسع والعاشر ، لم تحمل في ثناياهـــا ، غير الخراب والدمار . فالاتصالات الجديدة التي ادت اليهـــا ، ساعدت كثيراً على نشر المسيحية وتغلغلها بين هؤلاء الاقوام . هنالك عـــدد لا بأس به من الفيكنغ ، اقتبسوا مبادىء الديانة المسيحية ونقلوها معهم الى ارجاء سكندينافيا حيث امتزجت بالعقائد الوثنية واختلطت بها . وهذه الفترة من « الايمان المختلط » مهدت السبيل نهائياً، لارتداد هؤلاء الاقوام، الى المسيحية ، بالجملة بعد ان لقوا تشجيعاً حاراً من قبل الملك هارالد ، ملك الدنمارك ، والملك « اولاف » ملك النرويج . وقد كان من اثر هذه الغزوات ان عادت بالنشاط على الحركة التجارية . فالانتقال من مجال القرصنة الى مجال التجارة حركة يكاد لا يشعر بها الانسان . والمخيمات الدائمـــة للغزاة النورمنديين ، كانت خلال فترة الحروب ، امكنة تقام فيها الاسواق التجارية والمعـــارض . والحركة التجارية، في البحر الشمالي، التي اصيبت بشيء من التأخر، خلال الهجومات الاولى العنيفة، لم تلبث ان عادت سيرتها الاولى من النشاط . واخيراً وليس آخراً ، شهدت بعض المقاطعات استيطان الفيكنغ واستقرارهم نهائياً في ربوعها ، بشق الاشكال والاوضاع ، كصيادي اسماك ، وتجار متجولين بين ارلندا والسواحل البحرية الاخرى ، وبعض وحدات من المعمرين الزراعيين في الشمال الشرقي من انكلترا ، وظهور ارستوقراطية عسكرية ، سيطرت على سكان البـــلاد الاصليين ، عند مصب نهر السين . وهذه المقاطعة « نورمنديا » لم تعتم ان اصبحت من انشط المقاطعات التي عرفها الغرب ، تشهد الحركة الزاخرة التي قامت فيهـــا ، على خصب التربة السكندينافية .

وهكذا بعد ان توقف تطور المدنية في الغرب ، من جراء الاضطرابات وأعمال السلب التي رافقت هذه الغزوات ، لم تلبث الحضارة ان استأنفت سيرها وئيداً عندما عاد الامن الى نصابه والسلام الى محرابه . صحيح انه لم تعد الى اوروبا وحدتها ، ولكنها احتفظت بخير ما خلّفه العصر الكارولنجي . وهذه البذور الطيبة التي هبطت في الارض في العهد الذي احاط بشارلمان وحفّ به لم تلبث ان أتت طلعاً شهياً، اختلف طعمه وتباين مذاقه باختلاف الاقطار المسيحية .

انكلترا السكسونية

قاست انكلترا من هـذه الغزوات التي تحالفت عليها اهوالاً شداداً ، مدة طويلة . فأديارها التي كانت منائر أشعّت على القـــارة جمعاء ، أصبحت خراباً يباباً . ومدينة يورك ، مسقط ألكويلس ، اشهر علماء زمانه ، اصبحت ، بين ٨٦٧ – ٩٥٤ عاصمة مملكة سكندينافية وثنية . ومع ذلـــك ، فالحضارة الانكلوسكسونية

عرفت ان تجتاز المحنة التي نزلت بها ، بسلام ، ولم تلبث ان نهضت بعد ان استجمعت قواها ولملمت من شعثها . فاتخذت من مملكة وسكس ، اكثر ممالك الجزيرة الى الغرب ، قاعدة لها ، وعرف ملكها ألفريد الكبير (٨٧١ – ٨٩٩) ان يقاوم بعناد ، الغزاة السكندينافيين وان يسترجع منهم قسماً من الارض التي كانوا اغتصبوها منه ، واستطاع ان يبقي تحت سيطرته وسلطانه كل الاراضي التي فتحها او استرجعها ، بحيث ألتفت كل المقاطعات الانكلوسكسونية مملكة واحدة . وحاول الملك الفريد ان يعيد الى الثقافة رواءها ، فاستقطب حوله في البلاط ، عدداً من العلماء الرهبان استقدمهم من القارة ، ولا سيما من مدينة ريمس . ولما كان مقتنعاً كل الاقتناع ان اسباب المعرفة يجب ان تنتشر بين طبقات المجتمع العلماني ، لم يقصر جهده فقط على نشر الآداب اللاتينية والكلسية . فوضع تحت اشرافه المباشر ترجمة الآثار الكلاسيكية الى اللهجة الشعبية ، من بينها كتاب غريغوريوس الكبير المعنون « *Cura Pastoralis* » او الرسالة الراعوية ، حيث نرى تحديداً واضحاً لمهمة الاسقفية ولاهدافها ، كما أشرف على ترجمة « التاريخ الكنسي » للطوباوي بيد ، ونقل مؤلفات « بويتيوس » و « أوروز » وكتاب *Soliloques* للقديس اوغسطينوس ، فساعدت هذه الترجمات والنقول على تقعيد اصول النثر الانكليزي وتوطيدها .

ففي الوقت الذي كان فيه خلفاء الملك ألفريد الكبير : كأدارد القديم «وأثلستان» ، يواصلون الجهاد ضد غزاة الدانيماركيين وتوصلوا الى تحرير القسم الشمالي الشرقي من انكلترا ، تماماً ، استمرت الثقافة ، في ازدهارها مستعينة على ذلك بالمؤسسات والهيئات الكنسية التي عادت اليها العافية واخذت تتجدد . وعلى نقيض الحركة القديمة ، عولت حضارة الجزيرة ، هذه المرة ، على مؤازرة القارة لها ، وجلب دم جديد لها جيء به من المراكز الثقافية والحضارية الجرمانية المشبعة باخلص وانقى التقاليد الكارولنجية . فاصلاح الحياة الرهبانية الذي باشر به القديس « دولستان » ، في دير غلاستونبري ، في مقاطعة سمرست ، جرى الاخذ به وفقاً للمبادىء والقواعد التي يسير عليها رهبان دير فلدري سير لوار ، وسان بيير الكبير « واينسيدالن » ، يرعى هذه الحركة الاصلاحية كل من الاحبار « إيثلوولد » من ونشستر ، واوزوالد من ورسستر ، الذي استقدم الى الدير حيث يعيش ، ليعهد اليه بالتعليم ، الراهب الفرنجي « ابون ده فلوري » . وقد انتهت هذه الحركة الاصلاحية باعلان ما يعرف : « الاتفاق القانوني للامة الانكليزية » ، وذلك في مجمع ونشستر ، الذي انعقد حوالي عام ٩٧٠ . وهذا الاصلاح للحياة الرهبانية في انكلترا ، ساعد كثيراً على ازدهار الحياة الفكرية والفنية فيها ، اذ كانت قاعدتها الأم كاتدرائية ونشستر التي كانت مركزاً ممتازاً للنسخ المخطوطات وزخرفتها وتنميقها ، بعد ان استوحت في عملها الفني هذا النماذج الكارولنجية . وقد درج اذ ذاك استعمال الحرف « الكارولينجي الصغير » ، وانتشر في جميع مراكز نساخة المخطوطات في انكلترا ، بينما سارت الكنائس الجديدة التي انشئت اذ ذاك ، في طراز عمارتها ، على الطراز الهندسي المستعمل

في منطقة رينانيا . وقد اخذ النشاط يدب ايضاً ، في اواخر القرن العاشر ، بين هذه المقاطعات الانكلوسكسونية التي ما زالت عرضة للخطر السكندينافي . واشتدت سلطة الملـــك وقويت هيبته في النفوس ، خلال الحروب التي دارت رحاها لاسترجاع البلاد المغتصبة . غير ان انكلترا فقدت ما كان لها من مركز الصدارة في الاشعـــاع الحضاري المسيحي . فالسناء الذي طبع مدنيتهـــا ، اذ ذاك ، مكتسب منقول هو ، والنهضة التي نشهدها فيها ليست سوى وميض جاءها من تألق النهضة في القارة .

فرنكيا الغربية

في مملكة فرنكيا الغربية ، كما حددتها معاهدة فردان ، بلغ انحلال السلطة السياسية وتدهورها ، في هذه الفترة ، حداً لم تبلغه من قبل . فقد تنازع السلطة الملكية ، طوال القرن العاشر ، خلفاء شارل الأصلع وورثة المركيز « روبرت القوي » الذي كان تولى امر الدفاع ضد النورمنديين ومقاومتهم ، بعد ان استقر بهم المقـــام ، بين اللوار والسين . وقد ادت هذه المنافسات بالنتيجة الى المزيد من انقسام السلطة الملكية . فقد اصبحت المملكة عبارة عن امارات مستقلة الواحدة عن الاخرى ، بينها دوقيات : فرنسا ، وبورغونيا ، واكويتانيا ، ونورمنديا ، ممثلة لاهم العناصر العرقية او الاثنوغرافية التي تسكنها ، بعضهـــا امتداد لهذه الدويلات البربرية القديمة ، آخرهـــا الدوقية التي تكونت من استيطان غزاة النورمنديين واستقرارهم فيها ، بينما تألفت امارات اخرى حول كونتيات عديدة ، منهـــا : كونتية الفلاندر ، وفيرماندوا ، وشمبانيا ، وأنجو ، وتولوز ، بعد ان تمكن امراؤها من فرض سيطرتهم وهيبتهم على الطبقة الارستوقراطية المحلية . صحيح ان اسياد هـــذه الامارات والكونتيات ، يستمرون كالموظفين الكارولنجيين الذين يتحدرون منهم ، على ولائهم للملك انما هو ولاء لا يعني اية تابعية او علاقة خضوع ، او اي ارتباط بالملك . فالمناداة بهم التي كانت توليهم حق اصدار الاوامر وفرض القصاص والعقاب — وهو حق كان يناله اسلافهم بانعـــام خاص من الملك — اصبحت حقاً وراثياً مكتسباً ، يستعملونه دونما رقيب او حسيب . والمحطاط السلطة الملكية وانحلالها هو اشد وطأة في جنوبي المملكة حيث لم يُتح لتقاليد التبعية الكارولنجية ان ترسخ وتمكن بين الناس . ففي السنوات الاخيرة من القرن العاشر ، لم يلبث الكونتية انفسهم ان فقدوا سيطرتهم ، والحقوق الملكية تتفلت لتستقر في المقاطعات والاقضية او في احد الاديار التي تنعم بالاعفاء او بيد القيّم على احدى القلاع او احد الحصون . وامر المناداة بالملك تنوع وتشعب ، واذ بنا يطل علينا وضع خاص او نظام خاص هو ما يعرف بالاقطاع .

ويتميز هذا الوضع السياسي القائم بالغموض الذي يكتنف معنى السلطة العامة . فكل سلطة ، هي سلطة خاصة . فالذي يتولاها بالارث يرى فيها جزءاً لا يتجزأ مما تم له من ميراث ، فيمارس هذه السلطة لما فيه خيره ومنفعته الخاصة . فهو يجنّد احرار الرجال دفاعاً عن ثؤرته الخاصة ، والرسوم التي يتقاضاها الفلاحين لقاء الحماية التي يوليهم اياها ، لا مبرر لها سوى العرف المعمول به ، ولذا راحوا يطلقون عليهـــا اسم « العوائد » . فاذا ما أفتى في امر ، او اصدر حكماً في

قضية ما ، فطمعاً منه بما تؤمنه له هـــذه الاقضية والاحكام ، من منافع خاصة ، كالغرامات والمصادرات . طبيعي جداً ان تكون هذه النظرية غيّرت كثيراً من مفهوم مؤسسات الدولة الكارولنجية ونُظُمها ، ومن قوام المجتمع نفسه . فالجيش الملكي توزع بين المخافر او رابطت وحداته في القصور ، وهذه الهيئات القضائية العامة القديمة العهد ، استحالت حاشيات خاصة ، ودوائر استشارات الكونتية تحولت ، هي الاخرى ، الى بلاطات اقطاعية يختلف اليها أعضاء الارستوقراطية المحلية ، ومجالس المائة او الألوية اصبحت محاكم تابعة للأمراء تتولى محاكمة الفلاحين التابعين لرب الارض ، سواء منهم الاحرار والارقاء ، وامام السلطة الخاصة التي يتمتع بها ارباب القصور واصحاب الامتيازات ، فلم يلبث التمييز بين الحرية والعبودية عندهم ان زال تدريجياً من اذهان الناس ، بينما اتسعت الهوة بين هؤلاء الفقراء الذين يستثمرون بأنفسهم املاكهم وعقاراتهم ، وبين الأغنيـاء او السراة من الأثرياء الذين تؤمن لهم أملاكهم الواسعة دخلاً طيباً يستطيعون معه اقتناء حصان للطعان ، وتأمين اسلحة كاملة كفارس ، والتمرن على مسايفـــة الفرسان في اوقات فراغهم ، فهم وحدهم يستطيعون ان يلعبوا دوراً له شأنه في المعارك . ففي اواخر القرن العاشر ، في هذه الفترة التي انتسخت فيها كل معالم المنظمات العامة التي عُمِل بها في عهد الفرنج ، نرى المجتمع العلماني ينقسم الى قسمين بارزين : من جهـة ، الفلاحون سواءاً أكانوا مرابعين او مستأجرين او مشدودين الى ملكيـة الارض . فهم يخضعون لعدل وعدالة السيد او الرب الذي يعيشون في كنفه واستثمار ارضه ، هذا السيد الذي له الولاية على المقاطعة ، او مـن تعود اليه ملكيتهم بحق وراثي . ومن جهة ثانية ، الفرسان وهم محاربون محترفون معفون من الضرائب المعمول بها في المنطقة ، والذين لا يرتبطون به الا برابطة الولاء يؤدّونها طوعاً واختياراً ، والذين تربطهم برئيس الاقطاع روابط وعلاقات خدمة السلاح والاستشارة ، وكلهـا خدمة محدودة النطاق ، والذين لا يخضعون لأي ضغط او اكراه . من هذه الفئة تطلع النخبة المحدودة لأصحاب الولاء المحلي ، من نسل المساعدين العسكريين في عهد النظام الملكي القديم .

ان استيلاء رؤساء الشرطة المحلية على صلاحيات القيادة لم يكن سوى تطبيق موفق للنظم السياسية والاجتماعية المتبعة في الاقتصار العقاري حيث المواصلات في وضع لا تحسد عليـــه ، وحيث السلطة الفعلية هي بيد كبار الملاكين . وهـــذا التقاطع او التوزع للسلطة الذي تهيأت أسبابه منذ عهد بعيد وتأخر تطوره برهة من جراء توحيد السلطة الملكيـــة في عهد الدولة الكارولنجية ، بدا للناس ابان غزوات السكندينافيين والدانيماركيين ، المنظمة الوحيدة التي باستطاعتها المحافظة على السلام والنظام . فلنحاذر من ان نرى في هذا الحادث ، عاملاً من عوامل الانحطاط والانحلال . فالنظام الاقطاعي حقق ، على العكس ، بعض التوازن ، ويبدو انه مهّد السبيل جيداً امام انتشار المدنية الغربيـة . وبالفعـل ، ففي الوقت الذي استقر فيه النظام الاقطاعي نهائياً في فرنسا ، في اواخر القرن العاشر ، ظهرت بوضوح وجلاء بوادر نهضة جديدة .

الأمال المعقودة على مجتمع قوامه النظام الاقطاعي

كان النظـــام الاقطاعي اقوى وامتن ركن ارتكزت اليه السلطة الملكية. ففي عام ٩٨٧، وهي السنة التي تم فيها انتخاب روبرتيان هوغ كابت ملكاً، دخل هـذا النظام صميم التقاليـد العائلية لمركيزة فرنسا القدماء، اغنى الاسر على الاطلاق في غاليا الشمالية.. فمنذ هذا التاريخ فصاعداً ليس للملك حقوق مجزأة، متقطعة، متناثرة، بين مجموعة المقاطعات التي تشكلت منها فرنسا، اذ ذاك، من العسير استثمارها والانتفاع بها، بعلم واصول، بـل جملة من الحقوق المتماسكة، نواتها وركيزتها الكبرى، املاك وعقارات ومداخيل مختلفة محشودة حول باريس واورليان. والى هذا الاساس العقاري القوي الذي تفوق متانته متانة اقوى الامارات الاقطاعية، اذ ذاك، يجب ان يضاف دعامتين قويتين اوجدهما النظام الملكي الفرنسي، هما: من جهة حفلة التكريس الرسمية التي أضفت على شخصية الملك، هالة رمزية ومهابة في قلوب الجميع، فجعلت منه بحق، المدافع التقليدي عن الكنيسة، وهو تكريس، يوليه، وفقاً للتقاليد الكارولنجية، حق تقديم عدد كبير من خيرة رجـــال الدين والاكليروس لترشيحهم للمناصب الاسقفية ورئاسة بعض الاديار، ومن جهة اخرى رابطة التبعية التي تصبح الاساس الصحيح لعلاقة ادبية، روحية، شدّت الى شخصية الملك، ليس كل ارباب السلطة في المملكة، على اختلاف مستوياتهم، اذ ان سلّم الولاء او تسلسله فقد شكله الهرمي، وتوزع الى وحدات من التبعيات المستقلة، لا عد لها ولا حصر، بل اكثر الدوقية والكونتية سلطة ونفوذاً.

ومن جهة اخرى، فهذه النهضة الاقتصادية التي ظهرت بوادرها في عهد شارلمان، اخذت معالمها تتضح اكثر فاكثر. ففي سنة ٩٥٠ وما اليها، نرى أدلة بينة تشهد على نشاط العاملين على احياء موات الارضين، وتكاثر عددهم في البلاد، وذلك بفضل تحسين تقني ادخـــل على وسائل الفلاحة والزراعة، استطاع معها الفلاحون والمزارعون ان يعمّروا الاراضي الحرجية، وان يتعاونوا معاً ويتناهدوا على إحياء اراض جديدة للزراعة، بعد ان اقتصر عملهم من قبل، على القطع الجرداء الواقعة في قلب الغابات. فمهدت هذه الورش والمشاريع الزراعية السبيل لمضاعفة انتـاج المواد الغذائيـة، وسهّلت بالتالي، الطريق امام تطور ديموغرافي وتكاثر عدد السكان، الامر الذي ادّى، تباعاً، الى القضاء على الاراضي البور، والى تسهيل اتصال الناس بعضهم ببعض، فنشطت المقايضات التجارية، وتبايع النـاس نبيذ حوض باريس، والملح المستخرج من سواحل المحيط الاطلسي، جرى تسويقه وتنفيقه في مناطق الشمال، بينما نشطت الحركة الاقتصادية، مع اسبانيا الاسلامية، كما ازداد، في النصف الثاني من القرن العاشر، عدد التجار المتنقلين الذين كانوا ينقلون سلعهم من البحر الشمالي، عبر وادي الموز، وهضاب مقاطعة شمبانيا وبورغونيا واوفيرنيا ووادي الرون حتى البلاد الاسلامية.

وعلى طول هذه الطرقات في هذا القسم الشرقي من مملكة فرنسا، اقرب هذه المقاطعات الى مراكز الاشعاع الفكري والفني في جرمانيا وايطاليا، في هذه الولايات بالذات التي لم تتعرض كثيرها

لغزوات قبائل الشمال، والتي كانت ملاذاً لرجال الفن والعلماء والكتب، نرى ينشط ويزدهر هذا التراث الادبي والثقافي الذي انتقل الينا من عهد الدولة الكارولنجية . وقد نشطت للعمل بعض المدارس الكاتدرائية ، منها مدرسة ريمس ، مثلاً ، التي جرى تجديدها وبعثها في اواخر القرن التاسع ، على يد رئيس الاساقفة فولك ، ليتولى ادارتها بنجاح ، بعد عام ٩٧٢ ، جربرت دوريّاك الذي استطاع ان يحصل ، خلال اقامته في روما وفي الولايات العسكرية المتاخمة لاسبانيا ، وان يجمع اكبر قدر من المعارف والمعلومات ، حول الفنون والعلوم التي تؤلف نواة منهاج الـ *Quadrivium* . ولما كان المصف الاسقفي منهمكاً اذ ذاك ، بالشؤون المادية والدنيوية ، ومنغمساً بالمؤامرات والدسائس التي كانت تحاك في الاقطاعات والامارات ، ويتسكع ، على العموم ، في وضع زري من الانحطاط ، فالمراكز الاكثر نشاطاً وإثماراً ، كانت ، ولا شك الاديار ، أمثال دير فلوري سير لوار، حيث كان علم المنطق والجدل يزدهر على يد الراهب ابّون ، احد تلاميذ مدرسة ريمس ، ودير سان مرسيال ده ليموج المشهور بكونه قاعدة نشيطة لنساخة المخطوطات وتزويقها وتحليتها ، حيث كانت تبذل عناية خاصة بتطوير الطقوس الليتورجية ، وادخال تحسينات على التراتيل والاناشيد الكنسية المتعددة الاصوات ، مهيئة السبل لطلوع المسرح الديني . واخيراً دير كونك ، حيث تم حفر ونقش صندوقة ذخائر القديسة فوا ، فكان اول تمثال تم وضعه في الاجيال الوسطى ، واخيراً « دير كلوني » .

تأسس هذا الدير عام ٩١٠ ، على يد غليوم الاكويتاني ، وتولى ادارته الراهب « برنون » رئيس دير « بوم » ، ودير « جيني » ، وادخلت عليه الفرائض البندكتية ، كما شرحها وفسّرها وعلق عليها بندكتوس الأنياني . فبعد ان تخفف الرهبان عملياً ، من كل المهام والاشغال المادية واليدوية ، وعهدوا الى خدام بقضاء حوائجهم وتأمين خدمتهم وأمّنوا كفاف معيشتهم بفضل ايرادات املاكهم الواسعة ، انصرفوا بكليتهم لما فيه مرضاة الله ، والاحتفال بكل ابهة ، بالطقوس الليتورجية . وكان الدير ، وفقاً لارادة مؤسسه ، بمعزل من كل تدخل علماني بشؤونه، يرتبط مباشرة بالكرسي الرسولي في روما ، ونال في اواخر القرن العاشر انعام الاعفاء الذي يجعله خارج نطاق اشراف اسقف المحلة او البلدة . وساعدت الحياة الرهبانية المثالية التي سار عليها جمهور الرهبان والآباء ، على اذاعة شهرة هذا الدير ورفع اسمه في العالم المسيحي ، فتدفقت عليه الهبات والأعطيات . وعهد الى رؤسائه « أودون » ، و « أيمارد » ، و « مايول » ، وكلهم من رجال التقى ، مشهود لهم بالفضل والعلم وحسن السيرة ، التفرغ بهمة قعساء ، لاصلاح بعض المؤسسات الرهبانية ، كما عهد اليهم بقيادة هذه الاديار التي تولوا اصلاحها ورئاستها . وهكذا ، اطلت علينا الرهبنة الكلونية التي ضمت عدداً من الاديار ، تعمل تحت رئاسة رئيس عام ، اخذت تمتد وتنتشر باتجاه مقاطعة الاوفيرني وشواطىء البحر المتوسط ، كما قام لها اديار تناثرت حباتها على طول الطرقات التجارية

وكانت هذه الطرق تفضي بسالكيها الى مشارف اسبانيا الاسلامية . اما الولايات المسيحية الواقعة على هذه الحدود، كمملكة استوريا، مثلاً فقد كانت ملاذاً لعدد كبير من مسيحيي اسبانيا لجوا بانفسهم من حكم خلفاء قرطبة حاملين معهم اساليب هندسية معمارية جديدة ، وعناصر تحلية وزركشة مستمدة من الفن الشرقي . وقد قام في هذه الولاية الاسبانية اديار مزدهرة كان لها من الشهرة وبعد الصيت ما جذب اليها جربرت دورياك ، ليدرس فيها الرياضيات والعلوم العربية . وقد اصبحت هذه الاديار مراكز ثقافية عرفت بنشاطها وعملت على اغناء الثقافة الاوروبية . ومع ذلك فقد كان الجانب الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية القديمة ، في النصف الثاني من القرن العاشر ، المركز الاكبر لهذا الاشعاع الفكري الديني في الغرب .

جرمانيا وامبراطورية اوتون

فكما ان تأسيس الدولة الكارولنجية ارتكز ، في القرن الثامن ، واتخذ قاعدة له اقل المقاطعات الفرنجية تطوراً ، وابعدها إيغالاً في الروح الهمجية ، هكذا تمّ تجميع القوى السياسية وتوحيدها ، في القسم الشرقي من اوروبا ، في قطر هو احدث الاقطار الجرمانية عهداً بالمسيحية حيث الاعراف والعادات والتقاليد الجرمانية ، كانت لا تزال محتفظة بحيويتها ونشاطها ، وحيث قام التنظيم العسكري وارتكز على طبقة واسعة من الرجال الاحرار ، هو قطر الساكس الذي انتخب حاكمه الدوق هنري ، عام ٩١٩م ، ملكاً على جرمانيا . فقد اخذ العاهل الجديد ينظر الى السلطة التي تمت له ، نظرة بدائية وصرف جل همه للدفاع عن ولايته غير ان ابنه اوتون الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣) جهد نفسه ليعيد للملكية سيادتها وهيبتها باحياء التقاليد الكارولنجية وبعثها من جديد. فقد جرى تتويجه في احتفال رسمي علني ، وجرى تكريسه ودهنه بالزيت المقدس في مدينة اكس لا شابيل . وحاول ان يحد تدريجياً ، دون ان يلغي رتبة الدوقية ، من استقلال حاملي هذا اللقب من امراء البلاد ، وان يحملهم على الاعتراف بحقوق الملك داخل الدوقيات الوطنية ، وان يقيم علاقات مباشرة مع الكونتية أنفسهم . وراح يطبق اخيراً الأساليب التي سار عليها الاوائل من ملوك الدولة الكارولنجية ، محاولاً ان يجعل من رجال الاكليروس الذين يتولى هو نفسه ترشيحهم للصف الاسقفي ، ويقلدهم لقب كونت يحملونه في المنطقة التي يقع فيها الكرسي الاسقفي ، معاونيه ومستشاريه في الادارة ويثق بهم كل الثقة . وهكذا تمكن من الحد من امتيازات الامارات المحلية ، وان يؤمن السيادة وحق الصدارة للملك الذي هو وحده المدافع الاول ، والمناضل الاكبر عن السلام ، ومقيم العدل بين الناس ، وموزع العدالة في كل ارجاء المملكة الجرمانية ، دون ان يغلو في استعمال حقوق التبعية وآصرة الولاء التي له عليهم . وهكذا لم يتمكن صغار الرؤساء المحليين من ان ينتصبوا ، كما فعلو في فرنسا ، السلطة الملكية ، اذ بقي الناس في المقاطعات الجرمانية يشعرون عميقاً بوجود جيش وبوجود هيبة للسلطة العامة . وهكذا بقي حياً في النفوس الشعور بالحرية ، هذا الشعور الذي جعل الناس يحسون انفسهم مرتبطين رأساً بأعراف وتقاليد ملكية .

وهذه الانتصارات يحققها الامبراطور اوتون الكبير على الصقالبة والمجر ، زادته مهابة في النفوس واحتراماً عندهم ، فاستطاع ان يتابع الرسالة التي قام بها الكارولنجيون باشر الديانة المسيحية وحملها ابعد الى الشرق والشمال ، واصبحت مدينة همبورغ في عهده ، قاعدة للكنائس السكندينافية الحديثة العهد ، ومرجعاً رئيسياً لها . وفي سنة ٩٦٢ ، انشىء في مجدبورغ كرسي اسقفي ، واخذ نفوذ ملك المانيا يمتد الى البلدان المسيحية المجاورة لجرمانيا ، كما كان الملك الحكيم الفيصل في هذه الاختلافات والمنافسات العائلية التي نشبت في فرنسا ، بين الكارولنجيين وانصار روبرت كابت ، واخضع عام ٩٤٠ ، مقاطعة لوثرنجيا لسلطانه ، وأتاه ، عام ٩٤٢ ، ولاء ملك بورغونيا ، واخيراً اعترف به ملكاً عام ٩٥١ ، وفي عام ٩٦١ نودي به ملكاً على ايطاليا ، وولاه البابا يوحنا الثاني عشر ، رتبة الامبراطورية ، وهو شرف عاد حقاً وشرعاً لمن له حق الصدارة في لمبرديا . إلا ان الشيء الوحيد الذي أضفى أهمية كبرى على تتويج الامبراطور ، عام ٩٦٢ ، هو انه ، لأول مرة منذ اواسط القرن التاسع ، وجد الامبراطور نفسه ، اقوى سلطة ، وأشد سطوة من أي امير قام في الغرب ، اذ كان باستطاعته ان يؤمّن ، بالفعل ، توجيه العالم المسيحي وقيادته . وخير دليل ، وأقوى شاهد على ما نقول ، هو ان الامبراطور اوتون ، غيرة منه على الدور السياسي الخطير الذي أسنده للأسقفية الجرمانية ، أولاها مهمة اصلاح الكرسي الرسولي وانقاذه الارستوقراطية الرومانية من الدسائس التي تحط من شأنها . فقد خلع البابا يوحنا ، في مجمع عُقد تحت رئاسته ، واستبدله ببابا آخر . فقد كان اوتو الكبير ، بحق ، شارلمان ثانياً ، وكان لتتويجه بالتاج الامبراطوري ، المدلول الذي يعني انه الباعث الجديد للامبراطورية الرومانية .

وهذا البعث ، وهذا التجديد للامبراطورية الرومانية طال واستمر ، اذ حمر الامبراطور هذه المرتبة في اسرته ، ففي الوقت الذي جرى فيه تكريسه ، تم تكريس زوجته امبراطورة ، كما توّج ابنه مسبقاً ، باسم اوتون الثاني ، عام ٩٦٧ . وبعد ان أمّن هذا المنصب بالوراثة ، تلبّست الامبراطورية معنىً اقوى واوقع في النفس ، كما راحت هيبتها تمكن في عقول الناس وترسخ في نفوسهم تمشياً مع النظرية البيزنطية في هذا المجال ، وهي نظرية عُمِد على نشرها والدعوة لها رجال الاكليروس في روما والاميرة اليونانية ثيوفانو زوجة اوتون الثاني . وكان من الامبراطور الجرماني الثالث ، اوتون الثالث (٩٨٣ – ١٠٠٢) ان امر بنقل كرسي ملكه الى روما . وبالاتفاق التام ، رأياً وروحاً ، مع الكرسي الرسولي الذي شغله اذ ذاك تحت اسم سلفستروس الثاني ، صديقه الحميم العالم جربرت دوريناك ، رغب ، على شاكلة الامبراطور قسطنطين الكبير ، من قبل ، ان يجعل من وظيفة الامبراطور ، بعد ان يستبدل تدريجياً كل اشكال السلطات السياسية التي تقاسمت اذ ذاك ، المسيحية اللاتينية ، رئاسة هي في الصميم : ادبية ، مسكونية ومسالمة . فكأنه كبر شأناً وزاد مهابة بعد ان تبنتها نظريات الرهبان الاكثر ثقافة الذين تألفت منهم بطانة الامبراطور لويس الورع ، وسياسة الملاينة التي اتخذها تجاه الاستقلالات

القومية ، ساعدت كثيراً على ربح الشعوب التي اعتنقت المسيحية حديثاً ، في جماعة المسيحيين الكبرى ، كالدوق البولوني « ماسكو » ، والملك اسطفانس المجري اللذين اعترفا برئاسة البابا الامبراطور رئيساً اعلى لهما .

والى الشرق من الحدود التي جعلتها معاهدة فردان حداً لمملكة فرنسا ، رافق اعادة الامبراطورية ازدهار واسع في الحياة الروحية والنشاط الفكري والفني ، هذا الازدهار الذي جاء تتمة للنهضة التي تمت في عهد الامبراطورية الكارولنجية ، وفقاً للأطر والتوجيهات التي وضعتها له الكنيسة ، والتي اتخذت عماداً لها ، تطوير المؤسسات الدينية برعاية هؤلاء الملوك ومؤازرتهم الشديدة ، اذ ان هذه المؤسسات نفسها ، ألّفت ، هنا ، كما ألّفت ، في عهد شارلمان ، سنداً قوياً للدولة الجديدة ، وأيداً قوياً شدّ من ازرها ووطّد من شأنها .

كذلك ، انطلقت الحركة ، في كل من انكلترا وبورغونيا ، باصلاح شامل للحياة الرهبانية ، في القرن العاشر ، راعى ، ولو بعيد ، وضع الكنيسة المختلف في كل من شبه الجزيرة الايطالية واللورين . واشرف على بعث الحياة الروحية ، في ايطاليا ، فريق من الزهاد والنساك ، تأثروا الى حد بعيد ، بنسّاك الصحاري والقفار ، امثال القديس نيل الذي رغب الامبراطور اوتو الثالث في استقدامه الى روما ، والقديس « رومواله » ، الذي عرف ان يوحّد بين طريقة الرهبان العائشين معاً عيشة مشتركة ، وبين النسّاك والحبساء ، في رهبانيات مشتركة تتألف من رهبان وزهاد ، جرى تأسيسها على مقربة من مدينة رافينا ، وفي جبال الابنين ، عرفت فيما بعد برهبنة « كاماللدول » . وعلى عكس ذلك ، كان القائمون بالاصلاح في اللورين عديدين ، اولهم « جيرار ده بروني » ، فراحوا يحاولون اصلاح فرائض القديس بندكتوس لارجاعها الى نقائها الاول . واكثر هذا الفريق نشاطاً وحماسة ، هو حنا فنديز ، الذي انتخب ، عام ٩٥٩ ، رئيساً عاماً لدير « غورز » في ابرشية متز ، وفرض على الرهبان قانوناً صارماً ، وافسح مجالاً واسعاً للطقوس الليتورجية ، وشدد ، بعكس دير كلوني ، على التقيد بفرائض التنسك واعمال التقشف ، وفرض على الرهبان ، العودة الى الشغل اليدوي والاتصال الدائم بالاساقفة . فلا عجب ان يحدث هذا الاصلاح للحياة الرهبانية الذي تم تحت رعاية الامبراطور وانتشر في جرمانيا ، تأثيراً بعيداً على رجال الاكليروس العلمانيين ، وساعد على تكوين احبار لهم قيمتهم الادبية العالية ، امثال نوتجر ده ليبج ، و « برنار هلدشايم » ، الذين انقطعوا لنشر الثقافة ، وتأمين ازدهار الآداب والفنون .

وهذه المطالب الثقافية العالية ، تفهمها الامبراطور اوتون وتبنّاها ، وراح ، تشبهاً بشارلمان وللاسباب ذاتها ، ينشىء مدرسة في قصره ويلحقها ببلاطه ، واستدنى اليه عدداً من علماء زمانه وحملة الثقافة ، فاستقدم من اللورين : « روثيه ده لوبّس » ، وعدداً كبيراً من ايطاليا ؛ بينهم « لاون ده فرسايل » و « ليوتبراند الكريموني » ، الذين انشأوا في مراكز التعليم

الكبرى ، في لمبرديا ، المعروفة بتمسكها بالتقاليد الأدبية والبيانية الرومانية . ففي كل مكان من هذه الامبراطورية التي عمها الاصلاح ، سارت الحركة الادبية والفنية ، في النهج الذي انطلقت منه في اواخر القرن الثامن ، وهو نهج اخذ ينمو ويزداد متأثراً بالروح والاهداف الواحدة ، اذ كانت وطأة الغزوات خفيفة عليه ، فلم تحدث فيه اي انحراف عن الصدد ، او اي انقطاع عن السير . والمراكز الرئيسية لهذه الثقافة هي هذه الاديار البندكتية الكبرى التي تأسست في مطلع الامبراطورية الكارولنجيه ، امثال كورفاي ، في مقاطعة الساكس ، ورايخنو ، وسان غال ، في مقاطعة « الصواب » . فهي التي غذّت المراكز الاخرى القائمة في منطقة الموزيل ، وذلك عن طريق العلاقات الثقافية التي ربطت بين مناطق الشمال وسهل البو في ايطاليا ، فامتد اثرها نحو الشرق البيزنطي عبر البندقية ، التي كانت في أبان ازدهارها .

فالحالة هي أشبه ما تكون بالوضع الذي تهيأ في مطلع القرن التاسع : فأهم وجوه النشاط لرجال الفكر هو درس الصرف والنحو وتأليف كتب في التاريخ ، منها مثلاً : « تاريخ السكسون » الذي وضعه « فيتوكند » ، والاهتمام بدرس الليتورجيا وتهذيبها عن طريق وضع اناشيد والحان موسيقيه دينية ، كالانجازات التي حققها في هذا المضمار هوكبالد ده سان امان ، ونوتكر او تويتيلوده سان غال ، ولا تزال الآثار التي وضعوها حية الى يومنا هذا بصيغتها وروحها . واذا كانت وضعت القصائد الشعرية المسماة *Waltharius* كالتي وضعها أكتّهار ده سان غال ، او ان الاساطير الجرمانية القديمة قد نقلت شعراً الى اللاتينية ، فقد تلقحت بافكار وموضوعات جديدة جدّدت منها الشكل وبعثت فيها روحاً جديدة ، الا انها كانت على الاجمال ، محاولات تقليد ومحاكاة لآثار كلاسيكية ، كهذه الهزليات والملهيات التي وضعتها الراهبة الرئيسة « هرُوسْويثا ده غندرشايم » محتذية فيها حذو الشاعر اللاتيني تيرانس . وعندما اراد المهندسون ان يشيدوا الكنائس الكبرى من غير عقود مزدوجة الحنايا ، كالكنيسة القائمة في دير جيرنرود ، راحوا يستلهمون المباني الضخمة التي انشئت في عهد لويس الوَرِع . واستمرار الاساليب الفنية ورسوم الديكور والتحلية التي راجت في العهد الكارولنجي ، يبدو واضحاً في الفنون التي اعتادوا ان يسموها الصغرى ، كما نرى ذلك في بدايات هالدشايم البرونزية ، وفي قطع العاج الموجودة في كنائس كولونيا ومتز أو في المجوهرات الموجودة في مدينة تريف وراتزبون ، وفي منمنمات « اخترناك » المزوقة ، ورايخنو ، أو في افاريز غولدباخ واوبرزيل . « فالنهضة التي رافقت عهد الاباطرة أوتون ، هي بالفعل المصير الذي انتهت اليه جهود ألكوينس ، والمهندس « أويد ده متز » والفنان الذين تولى تنميق مخطوطة المزامير في اوترخت .

والجدير بالنظر والملاحظة في معالم الحضارة الغربية ، في اواخر القرن العاشر هو التأثير البالغ للعهد الكارولنجي . فاوروبا برمتها ، بما لها وفيها من حدود وتخوم ، وما هي عليه من نُظُم ومؤسسات سياسية ، ومن نظام التبعية وعادة تكريس الملوك ومسحهم بالدهن ، وبعث

الامبراطورية ، ومؤسساتها الاقتصادية ، والسيادة الاقطاعية ، والنظام المالي ، وما الى ذلك من مؤسسات دينية ، وما يجيش فيها من روح وفن ، كل ذلك اخذ شكلاً واضحاً في هـذه الفترة التي نعمت فيهـــا هذه البلاد بالامن والوحدة ، وهي هذه الحقبة البالغة النصف القرن تقريباً التي احاطت بسنة ٨٠٠، فالمسيحية اللاتينية، اذ اتخذت ها مثل هذا الزمن الوطيد اصبحت بمنأى عن الغزوات ، وبمعزل عن الطوارىء المفاجئة ، وتجددت كلياً عن طريق المبـــادلات وازدياد السكان ، هي في أتم ازدهار وعلى احسن ما تكون استعداداً للانطلاق .

الفصل السادس

الشرق الأدنى : ازدهاره وأزماته
(القرنان التاسع والعاشر)

عرف العالم الاسلامي ، بين منتصف القرن التاسع ومطلع القرن الحادي عشر ، كيف يفيد الى حد بعيد ، من هذه النهضة الروحية وهذا الازدهار المادي اللذين تهيأت أسبابها في القرنين السابقين ، وهما نهضة وازدهار تحالف عليهما من الازمات والضائقات الاجتماعية والسياسية والدينية ما افقدهما الكثير من الرواء ، واذهب عنهما الكثير من مباهج النعماء . ففي هذا الوقت بالذات ، راحت الامبراطورية البيزنطية ، تلملم ما تشعّث من احوالها ، وما تفكك من اوصالها ، وتقوم ، هي الاخرى ، باصلاح شامل لاوضاعها، لاقى هو الآخر ، مشاكل وصعوبات اجتماعية تجاوبت اصداؤها في جميع ارجاء الامبراطورية . فنحن أمام امبراطوريتين تتعادل فيهما كفتّا ميزان القدر ، في وقت كان كل منهما يُحاول ان يطبع مصير المدنية ويُفرغ أحداث الدهر بما يتفق وطاقته على البناء والتكوين والانشاء . ومهما بلغ بينهما الخصام والعداء ، واشتدت بين الجانبين النفرة والجفاء حتى راحتا تستمطران السماء اللعنات الواحدة على الاخرى، فلم يكن لهما بد من ان يقوم بينهما شيء هو اشبه ما يكون بالتعايش السلمي ، خال معه كل منهما ذاته خالداً ابد الدهر ، فهما على شيء قريب أو شبيه ، بما تمّ لهما من نظم اجتماعية وحياة فكرية وادبية لمن هو في عمر واحد من الزمن مع الآخر . فاذا ما تشاجرا وتراشقا الضربات واللكمات، ففي اوضاع ومصطلحات مشتركة يفهمها جيداً كلا الفريقين، لانهما على صعيد سوي واحد .

فالصعوبة القائمة في وضع رسم بياني للمجتمع الاسلامي المترامي الاطراف : من جبال الاطلس ومشارف الاوقيانوس غرباً ، حتى نهر الهندوس شرقاً ، هي نفسها الصعوبة يلاقيها من يرسم مثل هذا الشكل البياني للمجتمع الاوروبي ، الممتد من نهر الِعبْر (في اسبانيا) الى جبال الاورال . فلن نقف ، والحالة هذه ، الا عند القسمات البارزة ، والملامح المميزة ، والمفارقات المشتركة ، والاحداث الكبرى الناتئة .

التجـــارة

فالعلم الاسلامي والمجتمع البيزنطي ، كلاهما ، من الوجهـة التقنية ، في حـدود المستوى القديم تقريباً : فلم يحدث في اي من الجانبين ، اي اختراع واكتشاف جديد استطاع ان يغير أو ان يبدّل من الاوضاع السياسية التي احاقت بالانتاج والمبـادلات التجارية . فالتجارة واوضاع الحياة في المدينة ينعمان بمركز ممتاز اذا ما قيسا بالوضع الذي كان عليه الغرب في هذا العصر المشترك ، وعلى درجة اقل ، اذا ما قيسا بما كان عليـه الوضع في التاريخ القديم . ومع ذلك ، فليس هو بالوضع المسيطر أو المتحكم ، اذ ان معظم الاهلين يقطنون خارج المدن، في الريف ، والزراعة وتربية الماشية هما المعوّل عليهما بالاكثر لدى الدولة والمجتمع، ونتائج التجارة ، تبقى ، منـع هـذا محدودة . ومع ذلك ، لا بد من التشديد هنا ، على التجـارة اذ ان التطورات العظيمة التي خضعت لها ، كان لها تأثير بالغ ، وصدى عميق في القطاعات الاقتصادية الاخرى .

فالتجارة الاسلامية والبيزنطية حركتان متلازمتان متعاقدتان ، لا يمكن فصلهما او تصوير الواحدة منهـا دون الاخرى . فهذه هي حاصل تلك . غير ان الاولى ، كانت اوسع مجالاً وارحب افقاً من الثانية ، وتتحكم بتجارة السلع الاساسية مع آسيا ، التي اصبح العراق منهـا اشبه شيء بالمفتاح . والخليج الفارسي ، اكثر مما هو البحر الاحمر نفسه ، الطريق الموصـل بين المحيط الهندي وبلدان البحر الابيض المتوسط . فمن مرفأ سيراف ، على ساحل ايران ، ومن أبُلّة والبصرة ، في العراق ، كان التجار ، شأنهم في هذا العصر شأنهم في عصر الساسانيين ، يخرجون حاملين بضائعهم باتجاه اقطار الهند الغربية ، يتجرون مع جواليهم العديدة في هـذه الاقطار ، ويلتقون مع التجار الصيليين في طريقهم الى سيلان . وقد قطعت تعديات القرصان ، في القرن الثامن هذه الحركة واوقفتها ، ثم عادت سيرتها الاولى في القرن التاسع ، ونشط التجار فبلغوا معها الصين وشارفوا خان – فو ، الواقعة على مقربة من كنتون ، حيث كانت توجـد جالية اسلامية تتمتع بشبه استقلال اداري . ولمـا كانت الاضطرابات الدامية التي وقعت في الصين ، خلال هذا العصر ، قد سببت خراب هذه الجالية ، انتقلت نقاط تلاقي التجار ، الى شبه جزيرة الملايو او الى سيلان ، دون ان يكون لهذا التغيير اثر يذكر على الحركة التجارية . وقد تركت لنا اخبار الرحّالة والاوصاف التي وضعوها لنا ، ذكر هذه الاسفار ، منهـا في القرن الثامن : الرحلة المنسوبة الى سليمان ، وفي القرن العاشر الرحلة التي وضعها سيرافيان بزورج التي تذكرنا اخباره بقصص السندباد البحري . ففي الاسفـار التي قاموا بها ، باتجاه اليمن والبحر الاحمر حتى مرفأ جدّة ، وافريقيا الشرقية حتى مشارف جزيرة مدغشقر ، تفوق الفرس ، قبل القرن العاشر ، على المصريين ، في هذا المجال .

والطرقات البرية كانت تنطلق من العراق متجهة الى اواسط آسيا مارة بالحناء ، في ايران ، لملاقاة التجار الصينيين ، بينما اتجهت طرق اخرى نحو سوريا ومصر والامبراطورية البيزنطية ، وكانت آسيا الوسطى ، منذ القديم ، احد مراكز الاشعاع التجاري ، اذ كثيراً مـا يمّم التجار

المسلمون في هذه المنطقة ، الصين والهند وبلاد الفولغا . ويستدل من النقود التي عثر عليهـا المنقبون انهم وصلوا الى مناطق بحر البلطيق ، كما ان تجاراً آخرين بلغوا الاقطار الشمالية الغربية التي لا يعرف عنها الرحالة العرب ، شيئاً كبيراً ، ويرى البعض ان هذه اللقطات الوفيرة التي عثر عليها انما هي من بقايا الفدية والاسلاب التي اصابها « النورمنديون » في الغزوات التي بلغوا فيها مشارف بحر قزوين . وقد بلغ هؤلاء التجار في اسفارهم اقوام البلغار في منطقة الفولغا كما تشهد على ذلك رسالة تركها بن فضلان حول وفادة ديبلوماسية ، عهد بها اليه احد الخلفاء العباسيين ، اجتاز فيها آسيا الوسطى ، وهي رسالة لها أهمية كبيرة للتعريف بأقطار اصبحت فيما بعد روسية . ولعل هؤلاء المسلمين بلغوا في اسفارهم ، نحو الغرب ، مدينـــة براغ ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، اليوم . وقد يكون من الغلو بمكان ان ننسب أهمية كبرى لهذه الأسفار ، او تأثيراً لا تستحقه على اوروبا الوسطى واوروبا الغربية .

فاذا لم يكن للتجارة المصرية نشاط يذكر في المحيط الهندي ، قبل الدولة الفاطمية ، فقـد بلغت قوافل التجار المصريين ، باستثناء الشام والعراق ، الى الحبشة وقلب السودان والمغرب الاقصى . فالازدهار الداخلي الذي عرفته البلدان الاسلامية في الغرب ، واستيلاؤهم على كبريات الجزر في البحر الابيض المتوسط ، كجزيرة اقريطش (التي احتلها لاجئون اسبانيون) وصقلية ، والقواعد التي أقاموها في شبه الجزيرة الايطاليـــة – ولا سيما باري منها ، منذ القرن التاسع – وسردينيا وكورسكا وجزر البليار ، شجعت كثيراً حركة التجارة في البحر المتوسط ، وأمّنت للمسلمين السيطرة التامة على البحار الواقعة الى الغرب ، كما جعلت الطمأنينة والسلام يرفرفان على طرق المواصلات بين مصر والمغرب الاقصى . وقـــد طردت بيزنطية من كل بحر ايجه والبحر الادرياتيكي لما لقيت من تهديد القراصنة السوريين والدلمات ، اضف الى ذلـــك ان اسطولها التجاري اصبح في خطر مداهم ، من جراء الثورات والانتفاضات التي قامت في البلدان الـــتي تستمد منها حاجتها من البحّارة كالثورة التي قام بها توما الصقلبي ، والعراقيل التي قامت في وجه التجارة الحرة ، وبعد ان اعيد تنظيم هذا الاسطول في اواخر القرن التاسع ، بقي ، سواءً منه عمارته الحربية وعمارتـــه التجارية ، عاجزاً عن تحقيق ما كان له ، في الماضي ، من سيطرة وسيادة . ولذلك اتجهت الحركة التجارية ، في بلاد النصارى ، الى تجار البندقية ومدينة امالفي ، من رعايا الامبراطورية ، ولو بالاسم ، وقد عرفوا ان يعقدوا ، في هذا المجال ، مع جيرانهم من المسلمين ، عقوداً واتفاقات مجدية للغاية وسّعوا من احكامها فيما بعـد ، بحيث دخلت مصر في احكامها ، بعد ان احتلها ملوك الدولة العبيدية الذين جاؤوا من المغرب . والشواطىء المسيحية الممتدة مـن روما الى برشلونا ، بقيت مقفرة موحشة بعد ان عاث فيها القراصنة المسلمون ، وتوصلوا الى اقامة معاقل لهم في جبال المورس بينها المعقل المعروف بـ *Garde Freinet* . وقامت في اسبانيا حركة تجارية ناشطة ، اتصلت براً بمملكة الفرنج في الغرب ، كان واسطة العقد فيها ، تجاراً من اليهود يقيمون في البلاد المسيحية اكثر منهم تجاراً من المسلمين ، اذ لم يكن يرضون

بالتعامل معهم في المناطق الواقعة جبال البرانيس الى الشمال . اما في البحر، فلم يعد ليرضي التجار المسلمين ، ان يستقبلوا ، قانعين ، التجار القادمين من الشرق مع ما لديهم من السلع والبضائع . وبدون ان نشير هنا الى هذه الجمهورية البحرية الغريبة القصيرة الامد التي قامت في بلشينا على مقربة من الماريا والتي بقي عام ٩٠٠ ، نطاق اتصالاتها البحرية مقتصراً على نقطة ضيقة ، فقد كتب ابن خردازيه أن التجار الاسبانيين من اليهود، كثيراً ما بلغوا ، عن طريق البر أو البحر ، بلدان الشرق الاقصى ، فكانوا بذلك يهيــأون قلب الوضع التجاري لصالح الغرب ، لصالح النصارى . اما في المغرب ، فقد كانت أفريقيا (تونس) الملتقى الحركة التجــارية في البحر المتوسط ، اذ كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء فتنتعش لمرورهم الواحات القائمة اكثر الى الغرب، امثال مدينة سلجماسة القائمة على سفح جبال الاطلس الغربي، والقاعدة الكبرى للخوارج في هــذه المنطقة .

وقد ظهرت بيزنطية ، أمام الاسلام ، مظهراً زرياً . ولا يعني هذا انها لم تستفد من ازدهار الحركة التجارية الكبرى التي كانت ناشطة ، اذ ذاك ، فالطرق الآسيوية التي تفضي الى سواحل البحر الاسود يجب ان تمر حتماً بالقسطنطينية، وعلاقاتها مع شعوب الدانوب واوكرانيا ميسرة. والمشاريع التجارية الايطاليـــة في الشمال من البحر الابيض المتوسط يقابلها قدوم الروس الى القسطنطينية . والمسلمون ايضاً الذين انشأوا لهم فيها جامعاً ، وهي حركة عـادت على اباطرة بيزنطيـــة بالربح الوافر من الرسوم التي كانوا يتقاضونها ، كما عادت عليهم بالكثير من النفوذ والمكانة ، دون ان يلاحظوا قط ما تخفي هـذه الحركة وراءها من خطر في المستقبل بنسبة ما يتخلى رعاياها عن تحكمهم بالاسواق التجارية وفتح اسواق جديدة لتجارتهم .

وهذه الحركة التجارية الناشطة في كل قطر وصقع من بلدان الشرق الادنى ، كانت تدور ، في الدرجة الاولى ، على الخامات والمواد الاولية التي تفي بمطلب الحياة كما تناولت سلعاً غالية التكاليف والاثمان هي ابداً مطمع العظماء وكبار الاغنياء . وكان التجار المسلمون يستوردون من الشرق الاقصى التوابل والأفاويه (في مقدمتها الفلفل) ، والحجارة الكريمة والعاج من الهند ومن افريقيا ، والذهب من السودان والحرير من الصين الى جانب الحرير الوطني ، والاخشاب الثمينة كالمقشر والصندل ، من اندونيسيا ، وخشب البناء من آسيا الصغرى واوروبا ، والجلود والفراء، والعسل والشمع ، من روسيا ، واخيراً العبيد والارقاء : من بين صقالبة دلماتيا على يد تجار ايطاليين ، أو صقالبة من بلدان اوروبا الوسطى ، من سوق النخاسة في براغ ، واتراكاً من قبائل الخزر او يأتون بهم من اواسط آسيا ، وزنوج السودان . ومن بين السلع التي كانت تنفق في داخل البلدان الاسلامية : حرير مناطق بحر قزوين ، والقطن والبخور المستورد من البلاد العربية ، واللآلىء والاسفنج من اطراف عُمان ، كما استوردوا كل المعادن التي تفتقر اليها البلاد العربية من ايران وشمالي العراق والمغرب والاندلس ، حيث كانت تتوفر بغزارة هذه المعادن على أنواعها . وكانوا يصدّرون الى البلاد الواقعة خارج الاسلام السلع والمصنوعات التي تنم عن تفوق

مهارات الفن الإسلامي الصناعية ، في مقدمتها المنسوجات والمصنوعات المعدنية . فاذا مـــا وضعنا تجارة الرق جانباً ، نرى ان تجارة بيزنطية كانت تقوم على مثل هذه الاصناف ، انما على درجة اخف من التنوع . فالاولوية التي احتفظ بها هذا العالم وذاك ، تقوم بان كلاهما كان يصدّر للخارج بضائع وسلعاً مشغولة ، غاية في الدقة بينما اقتصرت الحركة التجارية في البلدان الاخرى ، على استيراد المواد الاولية .

من الصعب ، وايم الحق ، ان نتبين كيف كان يتم التوازن في هذه الحركة التجارية وتداول النقد ، اذ ان كل الوثائق التي لدينا غامضة للغاية . فاستمرار هذا التيار التجاري بين بلدان الشرق الادنى واقطار آسيا النائية ، على الاخص ، دليل كاف على سلامة اوضاعها ، امـــا ان ينتقل قلب هذه الحركة التجارية ، فيما بعـــد الى مصر ، فامر يعود لاسباب ودوافع اخرى . وبعد هذا كله ، فقد احتفظت كل من بيزنطية ودول العـــالم الاسلامي حتى ظهور الحروب الصليبية بنقد من الذهب لم يتم مثله للغرب شيء ، وهو نقد مستقر ، قوي ، معتمد دولياً ، مع العلم ان كلاً من ايران ، ومن اسبانيـــا ابتداءً من القرن العاشر ، عوّلتا بالاكثر ، على النقـــد الابيض ، أي الفضة . وكان هذا يتعارض مع ما كانت عليه العلاقات التجارية في الداخل حيث تدنت طاقة النقد الشرائية لأسباب ضرائبية ، منذ القرن العاشر . ولا شك عندنا قط في ان هذه الحركة التجارية العالمية كانت ادت الى احداث نقص في النقد المتـــداول ، لو لم تعوض مناجم الفضة والذهب الموجودة في نوبيا والسودان هذا النقص ، بيسر . ويقال ان بيزنطية التي كانت تشتري من الشرق اكثر مما تبيعه ، حققت التوازن في ميزانها التجاري بفضل المشتريات الاوروبية ، كما ان توفر النقد في اوروبا الغربية يعود لما كان تصدره الى البلدان الاسلاميـــة ، في الشرق والغرب ، من سلع وبضائع . ولعل في هذا التأكيد بعض الغلو من حيث تقدير أهمية الحركة التجارية في هذا المثلث الجغرافي . ومهما يكن من الامر ، فبيزنطيـــة لعبت دور المستهلك أو الوسيط ، ولم يكن لها بالحقيقة كبير تأثير على الحركة التجارية العالمية .

التقنية التجارية

قلما قام التجار باسفارهم لوحدهم او منفردين . فالتجارة البحرية ، اقـــله في ما يتعلق بالمحيط الهندي ، كانت ، تبعاً للرياح الموسمية ، تتكيف بهـــا من حيث مواعيد الذهاب والإياب . وكانت كل سفينة تضم دوماً الى جانب قبطانها ، عـــدداً من التجار . اما في البر ، فالى جانب هذه الاساطيل النهرية التي كانت تمخر في النيل ودجلة وغيرهما من الانهر ، كانت الاسفار البعيدة تتم مع القوافل ، فتعتمد الجمال ، وطرقاً سالكة لتعذر الرحلة على مسالك غير صالحة .

والتاجر المثالي الذي يجوب الارض مستثمراً ماله ومهارته ، هو هذا الذي يصفه لنا كتاب « الف ليلة وليلة » . ولكن لم يكن احد ليتجر بماله وحده . فعَن طريق اتفاقات يجريها مـــع غيره من التجار ، او بالاشتراك برأس مال يتناهد بعضهم على تكوينه بدفـــع اقساط منه على

انجم معينة ، كان التاجر ينهض لعمله ويمضي في مغامراته على بركة الرحمن ، وهي عادة ترجّع باصولها الى الاجيال القديمة .. والاموال المستثمرة على هذا الشكل ، كان يُؤتّى بها من جهات شتى ، فيشارك بها العمال ورجال الادب ، وصغار التجار من جميع طبقات المجتمع ، وكبار الملاكين وابناء الارستوقراطية من رجال الجيش . فاذا ما راح التجار يستثمرون بعض اموالهم ومكاسبهم في ابتياع الاملاك ، عمد كبار الملاكين الى تشغيل جانب من اموالهم ، في المشاريع التجارية ، وهي مشاريع كثيراً ما تهددتها المخاطر والارزاء . الا ان هذه المضاربات كثيراً ما عادت على اصحابها والقائمين بها بالربح الوفير ، وحفزت اصحاب الطبقة الوسطى على الاقبال عليها . وعلاوة على ذلك ، فالدولة كثيراً ما ساهمت من جانبها بهذه التجارة ، اذ لم يكن الملوك والامراء يأتمنون هولاء التجار على مبالغ طائلة ، مساهمة منهم بهذه الحركة فحسب ، بل كثيراً ما كان التجار يشاركون بجباية الخراج ويتصرفون ، في تجارتهم ومضارباتهم باموال لم تكن لتتوفر لهم مهما اقتصدوا واذّخروا . وكان بيت المال نفسه يستفيد ، هو ، الآخر ، من جباية الرسوم المفروضة على هذه المقايضات ، اذ كان عليهم ان يتقيدوا بدفعها وفقاً للاصول .

وتحسين الاعتماد ، وتوفير النقد لم تكن ابخس فوائد هذه المعاملات التجارية ، فليس فيها من جديد . ومع ذلك ، فقد كانت هذه المعاملات تجري على نطاق لم يبلغ من السعة ما بلغه ، اذ ذاك . فاذا ما حمل التاجر معه نقداً عداً ، فلم يكن ، على الغالب ، كميات ضخمة او مبالغ كبيرة ، اذ كان لكبار التجار ، في الاسواق التجارية الكبرى ، عملاء او وكلاء معتمدون يسحبون عليهم سندات لشخص ثالث ، فيدفعون له من ضمنهم ، ما يطلب اليهم دفعه ، لقاء فائدة معينة . والعمل بهذه السفاتج (جمع سفتجة ، والكلمة فارسية) كان شيئاً متعارفاً لدى التجار ، اذ ذاك ، كما ان السند او الشيك كان تعهداً بالدفع من قبل موقعه ، اذ ان السّنَد ، كان بيد حامله ، بمثابة قيمة السند . ولم تَرَ تركة او ميراثاً ، مهما بلغت ، لم يذكر المورّث ، في جردته ، من السندات المستحقة عليه ، ما يربو على ما يتركه من ثروة نقدية . وكان بيت المال يستوفي حصته من هذه الرسوم ، ويدفع بدوره ما يستحق عليه من ديون . ففي مركز تجاري كبير كالبصرة ، مثلاً ، كانت المبالغ المستحقة على التجار اولهم ، تدفع لاصحابها او تستوفى منهم عن طريق الاعتماد المالي . وكثيراً ما كان التجار المتنقلون يستودعون وكلاءهم مبالغ طائلة ، بعد ان يتعهد هولاء بعدم مسها او التصرف بها الا بامر صريح منهم . وقد كان القانون يحرم شرعاً ، الربا اينما كان ، ومع ذلك فقد كان الربا فاشياً ، في كل مكان ، يتحيل التجار على القانون لتأمين الكسب غير المشروع .

كانت المعاملات المصرفية وقفاً على كبار التجار . اما الصيارفة فقد تميزوا عنهم بأنهم اختصوا بأعمال الصيرفة المحلية . وكثيراً ما كان هؤلاء الصيارفة ، جهابذة (الكلمة فارسية) أي يُعهد اليهم من قبل بيت المال ، لخبرتهم ، بتمييز الجيد من الزائف ، بين هذه النقود التي تدفع للخراج ، وكانوا يتقاضون عمولة عن خدماتهم هذه ، كما كان باستطاعتهم ان يشاركوا ، بالمضاربات المالية

والاعمال التجارية .

وكان من جراء اعتناق سكان البلاد للاسلام واقبال المسلمين على التجارة ان كثر عدد الصيارفه في المدن والمراكز التجارية ، وهي اعمال تعاطاها النصارى واليهود والمجوس وعدد من المسلمين ، على السواء . فالفوارق الدينية لم تؤلف حاجزاً او حائلاً دون احد لتعاطي مثل هذه الاعمال . وكان كبار التجار ، ولا سيما البزازون بينهم ، يأنفون من التعامل مع التجار بالمفرق ، او التجار المتجولين في الاسواق لانتماء معظمهم للطبقات الدنيا .

والتاجر ، سواء أكان مسلماً او غير مسلم ، لم يكن ملزماً بدفع رسوم المكس إلا عندما يجتاز الحدود بين بلد مسيحي وآخر اسلامي . غير ان التجزؤ الجغرافي وقيام الممالك والسلطنات والجانات الكثيرة ، في العالم الاسلامي ، جعل من هذه القاعدة شيئاً وهمياً او حبراً على ورق . ومهما يكن ، فقد انشئت في المدن والحواضر الكبرى للتجارة رسوم خزن ومرور ، كثيراً ما ندّد بها وانتقد من فرضها ، الفقهاء الذين كثيراً ما خرجوا من الوسط التجاري ذاته ، مع انهم لم يتعرضوا بكلمة نقد ضد ضريبة الخراج . وليلزموا التجار دفع هذه الرسوم ، كان عليهم ان يودعوا سلعهم في الفندق الذي كان يقوم عادة ، عند مداخل المدينة ، ثم يعمدون الى التصرف ببضائعهم وبيعها من تجار المفرّق ، اذ كان من المحظور على التاجر ان يبيع بضاعته بالفرادى . وكثيراً ما تقاضى رؤساء القبائل وكبار الاقطاعيين رسوماً خاصة « خوّة » يفرضونها على القوافل كرسم حماية . وكانت حركة التجارة في المدن مستمرة ؛ اما الاسواق القائمة على طريق الحج ، فلم يكن لها شأن يذكر .

وكانت الدولة والهيآت المحلية تستوفي رسوماً عالية من المكوس بلغت ١٠ ٪ على المسلمين ، و ٢٠ ٪ على غيرهم ، ما لم ينعموا باستثناء خاص . وقد يحدث ان تقوم الدولة نفسها بالتجاره ، في بعض الحالات التي تشتد فيها المجاعة ، تأمناً منها للمواد الغذائية . وقد كانت تحتكر في بعض الاحيان الاتجار ببعض الاصناف أو المواد ، كبيع الذهب الخام مثلاً . وهذه الاحتكارات كثرت انواعها ، وتعددت مناهجها في مصر . وعلى هذ النهج سارت ايضاً بيزنطية عندما كانت تستورد كميات وافرة من المواد الغذائية ، يحدوها الى ذلك ، الرغبة في تأمين تموين البلاط والعاصمة . اما في البلدان الاسلامية ، فتدخل الحكومة لم يتعدّ على ما يظهر ، الاهتمام بخزن مقادير كبيرة تحسباً للطوارىء وفرض رسوم على المواد الغذائية الاساسية كالطحين والخبز عند ارتفاع الاسعار ، وبيع المواد باسعار مخفضة عند نشوب المجاعة . وفي ما عدا هذه الاستثناءات ، يبدو ان اسعار المواد الاساسية لم تتبدل كثيراً . الا ان الاسعار كانت تختلف اختلافاً بيناً بين قطر وآخر : فالطحين ، في مصر كان سعره ارخص مرة او مرتين مما كان عليه في العراق .

وهكذا نرى ان العالم الاسلامي برمته نظم جيداً اعراف التجارة وآدابها واساليبها التقنية وهي اعراف وآداب واساليب لم تلبث ان انتشرت في جميع أطراف عالم البحر الابيض

المتوسط المسيحي . ولكن من أين لنا ان نعرف ، في هذه الحركة التجـارية التي ازدهرت ، في ايطاليا مثلاً ، ما هو ، في هذه الاعراف ، بيزنطي او عربي ، من التراث الماضي القـديم أو من الاشياء المستحدثة في الظروف المتشابهة الواحدة ؟ والثابت الاكيد هو ان الحركة التجارية البيزنطية التي تميزت بالسلبية والمحصرت في حيّز جغرافي ضيق ، لم يتمّ لها شيء مما تمّ للحركة التجارية في العالم الاسلامي ، من تنظيم للاعتماد المالي ولا من مرونة الرسوم والجباية .

الحرف والمهن

والصناعة التي كانت دوماً من النوع اليدوي ، لم تكن تتعارض وتشغيل عدد كبير من الفَعَلة والعمال ، في بعض الحالات . نحن نعرف الكثير عن وضع الصناعة في الامبراطورية البيزنطية ، في القرن العاشر ، وذلك بالاعتماد على كتاب مشهور عنوانه : « كتاب الرئيس *Livre des Préfets* . اما معلوماتنا عن الوضع التجاري في العـالم الاسلامي ، فهي متوفرة جداً ، ولو جاءت متأخرة عن تلك ، وذلك من الكتب الموضوعة في « الحسبة » والتي يعتمدهـا « المحتسب » الذي يشرف على تنظيم الاسواق التجارية ويسهر على اسباب الأمن فيها . ففي كلا الوضعين ، فالمظاهر البرانية أو الخارجية والناحية الادارية للمهنـة تحظى بعناية اكبر مما يُحظى به وصف المهن أو اصحاب الحرفة انفسهم .

لا بد من التمييز ، سواءً في بيزنطية او في الاسلام ، بين الحِرف الـتي تقوم الدولة بتنظيمها والاشراف عليها ، وبين الحرف الاخرى الخاصة . يدخـل في الفئة الاولى ، الى جانب ضرب السكة ودور الصناعة والمصانع الحربية ، مصانع النسيج التي كانت تؤمّن صنع الملابس الفخمـة اللازمة لرجال الحاشية والبلاط او لديوان الملك ، كالديباج الموشّى بالذهب واسلاك الفضة ، او الحرير الملون بالقرمز والارجوان ممـا تدأب على صنعه دار الطراز ، في الدول الاسلامية ، والـ *Gynécée* ، عند البيزنطيين ، كذلك كانت الدولة تحتكر صناعة البردي في مصر ، الى ان زالت صناعته وماتت عند ظهور صناعة الورق او الكاغد . اما ما تبقى من الصناعات الاخرى فصناعات خاصة ، ولو فرض على بعضها ، كما في بيزنطيـة مثلاً ، وجوب تأمين بعض الاصناف اللازمة للحكومة ، في الدرجة الاولى ، تبتاعها بالثمن المعـين مع الرسم المفروض ، او تستوفي منها عيناً بعض المصنوعات ، كرسم مقطوع ، وهي طريقة ليس عندنا ما يشير الى وجود مثلها في العالم الإسلامي ، اذ ذاك .

وكانت الحرف في التاريخ القديم والاجيال الوسطى تنتظم حلقاتها على اساس نقابي . وهذه النقابة ، هل كانت تشبه لعمري ، الـ *Collège* في التاريخ المتأخر عند الروم وهو جهاز دولة في الصميم ، ام انها كانت صورة سابقة أوانها ، لهذه النقابات التي قامت في الغرب ، فيما بعد ، أو هي مؤسسات ومنظمات خاصة ، في جوهرها ؟ لا شيء من هذا على الاطلاق في بيزنطية . فمذهب تدخّل الدولة المعمول به في بيزنطية والمنتقل اليها في جملة من انتقل من تركة تاريخ الروم المتأخر ، جرى تطبيقه على النقابة او اهل الحرفة الواحدة ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان وفرة اليد العاملة

جعل من غير الضروري قط، انتساب العامل للحرفة امراً متوارثاً أباً عن جد، او امراً إلزامياً. وقد خضعت الحياة النقابيـــة والنشاط النقابي ، عندهم ، لقانون محكم ، دقيق ، تضعه الدولة وتشرف عن كثب ، على تطبيقه . فالنقابات المهنية في القسطنطينية تقع اداريا ، عـلى رئيس الشرطة الذي يتوجب عليه ان يسجل الاعضاء في الحرفـــة المعينة ويرخص بانتماء أعضاء جدد اليها . وسنرى ، فيما بعد ، ما هو عليه الوضع النقابي ، في العالم الاسلامي . فمع ازدياد الطابـع الديني للدولة في الاسلام ، خضعت الحرف والمهن لادارة المحتسب ولاشرافـه ، وهو الموكول اليه ، أصلاً ، السهر على التقيد بالفروض والواجبات الدينية ، والاعتصام بالآداب العامة ، أي انه مشارك للقاضي من بعض الوجوه والصلاحيات ، وتقوم الدولة بتعيينه كذلك ، دون ان يكون للقاضي أي اشراف فعلي على وظيفة المحتسب. والشعور السائد، مع ذلك هو ان النقابات اجهزة تعمل من ضمن الادارة العامة اكثر مما هي تشكيلات عفوية ، اذ ان هنا ، كما في بيزنطية، ليست الجمعيات الشعبية التي تنتظم سلك الجماهير ، مهنية قط. ولا يبدو قط ان النقابة تكوّن، عند رؤساء الورش ، الاطار العادي لحياة « معلم الكار » .

ومهما تكن عليه طبيعة هذه النقابات ،فالقانون الذي تخضع له يحمل الطابع الاقتصادي الواحد، ويهدف الى غرض واحد ، الا وهو الحؤول دون المنافسة وتأمين شيء من الاحتكار للحرفـــة الواحدة ، الامر الذي يفرض القول بوجود سوق ضيقة تملأ بسرعة ، وبتحديد الاجور والصفات التي يجب ان تتوفر في صاحب المهنة ، تأميناً لمصلحة المستهلكين والمنتجين ، على السواء، بعد ان يصبحوا في مأمن من كل مزاحمة أو منافسة . هذا اهم ما جاء من احكام وتوصيات في كتاب *Livre des Préfets* الذي اشرنا اليه اعلاه . اما في الولايات والارياف ، سواء في بيزنطية أم في العالم الاسلامي ، فالامر لم يكن على مثل هذه الدقة ، اقـــل فيما يتعلق بالاجور والاسعار ، بعد ان يكون المحتسب اخذ على عهـــدته ، تحديد الأجور ، وتحرير المكاييل والموازين والسهر عليها من الزيف والتلاعب . وعندما تعمل الصناعة تلبية لحاجة سوق في الخارج ، تضفي عليها المراقبة من قبل الادارة ، ضمانة أكبر لحسن الانتاج واتقانه .

اما في المدن فالمهنة أو الحرفة لها اختصاصها ومحترفوها . واصحاب المهنة الواحدة يعملون في سوق واحدة أو في حي واحد ، وعلى هذه الوتيرة سار الغرب فيما بعد . والروح النقابيـــة هذه تغلغلت بعيداً بين الموظفين الاداريين واصحـاب المهن الحرة . ويخضع لرئيس المهنة العمال المتدربون والعمال المياومون ، واصحاب المرتبات المعينة ، حتى العبيد الارقاء ، في بيزنطيـة ، حيث كان يسمح لهم بممارسة بعض المهن ، على مسؤولية اسيادهم الذين كانوا يحتفظون لانفسهم ، بقسم من اجورهم . وعلى الاجمال ، فالعمل اليدوي هو بيد اصحاب الحرف والمهن ، سواء في المدن أو في الريف، في كل ما يصون مصالح سيد الارض. واصحاب الحرف لا يشاركون، الا ما ندر، في الاعمال الزراعية ، فقد نظر الفلاح الى الرقيق نظره الى ابن المدينة ، لا يراه الا عندما يحضر مطالباً ، بكل خشونة ، بحصة سيده من الغلال . ففي الورش العامة ، يؤلف العمال المياومون

القسم الاكبر من اليد العاملة ، بينما لا يكوّن الارقاء سوى قلة بينهم ،يتصرف بهم سيدهم وفقاً للحاجة ومقتضيات العمل .

المدن

كثيراً ما غصت المدن بثالة السكان تتألف من الافاكين ، والشطار ، والدجالين والخطفة والسرقة ، يتحيل الواحد منهم في عيشه على المغفلين ، ويقتاتون من فتات موائد الاغنياء ، كما في روما قديماً ، وكما هو الوضع في بعض مدن الشرق اليوم، حيث عدد السكان هو اكثر بكثير مما تتم عليه اهمية الوضع الاقتصادي فيها .

فالمدينة ، في الاسلام ، ابتعدت كثيراً عما عُرف لها من هندسة وتخطيط في عهد اليونان والرومان . فلم تحتفظ بما كانت عليه من شوارع واسعة عريضة تسير في اتجاه واحد مشترك ، ولا بالوسط المحوري الذي كان يؤلف منها قلب الحياة المدنية والاقتصادية . فباستثناء القيصرية ، التي هي سوق الاقمشة والبزازين ، والتي بقيت قائمة في قلب المدينة ، انتقلت الحركة التجارية فيها بالاحرى الى الاطراف ، الى مخارجها ، اي ابوابها البرانية . وكثيراً ما قام محل الساحة العامة المكشوفة مسجد كبير . وقام في المدينة الواحدة، المتعرجة الشوارع والازقة، احياء عديدة كاد الواحد منها يستقل تقريباً في عزلته ويقنع بما يقدم فيه من حركة مهما انكمشت معالمها . وتنفتح البيوت في هذه الاحياء من الداخل ، على افنية مكشوفة بينما تدير ظهرها للشارع في جدار أصم لا ثغرة فيه ولا نافذة . ومع ذلك حذار من ان نغلو في تعميم الصورة المرسومة . فالمدينة القديمة التي لم تتميز دوماً بتخطيط هندسي مبسّط ، لم تتبدل معالمها بالسرعة المرجوة ، ولا بالقدر اللازم . فانقسام المدينة الى حارات او احياء لم يَحُل قط دون قيام نشاط جماعي فيها امتد الى جميع اطرافها . فقد لا تقع منا العين على معالم للتجدد جديرة بالذكر او التنويه ، الا انه يبرز في كثير من هذه المدن ، كدمشق وبغداد ، مثلاً ، شبكة ممتازة من الاقنية البديعة لجر المياه ، وايصالها الى جميع الاحياء ، والاكثار من سُبُل المياه والاحواض فيها ، وبالتالي من الحمامات العمومية .

وهذه التقسيمات الادارية التي كانت عليها المدن في عهد الامبراطورية البيزنطية الاعلى ، يبدو لنا انها مثلت دوراً بارزاً في هذه الاضطرابات التي كانت تلشب ، الفينة بعد الاخرى ، في القسطنطينية وتهزها بعنف . وقد عرفت المدن الاسلامية مثل هذه التنظيمات والتقسيمات التي جاءت استمراراً لما عرفت من امثالها قديماً . فقد قامت في المدن السورية ، منذ القرن العاشر ، منظمات الاحداث يتولى افرادها السهر على الامن والهدوء ، وهي منظمات كثيراً ما قام الاعضاء المنتمون اليها بحركات انتفاضية عندما كانوا يأنسون ضعفاً او تراخياً من جانب صاحب السلطان ، وذلك تعبيراً منهم عن عدم رضى المواطنين ، او عن وجود غليان فكري بين الناس . ومن جهة اخرى ، نرى في عدد كبير من مدن ايران ، وفي بغداد بالذات ، منظمات اكثر تعقيداً في نظمها ، تعرف عندهم باسم « الفتوّة » التي تفيد ، من حيث الاشتقاق ، معنى

الاحداث ، واعضاؤهـا « الفتيان » ، وهي منظمة وعت الكثير من عادات العرب واخلاقهم قديماً ، كالشجاعة والجرأة والجود والعصبية او التضامن . فاذا كان المصطلح عربياً ، من حيث الوضع والاشتقاق، فمدلوله ينمّ عن تشكيلات يعود اصلها لعهد الدولةالساسانية، فقدّت الكثير من عروبتها او سماتها العربية . فبمعزل عن الاسرة والقبيلة ، يتعاون افرادهـا على العمل معاً ، كما يتعاونون فيما بينهم على كل ما يؤمّن لهم الرفاهية والانشراح والترويح عن النفس ، وكلهـا اهداف لا تتم على شيء من الامور الدنيئة . والى جانب هذه الفئة ، نرى طبقة العيّارين ، وهي طبقة تتألف من جمهرة البائسين والمعوزين الذين لا قِوام لهم، ولا سند ، يهيمون على وجوههم ويتطفلون على موائد الناس ، وقد يقومون بحركة تَسجَس من وقت الى آخر ، فتتثاقل وطأتهم على الاحياء الغنية ، ويطالبون بمحلهم من شرطة المدينة ليحدوا من وطأتها . ومع ذلك نرى هؤلاء الفتيان ، يصبحون في القرن التاسع ، نقطة الثقل لتجمع فئة العيارين ، فينظمون انفسهم في وحدات غير قانونية . فالمدلول الادبي لهذا التضامن الذي يدين به الفتيان ، لا يتنافى مع حق او واجب سرقة الاغنياء واستخلاص ما يرغبون في استخلاصه من ارزاقهم ، والا كيف نستطيع ان ندرك او نفهم تصرف هـذه الطبقة من اللصوص الاشراف الذين يسرقون لمساعدة غيرهم . وقد عرف الفتيان في القرنين العاشر والحادي عشر ، مواقف سيطروا فيها على الوضع السياسي في البلاد ، اذ كثيراً ما اصبح رئيسهم ، كما هي الحـال تماماً عند الاحداث ، رئيس الشرطة ، في المدينة .

حياة الريف في البلاد الاسلامية

وحياة الناس في الريف اصعب إحاطة بها من الحياة في المدينة التي اصبحت مـادة التاريخ الاسلامي الاولى والمعين الاول لمصادره المختلفة . فالريف هو قوام الحياة منها ، يمدها بحاجتها من القمح وبغير ذلـك من الغلال والمحاصيل . فهي لا معنى لها بذاتها ، ولا بدون الفلاح او المزارع الذي يصعب مع ذلك تحديد محله في المجتمع البشري . فبين المدينة والريف ، لا محل لحركة تبادل تجاري . فالتجـار يتعاطون الاعمال ، بين مدينة واخرى ، والارباح التي يحققونها ، يجب ردها ، بعد كل حساب ، الى المنافع التي يجنيها سكان المدن الاغنياء ، من عمـل الفلاح والشغل الذي يقوم به . ولكن مقابل ذلك لا يتلقى الريف شيئاً من المدينة . فالسكن فيه ، والغذاء، واللبس والادوات، كلها امور في غاية البساطة ، تدبّر محلياً .

فليس من داع بعد هذا ، للتبسط والاستفاضة في تبيين مـا كانت عليه الوسائل الفنية في الزراعة من طابع بدائي ، اذ لم يطرأ عليها اي تطور اساسي منذ التاريخ القديم حتى القرن العشرين . ومع ذلك فقد شجع الاسلام أقلمة بعض المزروعات ووطنهـا في اماكن جهلت زراعتها من قبـل . فقصب السكر ، وزراعة التوت الذي عليه تقتات دودة القز او الحرير ، دخلت فنون زراعتها الى الغرب . والاساليب الفنية التي عولوا عليهـا في ري الاراضي ، في الشرق ادخلت الى الاندلس وراجت فيها ايمـا رواج . ونمو المدن ، وتكاثر السكان ، زاد من

شدة الطلب على المواد الغذائية . فقـــد كانت عمارات كثير من السفن تمخر دجلة ناقلة المواد الغذائية الى بغداد . ومع ذلك فلم تؤدِ هذه الحركة الى اي تحسين يذكر في حياة الفلاح، وبالتالي في حياة الريف .

فالنشاط الزراعي هو ابداً رهن بحاجة الاراضي والناس للماء . وكانت مسؤولية الادارة الاولى تأمين الاعمال والاشغال التي تومن وصول المـــاء من الآبار او الانهر ، واسالته الى حيث تشتد الحاجة اليه . واساس الضريبة على الاراضي ونسبة الوسوم المفروضة عـلى المزارع تختلف باختلاف طبيعة الارض ونسبة ما هي عليه من ري طبيعي او سقاية . فالاراضي المشجرة تؤلف طبقة خاصة . وتربية الماشية كانت تجري على نطاق ضيق ، والفلاحة لم يكن يقتضي لها جهداً كبيراً ، بينما أهمل امر تسميد الارض بالاسمدة الطبيعية . والظاهر ان صناعة الالبان ومشتقاتها كانت ، مع الحنطة ، اهم ما يعول عليه الانسان في امور غذائه .

وكانت تربية الماشية جل ما يعتمد عليه البدوي في امور معايشه . فالبدو الرحـــل منهم اعتمدوا تربية الجمل ، بينما اتخذ البدو الظواعن ، عباداً لهم تربية الاغنام ، يظعنون بهـــا طلباً للكلأ والعشب مع تقلبات فصول السنة . والتعاون المشترك بين البـدو والحضر هو من الامور الحيوية في العالم الاسلامي ، وهو في ايران اقل منه في البلاد العربية الاخرى ، قبـــل هجرة الاتراك الذين وجدوا من مظاهر الحياة في البلاد . فقد قام الجانبان بتبـــادل محاصيلهم . ففي الازمنة والاقطار التي طغت فيها الانقسامات والتحزبات السياسية كثيراً مـا فرض البدو على سكان المدن تقديم العوائد العينية . والاملاك الواقعة عند الحدود ، كان استثمارها ينتقل مناوبة وبصورة مطردة ، بين البدو واهـــل الحضر ، الا ان اختلاف انظمة الحكم ، والاضطرابات الاجتماعية التي كانت تقع ، كثيرا ما الحقت تغييرات اساسية في نسبة سكان الحضر والبدو ، على السواء ، وبالتالي بين المناطق التي اعتاد البدو ارتيادها والمناطق الاخرى التي كان يستغلهـا سكان المدن . وكثيراً ما تحول اهل الظعن الى مزارعين ، وهو وضع كثيراً ما نظروا اليه نظرة هزء وازدراء ، واعتبروه محطاً لهم . وعندمـا يستقر بهم المطاف ، ينزع زعماؤهم للسكنى في المـــدن ، الامر الذي ساعدهم على تعاطي الحياة الريفية دون ان يقوموا ، هم انفسهم ، بامور الفلاحة .

ونود كثيراً ان نعرف فيما اذا كان الازدهار الاقتصادي ادّى الى اي تحرر أو تحسين في حياة الريف ، او ادى ،بعكس ذلك ، الى المزيد من ابهاظ الحياة وارزاحهـا . فالجواب الواحد لا يمكن ان يعبر تماماً عن الوضع الذي ساد واستبد في جميع انحاء العالم الاسلامي . ويمكن القول باختصار ، دونما اطـــلاق او تعميم ، انه حدث ، ولا ريب ، من جراء ذلك ، شيء من تركيز للملكية ، ومن التضييق على الفلاحين ، والى المزيد من الاحراج في وضعهم ، والامعـــان في البوس . فالمسؤول الاول عن هذا المصير القاتم ، انما هوالطبقة البورجوازية التجارية ، واكثر منها مسؤولية ، الجيش نفسه . فالملكية البورجوازية التي عادت الى عهد بعيد ، سيطرت على

الحدائق والجنان والبساتين الواقعة قرب المدن ، وهي اقطان عرفت بغناها وخصبها مع ما هي عليه من ضيق المساحة او الرقعة ، كما انها سيطرت على مساحات عقـــارية واسعة شملت قرى بكاملها . فلم يكن من النادر قط ، ان نرى هنا وهنالك ، في العهد الاول من الدولة العباسية ، الفلاحين يتمتعون بملكية قوية الجانب ، وهي ملكية لم يستطيعوا ان يحافظوا عليها فيما بعد ، الا بشق الانفس . فالظروف التي ساعدت على استمرار المشاركة في مزارعة الارض ، لم تعـد تتوفر الا في المقاطعات التي توزعت فيها الملكية العقارية وكلّف تشغيلها غاليا ، الا انها كانت تعطي دخلاً طيباً ، وتزخر بالسكان ، كما هي الحال في لبنان الماروني مثلاً ... امـــا في غير اماكن ، التي كانت توفرها الاعـــال التجارية ، فالارباح قد استخدمت في شراء الاملاك والاقطان العقارية ، وهي ملكيات نمت وازدادت على اساس نظام الجباية الذي عمل به آنذاك . وكان الفلاح عندما يروح فريسة العوامل الطبيعية او يقترض لأي حادث عائلي ، يقترض ، عادة من المالك المجاور له ، وعندما يرى نفسه عاجزاً عن الدفع كان يرى من مصلحته الخاصة ، ان يتخلى عن ارضه للدائن واضعاً نفسه وذويه تحت رعايته وحمايته ، ويعمل مزارعاً عنده . ومع ان القانون لم يكن ليقر او ليعترف باية عبودية تشد الفلاح الى ارضه ، كان الفلاح المعسر الذي يعجز عن دفع دينه ، يتعهد بوفاء الدين بالعمل في الارض . فاذا ما حاول الهرب أو التهرب أو التملص ، امكن مطالبته بما عليه ، لا سيما وان جميع سكان القرية كانوا مسؤولين ، جماعيـاً ، أمام ادارة الجباية ، عن جميع الرسوم المترتبة على قريتهم .

وقد عرف القسم الجنوبي من العراق تغييرات اخرى تقربنا من عهـد الرومانيين . ولكن يجب الاحتراز من القول بتعميمها . كان كبار الملاكين في بغـــداد يستثمرون الاراضي الخصبة الواقعة على جنبـــات شط العرب ، ويزرعونها قصب السكر مستخدمين لها عدداً كبيراً من الزنوج بعد ان تناقص كثيراً عـــدد الفلاحين ، يأتون بهم باعداد كبيرة من سواحل افريقيا الشرقية . تألف منهم جماعات تسكع افرادها في فقر مدقع والبؤس ، كما يشهد على ذلك كتّاب العصر . وقد زاد هذا الوضع الفلاحين بؤساً بعد ان تعذر عليهم مقاومة هـذه المنافسة الشديدة التي تعرضوا لها . وقـــد ادّى الوضع المذكور ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، الى ثورة الزنج ، فانضم اليهم بدافع من الشعور بالتضامن ، عدد كبير من الفلاحين . وقد امكن ، بعد جهد طويل ، التغلب على هذه الثورة اسوة بثورة الزنج ، في عهد سبارتاكوس ، بعد ان وضعوا الخلافة ادنى من قاب قوسين من هلاكها . الا ان هذه الثورة تركت في الطبقات الشعبية بذوراً لم تلبث ان طلعت في انتفاضات عنيفة قامت فيما بعد .

وكان من جراء البؤس الذي غمر الريف ان توافد الناس على المدن ، فغصّت بسكانها وزخرت ارباضها بالوافدين عليها طلباً للعيش وفراراً من الضيق الخانق الذي اخذ بتلابيبهم ، ممـا ادّى الى اضطراب حبل الأمن في البلاد ، ولا سيما في هـــذه المناطق التي يأهلها الاكراد ، اذ كانت اعمال اللصوصية ضاربة اطنابها . فقامت في البلاد عصابات من شذاذ الآفاق تسلب المـــارة

وتبلص كبار الملاكين وتقتصرهم ، واستفحل خطرها بعد ان انضم الى هـــذه العصابات عدد كبير من اهل البدو .

الجيش في البلاد الاسلامية

لما كان نظام الجيش مسؤولاً ، الى حد بعيد ، عن المصير المظلم الذي آل اليه الوضع في الريف ، كان لا بد هنا من إلقاء نظرة الى الوراء تتحلى الجيش وتشكيله .

كان هذا الجيش عنـــد الفتوحات الاسلامية الاولى يعني العرب ، يتأمن أوَدُه من المغانم والاسلاب ، ومن المرتبات والاعطيات التي تُدفَع له . غير ان بعض العناصر المقيمة باستمرار على الحدود ، تميزوا بعض الشيء ، عن اخوة لهم في السلاح توزعوا على الحاميات في المؤخرة . الا ان توقف حروب الفتح ، وعدم الانضباط ، الذي نشأ في صفوف الجيش ، والتفاوت في التدريب المهني والتقني ، بينما كانت الحرب تتطور وترتدي اساليب لم يألفها العرب من قبل ، والحاف الموالي بالطلبات ، كل هذه الاسباب وما اليها ، ادت كما رأينا ، مع الانقلاب العباسي ، الى إقصاء العرب واقصارهم على المرتبة الثانية ، لتؤخذ منهم عند الحاجة ، بعض العناصر اللازمة للاعمال السريعة . فالعنصر الخراساني اخذ يؤلف نقطة الثقل في الجيش وقوامه الاول ومادته الاساسية ، تدفع لهم المرتبات السخية . وهذا الجيش نفسه هو الذي شال ورجّح ، في مطلع القرن التاسع ، بعد المعارك المتتالية ضد الامويين ، كفة حاكم خراسان ، اذ ذاك ، على اخيه الأمين الذي كان يسانده العنصر العربي في الجيش . وكان من الصعب ، وايم الحـــق ، على الخراسانيين الذين كانوا يشعرون بقوتهم ونفوذهم ، ألاّ يدلّوا لهذا النفوذ على غيرهم ويبهوا به ، او ان يبقوا محافظين على ولائهم ، نحو الخليفة ، في كل المناسبات ، ناهيك عن ان تجنيد عناصر تم لها الاستعداد الفني والمسلكي ، لم يكن دوماً بالامر اليسير ، وهو امر يمكن تكرانه او التشكك فيه ، الا في بلاد البربر حيث كانت طبيعـــة المعارك والحروب ، تتطلب الاعتماد على الخيالة الثقيلة والتمويل عليها ، مما كان يقتضي له تدريباً اكبر واوسع . وكانوا يحولون ضد صغار القوم للعمل في الجيش ممن لم تكن لهم طاقة على شراء حاجتهم من الجياد والعتاد .

وفي الربع الثاني من القرن الثالث ، تمت خطوة ثانية ، الى الامام ، وذلك بتدبير من الخليفة المعتصد . فازدهار التجارة ، والجـــاه حركتها نحو البلدان الشمالية ، سهّل اقتناء الكثير من الارقاء والعبيد ، من سكان هذه البلدان ، ولا سيما من بين الاتراك منهم الذين اشتهروا بتقاليدهم الحربية ، حيث كان الاهلون يتخلون بارتياح ورضى عن اولادهم ، رغبةً منهم في تأمين مستقبل افضل لهم عن طريق الخدمة في جيش المسلمين ، حتى ان قبائلهم كانت تحارب بعضهـــا بعضاً وتتقاتل فيما بينها طمعاً في اسرى يقعون بين ايديهم ، فيبيعونهم بيع النعاج في سوق النخاسة ، كما جرى ذلك من بعد ، لرؤساء القبائل من العبيـــد في افريقيا . وهكذا ضم جيش الخليفة وحدات من العبيد اخذ عددهم يتكاثر وينمو بما يردفه من الاحداث الارقاء ، بعد ان يتم تدريبهم

في القصر، وتخريجهم في امور الدين والجيش، ويدربوا على اعمال الحرب وفنون الكر والفر. اما ما تبقى من وحدات الجيش فقد كانت تتألف من ابناء البلاد، ولا سيما من بين العناصر الخشنة الطباع، شأنهم شأن العبيد الاتراك، يعملون تحت امرة ضباط رؤساء من ابناء جلدتهم. وبعد ان يرقوا المراتب، ويصبحوا في مصف الضباط الاعلين، ينهجون، معتقين كانوا ام عبيداً، حياة تختلف كثيراً، بما تم لهم من اسباب الرفاه والقوة والسيطرة، عن حياة معظم احرار الرجال، اذا ما شئنا ان نستقط من كل حساب، العبيد العاملين في الاعمال المنزلية.

الاقطاع والوقف

وهذا الجيش الجديد، كان اكثر كلفة ونفقة، بالطبع من الجيش القديم فالخليفة، كالاباطرة الرومان بالنسبة لقائد الولاية، كان جل اعتماده على الجيش، كما ان مصيره كان يتوقف، الى حد بعيد، على ولاء هذا الجيش له. وكانت معرفة هذه الامور لا تفوت الجيش، ولذا لم يكن ليتورع في مطالبه والتشدد فيها. فبيت المال لم يكن يستطيع الاعتماد على دخل مطرد بحيث يمكن له مواجهة دفع مرتبات عالية. ولهذا كان افراد الجيش يفضلون ان يُعطَوا بعض الاطيان التي تدرّ عليهم مزيداً من الدخل والارباح يطمئنون لها ويعوّلون عليها اكثر من تعويلهم على مرتبات يقتّر صاحب السلطان في دفعها. ولهذه الاسباب، كان لا بد من خصهم بتوزيعات خاصة من الاقطاع، كان الخليفة، الى هذا العهد، يتصرف بها للذين يلاقون عنده حظوة خاصة. ولم يكن هذا التدبير وحده كافياً، اذ ان كمية الاراضي التي امكن للخليفة التصرف بها، كان يحد منها اتساع الاملاك الاميرية، ولم يكن من الممكن انتزاعها من ايدي الذين صارت الى ملكيتهم منذ عهد بعيد، ومنذ بدء القرن العاشر، اخذوا يوزعون على الجند، تحت اسم اقطاع، الرسوم المستوفاة عن الاملاك الخاصة، ليس فقط عن طريق مرتبات عُهد الى مأمور بيت المال، او الى متعهدي الاملاك الاميرية، بدفعها لهم، بل ايضاً بالاعتراف لهم بحق استثمارها واستيفاء رسومها بعد ان تتخلى الادارة عنها لهم. هذا بعض ما كان عليه الوضع، أقلّه في سواد العراق وفي غربي ايران. اما المناطق الدائرية الاخرى، فقد سارت الحركة فيها بتمهل كلي، كما اختلف الوضع كذلك في الولايات التي بقي الجيش يعول في تشكيله، على القبائل التي بقيت تقاليد الحرب فيها قوية، كبلاد البربر، مثلاً.

وعلى كل، فقد آل الامر الى كارثة على الدولة وعلى سكان الريف معاً. فالدولة فقدت، ان لم يكن بالفعل، فاقله بالاسم، الاشراف الاداري على قسم متزايد من الارض كما فقدت الإشراف على جانب من الفيء. فبعد ان جهل اسياد الأرض الجدد ومن يعمل فيها من المزارعين، كل شيء يتعلق بكيفية استثمار الارض والوسائل المساعدة على ذلك، فلم يعد لهم من هم سوى الاثراء باسرع ما يمكن، سيان عندهم أأقفرت الارض أم اجدبت، طالما كان بوسعهم استبدالها بقطعة غيرها اكثر عطاء واقل إمساكاً. وبعد ان اصبح الجند اسياد هذه الاقطاعات، رأوا انفسهم يتمتعون بالثروة والقوة. فقد كان من اليسير على الملاكين البورجوازيين ان يرغموا صغار

الفلاحين أو متوسطيهم ، على طلب حمايتهم ، وحملهم على التنازل عما يملكون من عقار ، طمعاً منهم بحمايتهم ورعايتهم . فاذا ما استطاعت الملكية البورجوازية ، ان تحافظ على شيء من نشاطها في المناطق التي اشتدت فيها حركة تجميل المدن ، فقد اضطرت للتخلي عن جانب كبير من هذه الاقطان ، لهذه الطبقة الارستوقراطية ، العسكرية والعقارية ، التي طلعت من جديد .

ومما هو أنكى من ذلك ، الخطر الذي كان يرزح على كواهل الدولة . فالنظام الاداري الذي عمِلَ به في عهد اوائل الخلفاء العباسيين ، كان ينص ، كما سبق واشرنا الى ذلك من قبل ، على وجود قائد للجيش وحاكم اداري ، في كل ولاية ، يستقل الواحد عن الآخر في ما له من صلاحيات وما يقع عليه من مسؤوليات . فلا يستطيع الأول دفع مرتبات الجند العاملين تحت امرته الا من المدفوعات التي يقدمها له الحاكم المدني ، بينما لا يستطيع هذا الاخير النهوض بما يدّبر من خطط الا بالاعتماد على الجيش وقائده ، والدولة في شبه اليقين من ولائهما لها . أما الآن ، فقد اتجه هم كبار القادة في الجيش الجديد ، للسيطرة على الادارة المدنية ، والتصرف بعملائها ، بين تعيين وعزل ومراقبة ، والتصرف على هواهم بموارد الدولة يوزعونها على الجند أو يحتفظون بها كما يشاؤون . وهكذا لم يلبث قائد الجيش ، في الولاية ، مهما حافظ على الشكليات ، ان اصبح السيد المطلق . ولم يفت الوضع على الخلفاء ووزرائهم مهما بلغت منهم الغفلة ، فراحوا يحاولون الحد من الامر . ولكن ما ان تندلع ثورة أو تبدر في الولاية حركة انتفاضية حتى يستنجد ذوو الأمر بصاحب الجيش لاخماد الفتنة ، فيضطروا للتسليم مرغمين ، بما رفضوا التسليم به من قبل . واذا ما رغبوا في استعادة ما سلّموا به ، كان عليهم ان يُنعِموا بذات الامتيازات ، على من يصطفونه ، لاعادة الامر الى نصابه . وهكذا أطل الخطر على وحدة الامبراطورية من خلال مطامع العسكريين ، ومن هذه النزعات القومية التي كان يتمخض بها سكان البلاد الاصليون .

وبالرغم من الغَلَبَة التي تمت في النهاية للارستوقراطية العسكرية ، بعد ان خفضت من شأن القطاع التجاري وجعلته في المرتبة الثانية بالرغم مما كان يمثله من قوة ، والذي كثيراً ما استعان باموال العسكريين لتحقيق ما كانوا يقومون به من اعمال تجارية ، يجمل بنا ان نجانب المغالاة في تصوير قوة البورجوازية . فمهما بلغ من نشاط هذه الطبقة ومن حيويتها ، فهؤلاء التجار ، سواء في العالم الاسلامي او في الغرب ، لم يكن نفوذهم ، مهما بلغ من قوة ، بالعامل الاكبر في خلق الامبراطوريات الواسعة .

وبالفعل فقد افضى التخصص المسلكي في الجيش وتشكيله العنصري الى التفريق بين السلطة العسكرية والسلطة الادارية : كسائل التوجيه ، الوظائف الادارية . فقد كان يُعهَدُ بهذه ، الى المواطنين الاصليين من سكان البلاد ، وبتلك الى عنصر اجنبي دخيل عليها . وقد حال

النظام الاسلامي القديم نظام احتلال عسكري ، بلغ اشده مع فتوحات الدولة السلجوقية ، الا ان معالم هذا التطور برزت بوضوح ، منذ القرن التاسع .

وفي الوقت ذاته ، برز الى جانب الملكيـــة البورجوازية ، والعسكرية وطلـع من تفاعلهما ، نوع آخر من الملكية ، كُتِبَ لها ان تلعب ، فيما بعد ، حتى في التاريخ الحديث ، دوراً متزايد الاهمية ، الا وهو نظام الوقف او الحبوس . وقد كانت نواة هذا النظام ، وهذه الاملاك والاقطان التي صارت ملكيتها الى رجال الدين ، من أبناء الطوائف الاخرى التي لم يمسّها الاسلام ولم يُلغِها . غير ان الوقوفات التي كان يجود بهـا المسلمون تلبست لبوساً شتى ، أفاد منها افراد المجتمع او بعض الهيئات والمؤسسات العامة . ففي الحالة الاولى ، أدّى النظـام الى حفظ تركة درية خاصة وصيانتها من الضياع ، وان كانت ، اجمالاً ، صغيرة ، لا كبير شأن لها ، وذلك بحجة تأمين اسباب العيش لأسرة فقيرة ، وبذلك يحيلَ دون توزع التركات . امـا في الحالة الثانية ، فقد كان الغرض من الهبة دعم عمل خيري ، او اقامة بنـاء ديني ، كمسجد ، مثلاً ، او ذات منفعـــة عامة ، كالحمامات والمستشفيات والخانات ، اذ لم يَرد نص قانوني على صيانتها والمحافظة عليها . وقد يفيد من هذه الوقفية اسرة ما من الاسر عندما يعهد اليها بادارة الوقف وباستيفاء ما يدره من عطاء . وقـد شاعت عادة الوقف للأفراد وذاع استعمالها ، وهو يتألف ، على الاجمال ، من اطيان وعقارات وأشياء اخرى غير منقولة ، اذ انه كان من المحظور ، على الواقف ، في بدء الامر ، في مصر وغيرها من البلاد الاسلامية ، وقف املاك منقولة . ويبدو ان التبرعات للمؤسسات العامة لم تكن مهمة قبل القرن الحادي عشر . وكان الوقف على الاجمال وضيع الشأن اذ كان في مقدور الملوك والامراء وحدهم ، واصحاب المراتب العليا ، في البلاط ان يقوموا بتبرعات ووقوفات لها أهميتها . ومع ذلك ، فلم يلبث ان اصبح للوقف شأن كبير ، كما لحق ادارته شيء من التشدد والتحرج ، الامر الذي أفسد تحسينه ، من الوجـهة الاقتصادية ، فأدّى الى اهماله .

المجتمع البيزنطي

وقد اخذ المجتمع البيزنطي يتطور هو الآخر ، متبعاً الاتجاه ذاتـه الذي سار عليه التطور في العالم الاسلامي ، وان تميز ببعض الميزات الخاصة به . فالاملاك والاقطان الخاصة بالبورجوازية التي لم ترتكز على ثروات عينية تجارية ، كما هي الحال في العالم الاسلامي ، لم يكن لها شأن كبير . فالثروة العقارية التي كانت تحت تصرف النبلاء ضؤُل شأنها من جراء الغزوات التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية . وهكذا برزت في المرتبـــة الاولى ، حتى القرن التاسع ، الملكيـة الكنسية التي حاول الاباطرة الذين قالوا بتحطيم الصور منهم ، حتى نيقوفورس الاول ، عبثاً ، الحد منها . ولم تلبث الملكية العلمانية ان استأنفت تطورها الصاعد بالنسبة التي ضعف فيها شأن طبقة الفلاحين ، في كل من الامبراطورية البيزنطية ، في عهدها الاعلى ، وفي العالم الاسلامي ، اذ ذاك ، امام تزايد عظماء الدولة شأناً . فقد احدثت موجة الغزوات ، حركة تراجع وقهقرى ، دون ان تلحق حركة التطور ، أي تغيير او تحوّل

يذكر . غير ان اضطراب حبل الامن ، وتراكم الديون ، بربا او بغير ربا ، وجشع عظماء الدولة وطمعهم الاشعبي ، كل ذلك وما اليه ، أدّى بالتالي : الى بيع الفلاح التركة العقارية التي وصلت اليه بالارث ، والى استخذاء المستضعفين والتماسهم عطف الاقوياء ، كما ان العجز عن الدفع أدّى الى شد الفلاح وربطه بأرضه ، والسلطة التي توفرت للعسكريين ساعدت على توسيع ما لهم من الاملاك الواسعة والاطيـــان والعقارات ، فنشأ في قلب آسيا الصغرى ، منطقة اصبحت تنعم تقريباً بالطمأنينة ، إلا انها ما زالت مع ذلك ، المجال الاكبر للجهاد من كلا الجانبين ، وفيها تمت أكبر ملكيات من الاطيان لضباط الجيش الذين كان معظمهم من أبناء البلاد الاصليين ، تغطي الواحدة منها باتساعها ، ولاية برمتها ، كما حصل للأسر الشهيرة من آل فوكاس ، وسكليروس ، ومالينوس وكومنينس ، بحيث استطاعوا ان يقفوا بوجه الامبراطور نفسه .

وقد عاد هذا الوضع بالحيف الكبير على الدولة نفسها ، اذ فقدت الكثير من دخلهـــا وزارداتها ، بعـد ان عجزت عن إرغام عظماء القوم على دفع ما يترتب عليهم دفعه من رسوم وضرائب مفروضة على الاراضي التي اضطر للتخلي عنها صغار الملاكين ، كما أسقط في يدهـــا عندما ارادتهم على التزام حدود الاحتكارات العامة ، عندما يعمدون لتصريف محاصيلهم . كذلك فقـــدت الدولة كل سلطة لها ، وراح عظماء القوم واكابرهم يتحدّون الحاكم في الاقضية التي تصدرها ضدهم . كذلك فقدت وحدات جيشها بعد ان اخذ هذا الجيش يعتمد في تشكيله على طبقة الفلاحين الاحرار . فالوحدات التي كان هؤلاء العظماء يشكلونها من بين الفلاحين التابعين لهم ، لم يكن لها من كثرة العدد ، ولا من الولاء للامبراطور ما كان للجيش قديماً . ولذا جاءت ردة الفعل من قِبَل حكومة الامبراطور قوية وسريعة جداً ، طوال القرن العاشر ، ضد تضخم الملكية العقارية ، كنسية كانت ام علمانية . فقد حظر القانون على كبار الملاكين شراء اراضي الفلاحين ، واعاد الى هؤلاء الاملاك التي اغتصبها منهم مغتصبوها بالحيلة او بالعنف او الاكراه ، وفرض على العظماء ، في هذه المجتمعات المسؤولة بالتكافل ، امام بيت المال ، الضرائب التي لم يكن في مكنة صغار الملاكين حملها والقيام بها .

كل هذا لم يُجدِ فتيلاً . فمنذ القرن العاشر راح بعض الاباطرة ، امثال نيقوفورس فوكاس ، ويوحنا كزيمنيس ، مـــن الارستوقراطية العسكرية يلعنون باليمين ما يهدمون باليسار . فتجاه تطور السلاح الثقيل ، لم يعودوا يكترثون الا بالملكيات المتوسطة الحجم بينما ضحوا بالصغيرة منها التي فقدت كل قدرة لها على الاحتمال ، والنهوض بما يترتب عليها من واجبات . ففي اواخر القرن المذكور ، أتاحت المنافسات التي نشبت بين العظماء ، وامكانية الحروب مع الخارج ، للامبراطور النشيط باسيل الثاني ، ان يتغلب على هذه الثورات التي نشبت في عهده ، وان يقوم بمصادرات كثيرة ، فيكبح من جماح الارستوقراطية ، ويشد من شكيمتها . وقد اخذت هـــذه الحركة تتطور بسرعة أكبر ، في القرن الحادي عشر ، وهي حركة شابهت الحركة التي قامت في العالم الاسلامي ، وان تأخرت عنها قليلاً ، مع فارق وحيد هو ان الامبراطورية البيزنطية استهدفت ،

لصغرها ، للعديد من محاولات الانقلابات ، يقوم بها العظماء للاستيلاء على الحكم والاستبداد به ، وليس لتوسيع رقعة الامبراطورية او لاقتسامها ، لما كانت عليه من متانة الجانب ، والتضامن العنصري والتماسك الديني ، ولبقاء الجيش معتصماً « بالروح الوطنية » .

الملل والنحل الاسلامية

ادى اشتداد النزعات الاجتماعية في العالم الاسلامي الى استفحال امر الملل والنحل التي تلبست مظاهر دينية اسلامية بينما اخفت في ثناياها مطالب ودعوات قومية مبطنة . واتسعت الفروق بين هذه الملل ، يوماً بعد يوم . فالخوارج لم يحافظوا على كثرة عددهم الا في بلاد البربر حيث استفحل منهم الامر ، واخـــذ يتلبس شكل دكتاتورية جماعية بزعامة آل رستم الذين ألّفوا ، في اواخر القرن الثامن ، امارة لهم في مقاطعة تباريت (ولاية وهران اليوم ، في الجزائر) وستمهد هذه الفرقة السبيل لظهور الحركة التي قـام بها « رجل الحمار » في منتصف القرن العاشر ، ضد الفاطميين . وقد اقتصر عملها ، في البـدء ، على بعض الواحات الواقعة في القسم الشمالي من الصحراء ، وثم في مقاطعة المزاب ، ومنهـا اخذ اتباعها ينتشرون في الجزائر .

اما الشيعة ، فهي التي استقطبت ، في الشرق ، جميع الناقمين على الدولة ، بعد ان انقسمت الى عدة فرق ونحل اشتدت بينها المنافسات الشخصية ، وبرزت الفوارق العقائدية والمنافسات الاجتماعية العنيفة ، وظاهر الاختلاف انحصر في شخصية الائمـة الذين ينحدرون ولا شك ، من سبط علي بن ابي طالب ، الا انهم يختلفون في بُنوتهم منه . الا ان سوء سلوك بعض العلويين ، والاختلافات العقائدية التي نشبت فيما بينهم ، اوجدت بـــين الجماعة شعوراً بان سلسلة الائمة انقطعت عند اختفاء الامام الاخير وتواريه ، دون ان يكون مـــات ، وسيعود يوماً بشخص المهدي ، على شاكلة المسيح المرتجى ، في النصوص الكتابية ، قبـل انقضاء الدهر ، ليملأ العالم عـــدلاً وسلاماً . ولذا ، لا يمكن ان يقوم على ادارة الجماعة سوى قادة يتولون الامر انتداباً او بالوكالة ، ليحافظوا مع علماء الملة على نقاء العقيدة ، وكلها امور تناقض تماماً مـا اجمع عليه اهل السنة . فالثورة عليها لا تجدي فتيلاً ، ولا تفضي الا لانحلال الجماعة . ولذا كان من الافضل التقيد بالعقيدة الرسمية ، والاخذ بالتقية .

قلنا ان فرق الشيعة تباينت فيما بينها . فمنها من رأى ان الامامة الشرعية تقف عند الامام الخامس زيد ، الذي مات سنة ٧٤٠ ، وقام اتباع هذه الفرقة بثورة عارمة ، في منتصف القرن التاسع ، فانشأوا في طبرستان (مازدران) الى الجنوب من بحر قزوين ، كما انشأوا في اليمن ، امارتين لا تزال الثانية منها قائمة الى يومنا هذا . فتعاليمهم وفقههم لا تختلف كثيراً عن عقيـدة السنة وفقهها ، الا انهم غلبوا على امرهم امام شيع أخرى .

اما الشيعة الامامية ، فعدد الائمة عندهم ١٢ إماماً آخرهم الأمام محمد ، في اواخر القرن السابع ، فهم يتميزون عن السنة بانتظارهم المهدي ، وبقولهم ان جوهر الألوهية ، ينصب في

الامام ، كما يختلفون معهم ببعض الاحكام الفقهية كزواج المتعة او الزواج الموقت . وقد انتشرت هـذه الشيعة في ايران ، ولا سيما بين الديلم ، وبين العرب من سكان العراق وسوريا الشمالية ، وتغلغلوا على نطاق واسع بين طبقة التجار ، الا انهم بقوا شبه مجهولين في الغرب ، وفي مصر . صحيح ان بعض زعمائهم الدينيين قاموا احياناً بثورات لاهبة ، دون ان يفعلوا ذلك باسم تعاليمهم الدينية ، ودون ان يجروا وراءهم اتباعهم . وهكذا بقي اثرهم السياسي ضعيفاً .

ويختلف عن الشيعة الامامية ، الشيعة الاسماعيلية التي يقف الائمة عندهم عند الامام السابع اسماعيل بن الصادق، وهو شقيق الامام موسى الكاظم، كما هو حسب ترتيب الائمة عند الامامية. فالاسماعيلية التي حافظت ، ولو ظاهرياً ، على العقيدة الاسلامية ، اخذت الكثير من تعاليم الافلاطونية الحديثة والقول بالاشراق وهي مبادىء شاعت في بلدان الشرق الادنى ، قبيل الاسلام بقليل . فهي تشرح آي القرآن على اساس من التورية والرمزية ، بحيث ان الاديان لديها كلها سواء تقريباً . فالانتقال من الله الى الانسان ، انما يتم على سبعة ادوار او مراحل : اولها الله ، ثم العقل الكلي الذي تجسد تباعاً في سبعة أنبياء ، سادسهم محمد ، وسابعهم ابن الامام اسماعيل الذي توارى ، حوالي عام ٨٧٠ . وبين كل نبي ونبي ، سبعة أئمة ، اولهم بعد محمد ، علي ابن ابي طالب ، اما الفاطميون فهم ائمة النبي السابع . وهم يعتقدون ان الامام معصوم ، وهو ملك النفوس كما انه سيد الناس اجمعين . اما الخلاص والجحيم والجنة ، فأشياء لا تعني شيئاً كبيراً عند الاسماعيلية ، بعد ان سلموا بتناسخ الارواح او التقمص . وهكذا ابتعدوا عن جادة الاسلام .

يظهر مما تقدم ، ان عدداً قليلاً جداً من الاتباع والمريدين استطاع فهم هذه التعاليم واستمرائها . فقد كان على المريد ان يمر بسلسلة من التعاليم السرية ، لا يبلغ منها القمة إلا فريق مختار . وتعاليمها تبقى سرية ، ويقوم بالدعوة لها جيش من المبشرين الداعي (جمع دعاة) يجوبون العالم لنشر الدعوة ، ودعوة الناس للاستعداد والتهيؤ، بعد ان اقترب موعد مجيء المهدي ودنت نهاية العالم . وقد انتشرت تعاليم الاسماعيلية ، بين الطبقات الشعبية ، سواء في المدن او الارياف . وتألفت منها جمعيات مهنية ونقابات على اساس من مبادئها التي كانت محوراً لتنظيماتها . وفي الهيئات السرية التي نشأت فيها ، جماعة « اخوان الصفا » التي نعرف الكثير من تنظيماتها عن طريق « رسائلها » . وهذه الرسائل عبارة عن موسوعة للعلوم والفنون في ذلك العصر . ووجدت الاسماعيلية موطناً لها في الهند وبعض انحاء فارس وأفغانستان ، وفي زنجبار وافريقيا الشرقية .

ومن الحركات الهدامة ، في الاسلام ، حركة القرامطة ، وهي نحلة قامت على اساس من المطالب الاجتماعية والتعاليم الدينية ، هزّت بما أتته من الحوادث الدامية : الجزيرة العربية ، والشام ، والعراق وايران والهند ، وتركت في اذهان الناس ، ولا سيما المثقفين منهم ، ذكريات مريرة لما جرته على البلاد من ويلات ودمار . وقد امكن كبح جماحها او حصرها في مناطق

ضيقة لا يخشى من شرها . وخوالي عام ٩٠٠ ، اشتعل العراق والتهبت جميع أطرافه بثورة لاهبة قامت بها جماعة الفلاحين بعد ان انضم اليهم من نجوا من ثورة الزنج . وبعد جهود طويلة ووقائع مريرة امكن اخماد الفتنة وانقاذ الخلافة العباسية والحؤول دون سقوط بغداد .

ولم تستطع السلطة ان تقضي على اعشاش الثائرين المعتصمين في المستنقعات او في المناطق الصحراوية ، الا بشق الانفس ، ولا ان تخفف من روع الطبقة الحاكمة الا بعد طول عناء ، كما انها عجزت عن منع القرامطة من اقامة حكومة مستقلة في جزيرة البحرين في الخليج الفارسي هي اشبه ما تكون بجمهورية شعبية جماعية ، معادية للطبقة الارستوقراطية ، مع انها شجعت اعمال الرق ، فزرعت الخوف في البلاد وروعت مكة بالذات ، بعد ان استولت على الحجر الاسود الذي يتبرك الحجاج بلمسه ، والحقوا اضطراباً في الحركة التجارية بين البصرة وسيراف . وقد الحقت الحروب التي دارت ، اذ ذاك ، الخراب والدمار في طول البلاد وعرضها ، وانهكت الدولة العباسية ، فالقت بها بين ايدي العسكريين ، وهي ضربة لم تستطع ان تنهض منها . وبعد القضاء على حركة القرامطة ظهرت الاسماعيلية بشكل سياسي ابرز ، فراحت تؤيد دعوة الفاطميين ومطالبتهم بالاستيلاء على السلطة ، وهم من سلالة علي بن ابي طالب وابنته فاطمة ، وقد كتب للحركة ، هذه المرة ، نجاحاً تاماً .

انقسام العالم الاسلامي

وبدون هذه الاضطرابات التي مزقت الاسلام ، كان من الصعاب المحافظة على هذه الامبراطورية الاسلامية المترامية الاطراف . ان كبح الحركات الانتفاضية كانت تذكي المطالب القومية ، وتحد من رغائب الشعوب التي ألفت ان تحكم نفسها بنفسها . اما الحل الآخر القائم بارسال حاكم عسكري شديد الشكيمة ، فانما يعني انشاء امارة جديدة مستقلة . وحركة الانقسام السياسي هذه التي ابتدأت في القرن الثامن ، اخذت تشتد فيما بعد . فبالاضافة الى الدولة الاموية في الاندلس ، ودولة الخوارج في المغرب ـ نشأت عند البربر الحديثي العهد بالاسلام ، دولة جديدة ، هي الدولة العلوية ، التي لم تكن من دول الشيعة ـ هي دولة الادارسة التي اسست مدينة فاس وجعلت منها عاصمة امارة مستقلة . ولكي تكبح الخلافة من شكيمة هذه الحركات ، اولت الامر في افريقيا الى دولة وراثية هي دولة الاغالبة في تونس ، التي عرفت ان تحافظ على علاقاتها مع الشرق كما حافظت على نفوذ الخلافة في الغرب .

اما في الولايات الشرقية ، فالوضع كان اكثر اضطراباً منه في الغرب . فاينما القينا النظر ، رأينا الانقسام السياسي ضارباً اطنابه على حساب سلطة الخليفة . فالزيديون يسيطرون على اليمن برمتها ، والقرامطة على البحرين وما اليها ، اما مصر التي بقيت ، مدة طويلة ، مسرحاً لاضطرابات دامية فلبثت محافظة على ولائها للسلطة الشرعية . وقد استطاع ابن طولون ، وهو قائد تركي اوفدته بغداد لارجاع الأمن الى نصابه ، ان يؤلف في البلاد دولة جديدة : هي الدولة

الطولونية ، زالت من الوجود ، في اواخر القرن التاسع امـــام طلوع الدولة الاخشيدية ، التي عرفت ان تحافظ على علاقتها ببغداد . وفي القرن العاشر ، سقطت سوريا الشمالية وولاية الموصل تحت سيطرت الدولة الحمدانية ، حيث استطاع سيف الدولة ان يكسب مجداً مؤثلاً ، بما حقق من انتصارات في حروبه ضد البيزنطيين ، وبرعايته للادب والادباء .

اما ايران ، فقد شهدت ، خلال القرن العاشر ، قيام عدة دول كردية تقاسمت البـلاد من بحر قزوين حتى شطآن دجلة . فقـــد قام في قلب البلاد ، بين الديلم الحديثي العهد بالاسلام ، دولة قوية ، تولى الامر فيها البويهيون ، من الشيعة الامامية . اما في شرقي ايران ، فقـد تألفت في خراسان وبلاد الصغد ، دولة اخرى هي الدولة السامانية التي انحدرت من آل الضحـاك ، احدى الاسر الوطنية التي امنت للبلاد ازدهاراً اقتصادياً واشعاعاً ثقافياً عالياً . وهكذا قامت في جميع ارجاء ايران ، دويلات وطنية ، تولى الامر فيها امراء من اهل البلاد . وهـذه الفترة القصيرة التي عرفت في التاريخ : « بالفترة الايرانية » ، فان لم تستطع ان تحل شيئاً من هـــذه المشكلات العارضة فقد ارضت المطامع الوطنية . وبعد فترة وجيزة ، اي حوالي عام ١٠٠٠ ، سقطت الدولة السامانية فريسة لهجوم استهدفته له من الخارج ، ومن الجيش في الداخل ، كلاهما على يد عناصر تركية . وقد تقاسم الغزاة الاسلاب بالسوية : فتمكن العصاة من قادة الجيش من انشاء دولة ضمت الجانب الاكبر من افغانستان ، عاصمتهـا غزنة ، اشتهرت بالمآتي العظيمة التي قام بها محمود الغزنوي . ولم تلبث ايران بعد ذلك بقليل ، ان وقعت فريسة لغزاة جـــدد من الاتراك .

وقبل هذا التاريخ بكثير ، كان الانحطاط بلغ من الخلافة العباسية ، كل مبلغ . فقد وقعت بغداد نفسها فريسة لفتن متعددة قام بهـــا العيّارون ، ورجال الجيش . وعبثاً حاول بعض الوزراء ، بالرغم من المنافسات الشديدة التي قامت فيما بينهم ، منهم الوزير علي بن عيسى ، وابن الفرات ، ارجاع الامن الى نصابه وانقاذ ما يمكن انقاذه من الادارة العـــامة ، ولا سيما ادارة بيت المـــال . وتعاقب سراعاً على السلطة اذ ذاك ، باسم الخليفة عدد من الامراء عرفوا بـ : « امير الامراء » ما كاد يستتب لهم الامر ، حتى يتهادى بين ايديهم الى الحضيض ليقع بيـــد أقوى . وفي سنة ٩٤٥ ، سقطت بغداد بين ايدي سلاطين الدولة البويهية ، كما وقع الخلفـــاء العباسيون تحت سيطرة الديلم الامامية ، ولمـــا كان السواد الاعظم من المسلمين بقي معتصماً بالشرعية ، لم يعمد الفاتحون الى إلغاء الخلافة ، بل حافظوا على ما لها من سلطة روحيـــة كانوا يتسلحون بها لتبرير استئثارهم بالسلطة في نظر السنيين .

الفاطميون في مصر والايوبيون في الاندلس

اما فتح الفاطميين لمصر فقد أخفى في ثناياه ، خطراً أكبر هدد الخلافـــة العباسية . وبفضل داعيتهم ابي عبدالله ، الذي لاقى عند الفاطميين المصير السيء الذي لاقاه ابو مسلم الخراساني عند العباسيين ، راح احد الائمة الفاطميين هو عُبَيد الله الفاطمي ، يستغل الخلافات الداخلية التي نشبت بين البربر

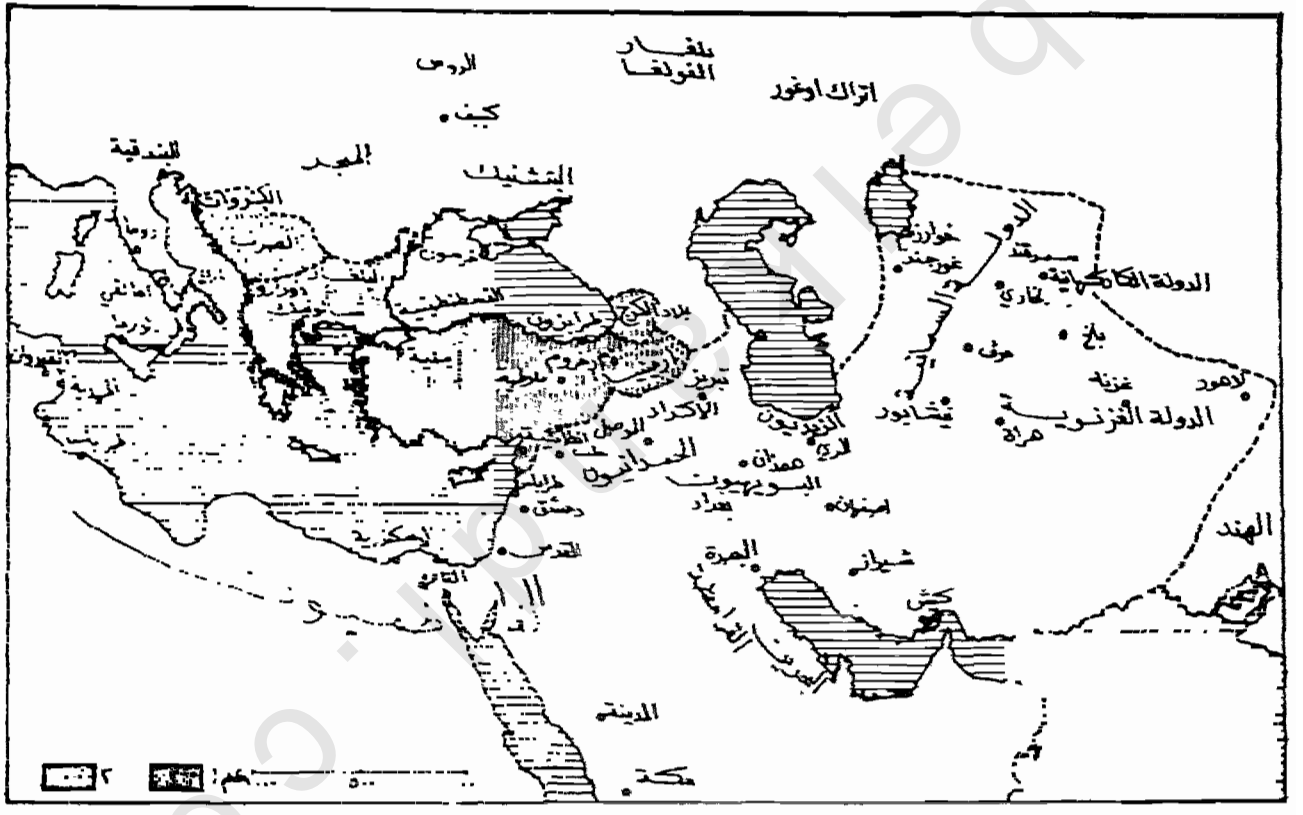

الشكل (رقم ٧) ـ الشرق الادنى حوالي عام ١٠٠٠

١ ـ الامبراطورية البيزنطية ٢ ـ الدول الترابيزية

وتذمراتهم ضد الاغالبة ، يستولي على الامر ، في افريقيا ، في مطلع القرن العاشر ، كما استولى على صقلية والمقاطعات التابعة لامراء آل رستم . وفي سنة ٩٦٩ ، استطاع احد خلفائه هو المعز لدين الله ان يستولي على مصر ، وأسس قائدهم جوهر الصقلي ، على مقربة من الفسطاط ، مدينة جديدة هي القاهرة ، وتركوا امر تدبير افريقيا لأمراء استقلوا بها تحت سلطة الفاطميين . ولم يلبث ان اصبحت الاسماعيلية في مصر العقيدة الرسمية في البلاد ، مع ان الشعب لم يقبل عليها اقبالاً واسعاً ، كما ان الذميين فيها حققوا لهم بعض النفوذ السياسي . إلا ان قيام خلافة فاطمية في القاهرة ، مناهضة للخلافة العباسية في بغداد ، كرّس فصل مصر عن القارة الآسيوية . وقد نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر ، ترعاها السلطات الحاكمة ، تشد من ازرها جامعة الازهر ، وامتدت هذه الدعوة الى الخارج ، مما اقلق اهل السنة .

ان قيام دولة الفاطميين ، عند مداخل آسيا من الغرب ، لم يهدّىء من هيجان العناصر المتطرفة في الاسلام . فعدم تحقيقها أي اصلاح اجتماعي في البلاد ، أفقدها عطف القرامطة . اما الاسماعيلية الذين حلموا دوماً بقيام دولة نصف إلهية ، واعتقدوا دوماً بقرب انتهاء العالم ، فقد شقّ عليهم كثيراً ما شهدوا من الضعف البشري في الخلفاء والحكام . فالخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي اعتلى عرش الدولة حوالي سنة ألف ، والذي عُرف بشذوذه ، تبدّى للناس ، لهذه الاعتبارات بالذات ، تجسيماً للألوهية . وقد لقيت دعوته قبولاً عند بعض سكان سوريا ممن عرفوا فيما بعد بالدروز نسبة للداعية الذي قام بالدعوة للحاكم في اوساطهم . وفي الوقت ذاته تقريباً ظهرت في شمالي سوريا فرقة النصيرية او العلوية ، وهي فرقة قد يكون بعض أتباعها من بقايا الاقوام الوثنيين الذين اخذوا بشيء من المسيحية والاسلام ومبادىء الشيعة المتطرفة . فقد رأوا في علي نفسه ، الله بالذات ، فتمثلوه واحتفلوا بذكراه وفقاً الأساطير الميثولوجية القديمة . اما الخليفة الحاكم فقد راح يضطهد المسيحيين والذميين من رعاياه ، نزولاً منه عند انتفاضة شعبية ، اذ ساء الجماهير ونغّصهم كثيراً ما رأوا من حسن معاملة الخلفاء الفاطميين الذين تقدموه للذميين ، وأمر بهدم كنيسة القيامة في القدس الشريف . إلا ان هذه النزوة لم يطل أمدها ، وبقيت برقاً خلّباً . وقد كان لهذه الحركة تأثير كبير على الحجاج المسيحيين الى القدس ، وبقي صداها يتردد بعيداً في الاوساط المسيحية في الغرب ، بعد ذلك بقرن ، فاتخذ منها بعضهم حجة لهم عندما قاموا يدعون للحروب الصليبية .

ولم يستطع الفاطميون ، كالعباسيين منافسيهم في الشرق ، ان يؤمنوا الاستقرار السياسي في البلاد . فقد وجدوا انفسهم أسرى جيوشهم من البربر والزنج اضافوا اليها ، تأميناً للتوازن ، وحدات من الاتراك والاكراد والارمن ، بينما راحت افريقيا الشمالية تحاول الانفصال عنهم بعد ان زهدوا بها وتناسوا امرها . ولكي يقتصّوا لأنفسهم من الموقف العدائي الذي وقفته ضدهم الدولة الزيرية في تونس ، اطلقوا يد القبائل الهلالية التي كانت تزرع الخوف والفزع في جنبات مصر ووجهوها ، في اواسط القرن الحادي عشر ، ضد افريقيا ، فجرّت عليها الخراب والدمار ،

وأنزلت بالبلاد ضربة قاصمة ونكبة نكباء لم تعرف البلاد ما يماثلها بين الغزوات التي تألبت عليها منذ القديم ، وبدّلت من معالمها الزراعية وخلخلت نظامها الاقتصادي . فقد جعل الهلاليون من البلاد قفراً يباباً ترتادها الركبان والقوافل ، وانتفت منها معالم الزرع والضرع ، وتهدمت شبكة الاقنية التي كانت تؤمن سقاية الارض . ولم يستطع البربر ان يحولوا دون تقدم الهلاليين نحو الغرب . فقد أنزلت غزواتهم الخراب في البلاد ، وقد كانوا السبب الاول في هذا الخراب الاقتصادي الذي لا يزال يعاني منهم المغرب الامرين .

ولم يلبث الفاطميون ان تحولوا عن عقيدتهم الاسماعيلية . فقد كان من جراء حرمان الامير نزار ، بكر الخليفة الفاطمي المستنصر ، من حق الخلافة ، في اواخر القرن الحادي عشر ، ان تحزّب له فريق من الايرانيين ونهضوا بأمره ، فكان ذلك اول انفصال وقطيعة للفاطميين . وقد عقبه انفصال ثان ، في مطلع القرن الثاني عشر ، عند اختفاء ابن الخليفة الآمر ، الذي ولد بعد موت أبيه وقد رأت فيه اليمن ، الوريث الشرعي للخلافة . وقامت بين الفاطميين فتن وحروب داخلية أفقدتهم ما بقي لهم من شأن ومنزلة في النفوس ، كما زادت من نقمة السنة عليهم . ومنذ وزيرهم بدر الجمالي ، وهو ارمني اعتنق الاسلام (اواخر القرن الحادي عشر) الذي قام باصلاح شامل في البلاد ، صار امر الدولة الى عدد من الوزراء معظمهم من قادة الجيش . فاذا ما استطاع الفاطميون البقاء في الحكم الى عام ١١٧١ ، مع ما كانوا عليه من ضعف ووهن ، فالفضل فيه يعود لجيرانهم الضعفاء ، من جهة ؛ ومن جهة اخرى ، لهذه الدولة العازلة التي قامت في الاراضي المقدسة ، مع الصليبيين ، وفصلت بين مصر وبلدان آسيا .

اما في الاندلس ، فقد راح الامير عبد الرحمن الثالث ، في مطلع القرن العاشر ، يعلن نفسه خليفة مستقلاً ويقطع بذلك كل صلة له بالعباسيين والفاطميين على السواء ، جاعلاً من اسبانيا الاسلامية — الاندلس — ومن سكانها الوطنيين الذين اعتنقوا الاسلام ، منارة العالم الاسلامي اذ ذاك . فالممالك المسيحية التي قامت في الشمال الغربي من اسبانيا والتي عرفت ان تحافظ على سيادتها واستقلالها بالرغم من هجمات المسلمين ، والتأثير البالغ الذي كان للاندلس على المغرب الاقصى ، ولا سيما لعاصمتها الجميلة قرطبة ، أمّنت للاندلس اشعاعاً ادبياً وفكرياً عظيماً ساهمت فيه جميع عناصر البلاد على اختلاف عقائدها ونحلها . وقد اقبل مسيحيو البلاد على مناصرة الحكم والاسهام بهذا الاشعاع الفكري والروحي الذي عرفته الاندلس اذ ذاك ، مع حرصهم الشديد على استمرار علاقتهم مع اخوانهم في الدين في الشمال ، وهو وضع لا نرى له مثيلاً ، ولو على نطاق اضيق ، إلا عند الارمن . وقد لعب اليهود دوراً بارزاً اذ ذاك وازدهرت اعمالهم وبرز نفوذهم بحيث ان احدهم المدعو حسداي بن شبروط ، وزر للخليفة عبد الرحمن ، كما ان احدهم نال الوزارة بعد ذلك بقرن ، وتمتع بنفوذ عريض في احدى دول الطوائف في الاندلس . فلا عجب ان يقوم بين العرب والبربر ، وسكان البلاد الاصليين ، والارقاء — ومعظمهم من الصقالبة — اختلافات واصطدامات لم يكن بد منها ، إلا انها لم تصل يوماً لما وصلت اليه هذه الاصطدامات من عنف في

الشرق ، كما انها لم تفض قط الى وقوف العسكريين وسكان البلاد الاصليين ، وجهاً لوجه . واذا كان استطاع المذهب المالكي ان يسيطر في كل من الاندلس والمغرب ، فقد تمّ له ذلك دون ان يترك أية ردّة في البلاد او بسبب أي ضغط او اكراه . فقد كانت الاندلس ، حتى القرن الحادي عشر ، مثالاً للتساهل . ومع ذلك فلم تستطع ان تحول دون وصول بعض الشخصيات المدنية والعسكرية الى الحكم واستئثارهم بالسلطة ، على شاكلة سَدَنة القصر عند ملوك الفرنج . وقد اشتهر احدهم حوالي سنة ألف، هو ابن ابي امير المنصور – المعروف باسم « المنصور » في الملاحم المسماة *Chansons de gestes* . غير ان اولاده لم يستطيعوا الحد من العناصر المتنافسة في الداخل : من بربر وصقالبة ، ووطنيين ، الذين ألفوا عدداً من الامارات المستقلة عرفت باسم ملوك الطوائف لعبت احداها، أي مملكة اشبيلية، دوراً بارزاً في الاشعاع الحضاري . وهذا الانقسام والتوزع كان من شأنه ان يهدد الاسلام في الصميم ، في الاندلس ، في الوقت الذي راحت فيه المسيحية في الغرب تستفيق من سباتها وتستجمع من قواها .

بعد هذه النظرة الدقيقة في التطور الذي خضع له الاسلام ، لم يعد من الدقة بشيء التحدث او التغني بوحدة العالم الاسلامي . ومع ذلك ، فبالرغم من هذا التشتت السياسي ، والتباين المتزايد الذي نلاحظه بين العوامل الثقافية والحضارية ، فلا يزال الشعور بالتضامن قوياً بين اقسام هذا العالم . وسيبقى هذا الشعور الميزة التي تطبع العالم الاسلامي بالرغم مما اعتراه من انقسامات سياسية ودينية واجتماعية ، في هذه الالف من السنين التي تعاقبت عليه .

النهضة السياسية في بيزنطية

فتجاه عالم الاسلام الذي اخذ في التفتت ، نرى الامبراطورية البيزنطية ، تقوم في القرن العاشر بحركة اصلاحية تجدد فيها من قوتها ونشاطها ، فلم تعد تعاني ، الا بعد ذلك بزمن طويل ، وعلى نطاق ضيق ، من هذه الانقسامات الدينية التي عانى العالم الاسلامي فيها ما عانى . فالحياة الرهبانية المشتركة تبلغ الذروة ممثلة بادبار جبل آثوس التي تؤلف فيما بينها ، تحالفاً دولياً من هؤلاء الرهبان الذين ينتمون الى عدة بلدان من العالم الارثوذكسي ، أضف الى ذلك وحدة الايمان التي تشد من الوحدة الوطنية ويشتد منها الساعد عن طريق نشر المسيحية الارثوذكسية بين الشعوب الصقلبية ، والدفاع عن امتيازات الكنيسة الارثوذكسية من تدخلات البابوية المستضعفة الجانب . وقد تمثلت الحركتان خير تمثيل في شخص علم من اعلام الكنيسة ، اذ ذاك ، هو فوتيوس . فقد كان من امجاد جامعة القسطنطينية ، رُفع الى الكرسي البطريركي ، عام ٨٥٣ ، في ظروف مشبوهة كانت مدعاة للظنة والجدل ، وراح يقاوم مطالب الكرسي الرسولي الذي لم يعترف بشرطنته بطريركاً على القسطنطينية ، كما راح يغذي حركة ارتداد الصقالبة والبلغار الى الديانة المسيحية ، وهي رسالة نشطت للنهوض بها كل من روما والقسطنطينية ، على السواء . وقد نظر الرأي العام البيزنطي الى البطريرك فوتيوس نظرته الى خير من يمثل المطالب الوطنية ، والى من يعرف ان يحدّ من تدخلات روما ويقف في وجهها . فالفوارق ، مهما كانت طفيفة ، التي قامت بين الكنيسة

الشرقية والكنيسة الغربية ، برزت على حدتها : كاختلاف الطقوس الليتورجية ، اذ ان الكنيسة اللاتينية تستعمل الفطير في الذبيحة الالهية بينما تستعمل الكنيسة الشرقيه الخمير ، واختلاف في بعض الانظمة كقص الشعر عند الرهبان في الكنيسة الشرقية لاي طقس انتسبوا، وهذه الفروق بين الطبقات الدنيا في الاكليروس واصحاب المراتب العليا منهم الذين كان يؤتى بهم من رهبان الأديار ، والعلاقات بين الكنيسة والدولة ، واللغة المستعملة في الليتورجية والطقوس الكنسية ، وبعض قضايا الايمان بعد ان ادخلت روما على قانون الايمان القول بانبثاق الروح القدس من الآب والابن . والانفصال الذي تمّ على يد البطريرك فوتيوس لم يلبث ان امكن رتقه رسمياً ، دون سد الثغرة او الهوة التي شجرت بين الكنيستين الشقيقتين ، وعندما سنحت ، عام ١٠٥٤ ، امام البطريرك ميخائيل كيرولاريوس فرصة جديدة للانفصال من جديد ، تمت القطيعة نهائياً بينهما ، وهي قطيعة تهيأت ظروفها منذ عهد بعيد .

وفي سنة ٨٦٧ ، صار العرش الامبراطوري ، في شخص الامبراطور باسيل الاول ، الى الاسرة « المقدونية » التي بذلت جهداً طيباً في اصلاح نظم الدولة البيزنطية ومؤسساتها العامة ، وفي توطيد دعائم الادارة وهيبة الدولة في قلوب الاهلين . فالمجموعات الفقهية ، والمؤلفات الوصفية التي ظهرت في هذه الحقبة نتيجة طيبة لهذا الاصلاح ، هي خير المصادر التي تمدنا باوثق المعلومات حول النظم والمؤسسات التي راجت في الامبراطورية البيزنطية ، في هذه الحقبة بالذات . ان اعادة النظر بالقانون اليوستنياني وتكملته باللغة اليونانية ، كل ذلك افضى الى نشر ما يعرف بالقوانين الباسيلية ، التي ظهرت في مطلع القرن العاشر ، في عهد الامبراطور لاون التاسع ، والى هذه المجموعة من القوانين يجب ان نذكر هنا : « **كتاب الولاة** » الذي جاء ظهوره يكمل سلسلة الكتب الشرعية المعمول بها اذ ذاك . وبعد ذلك بنحو قرن من الزمن ، راح الامبراطور العلامة قسطنطين المتدثر بالارجوان ، يضع عدداً من الرسائل والابحاث تؤلف مجموعة هامة من الوثائق والمصادر الاولى ، تصف لنا العادات والاحتفالات الرسمية التي كانت تجري في البلاط الامبراطوري ، كما تصف بالتفصيل ، الادارة العامة في الامبراطورية ، والعلاقات التي قامت بينها وبين البلدان الاجنبية الاخرى . كذلك ظهر في هذه الفترة بالذات ، كتاب ، *Taktikon* ، وهو بحث يدور حول تنظيمات الجيش ، تم وضعه في نطاق حاشية الامبراطور العسكري نيقفوروس فوكاس . ومع ان هذه التشريعات ، والقوانين والتنظيمات التي وضعت ، اذ ذاك ، لم تأتِ اكلها كاملاً ولم تتبلور عملياً عن اعمال ووقائع ذات شأن، فليس في مكنة احد ان ينتقص من قيمة هذه المحاولة الجبارة او من نتائجها الطيبة ، ولو جاءت منقوصة ، غير مكتملة .

وهكذا نرى الامبراطورية البيزنطية : أكفأ عدةً ، وأمضى سلاحاً ، لاستئناف الهجوم ضد العالم الاسلامي المتفكك الاوصال. فقد اقتضى لها قرناً (٨٥٠ – ٩٥٠) لبسط سيطرتها وتأمين سيادتها على قلب آسيا الصغرى ، وهي منطقة جديدة لها ، بعد ان تخلصت من خطر البولسيين

وشوكتهم ، فقتلت منهم من قتلت ، وأجلت منهم الى مقاطعة تراقيا ، من أجلت وأبعدت . وقد استعادت على الساحل الدائري للبحر الابيض المتوسط ، ما فقدته من املاكها السابقة في ايطاليا الجنوبية باستثناء صقلية ، وحررت جزيرة كريت من سيطرة العرب عليها . وقامت على حدودها الشرقية بسلسلة من الحملات والغزوات ، تلقى ضرباتها وهجومها الامير سيف الدولة الحمداني وحده تقريباً ، واستولت على المقاطعات الواقعة الى ما وراء جبال الطوروس ، كاقليم انطاكية في سوريا الشمالية والحصون الواقعة على الفرات كملاطية والرها . وبمساعدة الارمن الذين اشتهر عدد كبير منهم على رأس الامبراطورية امثال يوحنا تزيميسيس الذي خلف نيقوفوروس على كرسي الملك ، حل النفوذ المسيحي في ارمينيا محل النفوذ الاسلامي . وقد جمعت وحدة المصالح والعداء المشترك ضد اسياد العراق ، بين البيزنطيين والفاطميين ، بالرغم من الموقف العدائي الذي وقفه الحاكم بأمر الله ، من المسيحيين ، وقاربت الاهداف فيما بينهم فأتاح ذلك للامبراطور ان يأخذ تحت حمايته المسيحيين ، ولا سيما الملكيين بينهم في الاراضي المقدسة . فلما رأينا النفوذ البيزنطي يبلغ ، بعد الفتح العربي ما بلغه من نفوذ في هذا العهد .

وبفضل الوهن الذي نزل بالعالم الاسلامي ، والتفكك الذي آل اليه ، استطاعت ارمينيا ان تسترجع استقلالها السياسي . فهذه البلاد التي لم تنسجم يوماً مع النظام الاداري الاسلامي ولم تأتلف معه ، انقسمت بالرغم مما قام في اطرافها من بعض الحاميات الاسلامية ، الى عدة امارات مسيحية مستقلة ، حيث تولت مقاليد الحكم فيها والتوجيه السياسي ، ارستوقراطية عسكرية وكنيسة عمرت بالحياة النسكية والرهبانية ، يأتمر بتوجيهاتها ، شعب يعتاش من اعمال الفلاحة والزراعة ، مشدود كغيره من طبقة الفلاحين في اماكن اخرى ، أكثر فأكثر ، الى الارض ، وبينهم تجمعات قوية من سكان المدن ، من محترفي المهن والحرف . كل هذه الامارات اعترفت على انساب متفاوتة ، برئاسة « ملك الملوك » من السلالة البغرتية التي كانت عاصمتها مدينة آني الواقعة عند منتصف نهر أراكس ، وقامت الى الغرب ، وحدات ارمنية ، في الاراضي البيزنطية ، كما قام غيرها ، من جهة الشرق في امارات ودول اسلامية . وقد جاشت هذه الوحدات السياسية ، على اختلافها ، بروح وطنية عارمة ، فراحت تتجاوب مع كل معضلة وتتفاعل بكل تجدّد طارىء ، وتتوزع احزاباً تميل ، هذه مع النبلاء المتنافسين ، وتلك مع اتباع الكنيسة اليونانية ، فقد رأى الامبراطور باسيل الثاني ، حوالي السنة الألف ، في هذه المناسبة ، فرصة سانحة لبسط سيطرته على بعض هذه الامارات الارمنية ، كما اتاح لخلفائه ، عندما أطل عليهم الخطر التركي بعد ذلك بنصف قرن ، بسط سيطرتهم على الامارات الاخرى . وقد راح عدد كبير من الارمن ممن انقطعوا لاعمال الفلاحة والزراعة وتعمير الارض الموات ، ولبعض نبلائهم ممن اقطعتهم بيزنطية ، بعض الاراضي ، ينزحون الى اواسط آسيا الصغرى ، بعد ان افقرتهما الحروب المتتابعة ، من سكانها ، كما راح غيرهم يطلب الرزق لهم في ارض مصر . ومنذ ذلك الحين ، لم تعرف ارمينيا في تاريخها المديد قيام دولة موحدة في اراضيها ، باستثناء امارة صغيرة قامت في كيليكيا ، سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

فامام هذه الانتصارات التي حققتها بيزنطية ، استطاعت ان تواجه معاً الصقالبة والبلغار في البلقان ، بشكل عاد على الامبراطورية بنجاح اكبر مما عادت عليها به حملاتها المتكررة ضد الولايات الشرقية التي افاد منها كبار الاقطاعيين من الرجال العسكريين ، في آسيا الصغرى . فالتوسع الديني ، والديبلوماسية البيزنطية التي عرفت ان تقيم الشعوب بعضاً ضد بعض ، والانتصارات الحربية التي حققتها جيوشها ، كل ذلك ساعد بالتضافر والتضامن ، على تحقيق مثل هذه النهضة ، التي بفضلها عاد النفوذ البيزنطي الى اقطار مرت بتطورات جذرية منذ الغزوات الصقلبية الكبرى .

البلدان الصقلبية

بين القرن التاسع والعاشر اخذت معلوماتنا حول البلدان البلقانية تزداد اكثر فاكثر ، وضوحاً وتوثيقاً . فاينما اجلنا النظر ، رأينا الاقوام الصقلبية تتكون وتنشىء لها امارات مستقلة ، فيتفاعل القائمون منهم في الغرب ، امثال الكروات والسلوفين بنفوذ الكارولنجيين ، بعد ان دخلوا برهة ، في وحدة الامبراطورية التي شكلوها . اما الذين قاموا منهم في الوسط او في الشرق ، كالصرب والهرسك على الاخص ، فقد ساروا في تطورهم الصاعد ، على نهج مماثل . فالبلغار وحدهم ، بين هذه الشعوب ، يتمتعون بنظم سياسية نامية ، يبز ما عرف من امثاله عند الشعوب المجاورة . فمنذ منتصف القرن الثامن ، حل محل المعاهدة التي عقدت بين بيزنطية والمملكة التي انشأوها الى الجنوب من الدانوب الاسفل ، سلسلة من الحروب ، لم يكن بد منها ، عادت على « القيصر » كروم ، بعد عام ٨٠٠ بقليل ، بنصر مبين ، استطاع معه البلغار ان يوسعوا شيئاً فشيئاً ، من نفوذهم وسيطرتهم ، على حوض نهر مارتزا الاعلى ، ثم وسعوا من نفوذهم نحو الغرب والجنوب الغربي ، على الاقوام الصقلبية المستوطنة في حوضي نهر المورافا والفردار ، اما في الشمال الغربي ، فقد اصطدم نفوذهم بغزوة المجر . وحوالي سنة ٩٠٠ ، نرى القيصر سمعان يسيطر على امبراطورية فعلية امتدت اطرافها من البحر الاسود شرقاً الى البحر الادرياتيكي غرباً ، حيث العنصر البلغاري اخذ يذوب ، تدريجياً ، بين الاكثرية الصقلبية : فالعنصران يعتبران مترادفين ، واللغة السلافية اخذت تدريجياً تحل محل اللهجة البلغارية التركية الاصل .

لا نعرف شيئاً يذكر عن صقالبة اوروبا الوسطى من قبائل الصوراب ، والبولاب والبوميرانيين والبولونيين القاطنين ما وراء نهر الإلب ونهر السال ، ممن دخلوا في حروب كثيرة مع الكارولنجيين واباطرة الاسرة الاوتونية . ونملك معلومات اوثق حول المملكة القوية التي انشأها ، في اواسط القرن التاسع ، امراء مورافيا فضمت ، فيما ضمت من اقوام وشعوب ، التشيك والسلوفاك . وليس من شك قط ان قامت بين الروس ، وعلى الاراضي الروسية ، نزعات مماثلة وامارات متشابهة . وسيشهد تاريخ هذه الاقوام ، هنا ايضاً ، تطورات جذرية ، اثر تدخل عنصر اجنبي جديد ، يتمثل خير تمثيل في هؤلاء الاسوجيين ، اخوة « النورمنديين » ، في اوروبا الغربية ، الذين كانوا يجوبون على ظهر سفنهم ، خلال الاراضي الروسية ، متنقلين عبر

الانهر الكبيرة ، حتى بلغوا مشارف بحر قزوين والبحر الاسود . وقد صرّفوا نشاطهم بين التجارة والسلب ، كما تشهد على ذلك النقود التي عُثِر عليها في مناطق بحر البلطيق ، واسسوا خلال القرن التاسع مواطن مستقرة على طول الطريق التجارية الكبرى الممتدة من البلطيق الى البحر الاسود مروراً بمدينة نوفغورود وكييف ، وبسطوا منها سيطرتهم على الصقالبة . وحوالي عام ٨٥٠ ، قام زعيمهم روريك ، وهو شخصية تحيط بها كثير من الاساطير ، بتوطيد هذه المناطق التي تمر بها هذه الطريق السلطانية ، ووضعها تحت سلطته . وليس ما يؤكد قط ان لفظة « روس » ، أطلقت ، اول ما أطلقت على الاسوجيين قبل ان يعم اطلاقها على هـــذه الطائفة من الصقالبة ، كذلك ليس ما يؤيد قط ان هذه الكلمة أطلقت ، قبل ان تطلق عليهم ، على فريق من الصقالبة خضعوا لسيطرتهم . وقد اصطلح البيزنطيون ، بعد ان استعملوا العديد منهم مرتزقة في جيوشهم ، على تسميتهم بشعوب *Varègues* ، مـــع انهم لم يجهلوا اسم : « روس » الذي عرفوا به ايضاً . ومهما يكن من الامر ، فليس من يزعم بعد ، ان مملكة كييف لم تقم لها علاقات مـــع الصقالبة ، ولا تلقت شيئاً من اثر الاسيوجيين.. فتاريخ هـــذه المملكة هو بالفعل حبيكة من هذه العوامل والمؤثرات ، ونتيجة منطقية لصقلبتها ولاخذهـــا بسرعة ، بالعوامل والعناصر السلافية . وهذه المملكة التي حدهـــا من الشرق ، بصورة عامة مملكة البلغار الواقعة على نهر الفولغا ، ومن الجنوب الشرقي مملكة الخزر ، ومن الجنوب مملكة البلغار على نهر الدانوب ، كما تاخمت بعد ذلك بكثير قبائل *Patchenègues* والبحر الاسود ، ومن الغرب امارة بولونيا الناشئة التي كانت دولة قوية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، تولى مقدّراتهـــا ملوك خلّدت اسماءهم الآداب الشعبية ، منهم أوليغ وإيغور ، وأولغا وفلادمير وياروسلاف . والثابت ان احدى اميرات كييف تزوجت بهنري الاول من آل كابت .

وقد استهدف صقالبة الدانوب لضغط قوي من قبـــل المجر ، وهم قوم من العِرق الفيني ، اقتبس الكثير من الطباع والاخلاق التركية . وقـــد زحزحهم عن مناطق الأورال حيث كانوا يقيمون ، قبائل البتشينيك ، فاستقروا ، بعد غيرهم من الغزاة الذين سبقوهم ، في سهول بانونيا ، وهكذا سيطروا على من فيها من صقالبة ، فصلوا بصورة نهائية ، بين صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب . وقيّض « للمجر ان يسيروا في تطورهم على نهج لم يعرف شيئاً منه ، لا شعوب الهون ولا قبائل الآفار . واستطاع المجر ان يصمدوا في وجه الشعوب التي جاورتهم ، وان يتخلّصوا عن بداوتهم ، ويتحضروا ويستقروا في مواطنهم ، ويؤلفوا مجتمعاً تميز بالملكية الجماعية التي سارت جنباً الى جنب والملكية الفردية وكادت تحل محلها ، وهو مجتمع اخذ في عهـــد سلالة ارباد يتماثل مع المجتمعات المجاورة له .

وبقي المجتمع السلافي سواء في تركيبه تقريباً ، لدى جميع الدول الصقلبية او ذات الاكثرية الصقلبية ، عماده الاكبر وركيزته الكبرى القرية أو الاسرة الكبيرة التي عُرفت في البلقان باسم زدروغا ، كما ان زعماءهم أو امراءهم – وهم حكام الأقضية على الغالب – وقد عرفوا في البلقان

باسم : جوبان ، احتفظوا لانفسهم بحق توزيع الاقطان الخاصة ، على انصارهم وازلامهم الذين اطلقوا عليهم اسم *Boiars* ، يعهدون بفلاحتها وزراعتها لعدد كبير من الارقاء ، من اسرى الحروب . وقد ألف الرق السلعة الكبرى في هذه الحركة التجارية التي اخذت بوادرهـا تظهر عندهم ، في هذه المبادلات التي اخـذوا يقيمونها مع مدينتي تسالونيكي والقسطنطينية . ومن الاصناف التي كانوا يقايضون بها او يبيعونها ، ما كان يقع في ايديهم من حصائل الصيد والقنص وجني العسل ، وكان كبار القوم منهم يستوردون المنسوجات الجميلة والكماليات التي تؤمنهـا الصناعة في بيزنطية . اما في روسيا ، فالآفاق اخذت تتسع وتنبسط امـام الحركة التجارية في مملكة كييف ، فربطت بين البحر البلطيقي والبحر الاسود ، وكانت ضعفي تجارة بلغار الفولغا التي اتجهت بالاحرى نحو آسيا الوسطى . ولا شك قط في ان المحاصيل الريفية كانت اساس الاستهلاك المحلي ، وعليها قامت بالاكثر الحركة الاقتصادية في البلاد ، وقد اخذت المدن الكبرى فيها تنمو وتتطور بسرعة بعد ان استحالت اسواقاً تجارية نشيطة ، ومراكز سياسية وعسكرية لها شأنها ، كمدينة كييف مثلاً ، ونوفغورود . وقد كان لملوكهم حاشية تشبه الى حد بعيد ، مـا كان منها لملوك الجرمان ، إبان غزواتهم على الغرب . من الصعب جداً تحديد السرعة والاساليب التي استحال معها اعضاء هذه الحاشية الى ملاكين اسياد ، كما بدوا لنا منـذ القرن الثاني عشر ، وبالتالي يستحيل علينا ان نعرف ، ما هي نسبة الفلاحين *Smerdi* الذين كانوا ، من حيث المبدأ ، احراراً ، انما اخذوا يتحولون تدريجياً الى توابع ، من جراء الديون التي ارهقتهم ، او لاسباب اخرى . وهذا التطور تمّ على اقـدار متفاوتة ، حسبما يكون القوم في وسط المملكة ، او في المقاطعات المكسوة بالاحراج الواقعة عند اطراف البلاد حيث السكان قليلون ، وحيث الناس يتسكعون في فقر مدقع ، في عزلة تامة من كل توجيه او مراقبة ، في جوار بعض الاقوام الفينية الممعنة في خشونة الطباع والهمجية .

التبشير بالمسيحية بين الصقالبة

اخذت المسيحية تتغلغل بين اقوام الصقالبة وتنتشر في اوساطهم الشعبية ، مغيرة نظمهم السياسية ، والاجتماعية . فقـد رأت بيزنطية في حمل الدعوة المسيحية اليهم بسطاً لنفوذها . وقد لقيت هذه الدعوة نجاحاً كبيراً بين الصقالبة المقيمين في مقدونيا واليونان ودلماتيـا . وبفضل علاقات الكرواتيين بالامبراطورية الكارولنجية ، اعتنقوا المسيحية اللاتينية ، بينما تولى تنصير الصرب رهبان يونان ومبشرون على الطقس البيزنطي ، وهو اختلاف لا تزال آثاره باقية ، ظاهرة على اشدها حتى يومنا هذا ، بين العنصرين القوميين اللذين يتألف منهما الشعب اليوغوسلافي . اما الكرازة بين المورافيين والنجاح العظيم الذي اصابته ، فالفضل فيه كل الفضل يعود : « لرسولي الصقالبة » كيرلس وميثوديوس . فمن الانجازات العظيمة التي حققاها في هذا المجال ، تزويد الصقالبة بابجدية خاصة مستوحاة من الابجدية اليونانية ، استجابة منهما للرغائب التي كثيراً ما اعرب عنهـا المبشرون الذين سبقوهما الى هـذه الدعوة ، كما اعدّا نصوصاً بلغتهم مكتوبة بالحرف الجديد ، ونظّما لهم الطقوس

البيزنطية ، وشكلا كنيسة سلافية ، بحيث يمكن التأكيد هنا بان دخول الدين الجديد الى هذه الشعوب الصقلبية ، وآدابهم القومية ، كل ذلك هو من صنعها . فالمسيحية الشرقية التي نشأت وتطورت بين لغات وثقافات مختلفة ، حاولت دوماً ان تكيف الطقوس الدينية وفرائض العبادة وفقاً للسان كل شعب من هذه الشعوب ، وقد ساعد هذا على تغلغل الروح الدينية بين الطبقات الشعبية ، الا انها اضعفت من جهة ثانية الشعور بالوحدة المسيحية واوهنت الاتصالات بين الثقافات الام الاخرى . فلا عجب ان تكون روما نظرت الى عمل كيرلس وميثوديوس نظرة ملؤها القلق والريبة ، اذ لم يكن عندها الا كنيسة واحدة ، ولغة واحدة هي اللاتينية . كذلك اثار هذا الوضع الهواجس بين الالمان وحرك حفائظهم ، فعارضوا قيام كنيسة سلافية لا تخضع لسلطة الاكليروس الجرماني، وهذا ما يتفق تماماً والقاعدة المرعية في الكنيسة اللاتينية. الا ان دخول البحر مناطق الدانوب جعل الولاء للجرمان امراً لازماً، وهكذا ندّ تاريخ الصقالبة في اوروبا الوسطى عن تاريخ الشرق المسيحي .

فالعمل التبشيري عرف حركة انكفاء عند البلغار كما لاقى لديهم مجالاً ارحب واخصب ، اذ ان امراءهم لم يلبثوا ان وقعوا تحت تأثير المدنيات المسيحية التي اتصلوا عن كثب بقواعدها الكبرى ، كما انهم لم تفتهم المنافع التي يجنونها من هذه النظريات السياسية التي طلعت بها هذه المدنيات . الا انهم كان عليهم ان يحسبوا حساباً لمعارضة كبار القوم وعظمائهم الذين كانوا يرون في المسيحية نظاماً سياسياً مليئاً بالخطر ، وشكلاً يتلبسه التدخل الاجنبي في البلاد . ولذا راح القيصر بوريس (اواسط القرن التاسع) يتشدد في إنشاء كنيسة قومية وطنية في بلاده . فالمساومات التي دارت سوقها اذ ذاك ، كانت ولا شك ، من هذه الاسباب التي ادت الى الوقيعة بين القسطنطينية وروما والى الانفصال الذي تم في عهد البطريرك فوتيوس . كل هذا حدا بالكنيسة البلغارية المستقلة للسير في الاتجاه الذي رسمته لها القسطنطينية ، والبقاء في إطار الكنيسة اليونانية ، الامر الذي لم يساعد ، بطبيعة الحال ، على تهدئة خواطر ملوك البلغار لمعارضته الاهداف والمرامي السياسية التي دغدغت آمالهم .

وبعد ذلك بنحو قرن، كان لا بد للروس من ان يعتنقوا النصرانية بقالبها البيزنطي فقد سبق واعتنق بعض امراء العائلة المالكة المسيحية . وقبل عام الف بقليل ، رأى القيصر فلادمير انشاء كرسي اسقفي في كييف يتربع عليه رئيس اساقفة . وفي الحين نفسه ، اخذ الجرمان يعتنقون المسيحية ، بعد ان رأوا جميع البلدان المجاورة لهم ، سبقتهم اليها ، فحذوا حذو ملكهم القديس إستفانس ، فأخذوا المسيحية بقالبها اللاتيني . ومنذ ذلك الحين اخذوا يسيرون في فلك الغرب ويهتمون ، أكثر فأكثر ، بامور شعوب الكروات والالمان وغيرهم من الاقوام المجاورة للبحر الادرياتيكي .

فانتصار المسيحية وفوزها النهائي في اوروبا الوسطى ، عنى اكثر من انتصار دين جديد وحضارة جديدة . فقد نتج عنه فكرة جديدة للدولة ، ومعنى جديد لتشكيلها ، وهي فكرة

حلا لرؤساء الدول الصقلبية تحقيقها واخراجها الى حيز الوجود ، الا وهي انشاء كنيسة تنعم ، على شاكلة الكنيسة في بيزنطية ، باملاك ووقوفات غنية يرتبط بها فلاحون ومزارعون ، يكون لها اكليروس يؤتى بقسم منه ، أقله في البدء ، من بين الاكليروس اليوناني . فلا عجب قط ان تلاقي مثل هذه النظرة ، حركة مقاومة على الصعيدين الاجتماعي والوطني ، كما لاقت في بلغاريا ، في الحال ، دعاوة ناشطة معادية للمسيحية ، غذتها وبثتها سموم التعاليم التي نشرتهـــا الجوالي البولسية التي كانت أبعدت الى تراقية ، من قبل ، بتوجيه الداعيـــة بوغوميل زعيم هـــذه البدعـــة ورسولها .

الشرق الادنى ومتاعبه العديدة

استهدفت الامبراطورية البلغارية ، أكثر دول البلقان تطوراً اذ ذاك وأوفرها أخذاً بأسباب الحضارة ، لهذه الاسباب بالذات ، لخطر مداهم ماحق ، كاد يطيح بها . فبالرغم من الانحطاط الذي صارت اليه ، في الداخل ، فقد بقيت مع ذلك خطراً ماثلاً على البيزنطيين يتهددهم باستمرار ، اذ كانوا ادنى من قاب قوسين من البلغار الذين امتدت سيطرتهم الى مشارف القسطنطينية . وبعد ان حشدت بيزنطيـــة جيوشها قام باسيل الثاني يهاجم الملك البلغاري صموئيل ويصليه حرباً طويلة لا رحمـــة فيها ولا هوادة ، استطاع معها كثيرون من امارات الصقالبة ، في الغرب ، خضعوا لبلغاريا ، الى ذلـك الحين ، التحرر من ربقتها والتنعم باستقلالهم تحت رعاية الامبراطورية البيزنطية ، بينما وقعت بلغاريا نفسها تحت سيطرة بيزنطية واصبحت احدى ولاياتها في الغرب (القرن الحادي عشر) . وكان لا بد من مرور قرنين على الشعب البلغاري يرزح معها تحت نير العبودية ، قبل ان يستعيد حريته من جديد وينعم بشيء من الاستقلال المشروط .

اما مملكة كييف الروسية ، فقد استهدفت ، في هذا الوقت بالذات ، لسلسلة غير منقطعة من الهجمات العنيفة ، شنتها الاقوام الرحّل الضاربة في تلك الفيافي ، بينهم قبائل البتشنيك ، والاوغز والكومان (بولوفتز بالروسية) ، ملحقين البوار بتجارتها ، والخراب باقتصادياتها ، وان عجزوا عن النيل من استقلال البـــلاد السياسي . واذ عجز خلفاء ياروسلاف عن تأمين سلالة ملكية وراثيـــة ، انشقت المملكة ، في اواسط القرن الحادي عشر ، على نفسها ، اذ راحت كل من نوفغورود وكييف ، وهما حواضر البلاد الكبرى ، اذ ذاك ، يتجه الواحد شطراً مغايراً للآخر . فمن الطبيعي ان يؤلف هذا الضعف ، تصاب به البلاد ، خطراً عليها .

وقد وقعت بيزنطية نفسها ، في القرن الحادي عشر ، في خطر مماثل ، سببته لها الانتصارات نفسها التي حققتها . فقد دخل ضمن حدودها ، من جرّاء الفتوح التي قامت بها ، شعوب وقوميات مختلفة ، متباينة . من هذه الشعوب ، الارمن مثلاً ، الذين ألفوا الاغلبية الساحقة بين سكان ولايات الامبراطورية الشرقية ، وكانوا حانقين على بيزنطية ، لا يصفحون لهـــا عبثها باستقلالهم الوطني ، كما ان الكنيسة اليونانية التي لم تستفد شيئاً ، على ما يظهر ، من عظـــة الماضي ، راحت

تعاود سيرتها الاولى ، وتتابع اضطهادها للارمن ولأتباع المونوفيزية القائلين بوجود الطبيعة الواحدة في السيد المسيح . اما البلغار ، فقد زادت معارضتهم الاجتماعية للاكليروس اليوناني من الكره لسيطرة الاجنبي وحكمه للبلاد ، وهذا العداء الشديد للاجنبي اوشك ان يجعل من المبادىء التي حملها بوغوميل ، وعمل بها وعلم ، الديانة الوطنية في البلاد . ومن بلغاريا ، انتقلت هذه التعاليم والعقائد الى الكروات ، ومنهم انتقلت الى فرنسا ، لتطلع ، في القرن الثاني عشر بشكل جديد ، هي الهرطقة المعروفة بـ *Albigeisme* او مقالة الالبيجوا .

وفي الوقت ذاته ، تفاقمت المصاعب والمشكلات التي نشأت غب استفحال امر الارستوقراطية العقارية في البلاد ، بعد ان عرف الاباطرة العسكريون في بيزنطية كيف يوجهونها ويسيّرونها . فالملوك الذين تعاقبوا على الملك بعد الامبراطور باسيل الثاني ، لم يكونوا على شيء من قوة الشكيمة ، فاستخذوا في الملحقات واستسلموا للامر الواقع ، بعد ان احاطت بهم بطانة من المدنيين اخذوا باسباب الثقافة وفضلوا الدعة والطمأنينة ، فاستفحل شأن الارستوقراطية العقارية في هذه الولايات ، وراحت تسعى جهدها لانهاك الفلاحين الاحرار وخرابهم . وعندما كان الاباطرة يطلبون من النبلاء التجند وخدمة السلاح ، كانوا يغدقون عليهم ، من املاكهم الخاصة الاعطيات الوافرة ، كما كانوا يجودون عليهم بانعامات خاصة ، موقتة او يستثمرونها مدى الحياة ، لا تلبث ان تصبح وراثية عندهم ، فتألف من هؤلاء النبلاء وحدات عسكرية لم تكن اكثر ولاء للامبراطور من زميلاتها في الغرب . ولكي يأمن ملوك الروم شر هذه الوحدات ويؤمنوا لهم ما يوازيها ، راحوا يشكلون من بين سكان الولايات القريبة من القسطنطينية ، بفضل الموارد الغنية التي امنتها لهم التجارة ، اذ ذاك ، وحدات من المرتزقة ، ازداد عددها فيما بعد ، بازدياد ازدهار التجارة في البلاد ، تألف معظمها من قبائل الفاريغ ، الى ان راحوا يستبدلونها ، بعد عام ١٠٥٠ ، بوحدات من النورمنديين في الغرب ، او من قبائل الصقالبة او من الاتراك بعد ان يجري تنصيرهم . وقد دخل الجيش البيزنطي ، فيما بعد ، وحدات من الارمن والبلغار أفقدته وحدته الادبية . ولما كانت هذه الوحدات العسكرية تحتفظ بولائها لقادتها ، فلم يكن خطرها على الملوك باقل من الخطر الذي اطلّ عليهم من تشكيلات النبلاء العسكرية او من الجيوش المرتزقة التي عمل بها في البلاد الاسلامية . فاذا لم يفض الامر الى خلخلة الامبراطورية وانقطاع اوصالها ، فلان الثورات والانتفاضات التي تعرضت لها كانت كثيراً ما تنتهي بالقضاء على الفتنة وهي في المهد ، او باستيلاء الثوار على السلطة . وعندما اطلت فيما بعد من الخارج اخطار ماحقة ، كانت الارستوقراطية تسارع للسيطرة على الامر بالاستيلاء على السلطة .

والحال ، فقد مثلت امامهم هذه الاخطار وكانت منهم ادنى من قاب قوسين ، ممثلة بقبائل التشنك الذين اصبحوا على الدانوب ، وبالاتراك السلجوقيين عند مداخل آسيا الصغرى ، والنورمنديين الذين بعد ان انتزعوا ايطاليا الجنوبية من بيزنطية ، وصقلية من الاسلام ،

اخذوا يحاولون ان ينشئوا لهم موطىء قدم على سواحل البحر الايوني الشرقية ، وبفضل حادث مؤسف هيأته الاقدار العابثة ، اتاح الانفصال الذي اعلنه كيرولاريوس ، للبابوية المتحالفة مع النورمنديين للاستعانة بهم في الخصومة القائمة بينها وبين الاباطرة الالمان ، ان تسلك نهجاً معادياً لبيزنطية . صحيح ان روما والقسطنطينية وقفتا فيما بعد ، موقفاً اكثر اعتدالاً ساعد على القيام بهذه المفاوضات التي مهّدت للحروب الصليبية ورافقتها ، الا ان الوقيعة الكبرى كانت قد وقعت ، هذه المرة ، على يد شعوب جديدة اعتنقت الاسلام حديثاً .

ان استعادة بيزنطية للولايات التي فقدتها من قبل ، والاضطرابات التي شجرت في جميع انحاء العالم الاسلامي وادت بالتالي الى انقسامه الى امـــارات ودويلات وسلطنات ، الحقت تغييراً محسوساً في العلاقات التجارية ، في الشرق الادنى ، خلال القرن الحادي عشر ، وجعلت من اللازم القيام بعملية تنسيب جديدة عسيرة . فالهجرات التركية باتجاه الفلوات الروسية خلخلت كثيراً والحقت اذىً عظيماً بالعلاقات التي ربطت بين البلدان الروسية وبين اقطار آسيا الوسطى والامبراطورية البيزنطية . وكان من جراء هذه التغييرات والتطورات الجذرية التي لحقت بطرق المواصلات التجارية بين آسيا والغرب ، ان حل البحر الأحمر ومصر محل الخليج الفارسي وبلاد ما بين النهرين ، كما راح التجار الايطاليون ينافسون التجار البيزنطيين والتجار الاسلام في علائقهم مع بلدان البحر المتوسط . وقد ساعد على هـذا التطور ، في الشق الاول ، عوامل عدة ، منها : القلاقل والاضطرابات التي شجرت في الطرق ، وقسوة الجيش والاعمال الوحشية التي قام بهـا بفظاظة لا توصف في عهد العباسيين ، وجشع بيت المال واعمال القرصنة التي قام بهـــا قرامطة العراق والبحرين ، وقيام حدود جديدة فاصلة بين بغداد ومقاطعة انطاكية اثر احتلال البيزنطيين لها ، يقابل ذلك انفصال مصر السياسي عن الخلافـــة العباسية ، وحركة الاستقطاب التي تمت حول القاهرة ، وسهولة نقل المواد الغذائية وانتشارها بسرعة اكبر في الموانىء القائمة على شواطىء البحر المتوسط . وقد عادت هذه الحركة بالفائدة الكبرى على مدينتي البندقيـــة وامالفي ، الاولى من جراء استعادة بيزنطية للمقاطعـــة الواقعة الى الجنوب من شبه الجزيرة الايطالية ، وجزيرة كريت ، ومن جراء الانتصارات التي تمت على حساب الكروات التي امنت لها الاتصال بسهولة مع بيزنطية ، اما الثانية ، فبعد ان اقامت لها علاقات طيبة مـع الاسلام في افريقيا الشمالية ، راحت توسع من نطاق هذه العلاقات ، الى مصر الفاطمية ، حتى ان غزوة الهلاليين لتونس والخراب الذي زرعوه في البلاد ، كل ذلك افاد منه الايطاليون الى اكبر حد . وبعد ان رأى المغاربة القاطنون على سواحل البحر المتوسط الغربي الحيف الذي نزل بهم من جراء انقطاع حركة النقل التجاري ، راحوا يعوضون عن خسارتهم بممارستهم القرصنة البحرية على السواحل القريبة من فرنسا وكتالونيا وايطاليا الشمالية . وبانتظار رد الفعل المسيحي لاعمـــال القرصنة هذه التي كانت استعادة صقلية من احدى نتائجها ، فقد افادت البندقية وامالفي ، لحسن موقعهما التجاري من هذه الحركة . ومن جهة اخرى ، لما كان المغرب رأى ثروته من الخشب في

شنطر ، وكان عاجزاً عن بناء عمارة من السفن قوية، كان باستطاعة بيزنطية ، بالطبع ، ان تفيد كثيراً من الوضع الذي كانت عليه الحركة التجارية اذ ذاك ، وقد آثرت ، لاسباب مالية بحتة ، ان تجذب اليها الايطاليين فيهبطون القسطنطينية، عوضاً من ان تبعث باليونان الى ايطاليا نفسها ، بعد ان عجزت من دفع الايطاليين الاتجار مع المسلمين مباشرة . وهكذا قامت حركة منظمة من التبادل التجاري بين ايطاليا والاسكندرية حلت جزئياً محل الحركة الاخرى التي قامت بين محوري بغداد والقسطنطينية ، واربت عليها بكثير . فان لم تنقطع حركة النقل التجاري التي قامت على القوافل في آسيا ، فاننا نلاحظ نقصاً كبيراً في المنقول من الثروة المنزلية ، في الشرق الاسلامي كما يشهد على ذلك ، نهوض طبقة جديدة تتألف من العسكريين وكبار الملاكين العقاريين .

وحدة الحضارة الاسلامية وتنوعها

في هذا العالم الاسلامي القلق ، الجيّاش بعظائم الاحداث ، والمضطرب في الصميم ، ليس مما يلفت النظر ، ويستبد بالخواطر مثل الرواج الذي بلغته الآداب ، والازدهار الذي آلت اليه الحركة الفكرية . لما من امير الا وقامت حوله حاشية انخرط فيها جماعة من اهل الفكر والحصى ، وما من قاعدة او حاضرة الا وقام فيها للادب والفن اسواق رائجة ، وراح كثيرون ممن ضَلَّتْ احوالهم وبسم لهم الدهر ، كما راح كثيرون من عظماء القوم وعليتهم يتبارون في تشجيع حَمَلَة الادب ورجاله ، ومناصرة اهل الفن والنبوغ ، من اي لون كانوا ، او الى اي مذهب انتسبوا . فاذا حدّثت الركبان عن امجاد بغداد والسامانيين ، والبويهيين والحمدانيين في الشرق ، فاخبار القاهرة والقيروان ، وباليرمو وقرطبة ، في الغرب ، عن الحركة الادبية ، تملأ بطون الكتب والتاريخ . واتساع هذه الحركة الفكرية التي عمت مشارق العالم الاسلامي ومغاربه ، فتحت الباب على مصراعيه امام التنوع لظهور تيار فكرية عامة وتلقيح الافكار والاذهان في كل مكان بالتالد والطريف من الآثار الادبية .

وقد بلغ من غنى التأليف في العالم الاسلامي ما جعل الناس يشعرون بحاجة ماسة لمن ينهض ويعرّف به في فهارس علمية . من ذلك مثلاً ، فهرس ابن النديم ، وكتاب الاغاني لصاحبه ابي الفرج الاصفهاني ، الذي يعد بحق ، من الكنوز الادبية الغالية . وقد ساعد على كثرة التأليف في العالم الاسلامي وفرة الكاغد او الورق الذي اخذ العرب سر صناعته من الصين ، وأدخلوا بعض اجناسه عن طريق سمرقند ، وما ان جاء القرن العاشر حتى انتشرت صناعته في جميع اطراف العالم الاسلامي ، فتلاشت امامه صناعة البردى كما قلت الحاجة الى الدروج والرقوق الجلدية التي طالما عوّل عليها النساخ في اديار الغرب . وقامت في بعض حواضر البلاد الاسلامية الكبرى دور للكتب ، غصّت بعشرات الالوف من الكتب جرى تسفيرها على نُظم فنية خاصة روعي فيها تصنيف العلوم على ابواب ومطالب ، وقام على خدمتها جيش من النساخ والوراقين ، والخطاطين

والمزوقين والمنمقين . كل هذا كان يفترض عدداً كبيراً من القراء والمطالعين ، وطائفة كبيرة من الكتّاب وحملة الاقلام والمفكرين .

اما نتاج الادب الوجداني، وادب الخيال او الرواية فقد كان اقل رواجاً من الكتب التي تبحث في الموضوعات الفلسفية، بنسبة ما يمكن التفريق بين النوعين المذكورين. وقد رعى الامير سيف الدولة الحمداني الادب وقرّب الأدباء الى بلاطه ، فراجت دولة للشعر عنده ، وراح الشعراء يتغنون بالحروب التي شنها ضد الروم كما راحوا يدعون للجهاد ، كما نرى خير ذلك في شعر ابي الطيب المتنبي (٩١٥ – ٩٥٥) . اما في سوريا فقد بلغ الشعر الذروة مع شاعر المحبسين : ابي العلاء المعري (٩٧٩ – ١٠٥٨) الذي امتاز بقريحته الوقادة وبما وضع من الكتب التي تفيض سخرية وتهكماً بكثير من امور الأدب والدين والفلسفة. وقد اسهمت الاندلس بهذه الحركة اسهاماً كبيراً . فقد نبغ فيها ، في مطلع القرن العاشر ، الشاعر ابن عبد ربّه الذي له حماسة ووضع عدداً من الشعر الاصيل . ثم طلع علينا ابن حزم (٩٩٤ – ١٠٦٤) الذي غنى لنا في كتابه « طوق الحمامة » الحب العذري ، وقام في اسبانيا من راح يقلده ، كما لقي كثيراً من الاتباع والمريدين . فليس من ينكر ما كان لهذا النوع من الشعر في ما بعد ، على شعراء الزجل او أهل الطرب ، في جنوبي فرنسا *Troubadours*.

اما في العراق ، فقد كانت العناية شديدة بالنثر ، يحاول الكتاب تتبع خطى الجاحظ دون ان يتمكنوا من مجاراته او سبقه في هذا المضمار . وقد ازدهر فيه فن القصص والنوادر الذي برّز فيه التنوخي (٩٣٩ – ٩٩٤) ، كما برز فن المقامة وهي نوع من القصة تسير حوادثها حول بطل يستقطب ماجريات القصة ويرويها بشكل من النثر المسجع المليء بالتهكم والسخرية . وأشهر اصحاب المقامات ، الهمذاني (٩٦٨ – ١٠٠٧) ومن هذه الفنون التي راجت في هذا العهد ، فن الرسائل الذي امتاز بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى جامعاً بين الايجاز والاعجاز

وفي القرن الثاني للعباسيين برز فن التاريخ والجغرافية وبلغ الأوج من الازدهار . وقد عني اول من عني بسيرة الرسول ، لاتصال هذا البحث بالحديث ، وقد اخذ فن السيرة يتسع ويتنوع محافظاً على وسائل الاعلام والعرض التي كانت له في الاصل . وقد ظهر في منتصف القرن التاسع مؤرخون امثال ابن قتيبة وابو حنيفة الدينوري واليعقوبي الذين وضعوا تواريخ عامة . فبعد ان أرّخوا لعهود الكتب المقدسة ، و « للأيام » عند العرب والفرس ، ولا سيما منذ عهد الاسكندر المقدوني ، نرى غيرهم يتعرض للبحث في الفتوحات العربية كالبلاذري الذي له «فتوح البلدان» . اما واضع علم التاريخ عند العرب ، فهو الطبري (٨٣٩ – ٩٢٣) الذي وضع كذلك تفسيراً للقرآن . فقد كان عالماً نابهاً ، ومؤرخاً وضع كتاباً ضخماً في التاريخ ، يمكن اعتباره موسوعة تاريخية ضم كل ما وضع عن التاريخ القديم والتاريخ الاسلامي على السواء ، وذلك بعبارة واضحة وباسلوب من السرد الاخباري ، وهو نهج حذا حذوه كثيرون ، دون ان يبدي في الموضوع الذي يبحث، آراءً شخصية مما يجعل له قيمة كبيرة لدى النقد الحديث . ومنذ ذلك الحين اصبح

التاريخ اكثر فنون الآداب رواجاً في العالم العربي خلال الأجيال الستة التالية . وقد برز بين المؤرخين، في القرن التالي، أي في القرن العاشر، المسعودي الذي توفي عام ٩٥٦، والذي وضع لنا كتاباً ضخماً لخّص فيه كتباً لم يبق منها سوى قسم ضئيل، «مروج الذهب» ضم عدداً كبيراً من سير الخلفاء طواها على فوائد كثيرة. ومن بين هؤلاء المؤرخين ايضاً الصولي، المتوفى عام ٩٤٦ الذي يحدثنا بكثير من الحرارة، عن ذكرياته كمواطن بغدادي عمل في بطانة الخليفة العباسي . وقد راح عدد كبير من المؤرخين لعموا بين القرنين العاشر والثاني عشر، يكملون تاريخ الطبري، انما في غير النهج الذي سار هو عليه، منهم هلال الصابي، المتوفى عام ١٠٥٦ الذي لم يبق من آثاره سوى بعض نتف، وابن مسكويه المتوفى عام ١٠٣٠، صاحب كتاب «تجارب الامم». وقد برهن كلا المؤرخين الاخيرين عن اطلاع واسع، ومعرفة دقيقة لشؤون الادارة عند العباسيين والبويهيين وضمنا كتاباتهما معلومات جزيلة الفائدة فكانت معيناً لا ينضب من الفوائد والمعلومات .

وقد كان من جراء الانقسامات السياسية التي مزّقت وحدة العالم الاسلامي، اذ ذاك ان طلعت علينا تواريخ عديدة تبحث في تاريخ المغرب والاندلس ومصر وايران، ليس في ذكرها هنا كبير فائدة . وقد شارك في حركة التأليف هذه، عدد من كتّاب النصارى، كتبوا بالعربية تاريخ بطاركة الاسكندرية (الاقباط) ساهم في اكماله فيما بعد كثيرون . وبين هؤلاء المؤرخين المؤرخ الملكي يحيى الانطاكي الذي سكن انطاكية، في الربع الثاني من القرن الحادي عشر، وهي اذ ذاك، تحت سيطرة البيزنطيين، وفيها وضع تاريخه المشهور الذي جمع فيه تاريخ العالم الاسلامي، لا سيما مصر والشام، وتاريخ بيزنطية . وفي هذه الحقبة بالذات ظهر عدد من كتب التراجم، وفقاً للبلدان او المدن التي سكنوها، وتراجم العلماء وفقاً لطبقاتهم : كطبقات الفقهاء والحكماء والشعراء والمحدثين والقضاة . ولم يلبث هذا الفن ان ازدهر فيما بعد، ازدهاراً عظيماً .

اما الجغرافيون العرب، فقد وضعوا لنا آثاراً حريّة بالذكر، فكتبوا في الرياضيات وعلم الفلك، سيراً منهم على النهج الذي انتحاه بطليموس، وتركوا لنا اوصافاً حية، شيقة افادت منها الدوائر الادارية التي كانوا يعملون فيها او تابعين لها، وهي كتابات تفيض بالمعلومات الدقيقة والفوائد الجزيلة، دارت حول العالم الاسلامي، وتناولت وصف الهند والصين وآسيا الوسطى وروسيا، والقطران الأخيران لا نعرف عنهما شيئاً إلا من خلال هذه الكتب .

فالمعلومات التي ضمنوها كتبهم ترتكز الى نصوص من الوثائق الاصلية، كما تعتمد، من جهة ثانية، على ما نقله عنها الرحالة العرب، امثال سليمان وابن فضلان . فالكتب التي وضعها ابن خرداذبه في القرن التاسع، والاصطخري وابن حوقل، في القرن العاشر، واخيراً المقدسي، حوالي سنة الألف، وهو اوسعهم واحوالهم مادة، على الاطلاق، اذ عوّل فيما كتبه، على من تقدمه في هذا المضمار، وهي كتب كثيراً ما ضمت خرائط ومصورات جغرافية، وصل بعضها الينا . وهذه الكتب تذكرنا بالكتب التي جاءت على وصف الادارة الحكومية، وهي على منتصف الطريق بين الابحاث النظرية التي وضعها بعض الفقهاء، كأبي يوسف، والكتب الاخرى التي

ظهرت فيما بعد ، وهي اسهل أخذاً . ولعل أهم هذه الآثار ، على الاطلاق ، كتاب ابن قدامة الذي باشر بوضعه في مطلع القرن العاشر ومات دون ان يتمه . وقد كان المؤلف من كبار نقّاد الادب في عصره .

وما عسانا ان نقول عن نابغة عصره البيروني (٩٧٣ – ١٠٤٨) المعروف باوروبا باسم *Aliboron* . فقد عالج بنجاح جميع الموضوعات ، وكتب بالعربية والفارسية . فنحن مدينون له بهذه المعلومات الوافرة الدقيقة التي جمعها بعلم ومعرفة ، بفضل وصف الفتوحات والغزوات والعلاقات الديبلوماسية ، التي قام بها السلطان محمود الغزنوي ، في كل ما يتصل بمدنيات آسيا والهند . فهو ، من هذا القبيل ، مؤلف ليس من يعدله في التاريخ الاسلامي ، على الاطلاق .

ونرى بعضاً من كتّاب العجم يستعملون تارة البهلوية الهندية ، وطوراً العربية الدخيلة على البلاد . والجديد في الامر هو ظهور ادب جديد ، فارسي ، اسلامي في الوقت ذاته . وساعد على ذلك اقتباس الايرانيين للأبجدية العربية . وقد جاءت حركة التأليف هذه على غير استواء في بعض البلدان : قوية ، ناشطة في الدولة السامانية ، البعيدة عن العالم العربي ، وئيدة ، بطيئة ، متأخرة ، في ايران الغربية . ومع ذلك فستبقى اللغة العربية في ايران مدة طويلة ، الاداة الوحيدة للتعبير في كل ما يتصل ، من قريب او بعيد ، بالقرآن الكريم ، والعلوم الاسلامية والفلسفة . فاجادة العربية وتجويدها أمر لم يكن منه بد في الاوساط المثقفة ، وهي وحدها قادرة على معالجة الموضوعات اللغوية . غير ان ما للغة الايرانية من ميزات ، وما لها من قدرة ظاهرة على معالجة الموضوعات الخيالية تفوق ما للعربية منها ، والرغبة في التأثير على أكبر عدد ممكن من القراء ، كل ذلك جعل من اللغة الايرانية اداة طيعة ، مثلى ، للتعبير عن خلجات الفكر بفن وجمالية . ويبدو الفرق بعيداً مع الولايات الاسلامية الاخرى التي توارى كل اثر فيها للغات الايرانية والآرامية واللاتينية ، ومع لغة البربر في المغرب ، وما كانت عليه من ضعف ووهن ، جعل منها مجرد لهجة من اللهجات المحكية قلّ من يكتبها او يستعملها اداةً للتعبير عن مكنونات النفس . فالادب الملحمي في الايرانية بلغ الذروة في المحاولة الاولى ، مع « الشاهنامه » (او كتاب الملوك) للشاعر الخالد الفردوسي ، الذي باشر بوضعها في اواخر القرن العاشر ، وهو في بلاط السامانيين ، ولا تزال لليوم اكبر وأكمل ملاحم الايرانيين على الاطلاق ، يقرأون فيها امجادهم الوطنية قبل الفتح الاسلامي ، بلغة شعرية بديعة . وقام بين الايرانيين من عالج قبل الفردوسي الفنون الشعرية على نطاق اضيق واضعف . ثم ظهر النثر الايراني في كتب التاريخ ، في بلاط الملوك الأوّل للدولة الغزنوية ، مع البيهقي (حوالي عام ١٠٥٠) وأحياناً في الكتب العلمية .

ففي الحين الذي تبرز في ايران وترسخ اللغة الفارسية الوطنية ، يطل علينا في العالم الاسلامي نوع جديد من الأدب الشعبي ، من العسير على المؤرخ تتبعه وتقصي مراحله لأن النـاس تناقلوه شفوياً ، ولم يُكتب الا بعد ذلك بمدة طويلة ، بلغ ازدهاره في عهد العباسيين . وهذا الادب الشعبي الجديد ، يتألف اصلا ، من قصص اخذ بعضه من الآداب القديمة ، كما أستمد البعض الآخر

من تاريخ الاسلام وتاريخ شعوبه الى ذلك الحين ، فيتألف من هذا كله مجموعة قصص تعرف بألف ليلة وليلة ، التي لم يستقر وضعها النهائي الا في اواسط القرن الرابع عشر. وقصص البطولة كقصة عنترة بن شداد مثلاً ، تضع أمامنا صوراً ومشاهد من بطولات العرب ، بين قدامى ومحدثين ، بينما تتغنى الاخرى بالبطولات التي شهدتها الثغور الواقعة على الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ، فتروي لنا المكان والدسائس والحيل التي كانت تجري كل يوم حتى ايام الجهاد المقدس ، والعلائق الودية التي قامت بين المسلمين والبيزنطيين الذين كانوا اكثر تفهماً للواقع من سادة بغداد والقسطنطينية . من تلك القصص مثلاً الملحمة النصف التاريخية ، بعنوان : « سيد بطّال غازي » التي بعد ان تحولت وتتطورت اصبحت الملحمة الوطنية الكبرى عند الاتراك ، في آسيا الصغرى . ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، لا بد ان ننوه هنا ، ولو بصورة عابرة ، بالقصة البيزنطية التي لم تلبث ان وضعت شعراً ، وهي المعروفة بـ « *Digenis Akritus* » التي تضع أمامنا مشاهد مثيرة من حياة رجال الحرب على الحدود .

العلم والفلسفة

اطلع القرن التاسع والعاشر ، أطيب الآثار العلمية والفلسفية التي عرفها الادب العربي في هذه الحقبة . وقد حاول واضعو هذه الآثار الفكرية ان يبرزوا أمامنا كعلماء محيطين بكل شاردة وواردة ، على شاكلة بيك ده لاميراندول ، في عصر الانبعاث الفني والادبي ، في الغرب . ولذا يصعب تصنيفهم الى فئات معينة . ومع ذلك يمكن ردّهم الى قسمين رئيسيين : الفلاسفة المتكلمون أو اهل الكلام ، وهي تسمية اطلقت في الاسلام على الباحثين في شؤون العقل أو الحكمة ، والعلماء وهم هؤلاء الجماعة الذين يعوّلون على الأيمان فيتخذون من العقل اداة تشد من ايمانهم . فالفلاسفة والعلماء ليسوا على الغالب سوى مظهر واحد للفكر ، اذ كان العقل يتجه دوماً من المشكلات الفلسفية اكثر من تعويل هؤلاء على العلم . اما بين العلم والتكنولوجيا التي تعتمد عليها المهن الاخرى ، فالاتصال يبقى ناقصاً ، اذ ان الملاحظة والتجربة هما المعول عليهما للوصول الى تحديدات وتعريفات واضحة ، ولو لم يؤلفا أساس العمل . فسواء عالج العالم المقاييس والوسائل الحسابية التي يلجأ اليها الرياضيون ، واستعان بوسائل النجامة والكيمياء ، فهو يضع نصب اعينه ، اهدافاً عملية ، مع التأكيد ان النتائج لا تتحكم قط بتوجيه العمل وفرضه .

وعلى عكس اهل الكلام الذين نراهم منتشرين في جميع انحاء العالم الاسلامي ، لا نجد الا في الشرق ، ولا سيما في ايران ، علماء يعملون للعلم ، وفي القسم الشمالي الشرقي منها . فالطب يسجل تقدماً محسوساً . فهو يؤلف مهنة او حرفة مغلقة ، او موصدة ، لا تتفتح لاصحابها ومحترفيها ، الا بعد درس ومراس وامتحان عسير ، يجب اجتيازه بنجاح . وهي مهنة ممارستها مباحة للجميع من يهود ومسلمين ومسيحيين ، كما نرى في اسرة آل بختيشوع السريانية ، التي سيطرت على بيمارستان جند يسابور . ومنذ القرن التاسع ، نرى الامراء والحكام ينشئون لهم مستشفيات حرية بكل احترام وتقدير . فالطبيب ، سواءً أعَمِل في البلاط أو في المدنية ، فهو شخصية بارزة لها شأنها واهميتها . وقد اشتهر منهم عدد بما بلغوه من كفاءات وقدرات عالية ،

وان فاتتنا معرفة الكثير من وجوه هذه المقدرة . وليس من يشك قـــط بالتطور العظيم الذي تحقق على ايديهم ، في مجالات : الكحالة وطب العين والقبالة وفن الاقراباذين ، والاكتشافات العلمية التي حققوها في هذا المضمار ، كالدورة الدموية الصغرى بين القلب والرئة . وقد برز بين اطباء هذه الحقبة طبيبان طبقت شهرتهما الآفاق، هما الرازي المعروف عند الغربيين باسم *Rhazes* الذي برع ايضاً بالكيمياء وقد رأى النور في مدينـــة الري (٨٦٥ – ٩٢٥) ، وابن سينا (٩٨٠ – ١٩٣٧) الذي ولد في بخارى، والذي اشتغل كذلك بالفلسفة، فكان من اكبر واشهر فلاسفة الاسلام ، في الاجيال الوسطى ، فكان له فضل عظيم على الطب ، لا سيما بعد ان وضع كتابه المشهور بـ « القانون » وهو موسوعة طبية ، واسعة ، منهجية . وكتابه هذا كان عليـــه المعوّل في الشرق حتى عهدنا هذا فكان القسطاس او النبراس الذي سار عليه الاطباء في الشرق الى هذا العهد ، كما اعتمده الاطباء في الغرب الى عهد موليير ، بعد ان عم نقله الى اللاتينية وطبع في روما لاول مرة ، سنة ١٥٩٣ .

اما علم الهيئة الذي اعتمد كثيراً على علم النجامة ، فقـــد حقق تطوراً محسوساً ارتكز من جهة، الى ترجمة كتاب « المجسطي » لبطليموس، كما ارتكز ، من جهة اخرى ، على ترجمة مجاميع طبية تعود لعهد الساسانيين والهنود . فمنذ مطلع القرن التاسع ، أنشأ الخليفة المأمون مرصداً له في بغداد ، كما انشأ بعده ، غيره من الامراء مراصد اخرى اشهرها على الاطلاق مرصد قرغانة ، كالمرصد الذي بناه شرف الدولة البويهي ، في اواخر القرن العاشر . والاعمـــال العلمية التي حققها العرب والمسلمون حول : الإهليلج ، والكسوف والخسوف ، وحركات النجوم السيارة ، وقياس درجة الدائرة الارضية على اساس فرضية استدارة الارض ، وما الى ذلك ، يثير الدهشة والاعجاب ، اذا ما فكرنا في الادوات التي كانت بين ايديهم كالاسطرلاب مثلاً ، وغير ذلك من ادوات توارثها العرب في التاريخ القديم ، وعولوا عليها في تحقيق ما حققوه من هذه الكشوف العلمية ، ولا شك ان البتاني (٨٧٧ – ٩١٨) هو اكبر علماء الفلك في زمانه . فقد كان من صابئة حران ، هؤلاء الصابئة ، الذين كانوا يعتمدون على النجامة ورصد النجوم . وبلغت شهرته الغرب حيث عرف باسم *Battenius* .

ومع ان العرب تمهلوا جداً في اقتباس الارقام الهندية ، فقد استعملوها مع الكسور العشرية والصفر ، فنحن في الغرب ، مدينون لهم ، مع ذلك ، بهذه الاعداد التي اخذناها بالفاظها العربية احياناً . واشهر رياضيي العرب، واقدمهم على الاطلاق ، هو الخوارزمي (٧٨٠ – ٨٥٠) الذي ولد في خوارزم، بالقرب من بحر آرال ، واليه تعزى الجداول الحسابية المعروفة في الغرب، باسم *logarithmes* ، مع انه ليس بواضعهـــا الحقيقي ولا عرفها . غير ان كتاباته حول المعادلات الجبرية قد جعلته اول من اخترع علم الجبر ووضع اصوله في العالم . وقد عالج غيره من الرياضيين الذين جاؤا بعده ، الهندسة وحساب المثلثات .

اما الكيمياء ، فلن نهتم لها بنسبة الاهتمام الذي لقيته عند المفكرين في الاجيـــال الوسطى .

فالأكسير الذي بحث عنه كل الكيميائيين ، في الشرق والغرب ، على السواء ، هو من اشتقاق عربي . واشهر من عالج هـــذا العلم هو جابر بن حيان ، الذي عرف في الغرب باسم *Geber* ، وعاش في القرن الثامن . والذي وصل الينا باسمه من المؤلفات ، تم وضع بعضه بعـــد وفاته بقرنين ، واكثر . وقد كانت اكثر تطبيقاً ، المؤلفات التي وضعها فريق من علماء المعادن وعلماء النبات والفلاحة ، اشهرهم على الاطلاق ابن وحشية الذي ينسب اليه ترجمة ، كتاب الفلاحة ، من النبطية الى العربية ، والذي لا يخلو مع ذلك من كثير من الاوهام والاساطير والخرافات .

كثيراً ما جمع هؤلاء الفلاسفة بين العلوم والفنون والموسيقى ، فراحـوا يستلهمون نظريات ارسطو العلمية والعلوم الكونية والادبية التي قالت بها الافلاطونية الحديثة . واقـــدم هؤلاء الفلاسفة واعرقهم عروبة هو الكندي الذي لقبوه بفيلسوف العرب ، وقـــد عاش في القرن التاسع . اما المفكر الكبير والفيلسوف الذي جدد الفلسفة القديمة فهو الفيلسوف التركي المحتـد والنسب ، اعظم فلاسفة الاسلام على الاطلاق ، هو ابن سينا الذي عاش في بغداد وحلب ، في القرن العاشر ، وعلى يده تطورت الفلسفة نحو الاشراقية العقلية .

فامام مظاهر هذا التفكير التي جاءت مغايرة للدين ومناقضة لتعاليمه ، ولهـــذه الهرطقات العديدة ، والتفاسير المخالفة للنصوص القرآنية ، اخـــذ القلق يساور رجال الفكر الذين تهمهم كثيراً امور العقل والوحدة . فقد رأينا كيف ان المعتزلة راحوا يحاولون التوفيق بين الايمـان والعقل. فالاشعري (٨٧٤ - ٩٣٥) والماتيريدي الذي توفي عام ٩٤٤، حاولا ان يضعا في خدمة الايمان ، سلاح القياس الذي عمل المعتزلة على تطويره . ولم تاق هذه الطرق والمناهج ، في بدء الامر قبول الاجماع . الا انها لم تلبث ان انتصرت وانتشرت في القرن الحادي عشر ، واصبحت جزءاً لا يتجزأ من تعليم الامة في الاسلام ، اضيف عليها شيء من التفكير العقلاني والشرعي ، على يد اهل الكلام الذين ظهروا فيما بعد .

ولهذا السبب قامت القطيعة بين موقف هؤلاء المفكرين المؤمنين حتى عندما يدافعون عن الايمان ضد العقل ، وبين فئة المتصوفة ، هؤلاء المؤمنين بقلوبهم الذين كثيراً مـــا رموهم بالكفر والزندقة . فالمحاسبي والجُنَيْد ، في القرن التاسع ، يعربان عن رغبتهما في الزهد والنقاء الخلقي عند هـــذه النفوس التي لا تقيم وزناً للقياس ، كالحلاج ، مثلاً (٨٥٨ - ٩٢٢) . الذي قال في بعض تعاليمه : « انا الحقيقة » وذلك في الوقت الذي احتدمت فيه الحرب ضـــد القرامطة ، فكفّروه ورأوا فيه خطراً على الجماعة . فظهوره يعتبر حادثة نادرة في الاسلام ، جرت عليه الموت ، بعد عذابات اليمة ، مبرحة تذكرنا بمأساة المسيح .

ادت محاربة هذه الزندقة الى ادب خاص ، منه نفهم ما كانت عليه هذه الملل والنحل. وقام في الاندلس ، عند مطلع القرن العاشر ، حول ابن مَسَرّة وأخذه بتعاليم الافلاطونية الحديثة ، شعور بالقلق من جراء استفحال هذه التعاليم ادى الى وضع ابن حزم كتابه المشهور عن الملل

والنحل ، وهو احسن كتاب في الموضوع يصف لنا الفروق التي باعدت فيما بينها . وقد رأينا ما كان لابن حزم من اثر على الشعر في عهده .

الادب المسيحي واليهودي

على نقيض البحث العلمي الذي انفتحت ابوابه امام الجميع ، يبدو ان الفكر الديني لدى الطوائف غير المحمدية ، اختلفت عنده مظاهر الحياة العقلية ، عنها لدى العالم الاسلامي ، مع انه استعمل اللسان العربي ، تعبيراً وتبايناً . فهو يجدب ويتصلب عند المسيحيين فلم يطلع بأي اثر بارز ، ولا أفسح المجال لطلوع أية مشاقة دينية مهمة . وقد اقتصر الجدل ، بعد ان تصلّب وقسّا ، على الامور الكنسية دون العقائدية. اما الفكر اليهودي فقد استيقظ برهة من الدهر ، ونفض عنه الجمود واليبس الذي اعتراه من جراء التعاليم والمذاهب التلمودية. ففي الوقت الذي راح فيه الاشعري يدخل على الاسلام المناهج الفلسفية المعروفة ، عرف رئيس الكهنة ساديا ، في بغداد ، ان يكتسب شهرة واسعة بتجديده الناموس القديم ، وراح يحاول من جهته ، التوفيق بين النصوص الكتابية وتعاليم الربانيين ، أي بين مطالب الايمان ومناهج العقل . ومن كل الجوالي اليهودية في اوروبا وآسيا كانوا يقصدون بغداد لاستيحاء تعاليم مدرستها المشهورة . ومن الرسائل المتبادلة بين هذه الجماعات الدينية ، تكونت مجموعة الوثائق المعروفة باسم *Papiers de la Genisah* التي عثر عليها في القاهرة ، منذ نحو خمسين سنة ، وهي مجموعة تمدنا كل يوم بنماذج مثيرة . ومع ذلك ، فازدهار المدارس الملّية التي قامت في كل من القدس ، والقاهرة ، والقيروان — التي تجاوز اشعاعها ولايات ايطاليا الجنوبية — والاندلس ، يبدي بصورة قاسية ، الصدارة التي احتلها ربابنة مدرسة بغداد ، على غير استحقاق او جدارة احياناً ، مع ان الانحطاط اخذ يدب اليها ويتغلغل فيها ، اثر القلاقل والاضطرابات التي نشبت في القرنين العاشر والحادي عشر . واذ ذاك ، انتقلت جذوة النشاط للأدب اليهودي ، الى البلدان الواقعة حول حوض البحر الابيض المتوسط ، وراحت رئاسة الاحبار ورئاسة الربابنة تضمحل تدريجياً وتموت. فاذا ما عرفت مدرسة القيروان الضعة والهوان في عهد الهلاليين ، فقد اشتهرت مدرسة الاندلس بأن انجبت جبريل الملقّي ، احد فلاسفة المدرسة الافلاطونية الحديثة الذي كاد يكون غريباً عن ملته ، كما كان شاعراً مشهوراً ، كما ان بهيا بن باكوري راح يضع كتاباً في مجالدة النفس والزهد ، يبدو غريباً جداً في الادب اليهودي . ومنذ القرن الحادي عشر ، اصبحت الاندلس ، ملاذ الفكر اليهودي ، كما اصبحت مركزاً للاشعاع الثقافي في العالم الاسلامي .

الادب البيزنطي

اذا ما قارنا الادب البيزنطي بما ظهر حوله من آداب اخرى في الشرق او في الغرب ، استطعنا ان نكوّن لنا رأياً معللا ، وان نبدي حكماً حول قيمته الحقيقية او النسبية . فهو ينعم بعلم اكبر ، وبدقة اوفر ، من الادب في الغرب ، واصاب نجاحات اكبر من التي حققها ، الا انه اقل غناً وتنوعاً من الادب الاسلامي . فقد عرف

الاسلام ان يتمثل آداب الشعوب التي دوخها ، وان يطبعها بميسمه المميز ، وان ينميها ويطورها بينما لم تشع بيزنطية على الشعوب التي خضعت لحكمها وسلطتهـا الا في المجال الديني ، وفي بعض مظاهر خاصة من مجالات الفن ، مع العلم ان الشعوب التي اخضعتها لنفوذها لم يسمح لها طابعها البربري ان تستمرىء عناصر ثقافيـة اخرى ، كما ان بيزنطية كانت اعجز من ان تعطي الغير شيئاً مما كانت تحرص عليه من تراثها الهليني التليد ، وبذلك جعلت نفسهـا بمعزل عن كل مؤثر اجنبي يأتيها من الخارج . فقد استطاعت ، وايم الحق ، ان تقتبس، من الخارج ، بعض العناصر التي شاركت في تكوين فنها . ولكن ما من شيء جديد في المجال العقلي او الفكري . فلم تكن من القوة بحيث تستطيع ان تستغني ، دون ان تتعرض للخطر ، عن هذه العوامل التي ساعدت في إخصاب ثقافتها واغنائها . وهكذا راحت الثقافة البيزنطية تتطور وتتكامل من الداخل ، وتعمل ضمن حلقة مفرغة ، انمازت بالاخذ والقبس دون ان تكون لها القدرة على العطـاء ، وبالتالي على الاشعاع . فقد كانت تحيا وتعيش لنفسها ، لا للغير . قد يكون الادب الشعبي هو الشيء الوحيد الذي شذّ عن هذه القاعدة ، الا انه ادب مجهول القدر ، منقوص القيمة ، ليس من يشعر به الشعور الذي نعمت به بعض المؤلفات العلمية التي وضعت لنخبة مختارة من الطبقة الارستوقراطية .

وبالرغم من هـذا ، وبعد الركود الادبي الذي طبع العصور الماضية ، وسيراً مـع حركة الازدهار والاشعاع الفكري الذي عرفتها الثقافة العربية ، عرفت بيزنطية ، في القرن التاسع ، ازدهاراً عظيماً وتطوراً كبيراً في امور الفكر ، فازدادت فيهـا المدارس ، ودب النشاط في جامعة القسطنطينية بعد ان اجرى فيها البطريرك فوتيوس ، وهو من اشهر تلاميذها ، إصلاحاً جذرياً وسكب فيها دماً جديداً ، وصقلت الاذواق والطباع في كل مـا يتعلق بامور الفكر والفن . وبعـد قرون من المناقشات البيزنطية الجوفاء حول قضايا دينية او نسبية لا طائل تحتها ، اخذ الناس ، بتأثير من هـذه اليقظة الجديدة ، يحفلون بالتراث الحضاري القديم ، ولا سيما بالهليني منه . فبينما راح الاسلام ينقل من هذه الثقافة اليونانية بعض مـا يتعلق بالعـلم والفلسفة ، انصرفت بيزنطية للجانب الادبي الذي كان من العسير نقله الى العربية لمـا يتنزّى به من الاساطير الوثنية والميثولوجيا ، ولما يستدعى تمثّله من ذوق رفيه . وراحت تكمل رسالة مدرسة الاسكندرية ، وان تعثرت منها الخطى واشتط النهج في القبس ، اذ اقتصر على حرفية مرزحة ومقعدة . ففي هذا التطور من تاريخها ، إكتست الثقافـة البيزنطية أريجاً من الفكر العلماني لا يتعارض او يتنافى قط مع الايمان ، انما يتميز تماماً عما خلفته العصور السالفة واللاحقة كما يتميز كلياً عن الانتاج الفكري ، في الغرب ، خلال هـذه الحقبة . فبالاضافة الى المؤلفات التعليمية الطابع او الموسوعية الهدف ، وكتب النصوص والادلة الموضوعـة للحكام الاداريين والخاصة ، كانت كل الفنون الادبية ، من نثر او شعر ، موضوع اهتمام خاص . ويبرز من بين هذا الادب السقيم الهزيل ، بعض قصص ومسرحيات لها قيمتها الفنية . وعـلم التاريخ الذي

يرى مادته الاولى تتجدد باستمرار ، ترك لنا ، قبل القرن الحادي عشر ، مؤلفات قوية بقيت على الزمن ، ابتداء من التاريخ الذي وضعه ثيوفانس (غرة القرن التاسع) ، والتواريخ الاخرى التي رأت النور في القرن العاشر ، بتشجيع من الاباطرة امثـــال لاون السادس ، وقسطنطين المسربل بالارجوان ، وخلفاؤهم من بعدهم ، منها التاريخ الذي وضعه لاون دياكر . وقد لقيت تراجم القديسين على انواعها ، رواجاً عظيماً لما كان لها من وقع في نفوس افراد الشعب . وحري بنا ، ان نذكر هنا ، بعض الآثار النقدية التي نحا فيها واضعوها ، نحو لوقيانوس ، وان جاءت المحاكاة حرفية ، وكان علينا ان ننتظر القرن الحادي عشر لنرى آثاراً ذات قيمة ارفع واسمى . ويأتي التاريخ في خدمة هذه الآثار ، منها التاريخ الذي وضعه ميخائيل اتّاليات ، ونيقوفورس بريين ، وكدرينوس ، وسكيلتزيس . كذلك علينا ان ننوه عالياً هنـــا ، بالكتاب الذي وضعه « النبيل » كيكومانوس الذي ضم قصصاً مثيرة وعظات وارشادات عملية . وقد برزت فوق هذه الحركة ، شخصية بسيلّوس ، الذي كان من الطراز الاول : رجل ادارة ، وفيلسوفاً موسوعياً ، ومجدداً للفلسفة الافلاطونية ، وللافلاطونية الحديثة ، كما كان مؤرخاً وسيكولوجياً يخترق اغوار النفس البشرية ، في كتابه الموسوم « كرونوغرافيا » ، والمنظم للتعليم الجامعي بمساعدة الامبراطور قسطنطين مونوماخس (اواسط القرن الحادي عشر) ، والمؤسس لمدرسة الفلسفة ، الى جانب مدرسة الحقوق التي كانت تمد الدولة بما تحتاج اليه من رجال الادارة والحكم .

وبالرغم من هـــذا النشاط ، فليس ابرز للعين ، من الادب الشعبي الذي امتاز بالاصالة والعفوية والطبيعية . ويمكن ان نضيف الى هـــذا اللون ، فن كتابة سير القديسين ، والقصص المستوحاة من القصص الشرقي ، امثال قصة برلعام ويوشافاط . واسوة بما كان عليه الوضع في الغرب ، فالمسرحية ، كالقصص الشعبي في الأجيال اللاحقة ، مزيج من التلاحين والاغاني والسرد القصصي ، تغنّى احياناً ، وحيناً تتلى وتقرأ ، ويبقى هذا الفن ناشطاً حتى القرن العـــاشر . وقد طلع بعد قليل فن تمثيل الاسرار (*Mystères*) ، وهو مسرح ديني عرفه الغرب ، اذ ذاك ، يتألف أصلاً من حوادث يراعى في سردها الليتورجيا . ولعل أشهر هـــذه الآثار طراً ، وان جهلها العلم مدة طويلة ، هي بلا مراء ، الملحمة المعروفة بـ *Digenis Akritas* التي استقرت في شكلها النهائي ، في القرن الثاني عشر ، مع ان القسم الاساسي منهـــا يعود لقرن أو قرنين من قبل . وهذه الملحمة تذكرنا بالقصص الحماسية التي ظهرت في العالم الاسلامي ، بما سبق واشرنا اليه من قبل . فهي تصف لنا وضعاً حياً ، مثيراً ، مشاهد من حياة جندي يعمل في حاميات التخوم والثغور ، وما تم له من علاقات مع بعض المسلمين ، تارة حربية ، وطوراً سلمية ، نستطيع معها ان نتبين ظروف وصروف الحملات والصوائف التي كانت آسيا الصغرى ملعباً لهـــا ، في القرنين التاسع والعاشر ، كما نتبين ما كانت عليه ، اذ ذاك ، اخلاق القوم الساكنين على الحدود . ولا تزال ذكريات هذه الملحمة حية لليوم في نفوس افراد الشعب في اليونان .

والادب الارمني الذي استوحى قسماً من مقوماته ، من النماذج البيزنطية والسريانية ، ولا

سيا الدينية منها ، اخذ يتحرر أكثر فأكثر ، ويعتمد على نفسه في هذه الآثار التاريخيـــة التي خلفها لنا توما الارزرومي، واستفانس طارون، وارستفاكس ده لسديفرد وهي آثار جد مفيدة، بالرغم مما هي عليه من تفخيم واطناب . وقد ازداد الادب الرهباني إزدهاراً ، خـــلال عهد الأسرة البغراتية . واكبر شخصية علمية في هذا العهد ، هي شخصية غريغوريوس ماجستروس (النصف الاول من القرن الحادي عشر) ، وهو نبيل ارمني ، وقائد عسكري ، عمل في الجيش البيزنطي ، موسوعي الثقافة ، جوّد اللغتين : الارمنية واليونانية، وراح يحاول اخراج مواطنيه من العزلة التي وضعتهم فيها لغتهم الأرمنيـة . صحيح ان الشاعر الصوفي الأرمني غريغوريوس ناريك، الذي عاش في اوائل القرن العاشر والذي لم يقع تحت اي اثر اجنبي، تمتع بين الأرمن، ولا يزال ، بشهرة اوسع مما تم لماجستروس . ولما كانت بلاد جيورجيا هي الآخرى، مفترق طرق، وملتقى الثقافات البيزنطية والارمنية والايرانية ، فقد اخذت تستيقظ تحت تأثير ترجمة الآثار والمؤلفات الكنسية ، وتتفاعـــل مع الحركة الفكرية في البلدان الصقلبية الاخرى التي اخذت تتحرك وتتحرر سياسياً ، لتصل بعد القرن الحادي عشر ، الى آثار تتميز ، أكثر فأكثر ، بالطابع الشخصي .

فنون الشرق الادنى

في جميع أقطـار الشرق الادنى ، المسيحي والاسلامي على السواء ، ينزع الفن نحو التنوع ليقيم له مذاهب أو مدارس « وطنية » خاصة ، مع حرصه مع ذلك ، على التمسك بعناصر مشتركة . وبالرغم من الفروق القائمـــة بين الفن الاسلامي والبيزنطي، حدود واضحة المعالم والصوى، بين هذه المذاهب الفنية المعمول بها، في كلا الجانبين، فكلاهما يتجاوب وحاجات مجتمعه الخاص الذي استعرضنا، من قبل، لتطوراته المتوازية، فيستعمل كل منهما وسائل تقنية مماثلة. ويهمنا هنا ان نكشف، ولو بايجاز واقتضاب عن العوامل المشتركة التي تؤلف ما بينهما من وحدة، بحيث نستطيع ان نُظهر، بصورة محسوسة ، ما في هذه الانجازات التي حققتها هذه الفنون ، من قوة التأثير والاغراء .

نحن نجهل تماماً التكنيك الهندسي الذي يختلف ، هنا وهناك ، باختلاف المادة المستعملة في البناء كالحجر او الآجر او اللبن ، في كل ما يتصل بالمباني العسكرية ، والقلاع والحصون ، الدفاعية ، بالرغم من كثرتها وعددهـــا . للدفاع عن حدود بيزنطية ، او للدفاع عن البلاد الاسلامية ، ضد المشركين ، في آسيا وفي افريقيا ، وهذه الرُبُط التي تقيم فيها متطوعـة الغزاة الملبين نداء الجهاد المقدس ، ليوطدوا من سلطان الزعماء المحليين ، او لمراقبة المقاطعات الصعبـة المرتقى ، التي كانت ، في كل من سوريا وكردستان والمغرب ، شهوداً ناطقة على ما بلغته السلطة المركزية من شدة التفتت ، والانحلال . اما الهندسة المعمارية المدنية ، فلم يصل الينا منهـا شيء يذكر . غير ان الحفريات التي جرت في سامراء العاصمة الموقتة للعباسيين ، بعد بغداد ، فقـــد كشفت عن معالم القصر الخلافي التي تساعدنا كثيراً على تفهم ما كان عليه هـذا القصر من اوضاع خاصة، كما نعرف جيداً ان القصر المقدس الذي شيدته اسرة الاباطرة المقدونيين ، في القسطنطينية،

استوحى خطوطه من الطراز الهندسي المعمول به في بغداد . وهو عبارة عن مدينة ضمن مدينة، أكثر مما هو قصر . فقد ضم العديد من الأبنية : هذه للسكن ، وتلك للتلهي والترفيه ، واخرى للدفاع ، واخرى للتموين وخزن المؤن التي يحتاج اليها الخليفة وحاشيته . كل ذلك يبدي الفارق الكبير بين هذه القصور الفسيحة الارجاء ، وبين هـذه المنازل القذرة التي كانت مأوى السواد الاعظم من سكان المدن .

اما الهندسة المدنية التي حُفظت مبانيها أكثر من الاولى ، فقد قام فيها فروق بارزة اوجدتها مقتضيات العبادة ، سواء أكانت مساجد او كنائس . والقضية المشتركة الـتي كان على المهندسين مواجهتها وحلها بالتي هي احسن ، تنحصر في السقف الواسع الذي كان يجب ان يغطي الردهة الكبرى المعدة لاجتماع المصلين . وهكذا راح المهندسون المعماريون ، في كل من القسطنطينيـــة وايران ، يتعاونون معاً لاقامة قبّاب او قناطر من الآجر، بينما استعمل مهندسو ارمينيا وسوريا ، ثم البلقان، الخشب لسقف كنائسهم المبنية بالحجر . وقد أدى التطور الذي رافق إقامة القباب في كنائس بيزنطية ، الى جعل السطح بشكل صليب يوناني .

فاذا ما زالت معالم الكنيسة الاولى التي بناها الامبراطور باسيل الاول، فلا يزال قائماً لليوم، سواء في القسطنطينية ام في الولايات التابعـــة لها ، كنائس عديدة متواضعة المظهر ، استحال بعضها الى مساجد وجوامع . ان عهد السلالة البغراتية هو بالفعل العصر الذهبي للهندسة المعمارية عند الارمن ، كما يبدو ذلك في هذه التحفة الفنية الرائعة التي تتمثل على أتمها في كاتدرائية آني ، ومـــا تركته من اثر بيّن في كنائس جيورجيا ، ولا سيما في كاتدرائية عاصمتها القديمة كوتائيس .

اما المسجد الذي هو عبارة عن بهو او صالة كبيرة لا مكان فيه لحنية او هيكل ، فهندسته لم تُثر أية مشكلة او صعوبة . فمسجد ابن طولون ، في القاهرة (اواخر القرن التاسع) استوحى خطوطه الكبرى من مساجد بغداد العباسية . وبقيت هذه الهندسة مرعية الجانب في عهد الدولة الفاطمية ، كما يظهر ذلك بوضوح ، في مسجد الحاكم الذي استوحيت في هندسته بعض العناصر البنائية المستعملة في الغرب وطبقت في بناء جامعة الازهر. اما في افريقيا ، فروائع الفن المعماري الهندسي، تتمثل في مسجد القيروان الذي تم تشييده في مطلع القرن التاسع ، ودخلت في هندسته عناصر مستوحاة من عمارة المساجد في الشام والعراق . اما في الاندلس ، فتحفة الفن الهندسي فيها ، هي مسجد قرطبة الذي استمر البناء فيه اكثر من قرنين (القرن التاسع والعاشر) . اما في ايران حيث مواد البناء لم تقوَ على مغالبـــة الزمن وعوامل الفناء ، والهزات الارضية الكثيرة الوقوع ، فلم يبق لنا شيء يذكر مما سبق بناؤه القرن التاسع ، وهو العهد الذي قام فيه مسجد أصفهان الكبير الذي أدخلت عليه فيما بعد ، تعديلات واضافات جديدة . ونحن مدينون لايران بهذه الاضرحة التذكارية الكبيرة التي تنتهي ببرج او قبة هي التي أوحت بالطراز الجديد للمساجد

الجنائزية . وبعد ان اضيفت على هذه المساجد ابراج حلزونية الشكل مستوحاة من الفن القديم للعمارة ، في البلاد ، انتهت بظهور هذه المآذن المستديرة التي تنتصب مرتفعة نحو السماء والتي تختلف كل الاختلاف عن هذه المآذن المربّعة الشكل ، ذات الادوار او الطبقات الضخمة التي شاع استعمالها في مساجد بلدان حوض البحر المتوسط . ومما يلفت الانظار في هذه المساجد ، بعد ان يجتاز المرء الساحة المسورة التي تحيط بها ، وبعد ان يدخل بهو الجامع وصحنه ، هو هذه الأعمدة العديدة التي كثيراً ما تعلوها اقواس او قناطر متنوعة الأشكال ، من هلال الى قنطرة كاملة .

ويوحّد بين المهندسين النصارى والمسلمين رغبة قوية في زخرفة المبنى وتحليته (الديكور). فقد زالت تماماً ، معالم التماثيل والشخوص والنقوش الضخمة ، لتفسح المجال لفيض من الرسوم والزركشة للسطحات عن طريق الألوان او عن طريق نقش الحجارة وتفريغها ، او عن طريق التلبيس او التكفيت . وكم سمعنا ورددوا على مسامعنا ان الاسلام حرّم ويحرّم تصوير الكائنات الحية في المعابد . فهذا القول لا يخلو من تشدد وعنت ، لا نرى قط الايرانيين يأخذون به او ينزلون عند حدوده . فالمسألة لم تكن لتعني تصوير ذات الجلالة . بهيئة انسان ، او على شكل حيوان مهما كان كريماً ، اذ ان الله روح يعلو فوق كل مادة وغرض ومخلوق ، كما لا يعني تمثيل الكائنات لذاتها . فالفنان المسلم لا يتحرج قط ، ولنا على ذلك امثلة عديدة ، عن تزيين المباني المدنية بكل ما لديه من وسائل التحلية والزينة : من نبات وحيوان وانسان ، اذا كان في هذه الرسوم ، ما ينهض باسباب الفن ، او يزيد من قوة جاذبية التحلية ، في اي المظاهر التي تبدو عليها ، وفي اية حالة من الحالات ، كالصيد والقنص والحرب . والثابت هو ان الفنان في البلاد السامية ، همه الاول ان يأخذ من الكائنات رمزاً يستنبط منه ما له من معالم حسية لينتقل منها الى فكرة التجريد ، بما توحيه هذه الحبائك والشجرات والدوائر الهندسية ، والخطوط الكتابية المتشابكة التي رُاجت رواجاً عظيماً في العالم الاسلامي . وهذه النزعة بالذات لم تكن غريبة عن الفنان البيزنطي نفسه بالقدر الذي يُظن او يذهبون اليه ، صحيح ان هؤلاء الفنانين لا يترددون قط منذ بدعة محطمي الصور والايقونات ، في تصوير القديسين والألوهية نفسها ، في الكنائس . الا انهم على عكس الفنانين في الغرب الذين نزعوا دوماً الى تجسيد او تشبيه قصص الكتاب المقدس ، ليعبّروا بذلك ، عن لاهوت مجرد ، باشكال وصور لا تتغير ولا تتحول ، هي فوق البشر ، لا تعود اليها الحياة الا عندما يستطيعون التصرف بفنهم بكل حرية .

والفسيفساء ، هذا الفن الذي يمكن وصفه بالفن الارستوقراطي والذي طالما ركن اليه الفنانون وعولوا عليه في الاجيال الاولى من تاريخ البيزنطيين والاسلام ، راحت بيزنطية تستبدله او تستعيض عنه بالاكثار من الافاريز التي تكلف ما تكلفه الفسيفساء ، من نفقات . فالشواهد العديدة التي وصلت الينا من المباني الواقعة خارج القسطنطينية ، تبدو احياناً فخمة ، كما نرى ذلك في كنيسة القديس مرقس في البندقية (القرن الحادي عشر) ، وفي صقلية النورمندية

(القرن الثاني عشر) ، وفي مدينة كييف (القرن الحادي عشر) ، واكثر بساطة في الكنائس الواقعة في الملحقـــات ، ككنيسة دفنة في اليونان ، واحياناً كنائس من ذوق شعبي خشن ، ككنائس قبادوقية « الكهفية » التي عثر عليها من عهد قريب . ومع ان العالم الاسلامي عرف استعمال الافاريز ، فقد فضّل مع ذلك استعمال القاشاني المغطّى بالمينا والذي تفننت مصر كثيراً بصنعه . اما ايران ، فقد اشتهرت بصنع البلاط المربع ذات اللمعان المعدني ، فاستعملت مجموعة كبيرة منه في مسجد القيروان . ولكي يستروا المبـــاني المصنوعة من القرميد البسيط ، راح الفنانون ، سواء البيزنطيون منهم او المسلمون ، يغطّون السطوح بطلاء متعدد الالوان . امـــا المرمر ، فقد أقتصروا استعماله على الداخل ، واستعملوا فيه جميع العروق . اما الفنانون في ايران الشرقية فقد حاولوا ان يخلقوا نوعاً من التحلية بمجرد رصف الآجر دون الركون الى الألوان .

اما الزركشة والتزيين بالحفر فلا يستعمل الا في تيجان الأعمدة والكورنيش. كذلك الجدران المخرّمة التي بالغوا في دقة صنعها ، فيكثر استعمالها ، بالاحرى ، تحت القناطر والقباب والسطوح التي لم تكن مرصوفة بالفسيفساء . وتكتمل اسباب الزينة بوجود الأرتجة الضخمة والمفروشات والطنافس والسجاد .

فبعد ان زهدت الهندسة المعمارية بالحفر والنقش ، راح هـــذا الفن يثأر لنفسه بسيطرته على الفنون المعروفة بالفنون الصغرى . فالاخشاب الثمينة تُحفر في العالم الاسلامي وتستخدم فيـــه على نطاق واسع ، في المساجد وفي المنابر . كذلك التكفيت والترصيع فهو من هذه الفنون التي اختص بها الاسلام . واستعمال العاج يبقى رائجـــاً على نطاق واسع في بيزنطية ، لما كانت الارستوقراطية فيها ، ميسورة ، ثرية ، قادرة على إقتناء الصناديق الخشبية التي تحمـــل نقوشاً تنبض بالحياة ، وهو فن بقي مستعملاً في جميع ارجـــاء البحر الابيض المتوسط : في مصر ، وصقلية والاندلس . واشتهرت بيزنطية بالابواب الضخمة المصنوعـــة من البرونز وبمصنوعاتها الفضية ومجوهراتها المنقوشة والمطعمة . وكنا نرى في العالم الاسلامي الصحان الكبيرة والصواني الواسعة ، والمغاسل النحاسية ، والمصابيح المصنوعة من البرونز ، المستوحاة نماذجهـا من الفن الساساني ، والتي كانت تصنع كذلك في مصر وفي الاندلس ، كما كانت تصنع في العراق وايران، فنالت شهرة واسعة لا يزال يفيد منها من راحوا يقلدونها ، حتى في عصرنا هذا . والاسلحـــة الفنية المصنوعة في الهند اولاً ، ثم في دمشق وقرطبة لم تكن لتقل عنهـــا شهرة . وفي صنع الحلي والمجوهرات والدمى ، كانت بيزنطية تخضع ، كاوروبا نفسها ، لفن سكان البدو ، الذي لم يُعرف كثيراً في الاسلام .

ومن الفنون الخاصة ببيزنطية والغرب ، تحلية المخطوطات وتزويقها بصور ورسوم دينية ، يضاف اليها احياناً صور بعض الامراء ومشاهد مأخوذة من الحياة اليوميـــة . وفن تزويق

المخطوطات الذي مارسه المسيحيون في البلدان الاسلامية ، لم يلبث ان انتقل الى المسلمين في أقطارهم ، فراحوا يزينون العديد من الكتب الاسلامية الدينية كالقرآن ، مثلاً . ولم يصل الينا نماذج سابقة للقرن الثاني عشر . والتحف الفنية لفن التزويق الايراني التي وضعت بعد هذا العهد بكثير ، جاءت وليدة عوامل ومؤثرات اخرى .

اما الخزفيات التي استعملت على نطاق واسع في جميع انحاء العالم الاسلامي، ولا سيما في مصر وايران ، فأمدّتنا بصحائف وصوان واطباق ترفل بمشاهد متنوعة ، وبعضها عطل من كل حلية، وان وجدت فغاية في البساطة . وقد عرفت بيزنطية هذه الصناعة ، انما على نطاق ضيق . الا انها اشتهرت على الاكثر بصناعة الزجاج ، فلم يبق من مصنوعاتها سوى عدد قليل يحفظ معظمه بين مجموعة كنيسة القديس مرقس الفنية ، في البندقية ؛ وهي صناعة تمثلت على احسن وجه ، في العالم الاسلامي، سواء في سامراء وفي الغرب وفي مصر، حيث اضيفت اليها صناعة البلوريات، وقد عرف الصناع ان يتفننوا كثيراً بمصنوعاتهم ، فلونوها واستعملوا الزجاج مع المعادن . وقد عرفوا كذلك صناعة النوافذ الزجاجية الملونة وان لم يبلغوا فيهـا مبلغ الصناع المسيحيين في الغرب .

وقد اشتهر الشرق الادنى بصنع الانسجة الفاخرة التي استعملت في الملابس كما استعملت لأمور الزركشة والتحلية . وقد اطنب الادباء وصفاً بصناعة الديباج والخز ، كما تفنن الصناع في استعمال هذه النسائج في اعمال الزينة، وهي مصنوعات عرفت في بيزنطية قبل الاسلام، وقامت لها دور ملكية في بيزنطية ، كما عرفت بغداد والقاهرة وقرطبة دور طراز ، اخرجت لثراة القوم واعيانهم ، منسوجات حريرية مقصّبة نسجت بأسلاك الفضة والذهب ، لا يزال باقياً منها للآن نماذج رائعة في بعض الكنائس القديمة في الغرب . اما فن صناعة السجاد الذي اشتهر بها الشرق منذ عهد بعيد ، فلم يصلنا شيء مما تم صنعه قبل اواخر الاجيال الوسطى . كذلك عرفت صناعة الجلود فناً عظيماً جوّده الصناع المسلمون وأتقنوه للغاية . فالكلمة الفرنسية *Cordonnier* (اسكافي) اشتقت من اسم مدينة *Cordoue* التي اشتهرت بهذه الصناعة . كما ان صناعة الجلود الثمينة جاءت هي الاخرى من كلمة *Maroc* المغرب الذي جوّد هذه الصناعة .

اما البلدان السلافية التي كانت حضارتها على مستوى أدنى ، فلم تعرف اذ ذاك ، فناً خاصاً بها . صحيح ان الاصنام الخشبية التي وُجدت عند صقالبة الغرب ، لفتت اذ ذاك، انظار الرحالة والمسافرين ، كما ان مخلفات قصور الامراء البلغار هي أكبر شاهد ، على انتقال التقاليد الساسانية عبر العراق الصحراوية . كل ذلك ، مخلفات حقيرة ليس لها شأن يذكر ، فليس من عجب ان تعرض عنها العالم المسيحي ويزهد فيها . وقد كان من نصيب الفنانين البيزنطيين ان يحملوا الى الصقالبة فناً متكاملاً ، لم يلبث ابناء البلاد ان اقبلوا عليه يتمثلونه ، ويقبسون منه ما شاء لهم

القبس ، بعد ان تتلمذوا عليه .

وهكذا نرى ان الازمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي هزت الشرق الادنى من اركانه ، كانت اعجز من ان تسبب ، في الحال، انهيار المدنية. إلا انها مهدت الطريق وأفسحت المجال امام عوامل وقوى جديدة، لم تلبث ان اثرت تأثيراً عميقاً في هذه المدنية ، وهددتها بخطر ماحق نزل بها في القرن الحادي عشر .

obeikandl.com

الفصل السابع

الحضارات الآسيويّة في الأوج
(من القرن السابع حتى الثاني عشر)

في القرون الاولى من تاريخ الاجيال الوسطى التي شهدت في الغرب ، انطواء العالم المسيحي كما شهدت ، في الشرق الادنى ، ظهور الاسلام وانطلاقه كالشهاب الراصد ، عرفت البلاد الآسيوية ، من جهتها ، درجة رفيعة من الازدهار سجلت معها مدنياتها المختلفة رقياً قياسياً في جميع هذه البلدان . ففي مطلع هذه الحقبة ، أي في غرة القرن السابع ، كانت الامبراطورية الساسانية على قاب قوسين وادنى من انهيارها وزوالها . أما الهند ، فلم تلبث ان نهضت من كبوتها ، بعد ان نفضت عنها غبار الدمار والخراب الذي انزلته بها الغزوات الماحقة التي قامت بها قبائل الهونز ، وراحت اسرة هارشه ده كانوج تسعى ، على مثال اسرة الغوبتا ، لتعيد اليها وحدتها . أما الصين ، فبعد ان تغلبت على غزاتها من الاتراك والمغول بفضل السياسة الرشيدة التي اتبعتها سلالة تانغ الجديدة ، راحت تبسط سيطرتها وسلطانها على التركستان والتونكين ، وشمالي مقاطعة الانّام ، بينما ربطت الاقطار الاخرى الواقعة على سواحل البحار الجنوبية مسافرها بالهند ، فاخذت تتطور وتتكامل تحت حمايتها ورعايتها ، فتمهد بذلك لهذا الازدهار الذي تميز بهذه الروائع الهندسية الفخمة التي تتمثل على احسن وجه في هياكل انكور وبارا بودور ، كما راحت أقطار جديدة تعبّ ، بملء رئتيها ، من الحضارات الآسيوية . فها هي التيبت التي اعتنقت البوذية ، لن تلبث ان اصبحت ، على شاكلة الترك ، خصماً عنيداً للصين ، وملاذاً للبوذية الهندية ، وحمىً لها توفر لها الرعاية والحماية . أما اليابان فقد اخذت ، هي الاخرى ، تستيقظ من سباتها العميق ، وتقتبس بدورها من مقومات الحضارة الصينية ، ولم تعتم ان كشفت عما هي عليه من الصفات والمناقب التي ان تلبث ان ميزتها وفرّدتها . وحركة التطور والتكامل التي اخذت الاقطار الآسيوية باسبابها ، وجدت جذوتها الكبرى في الهند والصين . فكلاهما استطاع ان يحافظ على مناطق نفوذه التقليدية التي عرف ان يسيطر عليها : الصين في التركستان والتونكين ، والهند في المناطق الهند الصينية واندونيسيا ، كما استطاع كل منهما ان يحتفظ بمناهجه وأساليبه الخاصة ، اذ في الوقت الذي كانت فيه الصين تعتمد على القسوة والبطش في

سياستها وتعمل على توطيد النظم الادارية التي اتقنتها ، واحتفظت الهند ، مع البلدان الدائرة في فلكها ، باحسن العلاقات واطيبها في المجالات التجارية والدينية والثقافية .

عند هذا القدر نقف في هذه الموازنة ، وهـــذه الايزائية التاريخية التي تقابل التطور الذي اخذت الاقطار الغربية باسبابه والمدنية التي اطلعتها . فلا نرى في آسيا حول هـــذه العطفة التاريخية التي تكونت من سنة الالف ، شيئاً يمكن مقارنته بهذه النقطة ، هـــذا الانبعاث الذي دب في الغرب الآخذ باسباب النظام الاقطاعي ، كما لا نرى شيئاً يمكن ان نقارن به هذا الانقلاب الجـــذري الذي قلب الشرق الادنى ، رأساً على عقب . صحيح ان الامبراطوريات الاسيوية الكبرى ليست بمعزل او بمنأى عن اي تغيير او تبديل ، ولا مؤسساتها ونظمها متحجرة بحيث لا تقبل التبدل . فهنالك اخطار كثيرة تترصدها ، يتحتم علينا تحديدها وتبدل باستمرار من حدودها واوضاعها ، قبل ان تحمل اليها الخراب . ومع ذلك فقد استطاعت ان تحافظ على مقوماتها الاساسية مدة اطول وان تصونها من عبث العابثين . فليس من فجوات عميقة يلحظها المؤرخ في تاريخ هذه الامبراطوريات ، قبل طلوع الفتح المغولي الذي اخذت بوادره ترتسم منذ فجر القرن الثالث عشر ، فبعد ان عبثنا قليلاً بالترتيب الزمني الذي نحاول ان نرسم ضمنه التطور المتوازي لهذه المدنيات البشرية الكبرى ، علينا ان نكشف ، في هـــذا الفصل ، عن الخصائص المميزة لهذا العالم الاسلامي كما تبدت لنا من خلال تطوره التاريخي حتى السنوات الاخيرة من القرن الثاني عشر او ابعد من ذلك بقليل .

هي نظرة خاطفة ، جريئة نلقيها على تاريخ هذه القارة الشاسعة ، خلال حقبة من الدهر على مثل هذا الاتساع ، والمدى الذي نيّف على خمسمائة سنة . هنالك امران يساعداننا في الكشف عن الطابع المميز لوحدة التاريخ هنا ، بالرغم من تلـــك الاحداث الكثيرة كما يساعداننا على التسامي فوقها ، همـــا : انتشار البوذية وتوسعها ، في بدء هذه الحقبة ، والنشاط البالغ الذي عرفته الحركة التجارية ، طوال هذه الحقبة بالذات .

انتشار البوذية

في هذا العالم الاسيوي ، كما يبدو لنا في القرن السابع ، الذي ينعم بالاستقرار الموقت وبالازدهار ، كما يظهر ، تلعب البوذية ، دوراً اساسياً . فالبوذية ، تنعم في الهند رسمياً برعاية الامبراطور هارشا ، والمناطق التي تسيطر عليها كجزيرة سيلان ووادي نهر الغانج ، هي اراض مقدسة . وقـــد بلغت البلدان الواقعة على سواحل البحار الجنوبية وتغلغلت بين شعوبها ، واقامت لها في التركستان نفسه ، نقطة ارتكاز قوية ، أشعّت منهـــا بعيداً . وقد اغدقت عليهـــا اسرة تانغ ، الصينية ، الانعامات السابغة ، وساعدتها على ايفاد كتائب من المرسلين والمبشرين والحجاج ، الى الهند والبلدان الواقعة الى الشرق من القـــارة الاسيوية ، وبلغت التيبت التي كانت بقيت ، الى ذلك الحين ، مغلقة في وجه المؤثرات الاجنبية ، كما دخلت اخيراً كوريا واليابان ، حيث استقرت ، وازدهرت بفضل ما عُرفت به من روح

مسكونية ، اذ كانت عنصراً ضاماً ولحمة ربطت بين اشتات المدنيات التي لفحتها وتغلغلت بين ثناياها . فاينا حلت ونزلت ، ساعدت على بعث مذاهب ونزعات فنية حملت معهــا ليس تيار المؤثرات المختلفة التي عملت على نشرها فحسب ، بل ايضاً العبقرية التي ميزت كل قطر من هذه الاقطاره بمفرده .

قام خلال القرن السابع سلسلة متصلة الحلقات من قوافل الحجاج الصينيين بغية زيارة الهند والمراكز البوذية المشهورة في الانسولاند والتركستان ، يبحثون جادين في اثر الوثائق والاسانيد التي كانوا بحاجة اليها ، ويحرصون على جمعها وحفظها . وقامت ركبان اخرى ، في القرون اللاحقة ، تؤم اليابان التي ارسلت بدورها العديد من الوفود الدينية الى الصين. وقد علق البلاط الامبراطوري في الصين ، اهمية كبرى ، على تبادل هذه الرحلات وتنظيم هــذه الاسفار ، بين الجانبين ، اذ كثيراً ما اردف الوفود التي كان يرسلها ، بكاهن له شخصية لامعة ، كثيراً ما عهد اليه بمهمات دبلوماسية ، وكان هــذا الكاهن موضوع احترام كبير ، كما تم للراهب بي تسنغ ، الذي استقبلته عند رجوعه ، الامبراطورة نفسها ، عندما بلغ البوابة الرئيسية من جهة الشرق، على قرع الطبول والزمور وتصداح الموسيقى ، على رأس وفود من الرهبان جاؤوا من كل اديار البوذية ومعابدهم في العاصمة ، حاملين الاعلام والمظلات ، سائرين على انغام الاجواق الموسيقية والتراتيل الدينية . ان عدداً كبيراً من هؤلاء الحجاج لم يعودوا قط لبلادهم ، إما لانهم استقروا نهائياً في البلاد التي هبطوا فيهــا ، او لانهم قضوا نحبهم في طريق عودتهم ، لما تعرضوا له من الاخطار الكثيرة التي هددت حياتهم : من بحار هائجة تمخر عبابها سفن تجارية سريعة العطب ، او من وقوعهم في ايدي القراصنة الذين كانوا يعبثون بطرق المواصــلات البحرية والبرية على السواء ، او من وقوعهم اسرى بين ايدي اللصوص وقطاع الطرق الذين كثيراً ما جردوهم من امتعتهم وملابسهم او قتلوهم،او المخاطر التي كانوا يصادفونها في الاحوال الجوية والمصاعب البرية كالرمال المائمة التي كان يغوص فيها سالكها ، وغير ذلك من جهد وضنك وعناء عندمــا يحاولون قطع هذه الطرق والمسافات الشاسعة التي تباعد بينها .

نشاط الحركة التجارية

ففي الوقت الذي راحت فيه قوافل الحجاج والوفود الدينية تهزأ بهذه المخاطر العديدة التي تعترض طريقهم ، نشطت نشاطاً كبيراً الحركة التجارية التي قامت بين البلدان الواقعة على سواحل بحار الجنوب وبين الاقطار الاخرى في آسيا. فالسفن الصينية الكبيرة التي كان باستطاعتها ان تشحن من ٥٠ ـ ٦٠ طناً ، كانت تمتار من جزر السوند وتستبضع ما طاب لها من مواد ، بينا كانت سفن العرب تقلع باسيخ ـ تشيو ، في الوقت الذي كانت فيه سفن جزيرة جافا المصنوعة من الخيزران ، تتجه غرباً ملاقاة التجار المسلمين . صحيح ان الاخطار الناجمة عن هذه الملاحة التجارية التي عرفت ان تعتمد على الرياح الموسميـــة كانت كبيرة لكثرة حوادث الغرق التي طالمــا ادت اليها ، ولهجوم القراصنة عليها ، او التحول

عن خط السير في الطريق المرسوم لتفادي هيجان البحر ، او بيع البضاعة بسعر بخس جداً عند حراجة الموقف ، مع ان الناس في المرافىء والاسكلة البحرية ، ينتظرون وصولها بفارغ الصبر، كما ان مستودعات التخزين في المرافىء ، كانت عرضة للحرائق ، عدا عن رسوم الدخولية والباج المترتبة على التجار ، مع العلم ان الصينيين كانوا يدفعون ابهظ الرسوم وأثقلها، اذ ان وسق سفنهم كان يبز الجميع . ومع ذلـــك ، فحركة المقايضات التجارية هـــذه التي وصفها لنا الرحالة العرب بكثير من التفصيل والاسهاب ، كانت تقوم على قواعد راسخة ، ثابتة ، كما نعمت بالازدهار .

وقد بلغت الحركة التجارية هـــذه مدينة كنتون ، وهاي ـ تشيو على مصب نهر هواي ، ومدينة يانغ ـ تشيو على مصب نهر اليانغ تسيو ، كما بلغت مقاطعة فو ـ كيان . والقناة الكبرى التي تم فتحها بأمر الامبراطور يانغ ـ تي ، والـتي جرى توسيعها فيما بعد بأمر من الامبراطور سواي (٦٠٥ ـ ٦١٧) ، سهّلت وصول الملاحة البحرية والنهرية الى داخل البلاد . وعند بلوغ التجار مرفأ يانغ ـ تشيو ، وهو مرفأ دولي نشيط الحركة ومزدهر التجارة، كان وكلاء الامبراطور يتسلمون البضائع، ويحتفظون بها في العنابر الحكومية لمدة ستة اشهر. وكان البائع يدفع للشاري مبلغاً من المال تأكيداً منه وضماناً لجودة بضاعته ، بينما يأخـذ الاخير على عاتقه بعض الاخطار التي قد تتعرض لها البضاعة . وفي نهاية الرياح الموسمية عندما يكون البائـــع على أهبة مغادرة المرفأ، تصبح الصفقة التجارية قطعية، اذ يعمد وكلاء الامبراطور الى قبض ثلاثة اعشار البضاعة، ويسلمون الباقي للشاري . اما اذا كان الامبراطور هو نفسه الشاري ، فيدفع نقداً ضعفي الرسم المفروض ، لا سيما اذا كانت البضاعة كافوراً. وكان الاجانب الذين يتجولون داخل الصين ينعمون ببعض الحماية . كذلك كان عليهم ان يبرزوا جواز سفرهم والترخيص المسبق لهم ولتجارتهم ، والتصريح عن المبالغ التي يحملونها . وكانت هذه الرخص تبرز في كل مركز لجباية الرسوم التي تمر بها البضاعة .

وفي الواقع ، فقد ألفت الصين، خلال اجيال سحيقة ، ولا سيما من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر ، سوقاً ممتازة لتجار الخليج الفارسي ، وللتجار المسلمين القادمين من بغداد ، اذ كانت الأسعار مقبولة ، وتدع مجالاً لتحقيق ارباح طائلة عند طرفي المحيط الهندي . وهكذا نشطت حركة تجارية عارمة بين العراق والصين ، على طول المراحل والمحطات العديدة التي تمركزت في قواعد : كيداح (شبه جزيرة الملايو) وامبراطورية الخمير ، وصومطرة ، وجافا ، بالرغم من تباين العملات التي كانت الصفقات التجارية تتم على اساسها ، سواء أكانت نقداً ذهباً ، ام فضة ، في الهند ، او نقداً من الفضة ، وسبائك النحاس ، في الصين او عبـــارة عن مقايضات عينية في بحار الجنوب . والوزن المعمول به في الصين وبلاد الخمير وفي غيرها من البلدان ، كان القبّان المعروف بالقبـــان « الروماني » ، انما بموازين صينية . والنشاط الذي عرفته حركة المقايضات التجارية ، كان تعبيراً عن ازدياد مطالب العالم الآسيوي بأسره وحاجاته المتنوعة ، ولم تكن حاجات الهياكل والاديار دونها جميعاً فلنبين عن كثب ، لائحة الاصناف المستهلكة يومياً في

هيكل تا ـ بروم ، احد الاديار المهمة في كمبوديا ، في القرن الثاني عشر ، وهي : ٧ أطنان من الارز غير المقشور ، و ٦٤ كيلو غراماً من السمسم ، و ٤٨ كيلو من الفاصوليا ، و ٢٠ كيلو من القمح الاسود ، و ٣ كيلو من سكر القصب ، و ٥ ليترات من الزيت ، و ١٢٠٠ غرام من الزبدة المذوبة . والتبرعات الملكية التي يجود بها الملك ، كل سنة ، لم تكن تقل شأناً عن هذه الكميات ، وهي ٢٦٧٩ طناً من الارز غير المقشور ، و ٤٠ طناً من الرصاص ، و ٥٢٦٤ كيلو غراماً من المصنوعات الذهبية ، و ٣٨٦٠ كيلو غراماً من المصنوعات الفضية ، وبضع مئات من الكيلوات من النحاس الاحمر والنحاس الاصفر والقصدير ، و ٣٥ الماسة ، و ٤٠٦٢٠ لؤلؤة ، و ٤٥٢٠ حجراً كريماً ، و ٥٢٣ مظلة ، و ٩٦٧ قلوعاً صينياً ، و ٥١٢ سريراً من الحرير ، و ٢٣٨٧ بدلة معدة لأكسية التماثيل والاصنام .

وفي الدرجة الاولى بين المواد التي كانوا يتجرون بها ، تأتي المعادن على انواعها . الذهب الذي كان يؤتى به من مناجم صومطرة وكوريا ؛ والفضة من مناجم شبه جزيرة الملايو ، بالاضافة لما كانوا يسمونه «الرصاص الابيض» او الزئبق الذي كانت الصين بحاجة اليه لتأمين مطلب علمائها ، والنحاس الذي لم يكن بد منه لسك النقد ، والحديد الذي اشتد طلب اندونيسيا عليه بعد ان كانوا يقايضون به جوز الهند ، والنفط اللازم للسفن الصينية . ويأتي بعد ذلك ، الأخشاب الثمينة كالبقم (*Campêche*) الذي كان اكبر انتاج شبه جزيرة الملايو ، والصندال الذي كانت الهند وبلاد الخمير تلتجانه بكثرة ، والخيزران ، والكافور لمنافعه العديدة ، اذ كان يستخرج منه زيت الكافور ، ذات القيمة العالية لدى التجار العرب والصينيين ولا سيما امبراطورهم على السواء ، وخشب التيك في الهند وكمبوديا وأخيراً الابنوس . والعطور والطيوب على أصنافها العديدة ، منها : المقر او الصبر الذي كان ينبت اصلاً في مقاطعة أسّام والتي كانت اجود اصنافه تأتي ، مع ذلك ، من مقاطعة تشمبا وبلاد الخمير ، والبخور الذي كانت الصين تستورده ، والمسك الذي كان عبارة عن فوح يعطيه بعض الماعز البري الذي كانوا يصطادونه في الصين وفي التيبت بعد رميه بالنبال او نصب الشباك . وأفخره على الاطلاق عند سكان الخليج الفارسي ، النوع الذي كان يؤتى به من التيبت ، عن طريق القوافل البرية ، بينما المسك الصيني والاخر الذي يؤتى به من جزيرة صومطرة ، كان سريع الفساد والتلف عندما يتعرض لرطوبة البحر . ولذا كانوا يعمدون لصرّه في نوافج ويضعونه في أوعية مقفلة اقفالاً هرمسياً . وهذا النوع من المسك كان يؤخذ من بعض الجرذان المسكي . وتجارة التوابل والافاويه التي اشتهرت بها الهند وبلدان جنوبي آسيا الشرقية : كالفلفل على أنواعه ، وجوز الطيب ، وكبش القرنفل الذي كان يؤتى به من مقاطعة كيداح ، وحب الهال الذي كان يطلع في بلاد الخمير ، والكبابة او حب العروس ، والصعفران الذي كان يُصدّر من الهند وكمبوديا ، والقرفة ، يجب الا تنسينا تجارة بعض المواد الطحينية الغذائية كجوز الهند الذي يستخرج منه الزيت ، وزيت الورون المستورد من الصين ، وسكر القصب والارز وغير ذلك من الحبوب . وبين المواد الثمينة الاخرى يجب ان نذكر العاج الذي كان

يؤتى به من الهند ومقاطعة كيداح وبلاد الخمير ، والعنبر او الند الذي يؤتى بـــه من الصين ، وحراشف السلاحف البحرية يؤتى بها من البلاد الواقعة على سواحل بحار الجنوب، وقرن وحيد القرن من جافا وكمبوديا، وغير ذلك من المواد الثمينة التي كانت تدر على التجار العرب والمسلمين مكاسب طائلة ، اذ زبائنهم من الصينيين كان يهمهم اقتناء سيور يتمنطقون بها ، مرصعة بالحجارة المذهبة او المفضضة وبغير ذلـــك من الحجارة الكريمة ، والياقوت الاحمر ، والماس واللآلىء ، والعقيق التي كانت تصدر من الهند وسيلان وغيرهما من بلدان آسيا الجنوبية الى الصين. والى تجارة المواد الصبغية او الكيماوية المعدة للصباغة ، كالزنجفر الذي تصدره الصين ، والكبريت وملح البارود ، وشلش السوسن ، والسنباذج المستعمل في صقل المعادن ، وشمع العسل المستورد مـن بلاد الخمير ، يجب ان نضيف الانسجة الثمينة والفراء : كالانسجة النباتية ، والحمل ، والجوخ والموسلين القطني، والديباج المزركش بالحرير وأسلاك الذهب . وكلها مواد كانت تصنع في الهند وتصدّر الى الصين، مع غير ذلك من الحصر وقماش القنّب. وكانت الصين تصدّر الفراء المصنوع من جلد السمّور مع ان البلاد كانت تستهلك منه مقادير كبيرة تستعمل كبطائن لمعاطف الشتاء عند الاغنياء ، حتى ان بعض الحيوانات كانت تصدر للخارج كالببغاء مثلاً ، يرسلون بـــه من المحيط الهندي الى الخليج الفارسي ، وكلاب الصيد ، تصدّر من المقاطعات الشمالية الغربيـــة في الهند ، الى العراق ، بينما كانت الصين تستورد : الماعز والجاموس والثيران . وبالاضافة الى هذه الاصناف والسلع، هنالك مصنوعات اخرى كانت تصنع في الصين وتنفّق في الاسواق الخارجية، منها القيشانيات الصينية التي كان يراعى في صنعها اذواق الزُبُن في الخارج ، وأطباق من اللك والنحاس والورق وأمشاط مصنوعة من الخشب، ومظلات، وقدور حديدية، وغرابيل ومناخل وابر ، وبرادع الاحصنة وأحسن أنواع الخفوف وأجملها على الاطلاق تلـك التي كانت تصنع في مقاطعة كمباي ، في الهند . وكمبوديا التي كانت تصدر ريش الرفراف او الورّور ، كانت طريقاً لمرور المرايا الزجاجية الزرقاء التي هام الصينيون باقتنائها وكانت تصنع في بلدان الشرق الادنى.

وقد درت هذه التجارة الناشطة على البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من القارة الأسيوية ربحاً وافراً ، يتوافد اليها الهنود والصينيون لجمع في مايرغبون في جمعه من الذهب والافاوية لكثرتها ، كما ان عدداً كبيراً من بينهم كان يقصد هذه البلدان ويقيم فيها تفاديـــاً للقلاقل والاضطرابات والثورات التي كثيراً ما كانوا عرضة لها . وقد عاد ذلك على هذه البلدان بالغنى الوافر ، كما ان الاهلين عرفوا ان يفيدوا من هذه الاتصالات المثمرة ، بحضارات الهنـــد والصين معـــاً .

الاخطار الخارجية

وهذا العالم المزدهر على احسن وجه ، والذي كان مسرحاً للحجاج البوذيين في القرن السابع يسرحون فيه ويمرحون ، ومرتعاً لرحالتهم امثال : هوان ـ تسانغ (٦٣٠ ـ ٦٤٥) ويي ـ تسنغ (٦٧٥ ـ ٦٨٥) لم يكن ليدور في خلد

انسان ، ولم يخطر على بال احد من السكان ، اذ ذاك ، انه على قاب قوسين من الاخطار الخارجية تهدده بأسوأ مصير ، تتتابع الواحد بعد الآخر ، على فترات متلاحقة ، وجرت عليه الخراب والبوار . هنالك حادثان ثقيلان رزح تحتها تاريخ هذه البلاد : إطلالة الغزاة العرب على أبواب آسيا الشرقية ، وبروز الغزاة المغول ، في الشمال .

ومنذ اوائل القرن الثامن ، اخذت جحافل الغزاة المسلمين تقرع ابواب الهند وتدق مداخلها من الغرب ، بدافع من الجهاد المقدس فيحتلون تدريجياً المواقع الستراتيجية التي كانت تتحكم بالحركة التجارية مع الهند والصين ، ويدوخون الولايات الشمالية الغربية كافغانستان وتركستان وقد زرعت هذه الفتوحات معها الدمار والخراب بما لم نر له مثيلاً منذ عهد الهونز ، فحطموا كل شيء . وقد شهدت البوذية ، اذ ذاك ، تراجعاً قوياً وانكفاء بعد ما لقيت من منافسة الديانة الهندوكية التي كانت آنذاك ، في ابان ازدهارها ، واخذت تتراجع امام الغزاة العرب يوغلون بعيداً حتى بلغوا المنطقة المقدسة في حوض نهر الغانج . وعندما قضي تماماً على آخر ملوك الدولة البوذية في الهند من أسرة بالا - سينا ، كانت البوذية تلفظ في الهند آخر انفاسها ، مع انها البلد الذي اطلع البوذية وشهدها تترعرع وتنمو وتنتشر . وقد عرفت الهند قبل ذلك بقليل ، كياناً مضطرباً : فبعد الوحدة التي حققها الملك هارشاده كانوج ، في النصف الاول من القرن السابع ، عرفت البلاد عهداً من التفسخ السياسي ، اذ راحت الدول الكبرى فيها تتطاحن فيما بينها في سبيل تحقيق السيطرة التامة ، الامر الذي ادى الى حروب واشتباكات متصلة ، كما ادّى ، من جهة اخرى ، الى تشتيت القوى وهدر الجهود ، وانهاك المناطق الاكثر عرضة للخطر . والهند الجنوبية التي كانت بمنأى عن هذه الغزوات لبعدها ، قامت دويلاتها تتناحر فيما بينها وتتقاتل تحزباً منها مع هذه او تلك من الممالك الكبرى . ومع ذلك ، فقد عرفت البلاد عهداً من الازدهار رعى فيها جانب الفنون والآداب . كما استطاع هذا القسم من الهند ان يحافظ على علائقه مع البلدان الواقعة على شواطىء بحار الجنوب ، وبذلك امكن المحافظة على معالم الحضارة الهندية فيها .

اما الخطر الثاني الذي كُتِبَ له ان يبدّل ويغيّر كثيراً ، من معالم آسيا الشرقية ، فقد بدت بوادره تبرز بوضوح ، منذ القرن الثامن . فمنذ عام ٧٤٤ ، اخذ الترك من العرق ويغور ، يلشؤون لهم امبراطورية ، خلفها بعد ذلك بنحو قرن ، امبراطورية اسسها الترك من العرق كيرغز ، فكان ذلك تمهيداً من بعيد ، لهذه الامبراطورية الضخمة ، المترامية الاطراف التي اقامها المغول فيها بعد . صحيح ان الخطر ، من هذه الجهة ، كان لا يزال بعيداً ، اذ عملية توحيد الاقوام البدوية الرحل الذين كانوا خطراً على الصين من الشمال والغرب ، لم تكن اكتملت بعد ، ولن تتم وتكتمل بكل ما كان لها من نتائج الا في سنة ١٢٠٦ ، اي عندما ظهر جنكز خان .

فانحلال الامبراطورية الساسانية ، وانقسام الهند وتفسخها على بعضها ، والضعف الذي اصاب ملوك تانغ ، والفتوحات التي قامت بها سلالة سونغ ، ثم انكفاؤهم السريع في الصين

الجنوبية ، واخيراً الاضطراب والقلق الذي احدثه المغول ، كل هذه الاحداث الجسام وما اليها هي من معالم هذه الحقبة التاريخية التي امتدت خمسة اجيال بكاملها ، مع ما جرت وراءها من بؤس وشقاء ، وقتل ونهب وسلب ، مما تحمله الغزوات في مطاويهـــا . ومع ذلك ، لا بد من التنويه عالياً هنا ، ان الثقافة البوذية بقيت آخذة في الاتساع والتغلغل طوال هـذه الاجيال ، فانشأت في الهند طرازاً فنياً جديداً هو مـــا يعرف بطراز بالاسينا ، وبطراز تانغ في الصين ، وطراز مدرسة نارا في اليابان ، والطراز الهندي الجاوي الذي سيطر في اواسط جافا ، دون ان تهمـــل الانتاج الفني الذي ازدهر في تشامبا في القرن التاسع ، وفي امبراطورية الخمير ، وفي مملكة الشاي التي قامت في السيام ابتداءً من القرن الحادي عشر . وهذه الثقافة الهندية لم تكن لتقل ازدهاراً في الممالك الاخرى التي قامت في الدكن ، كمملكة آل بلافا ، وآل غالوكيا ، وآل تشولا ، وآل باندايا التي اعطتنا مباني هندسية لم يكن لها مثيل في جمالها . ولذا كان لا بد من استعراض نتائج هذا الازدهار الفني ، بلداً بعد بلد .

مصائب الهند وويلاتها

تُبْرِز المعلومات التي يمدنا بهـا الحجاج الصينيون عن الهند ، في القرن السابع ، استمرار التقاليد الهندية وديمومتهـــا ، وتنوع العادات التي سار عليها القوم ، اذ ذاك ، وهـــذا البذخ والجود الذي تحلى عند حكام البلاد وملوكها . فهي تصف لنا بدقة متناهية نظام الطبقات المعمول به في طول البلاد وعرضها ، والفروق التي باعدت بينها ؛ كالبراهمان الذين جعلوا قاعدتهم المثلى في الحياة الطهارة الى اقصى حدودهـــا ، والنبلاء *Kshatrya* « الذين كانوا من السلالات الملكية » ، والتجار *Vaigia* والمزارعون والفلاحون *Cudria* ، واخيراً طبقة المنبوذين وهم اهل الطبقة الدنيا *Paria* كالجزارين والصيادين والجلادين ، الذين اجبروا على الاقامة والسكنى ، خارج المدن . فاذا ما خرجوا من بيوتهم وتنقلوا ، ساروا وحدهم منزوين ، ولزموا اليسار من جانب الطريق او الجادة .

فالملك او الامبراطور له الدور الاول . فهو يعطي المَثَل في كل شيء كما يختصر في شخصه جميع الفضائل التي يمثلها المحاربون *Ksha Triya* . فالامبراطور هارشا هو صورتها الاتم ، ومثلها الاعلى في نظر الحجاج الصينيين ، وهو المدافع المخلص ، والحـــامي الغيور للبوذية ، ينهج نهج الغوبتا في البذخ والابهة . فقـــد فاز على الاخص ، باعجاب هيوان ـ تسانغ ، الذي نزل عليه ضيفاً بضعة اسابيع ، فوصفه : بانه من اثقف رجال عصره ، واعلاهم كعباً ، فحرص على ان يجعل من بلاطه ملتقى رجال الفكر والادب ، من شاكلة : مايورا ، وبانا ، وضع عدداً من القصائد المستطابة والتمثيليات الحية . وكان الى جانب هذا رجل حرب ، كما دلل على ذلك بمناسبات عديدة ، وكان رجل دولة ، كما برز خلال الحروب والمفاوضات السياسية التي ساعدته على توحيد شمالي الهند . فاذا لم يلتزم دوماً جانب الحياد في الامور الدينية ، فقد نحا مع ذلك ، نحو كبار ملوك الهند ومشاهير عظمائهم ، اذ كان متسامحاً ، سموحاً مع الديانات الهندية الاخرى ، وسار بعيداً في هذا الطريق بحيث افضى الى مذهب توحيد الاديان .

وباعتباره الوريث الادبي لملوك الغوبتا ، فقد نهض الملك هارشا بالمدنية التي خلفوها ، ورفع عالياً مشعل الازدهـــار الذي حققوه للهند حتى القرن السابع . اما عاصمة ملكه كانيا كوبجا او *Kanan* وهو الاسم الذي تحمله اليوم ، فكانت موضوع اعجاب هيوان ـ تسانغ ، اذ جاءت شبيهة تمام الشبه بعواصم اسلافه :

« كانت على مقربة من نهر الغانج ، يحيط بها سور عال وخندقٌ ماء عميق . يرتفع فيها الى عنان السماء العديد من الابراج الشاهقة ، وتقوم فيهـــا الحدائق الغناء والرياض الفيحاء ، والبرك المائية والاحواض البديعة كأنها صفحة مرآة . اما اسواقها ، فتغص بالبضائع الاجنبية من كل لون وجنس . يرتع سكانها بالهناء والغنى كما ترفل أسرهـــا بالرفاء . اينما اجلت النظر ، وقعت منك العين على معارض من الزهور والرياحين والفاكهة اللذيذة . وفيها نحو من مائة دير يضم مجموعها اكثر من ١٠٠٠٠٠ راهب ، وفيها نحو من ٢٠٠ معبد لمختلف آلهة الهند ، كما يقوم فيها بضعة آلاف من الخوارج على البوذية » .

وهذا الوصف يمكن اطلاقه ايضاً على المدن والقرى والدساكر في الارياف ، اذ كلها ترفل بنعمة الرفاء والثراء ، كما نجد فيها كثافة السكان . وهـــذا الغنى قوامه الاقتصاد الزراعي ، مع العلم ان التجارة كانت ناشطة للغاية ، كما ان المقايضات التجارية كانت على اشدها مع البحـــار الجنوبية .

ويفيض الحجاج الصينيون وصفاً وتعريفاً بامور الدين واوضاعه اذ ذاك . فبعد ان شالت الديانة الهندوكية وراجت ، اصبحت كل المراكز البارزة التي سيطر عليها البوذيون من قبـــل محوطة بمدن ومعابد هندوكية ، فمدينة بيناريس ، احدى المـــدن المقدسة عند الهندوكيين ، كانت تضم نحواً من ٣٠ ديراً للبوذيين ، و١٠٠ هيكل للبراهمانية ، لم تفقـــد لليوم شيئاً من ابهتها وفخامتها :

« ترتفع فوقها ابراج من عدة ادوار او طبقات ، ومعابد لها جمال فتان ، صنعت من الحجر المنحوت والخشب بشتى الالوان . وكلها يقع في رياض غضيضة ، كثيفة الظل ، يترقرق فيها الماء السلسبيل » .

وقد أثار اتباع سيفا اعجاب الحجاج الصينيين ودهشتهم :

« اذ ان بعضهم كان حليق الشعر ، بينما احتفظ البعض الآخر بفدائر متدليـة فوق أكتافهم ، وهم عرايا الاجسام تماماً ، لا يستترون عريهم بشيء (فرقة الـ *Jaina*) والبعض الآخر يأخذ بفرك اجسامهم بالرماد ويخضعون نفوسهم لأصعب العذابات وأشدها ، فتصبح جسومهم دكناء كالحة . وبينهم من اعتمر ريش الطاووس كما ان بينهم من يغطون اجسامهم ببعض الاعشاب المضفورة ... وهنالك فريق قلعوا شعورهم ، واحفوا شواربهم ، وبينهم من ارخى سوالفهم وأعقصوا شعورهم فوق رؤوسهم » .

اما المباني البوذية والجماعات التي تختلف اليها ، فشيء آخر تماماً . فالمدينة الرهبانية : نالاندا التي كانت ، اذ ذاك ، في اوج عزها ومجدها ـ هذه المدينة التي خربها المسلمون ابان القرن الثالث عشر وجعلوها قفراً يباباً ـ كانت تضم نحواً من عشرة أديار تكون معاً وحدة ، يحيط بها سور من القرميد ، له من جهـــة الغرب ، رتاج ضخم . وكان الدير عبارة عن قاعة او بهو مسقوف ،

مربع الشكل تقريباً . اما المباني فكانت هي الاخرى ، تصنع من القرميد ، وتتألف الواحدة من ثلاثة او اربعة ادوار، تضم مساكن الرهبان ، وقاعات للاجتماعات العامة ، واخرى للصلاة،

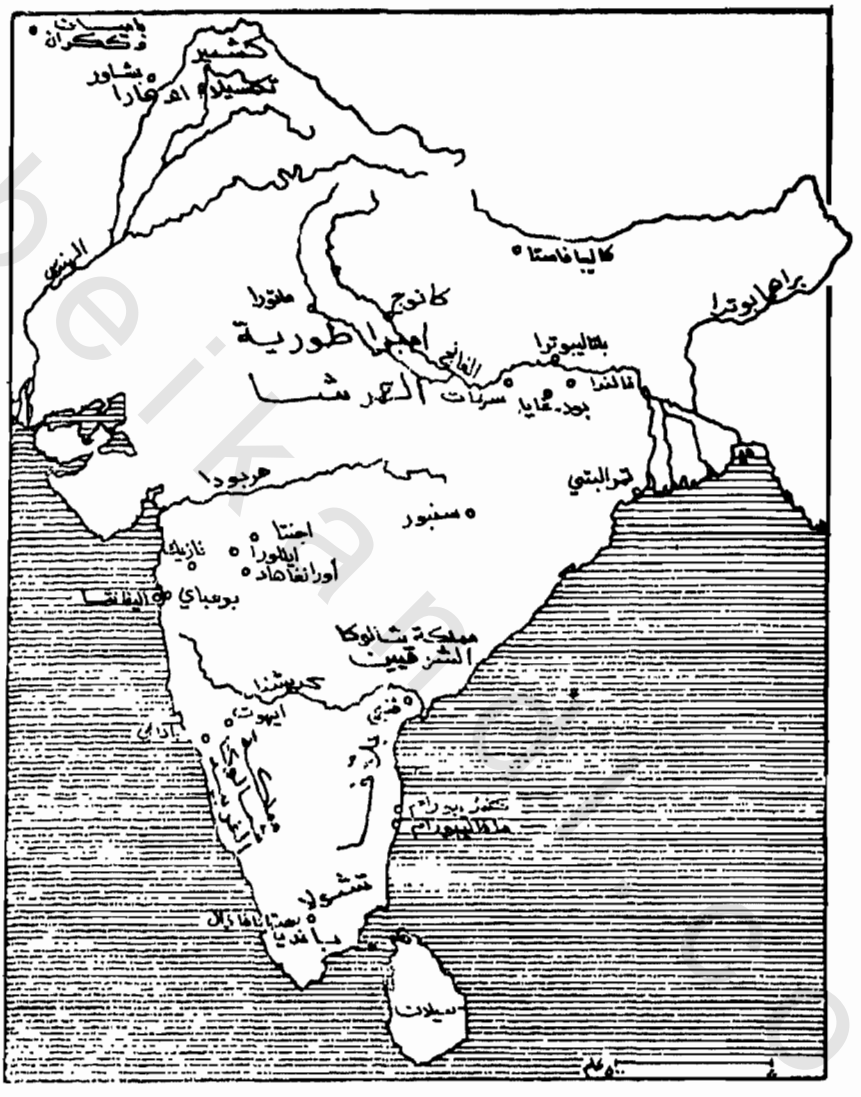

الشكل (رقم ـ ٨) الهند في عصر الملك هارشا ده كانوجا (٦٠٦ ـ ٦٤٧)

وشرفات . ويفصل بين الدير والدير فسحات واسعة فرشت ببلاط القرميد ، او جرى رصفها بشيء اشبه ما يعرف بالعَدَسِيّة، ترك لنا الرحالة يي ـ تسنغ وصفاً دقيقاً لصنعها. اما الجدران فمغطاة ببلاط مصقول ، مُزِج بماء الذهب وكسارة الحجارة الكريمة ، وأنشئت فيها ، على مسافات محددة ، مشاكٍ للتماثيل المموهة بالذهب . وهذه الاديار التي تؤلف معاً مجتمعات زاهرة

وجامعات مُشِعّة ، كانت لها املاك واطيان واسعة بينها أكثر من ٢٠٠ قرية تؤمن لها الرزق والمؤن اللازمة . ويرسل عدد كبير من المحسنين يومياً ، لهـــذه الاديار ، مقادير كبيرة من المواد الغذائية كالارز والسمنة والحليب اللازم لغذاء الرهبان وتلامذتهم ، كما ان الملك نفسه كان يجود عليهم من عوارفه السابغة ، بهبات طائلة . ويدرّس في هذه المعاهد الدينية أكبر جهابذة البوذيين ، واوسعهم علماً ، فيلقنون العلوم الدينية كما يدرّسون العلوم الاخرى ، وهو تعليم ناجح ، رصين ، على مستوى طلاب جامعيين ، بلغوا العشرين من عمرهم ، ونالوا درجات جامعية عديدة . ولا يمر الطالب من صف الى اعلى إلا بعد ان يجتاز بنجاح ، امتحاناً صارماً . ويخضع الطلاب لنظام آسر بني على الحكمة والاختبار البشري . ويترأس كل دير رئيس يكون عادة المتقدم عليهم سناً . والحياة الرهبانية تُفرَغ على ترتيب دقيق ، وفقاً لسير الساعة المائية ، هذه الساعة التي ترك لنا عنهـــا يي ـ تسانغ ، وصفاً دقيقاً في كتابه *Nan - hai - ki* ـ الفصل الثالث منه ، ولها جرس يقرع في الوقت اللازم إيذاناً بانتهاء عمل ما وحلول عمل جديد : كوقت الاجتماع العام ، او وقت الصلاة ، او وقت تناول الطعام . وعندما يأتي الليل ، تقفل ابواب الدير ، بعد ان تُركت مفتوحة على مصراعيها طوال النهار ، وتختم ، وتسلم الاختام والمفاتيح للرئيس . وجماعة الرهبان أنفسهم يقضون في امورهم فيأخذون احكامهم بالاجماع ، كما ان جمهور الرهبـــان بهيأته الكاملة هو الذي يقرر كل ما يلزم لادارة الدير وأملاكه الواسعة . فكل سرقة او اختلاس ، يعاقب عليه فاعله بالطرد ، في الحال . وهذه القوانين والانظمة ، يخضع لها المبتدئون انفسهم في السلك الرهباني ، كما يخضع لها الطلاب العلمانيون ، ويجبرون عليها جبراً .

والحياة العلمانية نفسها تتأثر الى حد بعيد بمنهج حياة الرهبان في الاديار الهندوكية والبوذية . وهذه الاديار هي ملتقى تجمعات وحشود كبيرة تؤمّها في بعض الاعياد التذكارية التي يحتفل بها الشعب ، والتي تصبح مظهراً من مظاهر البذخ والجاه . وكان الملك هارشا ، يقوم في كل سنة بتوزيع المواد الغذائية ، على كل الرهبان في الامبراطورية ، كما كان يعقد ، كل خمس سنوات ، «ندوة الخلاص» ، وذلك في السهل الفسيح الواقع على مقربة من مدينة الله اباد ، عند ملتقى نهري الغانج والجمنا ، ويقوم ، اذ ذاك ، بتوزيع الصدقات ، على نطاق واسع . وقـــد حضر هيوانغ ـ تسانغ ، سنة ٦٤٣ الندوة التي وقعت في تلك السنة ، ضمن سياج من القصب يرفع في الوسط برادقات من القش ، حيث توضع الهدايا على اختلافها : من ذهب ، وفضة ، ولآلىء ثمينة وزجاجيات حمراء ؟ وحجارة كريمة ، وألبسة الخز والديباج والقطن ، ونقود الذهب والفضة . ويعدّون في خارج هـــذه الحظيرة ، غرفة للطعام ، فسيحة الارجاء ، مسقوفة ، وقاعة للاجتماعات تتسع لأكثر من ألف مقعد وكرسي ، يدعى اليها الرهبان واتباع الهندوكيـــة ، والنساك العريان ، والبؤساء ، والمعوزون ، واليتامى ، والاولاد الذين لا سند لهم ولا قوام . ويضرب الامبراطور وحاشيته خيامهم على مقربة من نهر الغانج حيث ترسو عمارة من السفن النهرية ، بينما تأخذ الفيلة والجيش مواقفها المعينة ، في السهل . وكانت عملية التوزيع هذه ، تستمر شهرين ونصف ، اذا ما اخذنا

بأقوال هيوان ـ تسانغ ، فتبتدىء بالبوذيين المحتشدين امام تمثال بوذا ، وتنتقل بالتوالي ، الى عَبَدة الشمس حاملين صورة أديتيا ، ثم اتباع سيفا ، ويأتي بعد ذلك اتباع الديانات الهندية الاخرى ، ثم تمر مواكب النساك والزهاد العراة ، ثم مواكب الرهبان والعلمانيين والبؤساء واليتامى . فيوزع الامبراطور كل الاموال التي جمعت في خزينة الدولة خلال السنوات الخمس ، بما في ذلك : « ملابسه الملكية ، واحذيته واقراط الذهب واساوره والاكليل المحيط بتاجه ، واللآلىء التي تزين عنقه ، والدرة الثمينة التي تتدلى من عمّته » . فيهب رجال حاشيته للحال لشراء هذه الكنوز ويعيدوها الى الملك هارشا ، وفقاً لتقليد صار عليه جدودهم الأولون كان بمثابة رسم او ضريبة يتحملونها طوعاً واختياراً . ويزيد هيوانغ ـ تسانغ على ذلك فيقول : ولكن ما هي إلا بضعة أيام ، فيعود المالك ويهدي هذه الكنوز من جديد ، ويوزعها كما فعل في المرة الاولى .

اما الحياة في مقاطعات الهند الاخرى ، فكانت على مثل هذا النحو المتناقض ، من البذخ والفقر المدقع ، كما كانت عليه في مملكة هارشا . فالسكان ، كأهل الدكن مثلاً ، شديدو السمرة ويتكلمون لهجات مختلفة ، كلهجة تلغو والتامول ، بينما كانت الطبقات الاجتماعية العليا ضالعة بالثقافة السنسكريتية . وقد جعلهم المناخ الاستوائي الذي يعيشون فيه ، على استعداد نفسي للغلو والتطرف : خمول من جهة ، وفيض في الكلام والعاطفة ، من جهة اخرى . وكانت الهندوكية هي المسيطرة بالفعل ، مع ان البوذية كانت لا تزال قائمة على بعض نشاط . وقد دارت بين الجانبين معارك وحروب طويلة تورطت فيها الأسر الملكية الدرافيدية ، التي عرفت كلها ادواراً زاهية زاهرة من الاشعاع الحضاري . وقد استطاعت احداها ، وهي الاسرة الملكية البلافا ، التي سيطرت على ساحل الدكن الجنوبي الشرقي ، ان تقيم لها حضارة ازدهرت حتى القرن التاسع ، فبنت في القرنين السابع والثامن ، الهياكل المشهورة في مدينة : مافاليبودام ، وشدّت من ازر الآداب والثقافة التامولية التي عرفت ، اذ ذاك ، عهداً من الازدهار ، لم تسجل مثله من قبل ، كما كان لها اثر كبير على البلدان المستهندة او التي اخذت بالثقافة الهندية : كالهند الصينية وكمبوديا ، وتشامبا . اما دولة تشالوكيا التي سيطرت على سواحل الدكن الغربية الشمالية والتي تمكن احد فروعها من تدويخ مملكة اندراه القديمة وفتحها ، فقد تركت ، هي الاخرى ، آثاراً حرّية بكل تقدير واحترام . فقد كان ملوكها رؤساء شعب مهرات ، وهو شعب حربي ، شجاع ، باسل ، فاخر افراده بقواهم البدنية ، ورّبوا جنودهم ونشأوهم على ذلك ، ولذا راحوا يضرّسون جيوشهم وافيالهم بالحروب ويكوونهم بنيرانها . وقد تركوا ، هم ايضاً ، مباني ضخمة ، تأخذ بمجامع الالباب ، لا يزال بعض هذه العبائر ماثلاً للآن في مدينتي ألورا ، وبادامي (القرن الثامن) .

اما مقاطعات الهند الشمالية الغربية ، فقد تخالطت العروق فيها : كالترك والايرانيين والآريين ، وتمازجت المذاهب والعقائد والاديان ، كالديانة الفارسية القديمة ، والمانوية ،

والنسطورية والهندوكية ، واليانية والاسلام . واستمرت اتصالاتها التجارية ، بحراً مع ايران وبلدان الغرب على اساس من تبادل السلع والبضائع المصنوعة في الخـــارج ، كالديباج والخز والسجاد والطنافس على انواعها الكثيرة . فكانت هذه المقاطعات ، بالنسبة لموقعهـا الجغرافي ، اولى الاقطار الهندية ، التي وطأتها سنابك خيل غزاة المسلمين لدى الفتح . ومع ان سكان هذه الاقطار كانت طباعهم الفت الغزوات منـــذ اكثر من الف سنة وهم يتعرضون لها من الميمنة والميسرة ، اذ كانت كلها تتسع طريقاً واحداً واعتادت رؤية الفاتحين يدقون منهـــا الابواب بعنف وجلبة ، فقد هبوا جميعاً يستميتون في صد الغازي الجديد ويبذلون ارواحهم في سبيـــل الدفاع عن ديارهم ومنازلهم . ومنـذ ذلك الحين نشأت بينهم عادات واعراق ، لا يزال بعضها قائماً حتى يومنا هذا ، كزواج الاولاد منـذ الصغر ، مغالاة منهم في محافظتهم على نقاء العِرق وصيانته ، والحجر على المرأة وفرض الحجاب عليهـــا ، صَوْناً لها من عبث الغزاة وشرود نظراتهم الامارة بالسوء . وكان من نتائج الفتح الاسلامي ، لتلك الاقطار ، ان انكفأت الحياة في الهند على نفسها ، وانطوت على ذاتهـــا ، وايقظت ، في النفوس النزعات القومية الغافية بين الاجناس والملل والنحل ، واوقفت تطورها وحجّرته . وبعد محاولة اولى نحو المصالحة ، من آثارها هـذه المساجد الهندية الطراز الماثلة اليوم في مدن غوجارات وكاتياوار ، عادت مقاومة الاهلين تتصلب من جديد . وبذلك طلع على الهند عهـد قاتم ، حالك ، اضاعت معه هذه البلاد استقلالها ، كما استنزفت فيه كل قواها . وهذا السبات العميق الذي استسلمت اليه ، لم تفق منه الا لماماً ، في انتفاضات محلية ابدتها مقاومة الاقوام الوطنية . وكان من فضل هذه الردة ان صانت لنـا ، سالماً صحيحاً حتى اليوم ، التركيب الاجتماعي الذي عُرِفت به الهند ، وهذه التقاليد الدينية والفلسفية ، وهذه المناقبية التي ميزت شعوب الهند ، والتي لا تزال لليوم ، في كثير من امورها واحوالها ، ما كانت عليه في القرنين السابع والثامن .

امبراطورية الخمير

يتذكر القارىء الكريم كيف ان في السنوات الاولى من القرن السادس ، هوت الى الحضيض ، مملكة فو ـ نان ، اقوى الدول المستهندة الواقعة على بحار الجنوب ، وانشطها طراً منـــذ عهد بعيد ، وذلك تحت الضربات القاصمة التي انهالت عليها من ملك تشان ـ لا (منطقة بسّاك اليوم) ، احد الملوك التوابع لها الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لامبراطورية الخمير . وقد ازدهرت هذه الامبراطورية طيلة قرن من الزمن ، وعاش ملكهـــا ، في مقاطعة *Sambor Prei Kuk* اولاً ، ثم في مقاطعة انغور بوراي ثانية ، عيشة ملوك زمانه ، محوطاً بجيش لجب من رجال بطانته وكبار موظفي دولته ، يستقبل بكل أبهة وبهاء ، ثلاث مرات في الاسبوع ، من يطمع بشرف المثول بين يديه .

اما الموظفون فهم على مراتب مسلسلة تسلسلاً آسراً ، وفقاً لوظائفهم التي نعرف القاب حامليها اكثر من معرفتنا لحقيقة او ماهية الخدمة التي يؤدونها . وقد عاشت معظم الطوائف الدينية الهندية الاصل ، معاً في ظل هذا النظام الواحد ، كما نستدل على ذلك من هذه الرقم والنقائش الحجرية ، وكلها بلغة سنسكريتية ، شعرية صحيحة ، ثم بلغة الخمير ، منذ مطلع

القرن السابع . كل هذه المصادر تنوه عالياً كيف ان هذه البلاد تمثلت حضارة الهند السنسكريتية . والجدير بالذكر هنا ، طلوع عبادة خاصة هي عبادة الـ *Linga* (وهو الـ *Phallos* عند الاغريق) وهو رمز الخصب والاخصاب عند الاله سيفا ، التي كادت تصبح ديانة الدولة الرسمية . ومن الاهمية بمكان التنويه هنا بهذه الظاهرة ، كما سنرى بعد حين .

كان القرن التاسع في تاريخ البلدان الواقعة الى الجنوب الشرقي من آسيا ، عصر اختمار ونضج. فلم تلبث الدولة الجديدة التي ظهرت ان امتصت دولتين « هنديتين » قامتا معاً في مقاطعة تشامبا ، التي ابتلعت تدريجياً مملكة لِن - يي القديمة، فتكونت حوالي منتصف القرن التاسع مملكة تشامبا الموحّدة. اما مملكة شريفيجايا التي تألقت في الجنوب الشرقي من جزيرة صومطرة وضمت قسماً من الملايو اليها ، والتي برزت للعمل بنشاط منذ عهد قريب ، فقد اخذت تمتد الى أطراف شبه الجزيرة الهند الصينية والتونكين وتشامبا ، في الشمال ، واضعة منذ انطلاقتها الاولى ، الاسس التي قامت عليها سيادتها وسيطرتها على البحار ولا سيما مضايق تلك المنطقة . وفي الوقت ذاته، ظهر في جزيرة جاوا، مملكة جديده هي مملكة سايلاندرا ، أي مملكة الجبل، وهو تعبير هندي للعقائد الاندونيسية التي كانت تجعل من الجبال مهبطاً للآلهة تستقر عليها ، كما انه لقب حاكى ، الى حد بعيد ، اللقب الذي كان يحمله ملوك فو - نان قديماً . فباحيائهم هذا اللقب ، رمز ملوك جاوا الى الدوافع التي جالت في أفكارهم ، والاهداف التي نشدوها من اقامة سلطة شاملة . وقد يكون في تكنيتهم بهذه الكنية ما قد يشير الى حقوقهم المكتسبة على فو - نان . وقد وقعت في الوقت ذاته حوادث مهمة جداً زرعت الفوضى في مملكة الخمير وجعلتها تنقسم على نفسها الى مملكتين هما : تشان - لا البرية (ضمت جنوبي اللاوس والقسم الاوسط منه) ، وتشان - لا المائية (ضمت حوض نهر الميكونغ) . وهنالك من الدلائل ما يشير الى ان جاوا حاولت ان تفيد من هذا الظرف بالذات لتخضع كمبوديا لسيطرتها وتضمها تحت نفوذها. ومع ان المقاطعة الاخيرة كانت تجتاز عهداً مظلماً ، فقد عرفت ان تحافظ على استمرار الانتاج الفني فيها . اما جاوا ، فقد عرفت ، هي الاخرى ، ان وصول سلالة سيلاندرا للحكم يتفق في الزمن مع الوقت الذي عرفت فيه الوسيلة الكبرى للبوذية ، ازدهاراً كبيراً في البنغال الغربي ، والاتصال الذي تم بينها وبين جامعة نالاندا ، واستهناد كل الادارة الرسمية للبلاد ، كاتخاذها مثلاً أسماءً مشابهة لأسماء الهند ، وتبني اللغة السنسكريتية المعمول بها في شمالي الهند . وغصّت جاوا اذ ذاك ، بالمباني والعمائر البوذية برز بينها الأثر المشهور المسمى *Chandikalasan* ، الذي شيّد ، سنة ٧٧٨ ، وبواسطته نستطيع ان نضع ترتيباً زمنياً للآثار المعمارية الاخرى . ولعل اهم هذه الآثار وأجملها على الاطلاق هو البارابودور ، اذ في نقوشه البارزة الحفر ، ما يشير الى بعض النصوص البوذية الهندية . فبعد ان سيطرت البوذية على أواسط جاوا ، دفعت أمامها، الى اطراف الجزيرة الشرقية ، العناصر الموالية للهندوكية، حيث نرى ، منذ عام ٧٦٧ ، بعض آثار لعبادة شارة الخصب الملوكية .

وفي مطلع القرن التاسع ، وقع حادث عظيم في مملكة كمبوديا ، وذلك عندما رجع امير من

سلالة ملوك الخمير ، من جزيرة جافا ، وراح يحرر المملكة من نير الاستعباد لجافا ، وأسس عام ٨٠٢ عبادة الإله ، الملك ، في هيكل شيده ، هو نفسه ، على قمة رابية هو جبل كولين الذي يطل على سهل انغكور . وهذا الحادث كان لا يخلو من مغزى كبير . فللتحرر كلياً من عبودية ملوك الجبل ، في جافا ، كان لا بد له من الاحتفاظ باللقب ذاته الذي بعثها الى الوجود وأقامها هو نفسه ، فيضم اسمه ، وبالتالي شخصه ، الى عبادة الـ *Linga* او شارة الخصب عند الإله سيفا العجائبي ، فهو درع المملكة ، وحامي ذمارها . ولهذا السبب بعينه ، اقام قصره على قمة احدى التلال المرتفعة ، وتسلم من يد احد البراهمة رمز الخصب (*Linga*) الملوكي الذي رمز به الى قوة ملوك الخمير وسيطرتهم . واعتمد الراهب البراهمـــاني النصوص الهندية وراح يحتفل بالطقوس الدينية ويعلمها لحاجب الملك الذي كان هو الآخر كاهناً براهمانياً ، وأخذ منذ ذلك الحين يسير في صحبة الإله ـ الملك ويرافقه في جميع تنقلاته . وهكذا أطل على مملكة كمبوديا عهد جديـد بولود امبراطورية الخمير ، هذه السلالة الملكية الانغكورية الناجزة الاستقلال .

ففي الحين الذي كانت فيه الصين تواجه عهداً من الاضطراب والقلاقل يتفق وآخر عهد سلالة تانغ والسلالات الخمس ، وبينما اخذت سيطرة ملوك سيلاندرا ، من جهة اخرى تنحط لتزول تدريجياً امام بأس مملكة جافا الشرقية ، راحت مملكة الخمير تنجه بخطى ثابتة نحو الازدهار ، وتنحت لها الخصائص التي ميزتها والتي حافظت عليها حتى بدء انحلالها في القرن الرابع عشر .

فالملك هنا ، كما في الهند ، هو محور الدولة وقطب الدائرة فيها . فهو رأس كل سلطة فيها واليه مصيرها . فهو حارس القانون ، والمشرف على النظـــام ، وحامي الدين ، والمحافظ على النذورات والوقوفات التقوية ، والمناضل في سبيل سلامة البـــلاد واستقلالها . فهو الإله على الارض . ويجلس الملك للديوان مرتين في النهار ويبرز من خلال نافذة ، مصراعاها من الذهب ، حاملاً سيفاً بيده . يعلن عن وصوله بصداح الموسيقى وعن ترؤسه الديوان بالبوق . فان مشى فليس على الارض العارية ، بل يفرشون دوماً تحت قدميه الطنافس البديعة . فاذا ما غادر قصره فعلى ظهر فيلته ، فوق هودج فخم . عاصمته صورة مصغرة للعالم ، فالقلب منها هيكل قائم على رابية يشبه جبل ميرو ، هو محور الدنيا ، ونقطة الدائرة ومهبط الإله الملك . ويحرص كل ملك على ان يشيد ، على نسبة امكاناته ، جبـــلاً معبداً وينصب عليه بكل حفاوة ، محوطاً بالمراسم الرسمية شارة رمز الخصب ملفوفاً بالقمط الملكية دون ان يدري احد ما اذا كان هذا التمثال جديداً او من القرون الماضية .

يتولى الادارة في البلاد ويتحكم بهـــا الطبقة الارستوقراطية : كالبراهمان واعضاء الاسرة المالكة ، واقارب حاجب الملـــك . والمجتمع نفسه يحمل طابع التسلسل : فبعد الملك يأتي البراهمان تواً ، ومن كان على شاكلتهم من اساتذة الدين واللاهوت و « ارباب المنزل » ، ثم يأتي ولي العهد ، فالوزراء ، فقادة الجيش ، فاصحاب المقامات العليا والمراتب ، فرجال الحرب الاشداء ، ثم سواد الشعب ولميمه من البائسين ومناكيد الحظ . وفي ثفالة المجتمع يأتي المقعدون

والمشوهون ، والجُدُب والاقزام ، وكبار المجرمين وشذاذ الآفاق، والبرص ومن لا عذار لهم . فاعضاء الطبقة الاولى وحدهم : من الملـــك الى المحاربين الاباسل ، لهم الحق بدخول الهيكل . فالادارة هي كذلك بين يدي موظفين يخضعون لتسلسل دقيق وترابط آسر : من وزراء ، الى قادة جيش ، الى مستشارين ، فولاة ، وحكام اقضية ، ومدراء ناحية ، ومأموري المخازن والمستودعات ، ورؤساء السُخرة الذين يقسمون الى اربعة مراتب يصعب علينا تحديد ماهية كل واحدة منها على حدة . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار الاهمية التي بلغتها السوق التجارية عنـــد الحير ، ظهر لنا كم كان ضخماً عدد التجار في البلاد ، وقد يكون حكمهم حكم الفلاحين وسكان القرى من السلم الاجتماعي ، وهو وضع لا نعرف عنه كبير امر . وجل ما نعرف هو ان عدداً كبيراً منهم كان يعمل في خدمة الهياكل والمعابد ، عرضة لسخرية كبار القوم والتهكم عليهم .

وقد سارت هذه الاقلية ، فترة من الدهر ، تارة مـــع الهندوكية واخرى مع البوذية ، وراحت تحتفل بالاضافة الى هـــذا ، بعبادة خاصة ترتبط ولا شك بعبادة الجدود : فالملك والامراء ، واصحاب المراتب العليا ، ورجال الجيش البواسل ، اخذوا يشيدون وهم احياء ، معابد باسمائهم وينصبون فيها تمثال احد الآلهة يسمونه باسم الاله الشفيع . وكان الواقف يحرص جداً على هذه العبادة ويؤمن استمرارها ، اذ كان الناس يهتمون كثيراً لامر المصير بعد الموت ، كما يبدو من نقيشة محفورة في معبد انغكور ــ قات ، مكرسة للسماء والجحيم على السواء . وهذا النوع من العبادة والتكريس غير مألوف قط في الايقونوغرافيا الهندية .

ففي هذه الدولة التي حَسُنت ادارتها فسلسلت امورها ، نعمت المواصلات بشبكة جيدة من الطرق النهرية والبرية ، منها طريق بري مبلّط ، تراوح عرضه بين ١٠ و ٢٥ متراً ارتفع نهره فبرزت جادته في تقاطع مستقيم الزوايا، وتمر فوق الانهر والمجاري المائية الضخمة على جسورة كبيرة . ويقوم على طول الطريق مراحل ومحطات معينة ، يسهر على الاهتمام بهـــا فريق من القرويين ، ويقوم في هذه المحطات باعة متجولون امامهم اطباق شتى يعرضون عليهـا سلعهم . والنقل يتم بواسطة حمالين يحملون الاثقال على الظهر او الرأس او الكتف . اما المرزح مـــن الاحمال ، فينقل على ظهور الافيال او يُعهد بأمره الى عربات النقل ، وهي على عجلين ، يجرها زوج من الثيران او الجاموس تعلوها مظلة مـــن الهشيم . اما اصحاب الرئاسات ، فيتنقلون في هوادجهم الخاصة ، بصحبة آلهتهم وما اليها من مقدسات . كذلك نرى عربات كبيرة للنقل بها اربعة او ستة عجلات فوقها مظلة وستائر مدلاة تغطي مستودعات البضائع . ويمخر في الأنهر العديد من القوارب التي ترك الحجاج الصينيون وصفاً دقيقاً لها .

فباستثناء الهياكل المبنية كلها من الحجر ، وأجلهـا على الاطلاق يعود للقرن الثاني عشر ، كمعبد انغكور ــ قات ، مثلاً ، فبيوت السكن كلها تقريباً تُصنع من الخشب وتسقف بالقش ، ما عدا القصر الامبراطوري الذي كان سقفه من القرميد الاحمر . لم يصلنا شيء من هذه المباني الخشبية . وكان في القصر، على ما يقدر العارفون ، وفقاً للنقائش المحفورة ، جناح خاص بالعامة

من الشعب ، بينما لم يترك احد من الرحالة ، في ذلك العهد ، أي وصف للجناح الخاص بالملك . ومهما يكن من الامر ، فقد كان فيه قسم خاص بالحريم ، وآخر خاص بسكنى الملك ، يسهر على سلامته حارس خاص .

اما الاثاث ، فكان يتألف من مقاعد واطية ، وغير ذلك من الادوات المختلفة الجميلة النقش والمنظر ، اضف الى ذلك شكّة كاملة من السلاح على اختلاف أنواعه بينها مجموعة من السيوف الهندية، واخرى من القسي ، والنبال والعرّادات التي قلدوا منها المنجنيقات المستعملة في الصين ، والمظلات ، والمذبّات ، والمراوح والألوية ، وآلات الطرب التي كانت تحتفظ في مخازن خاصة ، اسوةً بما كان يجري في الهند . ويبدو المحاربون لابسي دروعهم ومعتمرين خوذهم . اما المدنيون، فكانت ملابسهم ترفل بالكثير من الحلي والحجارة الكريمة ، وتتألف اصلاً من سروال طويل للرجال ، ومن تنورة او قفطان للنساء . وتمر اوقات النهار رتيبة على دقّات الساعة المائية . ولفت نظر السياح ، كثرة استعمال القوم للخلال او السواك ، وما عليه القوم ، عادة ، من نظافة ، يتلهون برؤية مصارعة الديوك بعد ان اعتاد الملك الاستمتاع بهذه الأهلية البريئة يومياً ، ويراهن عليها ، ويدفع في حال خسارته ، ذهباً . وتلعب المرأة ، في المجتمع ، على ما يبدو ، دوراً بارزاً . وليس بغريب قط ان يراعى في النظام الوراثي قرابة الرحم ضمن الصلب . والاسر الكبيرة التي تعد بين افرادها كريمات جميلات ، تهدينهن للملك ، فيقمن في بلاطه مع سرايره وقيانه وراقصاته . وكثيراً ما أدى هذا الوضع بهن الى التدخل بشؤون الدولة ، والى لعب دور بارز في الحياة الدينية .

فاذا ما عولنا على الوثائق الخطية التي وصلت الينا ، يبدو لنا ان المعابد ومن اليها من خدّام وحشَم ، لعبت دوراً هاماً . فالى جانب المعبد يقوم عادة دير يتولى ادارته رئيس عام يؤمّن النظام ويسهر على ضبطه وصيانته بكل دقة ، كما يقوم بتدبير اموره المادية . فالرئيس هو الذي يعيّن مقرّبي الذبائح والمنجمين ، بينما يطلع الحاجب بتأمين مراسم العبادة ، ثم يأتي المراقبون ، والبراهمة والنساك والكهّان معهم عدد كبير من الحراس : هؤلاء يقومون على حراسة الودائع الثمينة وكنوز الذهب والفضة ، واولئك يسهرون على النار المقدسة ومشاكي الموتى، بينما يحرس البعض منهم الابواب ، والحدائق ، والبعض الآخر الرحى التي تطحن الارز او تحلجه . ويلي هؤلاء حشود من الاتباع يقيمون ضمن دائرة الهيكل او خارجها يسهرون على تأمين انتظام الحياة في المعبد وراحة سكانه وخدَمه على انواعهم كالمغنيين منهم بضفر الزهور والعناية بالحدائق ، وغير ذلك كالنسوة اللواتي يعملن في تنقية الارز او طحنه ، ومتعهدي الماشية ، وناظري الارقاء والحراس ، وآخرون يعنون بالكتب ونسخها وبالمحفوظات وصيانتها . اما الراقصون والراقصات وأهل الكيف، فيؤلفون طبقة خاصة بهم . ومعظم هؤلاء الخدم قرويون، جيء بهم من القرية القريبة ، ويؤتى منهم باعداد أكبر في فصل الامطار ، وكلهم معفون من السخرة او مصادرة الحكومة لهم ، ولا يدينون بالطاعة إلا لرئيس الدير . ويحظر عليهم القيام

بأعمال سخرة لغير آلهة لا يعملون في خدمتها . ان معبداً واحداً هو معبد باكو ، ضم وحده ، في القرن التاسع ٢٢٥٣ شخصاً ، ثلثاهم من العبيد الارقاء . وقد بلغ معبد نا ـ بروهم ، في القرن الثاني عشر ، شأناً اكبر ، اذ كان يعمل في خدمته ٧٩٣٦٥ شخصاً ، من بينهم ١٨ من كبار الاحبار ، و ٢٧٤٠ كاهناً ، و ٢٢٠٢ مساعداً و ٦١٥ راقصاً . وهكذا نستطيع ان نكوّن لنا فكرة تقريبية عما كانت هذه الجموع المحشودة تحتاج اليه من المواد الغذائية والكميات الضخمة اللازمة لتأمين عيشها . ولذا فليس من عجب قط ان يبلغ عدد القرى التي يملكها هذا الهيكل والدير القائم الى جنبه ، ٣١٤٠ قرية لوحده وكل هؤلاء الخدام ومن اليهم من نُظّار ، ومراقبين يعملون جميعاً في خدمة المعبد ، جميعهم معفون من الرسوم والضرائب ، إلا انهم يتعرضون لجزاوات قاسية اذا ما أتوا شيئاً يمس المعبد او يلحق الاذى والضرر بجمهرة الزهبان ، او يؤلف تعدياً على املاكه ومقتنياته . فاذا ما كان المسيء براهماناً ، فقصاصه الطرد دون أي عقاب او جزاء مادي آخر ، او فرض أية غرامة مالية عليه . ويفرض على كبار القوم ، اذا ما كانوا من المعتدين ، غرامات عينية ، تدفع ذهباً ، يختلف مقدارها باختلاف المراتب التي ينتمون لها : من ولي العهد الى أدنى مأمور . فمن حاول التملص من الدفع ، حُكِم عليه بالجلد على ظهره ، مائة جلدة .

ومظاهر الحياة عند الخمير التي استمرت خصائصها المميزة في كمبوديا الى وقت حديث ، بقيت معمولاً بها ، دونما تغيير كبير ، بينما اخذ شأن الدولة الانكورية ينمو باطراد ، منذ تأسيس انكور على يد باسوفرمان الملك (٨٨٩ – ٩٠٠) ، الى ان بلغت اوجها في عهد الملك باسوفرمان السابع (١١٨١ – ١٢١٩) الذي كان من اشهر الملوك الذين اعتلوا عرش كمبوديا. ونحن مدينون لهذا الملك الذي كان من معاصري ملك فرنسا فيليب اوغست ، والملك بودوين الرابع ، في المملكة اللاتينية في القدس ، باشياء كثيرة ، ولا سيما بهذه المباني الكبيرة التي وصلتنا من عهد دولة الخمير ، وعلى يده نعمت مدينة انكور بسور دائري ، طوله ١٢ كيلو متراً ، يحيط به خندق عميق ، وله خمسة ابواب ضخمة . وقام خارج السور المعبد الكبير الذي بلغت مساحته ٨٢٠٠٠٠ متر مربع . وهو يقوم في وسط هذا المجمّع الضخم المسمى بايون ، الذي يعلوه عدد من الابراج ذات الاربعة الوجوه . وقد كان الملك جايا فارمان السابع ، بوذياً صادقاً ، يرعى عبادة الاله الملك ، ولكن ليس على مذهب الـ *Linga* الخاص بسيفا ، بل وفقاً لتمثال ضخم لبوذا جالس فوق الثعبان . وقد يكون هذا الملك أصيب بالبرص ، وهذا ما حمله على انشاء ٢٠٠ مستشفى للبَرَص ، وزعها على جميع انحاء البلاد . وفي عهده بلغت العبادات الشخصية الذروة من الازدهار والاقبال ، انطلاقاً من عبادة الملك نفسه الذي برزت صوره ، ليس على ابراج المجمّع الضخم ، على شكل ملك العالم « وجهه في كل مكان » ، بل ايضاً في ٢٣ مدينة اخرى من مدن الامبراطورية . ومنذ ذلك الحين ، ارتدى المظهر الامبراطوري صبغة دينية عنه . فالعاصمة الملكية والمملكة كلها ليست سوى صورة مصغرة لهذا العالم الالهي ، حيث النظام البشري يبقى صورة طبق الاصل للنظام الالهي او السماوي .

فاذا كانت امبراطورية الخمير هي القطر الوحيد ، بين الاقطـار المطلة على بحار الجنوب التي نملك بشأنها معلومات واوصاف دقيقة ، علينـــا ان نعتبر ، مع ذلك ، ان جميع البلدان التي تألفت منها هذه المنطقة الآسيوية الواقعة الى الجنوب الشرقي ، قد نعمت جميعهـــا بحضارة واحدة ، في هذه الفترة من تاريخها كانت التقاليد والاعراف الهندية نسيج وحدها . فقد كانت هذه البلاد بطريقة ليس هنا محل تفصيلها باسهاب ، تعبيراً واضحاً لاشياء وامور لم يُرْمَز اليها في الهند إلا تضميناً وتلميحاً . ومن بين المميزات المفرّدة لهذه البلدان ، اقله لفترة معينة ، العبادة الملكية للـ *Linga* التي كانت رمزاً للسيادة التامة والسيطرة الشاملة .

الا ان الحوادث التي تألبت على البلاد فتضرّست بها ، وانبعاث العقائد والعادات القومية ، كل ذلك ذهب بفوائد هـــذه الوحدة ومنافعها ، وافضى ، بالتالي ، الى تغييرات هامة ، في جغرافية الهند الصينية والانسولاند . ففي الوقت الذي تابعت فيه كمبوديا توسعهـــا الجغرافي باحتلال بعض ولايات تشامبا والسيام ، وراح الاناميون ، من جهتهم ، يستولون على الشمال من مقاطعة تشامبا ويتابعون ، وئيداً ، تغلغلهم صوب الجنوب ، طلعت قبائل الثاي ، قادمة ولا شك من يو - نان وظهرت في شمالي السيام ، ثم اخذت تنحدر رويداً نحو مصب نهر مِينام . ثم ان الانحـــلال الذي اصيب به ملوك سْرِيفيايا ، مكّن امراء جافا الشرقية ، من بسط سيطرتهم على بلدان ارخبيل الملايو .

وعندما قام ماركو بولو ، حوالي عام ١٢٨٨ ، وتشيو - كاكوان ، عام ١٢٩٦ ، بالرحلة الى الولايات الجنوبية الشرقية ، كانت دولة الخمير تُودّع آخر ايامها ، تحت الضربات التي انهـــالت عليها من قبائل الثاي التي كانت فرضت سيطرتها ، اذ ذاك ، على الجانب الاكثر من السيام ومع ان التشامبا فقدت نصف اراضيها ، فقد كانت عرفت مع ذلك ، اذ ذاك ، مرحلة من الهدوء جاءت بين عاصفتين : فقد راحت بورما نفسها التي عرفت في القرن الحادي عشر عهداً عجيباً من الازدهار ، ومعها مقاطعة الانام ، فريسة احتلال مغول الصين . كذلك استطاعت جافا الشرقية ان تحافظ على استقلالها وان تستمر المضي في تطورها ، انما في اتجـاه جديد ، ملايوي الطابع ، اخذ يطبعها ويفردها ، على حساب التقاليد والاعراف الهندية التي درجت عليها اجيالاً طوالاً واخذت بها حقبة طويلة من الدهر .

* * *

الصين في عهد سلالة تانغ

من ستة الى سبعة قرون مضت ، رزحت الصين ، في اواخر عهـد دولة سواي ، تحت فوضى قاتلة ، استطاع معها شاب شجاع ، جريء عُرف بكفاءته وبقدرته ، ان يخلص البلاد مما تعاني ، هو لي - شي - مين . فقد كان هذا الشاب ابن الكونت الذي عمل ، من قِبل أباطرة سواي ، حاكماً عسكرياً على احدى المقاطعات وبرهن عن صدق ولائه لهم . وقد نمت لهذا الشاب شخصية بارزة ، فنصب اباه ، عام ٦١٨ ، على العرش

الامبراطوري ، وقام خلال اربع سنوات كاملة ، بعدة حروب وتجريدات حربية دوّخ فيهـــا جميع اقطار الصين، ثم اعتلى العرش هو نفسه، بعد ان بذل ما بذل من الشجاعة والدهاء السياسي وحسن التصرف ، وتوّج باسم تاي ـ تسونغ ، في الرابع من ايلول ٦٢٦ . وفي مدة ملكه الذي

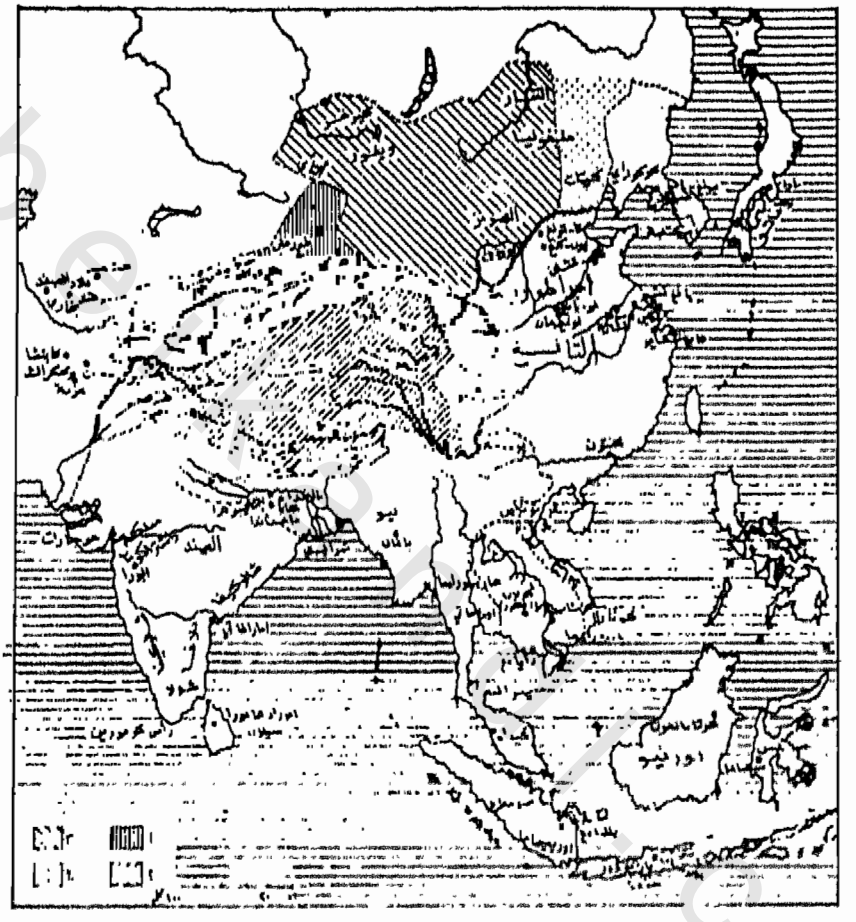

الشكل (رقم ـ ٩) آسيا المسيحية حوالي عام ٧٥٠

امتد ٢٣ سنة ، استطاع ان يعيد الى الصين ، ما كان لها من امبراطورية شاسعة ، وما كانت تنعم به من مجد وفخار . فضمت اليها مقاطعة منغوليا برمتها (٦٣٠) واخضعت اتراك التركستان ، والواحات الهند ـ الاوروبية في صحراء غوبي ، وأنشأت لها من بين هؤلاء الاقوام التي عُرفت من قبل ، بعدائها للصين ، انصاراً لها وعيوناً . ولا شك في ان الدسائس التي حيكت في البلاط ، في اعقاب هذا العهد المجيد ، والوهن الذي اصاب بعض الاباطرة ، والفظاظة التي بلغتهـا بعض السراري والحظيات اذ زين الغرور لاحداهن ان اعلنت نفسها امبراطوراً ، وهذا الوضع المخزي

الذي استمر نحواً من قرن كامل ، عرف ان يضع له حداً نهـــائياً ، الامبراطور هيوان تسونغ (٧١٢ ـ ٧٥٦) لدى اعتلائه العرش . فالسيطرة الصينية التي عرف هذا الامبراطور ان يوطدها ويرسّخ من اسبابها ، بلغت اذ ذاك ، ابعد مدى عرفته الصين ، في آسيا ، من قبـل . فقد دخلت في حدودها ، من الغرب جبال تيان ـ شان وجبال بافير ، فأخضعت لها طشقند ، وفرغانة ، وجلجيت ، ووضعت تحت حمايتها كشمير وبلخ وكابول ، وتحالفت ضد المسلمين ، مع بخارى وسمرقند ، وسيطرت على التركستان بكامله ، وحملت قوافلهـــا التجارية كما بسطت دبلوماسيتها ، نحو الجنوب والشرق . وهكذا تم لها التحكم والسيطرة عـلى الممرات والمجازات المفضية الى الهند ومضايق المحيط الهندي . وهكذا عرفت الصين عهداً من الحروب والفتوحات المظفرة تجاوبت أصداؤها الانجازات الفنيـــة الصينية ولاسيما ما اتصل برسوم المعارك ورسوم الحيوان . وفي هذه الحقبة استقرت امور الصين ، ولو موقتاً ، وبلغت حضارتها واشعاعهـــا الفكري عهداً مشرقاً من الازدهار ، كما نشطت المبادلات التجارية والدينية بين الصين والاقطار الآسيوية الاخرى ، وبينها وبين بلدان الشرق الادنى الواقعة تحت السيطرة الاسلامية .

ومع ذلك ، فقد انهار هذا البنيان الشامخ دفعـة واحدة ، حوالي عام ٧٧٠ ، عندما راح قائد صيني اخرق ، بمهاجمة اتراك طشقند بالرغم مما كانوا عليه من صدق الولاء للصين. واذ ذاك ، شرعت مقاطعة يو ـ نان ، في أقصى جنوبي الصين ، تتململ وتتحرك في محاولة لها للتحرر مـن نير الصينيين ، واخذت بمهاجمة القوات الصينية العاملة فيها . واذ كانت الصين استنزفت الكثير من دماء بنيها في هذه الحروب الدامية التي استمرّت اجيالاً وكلفتها زهرة شبابها ، ورغبة منها في اعادة الطمأنينة والهدوء الى البلاد ، استسلمت للتفسخ الاداري والانقسام السياسي . وعندما زالت سلالة تانغ ، من الوجود ، عام ٩٦٠ ، لم تكن الصين تتألف من غير الولايات الجنوبية ، كما ان عدد السكان فيها كان قد تناقص كثيراً .

فسلالة تانغ الصينية التي امتد عهدها ثلاثمائة سنة ، قامت في بـــدء ملكها ، بفتوحات هي اوسع ما حققته الصين من فتوح ، الى ذلك العهد . فقد حققت في المجال الفكري ، التآليف التام بين التقاليد الماضية وبذلك رسمت لها نموذجاً ووضعت منهاجاً نسجت على منواله ، الاجيال الصينية الطالعة . فملوك سولاي الذين حققوا وحدة البلاد من جديد ، لم يسعفهم الوقت من حل المشكلات التي تأتت عن عملية الوحدة هذه . فباشر ملوك تانغ الامر منذ ان تسلموا الحكم ، فحاولوا ، بادىء ذي بدء ، القيام باصلاح شامل في الادارة العامة . ولكن ايانا والغرور ! فقد جاء هـذا الاصلاح نظرياً أكثر منه عملياً او واقعياً ، اذ ان الادارة كانت من التعقيد والتشابك بحيث بدا مـــن المستحيل تقريباً ، اجراء أي اصلاح فعلي في البلاد . فالتمسك بالتقليد ، والاخـــذ بالاعراف المستبدة ، وجهل الموظفين المدنيين للمشكلات التي عانى منها كثيراً سكان الريف وتربصوا بها ، كل هذا يفسر لنا كيف ان الحكومة كانت تضطر الى إلغاء او تعديل القرارات التي كانت تتخذها او تصدرها ، قبل ان تأتي هذه التدابير ثمارهـــا ، او قبل ان تباشر بتطبيقها . فكل سلطة

مصدرها ، مبدئياً ، الامبراطور الذي كان يصدر قراراته عندما يجلس للديوان ، بينما كانت التعليمات والارشادات تصدر عن الاجهزة الكبرى والمصالح الادارية الرئيسية ، وترسل للموظفين والحكام الاداريين العاملين في الملحقات . وقد تغيرت صلاحياتهم مع الزمن كما سنرى .

الاطر الادارية والعسكرية

الوصول الى الرئاسات العليا وبلوغ المراتب الكبرى ، طريقة الامتحان الناجح بين حملة الشهادات العليا ، في مباريات يجتازونها لهذه الغاية : شهادة العالمية التي تخول صاحبها التقدم للمناصب ، ومباريات لاصطفاء خير الموظفين والعمال المدنيين والعسكريين ، واخيراً شهادة تقويم الكفاءات ، تبنى على علامات وترقيمات يضعهـــا رئيس الموظفين على طالبي الوظائف والمتقدمين اليها ، ان يكونوا من خريجي الجامعات ، وان يزكي ترشيحهم اساتذتهم . فاذا ما كانوا من ابناء الاسر الكبرى ، وهو الوضع السائد لعمري لدى الجامعيين ، كثيراً ما نالوا المنصب الذي يرومونه ، بأيسر السبل ، بالاستناد الى حسبهم ونسبهم ، وبالنظر لان الاب تولى الوظيفة من قبل ، او لاستطاعة المرشح ان يحصل على الوظيفة المرومة باساليب اخرى . غير ان عدد المراكز كان محدوداً ، الامر الذي اوجب على طالب الوظيفة ان ينتظر طويلا للحصول عليها . اما المباراة ، فقد كانت تدور ، على الغالب ، حول مواضيع ادبية . وقد يتضمن الامتحان بعض المواضيع الرياضية والفلكية اذا ما اقتضت طبيعة الوظيفة ، من صاحبها ، مثل هذه المعلومات ، مع حفظ بعض النصوص او التعليق عليها أو التفسير لها او كتابة موضوع خاص . وكانت عنايتهم بضبط الحروف واتقان كتابتها تفوق عنايتهم بالترتيب . والنجاح في المباراة كثيراً ما ادى الى اقامة المآدب الرسمية التي لم تلبث ان استحالت عادة رسخت في القوم واستبدت بهم في المناسبات العارضة .

وقد سيطرت ، في العاصمة ، خلال القرن الاول من حكم ملوك تانغ (٦١٨ ـ ٧٠٥) مركزية شديدة قوية ، أضفت بالتالي اهمية اكبر على ثلاثـــة اجهزة رئيسية هي : دائرة شؤون الدولة ، والديوان الامبراطوري ، والسكرتيرية العامة . فقـــد ضم الاول ، مناصب الوزراء الستة وهي : الادارة العامة ، المالية ، الاديان ، الجيش ، العدل ، الاشغال العامة . اما الديوان ، فقد اشتمل ، الى جانب صلاحياته المعروفة ، الاشراف على مدرسة البلاط التي كانت تؤمن مع تدريس الادب ، تعليم اولاد الاسرة الملكية ، بينما دخل في صلاحيات السكرتيرية العامـــة ، الاشراف على مكتبة القصر والمحفوظات الملكية ، ودائرة المؤرخين ، ودائرة الاقتراع ، وغير ذلك من الدوائر الفرعية . فارتبط بالبلاط ، مثلا مجلس الدائرة الفلكية الذي انيط به السهر على ضبط الساعة المائية وتأمين الارصاد الجوية والفلكية ووضع التقاويم المختلفـــة ، ثم الشؤون المنزلية ، واخيرا تدبير الامور الخاصة بالقصر الموكولة امورها الى فريق الخصيان . ولا بد هنا من ان نذكر ، ولو بصورة عابرة ، الدوائر التسع التي كانت تشرف على المراسيم الرسميـــة والاحتفالات الدينية ، وكلها تتمتع باختصاصات وصلاحيات لها شأنهـــا تتعلق بادارة المعابد والهياكل والمدافن ، وتأمين الاضاحي والتقاديم ، وتنظيم المآدب الامبراطورية ومراسيم

التشريفات المتبعة في استقبال ممثلي الدول الاجنبية ووفودها ، كما كانت من اختصاصهم النظر في امور القضاء العليا والزراعة .

وطوال المدة التي سيطرت فيها على البلاد مركزية آسرة ، حتى مطلع القرن الثامن ، لم تعرف الادارة في تقسيماتها الادارية ، دائرة اكبر من الولاية او المحافظة التي كانت تنقسم بدورها الى عدد من الاقضية وهذه الى عدد اكبر من النواحي . وباستثناء بعض الظروف الخاصة ، لم تكن السلطة العليا في الولاية ، تلقى لدى موظف كبير واحد . وكان هنالك مندوبون ملكيون يعهد اليهم الامبراطور بزيارة الولايات ومراقبة سير العمل في الملحقات على اختلاف دوائرها . وقد تراخت هذه المراقبة تدريجياً ، نتيجة محتومة لحركة ارتبطت ، ولا شك ، بانحلال طبقة الفلاحين من جهة ، ومن جهة اخرى ، بظهور طبقة ارستوقراطية عقارية . ومثل هذا الوضع ، طلع على الخلافة العباسية وفي تشكيلات سياسية اخرى لدى الغرب . ونلاحظ من ناحية اخرى ، بين ٧٠٥ ـ ٧٥٦ ، ازدياد سلطة الموظفين الاداريين ، في الملحقات ، بالرغم من وجود مفوضين حكوميين ومفتشين اداريين مهمتهم مراقبة الاقضية والمحافظات والولايات الكبرى . واستطاعت معظم الوحدات الادارية الكبرى ان تحقق ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن ، وطوال القرن التاسع ، شبه استقلال اداري تحت زعامة حكام جمعوا بين السلطة المدنية والعسكرية . وبمجمل القول ، فقد شهدت العاصمة التي تمتعت بالسيطرة التامة في الشطر الاول من هذا العهد ، سيادتها تتناهبها الولايات الاخرى ، ورأت في هذه السيادة والقوة العسكرية التي سارت في خدمتها شبحاً اخاف السلطة الامبراطورية ، بحيث ان كلا من كبار الحكام في الولايات الكبرى اصبح في القرن العاشر ، دولة ضمن الدولة ، يوقف سلطة الامبراطور عند حدها . وراح اقواهم ساعداً يعلن سقوط العائلة المالكة ويتربع هو مكانها على العرش . وهكذا أطلت علينا ، عام ٩٦٠ ، سلالة سونغ .

فالخطوط الكبرى لهذا التطور تهمنا أكثر من الصلاحيات التي تمتع بهـا جيش لجب من الموظفين ، موزعين على مراتب ودرجات . وبـدلاً من الافاضة في التفصيل والاسترسال في العموميات يكفي ان نعطي بعض الايضاحات التي لا بـد منها . فالحكام المدنيون في الولايات كانوا ينتقون من بين اعضاء العائلة الملكية . وكانوا قلما يقيمون في الملحقات ، فيكلون امر الحكم والادارة الى نائب او وكيل يعينونه ويعتمدون عليه في تصريف الامور . ومن هنا نتبين بعض الشيء ، الاهمية التي اخذها الحكام العامون وكبار القواد الذين لم يكن عددهم ليتجاوز الخمسين ، وكان تحت امرتهم وحدات من قوى الجيش يتراوح عدد افراد الوحدة ، عام ٧٤٢ ، بين ٢٠،٠٠٠ و ١٤٥،٠٠٠ ، جندي بينما بلغت القوة العسكرية التي رابطت في ولاية هو ـ باي ٩١،٠٠٠ ، اذ ان أكثر من ثلثي قوة الجيش كانت ترابط في المقاطعات الحربية الواقعة على الحدود . وقد اضطرتهم الامور العسكرية ، شيئاً فشيئاً ، لأن يسيطروا على كل المصالح الاخرى : على مستودعات وعنابر التموين ، والشؤون المالية ، والاشغال العامة ، وامور القضاء . وكثيراً ما ادت اقامتهم مـع

الحكام الاداريين في دار الولاية الى اصطدامات، الى استصفائهم ملء السلطة الفعلية في المقاطعة.

ففي الايالات العسكرية القائمة وراء حدود الصين الخارجية، كان يقيم المفوضون العامون السبعة، وهو عدد لم تعرف مثله الصين في ازهر عهودها وفي اعظم امتداد لسيادتها عبر التاريخ، وهي ايالات كادت تزول من الوجود، في اواخر عهد هذه الاسرة بنسبة فقدان الصين السيطرة على هذه الايالات العسكرية. فرقعة الحمية الواحدة التي يتولون امرها كانت شاسعة، اذ ان حمية واحدة ضمت بين أرجائها ما يؤلف اليوم التركستان الروسي والتركستان الصيني وأفغانستان وكان هؤلاء الحكام يُصطفون من بين كبار الاداريين المحليين، ويعمل تحت ادارتهم موظفون محليون ويمارسون صلاحيات مدنيـــة وعسكرية على السواء، ويقومون بالاشراف على عدة مقاطعات او عدة ولايات عامة.

فالولاة الذين يرتبطون بالامبراطور شخصياً، بلغ عددهم عام ٦٣٩ نحواً من ٣٥٨ والياً، ثم نزل هذا العدد الى ٣٢٨، سنة ٦٤٠، دون ان تدخل في هذا العدد البلدان التابعة للصين بموجب مواثيق. ويقسم الولاة الى رتب ودرجات تختلف باختلاف عدد السكان في الولاية التي يعملون فيها، وهو عدد كان يتحدد دورياً بعملية احصاء تجري في اوقات معينة، ويتراوح بين ٢٠،٠٠٠ و ٤٠،٠٠٠ عائلة او اسرة. فاذا ما تعادلت ولايتان احداهما في الداخل والاخرى على الحدود، بعدد سكانهما، جاءت الثانية في مرتبة اعلى. والنواب الولاة كانوا أثبت عمـلاء الامبراطور مركزاً، تتراوح عددهم بين ١٥٢٨ و ١٥٧٣ نائب والٍ بـين عامي ٦٣٩ و ٦٤٢، كما كانوا اقربهم اتصالاً بالأهلين. وفوق الأسر التي كان رئيسها يتحمل كل مسؤولية ويتعرض وحـده للجزاء اذا ما اتُّهم احد أعضاء اسرته بالتقصير، تأتي القرية التي كانت تتألف عادة من ١٠٠ اسرة، كما ان خمس قرى كانت تؤلف ناحية. ورئيس القرية هو الشيخ أي المتقدم في السن بين سكانها، ويترتب عليه كما يترتب على مدير الناحية ان يعد قائمة بالافراد الخاضعين في القرية وفي الناحية، للضرائب او لأعمال السخرة، وبذلك يصبح في مقدور نائب الولاية ان يصنف السكان حسب فئاتهم، ويشرف على توزيع الاراضي، ويحافظ على السجلات العقارية وجدول الضرائب وادارة الجباية، كما كان باستطاعته ان يحافظ بدقة على نظام البريد، وعنابر الدولة ومستودعاتها ويضع تحت اشرافه السير على الطرقات العامـــة ويؤمن سلامتها وسلامة الملاحة النهرية. وهو بوصفه حامي الشعب، عليه ان يرعى مكارم الاخلاق ويؤمن أوَدّ العيش للأرامل، ويضع تحت جناحيه الايتام والبائسين، وينظر بنفسه في القضاء ويكافح الاوبئة.

والجيش الذي اصبح طيلة عهد اسرة تانغ في الحكم قوام النظام وركنه الركين، خضع خلال الاجيال المتعاقبة، لتطور سار جنباً لجنب والتطور الذي مرت به الادارة. ومع ذلك فتعبئته بقيت مشكلة مستعصية بحيث ان الانتصارات الحربية التي حققتها الدولة في بـــدء الامر يجب ردها للمقدرة والكفاءة التي تحلى بهـــا قواد الجيش وليس لتنظيمات الجيش. فالى سنة ٧٢٢ تقريباً، كانت الوحدات العسكرية التي تقدمها كتائب المليشيا الباسلة تعمل لشهر واحـــد في

الحرس الامبراطوري ، بينما الوحدات الاخرى التي ترسل للخدمة على الحـــدود كانت تمضي في خدمة الجيش ثلاث سنوات ، بينما الحاميات المرابطة على الحدود الشمالية ، كانت تغذيهـا امر خاصة فُرِضت عليها الخدمة العسكرية الاجبارية لقاء بعض امتيازات ومنافع خاصة . وكثيراً ما أجبرت الوحدات العاملة في الجيش المرابط في قواعده على الحدود، على تجديد تعهدها بالخدمة دون ان تعطى الحق بالرجوع الى البلاد ، فتؤلف بذلك جيشا محترفا مستمراً في الخدمة . ومن المحتمل كثيراً ان تكون وحدات من هذا النوع ، ألّفت حرس الامبراطور الخاص او عملت في خدمة بعض كبار الحكام او القادة . اما الوحدات الاضافية الاخرى ، فقد جيء بهـا من بين الذين صدرت عليهم أحكام قضائية ، فيرسلونهم الى المعسكرات الحربية . وفي القرن الثامن ، كان الحرس الامبراطوري يتألف أفراده من سكان العاصمة وارباضها الذين يُعفون من السخرة ، لقاء خدمتهم في الحرس ، مدة ستة اشهر ، ثم انزلت الى شهرين ، عام ٧٢٥ . وكثر عدد التجار الذين راحوا يتجندون لقاء اعفائهم من الضرائب المترتبةعليهم، ثم يعمدون الى استبدال أنفسهم بعبيد وأرقاء في خدمتهم . فبينما كانت الجيوش المرابطة في الشمال تتألف بمعظمها على هـــذا الشكل ، كانت الوحدات المرابطـــة على التخوم تؤلف جيشاً محترفاً بعد ان برهنت الطرائق الاخرى لتشكيل الجيش التي عمل بها، عن عدم جدواها . وفي سنة ٧٤٩ صدر مرسوم امبراطوري ألغيت بموجبـــه « الكتائب الباسلة » ، ولم يحتفظ إلا ببعض وحدات للمحافظة على الامن . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد بأن الجيش بين ٧٥٦ و ٩٠٧ كان برمته جيشاً محترفاً .

فقد عُرِف الصينيون بمقتهم للحروب واعراضهم عن كل ما يسببها او يدعو اليهـــا ، وهو شعور تحسسوا به ليس فقط أثر الانكسارات العسكرية العديدة التي منوا بهـا ، بل ايضاً بعد الصعوبات المتزايدة التي صادفها اباطرة الصين في الداخل . فمن علامات الازمنة المميزة : ان الناس، اذا ما ملّوا القتال وسئموا الحروب، مالوا الى الدعة وطلبوا الهدوء والراحة ، وفضّلوا الاخلاد للسكينة والانزواء بعيداً عن صَخَب الدنيا. ولكي يتفادوا داعي الحرب راح الصينيون يشوهون انفسهم . فهستيريا الحرب التي ميزتهم في القرن الاول من عهد سلالة تانغ ، حـل محلها روح الاستسلام والمقاومة السلبية ، وكلها امارات تدل على مبلغ تفسخ الامبراطورية . وهـذا السأم تردد صداه عالياً على لسان الشعراء ولا سيما تو ـ فو الذي كتب عام ٧٥٢ قائلاً :

مما يؤسف له جداً فالحشود تتوالى ،
في الخامسة عشرة نرسل الى الشمال للدفاع عن النهر الاصفر
وفي الاربعين نجد انفسنا جنوداً نفلح ونزرع ، في غربي البلاد
وكهولاً وبعد ان ابيض منا الشعر ، ندعى للسلاح من جديد بعد عودة قصيرة
تباً لهذه الحياة ، وما أشقاها مع الاولاد .

تطور المجتمع

وهذا التحول والتطور نحو سيطرة جيش محترف له ما يبرره ويزكيه في هـذه الثورات والانقلابات الاجتماعية التي جرت البؤس والشقاء على الجماهير الشعبية.

صحيح ان البلاط يستمر كمألوف عادته ، في هـــذا البذخ والبطر الذي عُرف به وشاع عنه من قديم الزمان . واحسن شاهد على ما نقول ، هذه الخزفيات القبرية، الدقيقة الصنع ، العائدة لهذا العهد التي تبرز لنا صوراً من ترَف البلاط ، ومواكب الراقصات في غلائلها المثيرة تستر منهـــا الاقدام الناعمة ، ومنظر المحاربين ممتطين صهوات جيادهم ، كل ذلـــك ينم عن مجتمع فروسي مترف . غير ان الشعب اخذ منذ القرن الثامن يتربص بمشكلات عانى منها الامرين ، كان من بعض نتائجها هذا التناقص الفاضح في عدد السكان . ففي اقل من ٧٥ سنة اي من سنة ٧٥٤ الى ٨٣٩ ، هبط عدد سكان البلاد من ٥٢ مليوناً الى ٣٠ مليوناً ، بعـد ان زال في اواسط القرن الثامن كل اثر لملكية القرويين التي كانت الدولة تحافظ عليها ، فرزحت تحت ما تواقع عليها من الضرائب واعمال السخرة والخدمة العسكرية والديون المتراكمة ، ممـا اضطر معه صغار الملاكين الى بيـع ما يملكون من عقار والعمل في خدمة كبار الملاكين الذين كانوا في الوقت ذاته من كبـــار الموظفين . ونسمع صدى هذا كله في ما كتبه تاونغ – يوان (٧٧٣ – ٨١٩) ، اذ جـــاء على لسانه :

« تزداد حياة جيراننا من القرويين بؤساً يوماً بعد يوم . فما اسرع مـــا يستنزفون غلال ارضهم ، ويدفعون الى آخر بارة مـــا يترتب على اكواخهم من رسوم ، ويأخذون بالبكاء والعويل وهجران اوطانهم ، ويتضورون جوعاً ويموتون عطشاً ، ويخرون صرعى الى الارض . تلتابهم الارياح والامطار ويشكون البرد شتاء وحمارة القيظ صيفاً ، ويستنشقون السموم القتالة المهلكة ، وتتراكم على الطرقات جيف الموتى . فمن عشرات الاسر التي عاشت هنا مع جدودي لم تبق اسرة واحدة . وبين الاسر العشر التي عاشت هنا مع ابي ، لم يبق سوى اثنتين او ثلاثة ، ومن بين الاسر العشر التي عاشت معي هنا مدة اثنتي عشرة سنة لم يبق سوى اربع او خمس اسر لا غير . فاذا لم تمت كلها ، فقد هاجرت ورحلت عن الديار وبقيت وحدي هنا » .

واذا اردنا ان نأخذ باقوال الشعراء ، لسان حال هؤلاء الناس والمتكلمون باسمهم ، فالتجارة بارت وماتت هي الاخرى . « فقـــد كانت الحكومة في ابتزازها لمرافق التجارة كالنمرة في جشعها » . ومع ذلك فقـــد اخذ التجار يتاجرون ، بكل الوسائل لديهم ، المقايضات التجارية طمعاً بالارباح التي تدرها ، مع التجار المسلمين والاسواق التجارية في بلدان جنوبي شرقي آسيا ، وهكذا استطاع بعضهم ان يتغلب على مـــا تعرضوا له من فداحة الرسوم الباهظة التي فرضت عليهم ، واعمال المصادرة والضرائب التي رزحوا تحتهـا ، بحيث انهم كانوا يدفعون ١٠ في المائة رسماً على الشاي الذي كان قد اصبح ، في هذا العهد ، مشروباً وطنياً .

فانهيار طبقة الفلاحين ، والعراقيل التي سدت سبل التجارة ، وهما عماد الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الصينية ، كانا من اكبر الاسباب التي دعت للثورة التي انطلقت في اواخر سنة ٨٧٤ . فالاتراك الذين كانوا استقروا في شمالي الصين وجدوا في الوضع الموصوف ، فرصة سانحة لزحزحة النير الصيني عن اعناقهم . فلم تقو الاسرة المالكة على تحمل الصدمة ، وراح النظـــام

الاقطاعي الجديد الذي أطل على البلاد من خلال كبار الموظفين ، يسدد لها الضربة القاضية فسقطت وتوارت عن مسرح التاريخ .

الحياة العقلية والدينية

في هذا العالم الصيني الشاسع الاطراف الذي عرف عهداً من الازدهار في بدء الامر ، ومهما عتم ان راح فريسة طغيان سلطة ناشزة ، تمتع الناس بحرية فكرية لم يعرفوا مثلها من قبل ، فارتفعت الاصوات منددة بعبث الارادة الامبراطورية . ولم يكن من الغريب قط ان نسمع في المجال الديني جدلاً صاخباً ، مع البوذية وضدها على السواء . ومع ذلك فقد عرفت البوذية في هذا العهد ازدهاراً انتشرت معه وامتد في واحات التركستان الصيني الذي خضع اذ ذاك ، لاشراف ملوك التانغ الا انهم نظروا اليها ، في بدء الامر ، نظرتهم الى ديانة غريبة ، ولذا ناصبها العداء المكشوف ، المستمسكون بالتقاليد والتعاليم الكونفوشيوسية : « ما بوذا ، بعد هذا كله ، سوى بربري دخيل ، يختلف عن الصيني لغة ولساناً وزياً » . وبالرغم من شدة هذا النقد وطرافته ، رعى اباطرة التانغ للبوذية عهداً واخذوا بنصرتها ، ورحّبوا بتعاليمها وحجاجها . وبدافع من هؤلاء الملوك ، راحت مصانع الحفر والنقش البوذية تعمل بكل نشاط : والى هذا العهد تعود المغاور المشهورة في لونغ – ين وما تحمله من حلي النقوش ، فارتفعت في البلاد معابد وهياكل بوذية كثيرة ، وهذا العدد العديد من التماثيل والشخوص ، وكلها ينم كم كانت البوذية غريبة بالفعل عن الصين ، اذ ان كل هذه الانجازات الفنية كانت من طراز هندي حاول الفن الصيني ان يلطف قليلاً من طابعها ، حيث تطل علينا "مُثل" وتقاليد جمالية تختلف كثيراً عما عُرف في الصين من امثالها . صحيح ان تَطَبُّع البوذية بطابع الصينية في المجالين الفكري والفني تم ببطء كلي ، فاقتربت بالاكثر من التاوية ، سيراً منها مع حركة تطورية اخذت باسبابها قبل مجيء سلالة تانغ بكثير .

وتابعت ديانات اخرى دخلت الصين منذ عدة اجيال ، انتشارها في البلاد . فقد تغلغلت المانوية منها في منغوليا ، وكسبت لها انصاراً ومريدين صادقين لدى اتراك ويغور في تاريم وشيدت لها معابد وهياكل في معظم المدن الكبرى في الصين . والمسيحية على المقالة النسطورية دخلت ، هي الاخرى ، الصين وشيدت اول بيعة لها في مدينة تشانغ – نغان ، عام ٦٣٨ ، ونعمت فيها برعاية مستمرة . ومنذ عام ٨٤٥ ، تعرضت البوذية فيها لاضطهاد عام اصطلت بنارها ديانات اخرى « دخيلة » . كذلك استهدفت التاوية والبوذية لهاجمات عنيفة من قبل اتباع الديانة الكونفوشيوسية ، باعتبارهما ديانتين كثيرتي التصوف وذات مراسم غريبة . واخذت الهاجمات تشتد ضد الحياة الرهبانية والنسكية ، واللاعمل البوذي ، وضد سلبية التاوية والاعمال السحرية التي أتهمت بها وغير ذلك من التهم التي الصقوها بها ، كما يجب التسليم ايضاً بان اتباع التاوية والكونفوشيوسية لم يروا اي فائدة من تحالفها ضد البوذية التي عرفت ان تتخلق باخلاق الصين وتتطبع بطباعها بحيث بدت وكأنها ديانة جديدة قالت بوحدانية الوجود ، واخرجت للناس نحلة جديدة تعرف عندهم بنحلة التأمل او التجريد لقيت انتشاراً واسعاً في طول البلاد

وعرضها ، حتى انهـــا بلغت اليابان تحت اسم « زن » ، وهي مذهب روحاني يحرك المشاعر ويحمل الفرد على القيام بمراسم دينية شخصية تحرك العواطف والشفقة في القلوب ، حيث طريق الخلاص مفتوح لاصحاب الشطحات الصوفية .

وعهد دولة تانغ الذي امتاز ، من جهة ، بالبطولة والفروسية ، كما امتاز ، من جهة اخرى ، بروح النقد والسخرية والصوفية ، شهد انتشار صناعة الورق واستعماله أكثر فأكثر فنشّط ذلك ظهور الطباعة الخشبية ومهد الطريق امام الطباعة بالحروف المتنقلة ، وذلـــك بعد التوصل الى حروف متنقلة اتخذت من الدلفان او الفخار (النصف الاول من القرن الحادي عشر) . وقـد اتاحت الكشوف العلمية التي أمكن تحقيقها ، في هذا المجال ، للثقافة ان تقطع مراحل من الرقي والتقدم خلال حكم التانغ والوصول الى شيء مـن التأليف في مجالات الفكر والدين والفلسفة كما وصلت عبر الاجيال الماضية .

الحميات الصينية في عهد دولة تانغ

لا يصح قط ان نجهل او نتجاهل الدور البارز الذي لعبته البلدان المجاورة للصين في هذا الطور الحضاري الذي مرّت به البلاد في عهد ملوك تانغ . وهذا الدور يبرز على امثله ، من كتابات الرحالة هيوان ـ تسانغ الذي قام في القرن السابع ، برحلة الى واحات التركستان ، وعرف ان يصفها لنا وصفاً دقيقاً . وكان يقيم في هذه الاقاليم ، ممالك توابـع ، تباينت فيها العروق الاثنوغرافيـة واختلفت اللغة واللهجات ؛ وكانت تمر بها طرق تجـارة الحرير ، فتترك فيها حركة ناشطة بالازدهار ، كما كانت ممراً للمؤثرات الحضارية الغربيـــة في تغلغلها نحو الصين ، فكانت بالتالي ملتقى حضارة العرب وايران الساسانية كما انتهت اليها معالم الثقافة الهلينية البوذية ، والهند بعد ملوك الغوبتا ، والمانوية حتى والتيبت . وعن طريق هذه الواحات بلغت البوذية الصين مع المؤثرات الخارجية الاخرى ، اذ ان المناطق المتاخمة للصين من الجنوب الشرقي ، والتي كانت تقـــع تحت مراقبتها واشرافها المباشر ، كالانام والتونكين ، كانت قطعت شوطاً بعيـداً في تصيّنها بحيث لم تكن قادرة على مدها بعناصر جديدة تجدد من ثقافتها وحضارتها .

وكان سكان هذه الواحات ، ومعظمهم رجال حرب ورعاة ، يعيشون على التجارة والزراعة تحت تبعية الصين وولائها ، مع محافظتهم على عاداتهم الخاصة وعلاقاتهم الروحية بالهند . فقـد كانوا مستمسكين بالبوذية . ويتكلمون لهجات هندو اوروبية ، فقد جعلوا من ممالكهم متاحف للادب والفن البوذي ، وأضفوا على هذا الاخير طابعاً ممـــيزاً ، هو صيني السمت في الواحات الشرقية ، ايراني الطابع في الشمالية منها ، هندي المظهر في ما وقع منه في الجنوب . وهـــذه الرسوم والصور التي تغطي جدران المغاور تعطينا صورة صحيحة لما كانت عليه الحياة والنشاط الديني في هذه المناطق من معالم ومظاهر . وهذه الرسوم التاريخية التي تعود لهذا العهد ، قـــد زالت من الصين وايران ولم تسلم لليوم غير تلك التي كانت في التركستان الصيني ، فوصلت الينا

شاهد عدل على ما كان عليه قادة القوم من ملبس ومعشر بثياب على الزي الهندي او الصيني ، ممتطين صهوات جيادهم في هجوم على الحصون والقلاع تحت خفقان البيارق ، او سائرين الهوينا، مرتدين اجمل حللهم وزينتهم . فنحن امام عالم جيّاش ، يعيش على الحدود عيش بذخ واباء وشمم ، في اطار اجتماعي خاص به . وهو عالم يرجع القهقرى ليهوي وئيداً في البربرية ، خلال هذه الحقبة التي تمتد من اضمحلال ايران الساسانية وسلالة تانغ في الصين .

الصين في عهد سلالة سونغ

ظهور سلالة تانغ في الصين ، في القرن العاشر حمل معه الى البلاد ، جواً جديداً ، اتسم بالهدوء والسلام . فبقدر ما حافظت سلالة تانغ على تقاليد البلاد القديمة ، وخاضت من حروب ، وهدرت من دماء زكية ، وعانت من المجاعات وتضاريس الحياة بين حلوها ومرها ، احتقر ملوك دولة سونغ العنف والحروب الفتح والغزو فقد هم ملوك تانغ ، في ايام دولتهم ، ان يشبعوا اذواقهم من الفنون والاشياء الخارجية ، بحيث بدا اشهر شعراء هذا العصر : لي ـ تايبو اقرب الى الفكر الغربي منه الى نفسية الصينيين وذهنيتهم . اما في عهد السونغ ، فاننا نشهد ، خلافاً لذلك ، تجديداً للقيم التقليدية ، وراحت مدنيتهم تبرز ، في كل المجالات ، ما هو صيني الطابع ، في الدرجة الاولى .

فاذا ما رضي ملوك سونغ ان يفقدوا نصف اراضي الصين وان يقنعوا بالقسم الجنوبي منها ، فما ذلك لضعف فيهم ، او لزهد او عدم اكتراث قط . فقد كان باستطاعة الأوّل من ملوك هذه السلالة ، بما تم لهم من حزم وعزم وسمو الهمة ، ان يعيدوا الى الصين ، قوتها وبأسها بعد ان استحكمت الفوضى بخناق البلاد في اواخر عهد تانغ (السلالات الخمس) . فقد وجدوا امامهم صعوبات جمة في الداخل والخارج على السواء، ولا سيما هذا الفقر المدقع الذي كان الريف يتسكع فيه من بعد ما تكالبت عليه المحن والاحن : كالمجاعة ونزوح السكان، التي فتّت من عضد الصين، وقتّل فيها كل الرغبة في الحروب وخوض المعارك . والاصلاح الزراعي ، هذه المشكلة التي أقضّت مضاجع المسؤولين وأقعدتهم ، ازدادت تأزماً بدلاً من ان تلقى الحل المرتجى ، فشلّت ميزانية البلاد وأوقعتها في الفوضى ، بعد ان انعدمت اسباب الجباية ، وتخلخلت انظمتها ، وزادت تكاليف الحكم والادارة ، وأسقط في يد الدولة بعد ان رأت نفسها في حلقة مفرغة . وعهدَ مؤسسو هذه السلالة، الى بعض العلماء الكونفوشيوسيين، من محافظين ومجددين، بتحقيق الاصلاح المنشود . ولكي يؤمنوا ما هم باشد الحاجة اليه ، ويمدوا الادارة بموظفين اكفاء ، اخذوا باصلاح نظام الامتحانات ووضعوها على مناهج واساليب سارت عليها طويلاً . واعادوا الى الاستعمال النظام الذي جروا عليه من قبل بانشاء احتياطي للقمح حفظوها في حواصل للحكومة . واعادوا التوازن في ميزانية الدولة بتخفيض النفقات العامة الى ٤٠٪ وقد شجعوا الانتاج عن طريق التسليف على الغلة ، والغوا نظام السخرة واستبدلوها بضريبة على الاعناق تدفع سنوياً . واعادوا مسح الاراضي من جديد ، واجروا توزيعاً جديداً لها ، وهو اصلاح قصد منه في الدرجة الاولى ، تحسين الوضع المالي ، اكثر منه اصلاح النظام الاجتماعي ، اذ ان

نظام الملكيات الكبرى بقي معمولاً به ، كما انه كان من الايسر تأمين الضريبة العقارية . كل شيء نُظّم وفُرضت عليه الرسوم : الزراعة وملكية الارض والتجارة ، حتى البضاعة الموجودة في المستودعات فُرض عليها رسم بلغ ٢٠ في المائة من قيمتها ، يضاف اليه ٢ في المائة اذا لم يتم الدفع في ايانه. وتشجيعاً للاعمال التجارية، اخذت الدولة بنظام التسليف على الاملاك، فانشأت لهذا الغرض وكالة خاصة تعطي التجار سلفة لقاء رهن . فاخذت تكاليف العيش تنزل تدريجياً ، واخذ الناس في الريف والمدن يعوّلون على الارز في معايشهم ، كما تشددت الدولة في ملاحقة المحتكرين .

من المؤسف ان هذا الاصلاح لم يعمر طويلاً . ولكي يتمكن المزارعون من تسديد ما استلفوه على غلالهم راحوا يستدينون من مصادر اخرى : من المرابين بفائدة تبلغ احياناً ٥٠ بالمائة بالاضافة الى ٢٠ بالمائة المستحقة عليهم للدولة . وقد راح المتعلمون المعروفون بتحفظهم يرفعون عقيرتهم عالياً ضد الذين قاموا بحركة الاصلاح هذه ، فانقسم الناس على بعضهم في الداخل وعمت الاضطرابات ، وفقد التوازن ، بينما وقعت الصين الشمالية بما فيها العاصمة بكين ، فريسة بيد اقوام الكيتات ، والجرتشات . وبعد محاولات فاشلة قام بها اباطرة الاسرة سيونغ ، قر الرأي عندهم ان يقيموا نهائياً في مدينة هانغ – تشيو ، متخلين عن القسم الشمالي من الصين .

وهكذا بعد ان تحرر المفكرون والمثقفون من ضواغط الروح العسكرية البغيضة راحوا يعملون على تحقيق نزعاتهم السمحاء واهدافهم السامية . فما من عهد حقق في مجال الفكر والفن ما حققه عهد ملوك سونغ في تاريخ الصين . فالاباطرة انفسهم ضربوا بسهم في الثقافة ، لا بل كانوا اثقف من تربع على عرش الصين طراً ، كما يشهد على ذلك الامبراطور هواي – تسونغ (١١٠٠ – ١١٢٥) ، الذي كان ذوّاقة ، وعالماً بالآثار وحفياً بها ، جماعاً لها ، وناقداً فنياً وادبياً ، ورساماً في بعض الاحيان . فلا عجب ان تصبح العاصمة الجديدة ، بين ١١٣٢–١٢٦٧ اشبه ما تكون بمدينة متحفة ومقراً لمحفى الفنون الجميلة ، حَفَل موقعها الجغرافي البديع ، بالمعابد والهياكل ، والقصور والصروح الجميلة في مثل هذا الجو العابق بالسلام ، وفي متعة من العيش المترع ، وفي مثل هذا الاطار الجغرافي البديع المناظر ، اعطت مدرسة الرسم والتصوير في عهد دولة سونغ ، ابهج روائعها الفنية . فبعد ان ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمناهج الفلسفة والشعر الرفيع ، راحت تضع لنا مناظر تعبق بالظلال المترعة بالسحر، السابحة في غلالة من الندى ، الغارقة في البعيد الرجراج ، القائمة على خطوط شاطحة . وقد رُسمت على أرْضيّة من الحرير الشفاف بالحبر الصيني فبدت في قدمها كانها عنبر ماصع . وقد خضع فن التصوير عندهم لهذه المثالية الصوفية التي آل اليها مفكرون انقطعوا للتجريد والتأمل ، معظمهم من اتباع الديانة التاوية ، فبدت المناظر وكأنها رؤى متحيزة ، عبّرت عن النفس برموز ، وورّت عن طبيعة الرسام الفيلسوف برسوم مبهمة وهو تصوير نفساني حاول ، على طريقة الفلسفة ، ومستعيناً بالمحسوس ، ان يتلمس جوهر النفس وحقيقتها وان يذوب معها . فاذا كانت الصورة

ذات اللون الوحيد تؤلف وجدها قصيدة، فالقصيدة التي تسبح نسج بردتها ملوك سونغ هي نفسها صورة ناعمة مهفهفة تمور بالحس والشعور ، وبكل ما في الطبيعة من حب وهيام .

وقد رافق هـــذا الازدهار الفني إشعاع ادبي واسع النطاق ، مكّن له اختراع الطباعة فانتشرت الفلسفة الكونفوشيوسية . فاذا كانت البوذية والكونفوشيوسية والتاوية، لا تزال مثاراً فيما بينها لجدل عنيف ، هو من مميزات هـــذا العهد المفرّدة ؛ فقد وَضَعت كلها نصب عينيها ، هدفاً واحداً : وحدة الوجود او الكون ، فترد الكون والانسان الى مادة واحدة لا غير . فاسمع ما يقوله تشاد – يونغ (١٠١١ – ١٠٧٧) بهذا الصدد : « فللانسان والارض والسماء تؤلف جميعاً وحدة واحدة ، مع كل الكائنـات التي كانت في كل الازمنة والامكنة ، اذ ان ناموس الكون واحد هو ... فمبدأ الحياة واحد هو ، وينبض في الجميع ... » ويضاف الى هذا عامل تطوري تختلط فيه وتتمازج به اقدم مـــا عُرف به المجتمع الصيني البدائي والنظرات الفلسفية الهندية التي حملتها البوذية الى اطراف الشرق الاقصى . وقد ألبس تشو – هي (١١٣٠ – ١٢٠٠) هـــذه الفلسفة صيغتها النهائية التي تبرز لنا على أتم وجه ، هذه الفكرة كما تبدت لنـــا في عهد ملوك سونغ . وبالرغم من متانة هذه النظرية الفلسفية التي وضعها تشو – هي وذهب صداها بعيداً في الارض ، فقد فتحت ، مع ذلك ، الباب على مصراعيه ، أمـــام التأمل في شبه حلقة مفرغة ، مانعة في المستقبل ، كل انطلاقة ، نحو المذهب الروحي . وهكذا كان السبب في هـــذا الشلل الذي اصاب الفلسفة الصينية بين القرنين الثالث عشر والعشرين وهو شلـل زاده جموداً وقعوداً الفتح المغولي ، وفيما بعد ، الروح المحافظة التي ميزت عهد ملوك منْغ .

دخول اليابان الحلبة

منذ اواخر القرن الرابع بلغت الحضارة الصينية كوريا واليابان . كما دخلتها البوذية . وفي سنة ٥٥٢ ، حملت بعثة كورية الى امبراطور اليابان تمثال بوذا ، ومجموعة من الحكم البوذية والكتب المأثور ، وهو حادث كان له تأثير عظيم ودوي كبير تمثل في اعتناق اليابان رسمياً للديانة البوذية . وقـــد نشبت اذ ذاك ، حركة عنيفة بين المحافظين المشهورين بمعارضتهم للبوذية ، وبين المجددين التقدميين الموالين لها ، بزعامة اسرة سوغا الكبيرة . وعندما تمت الغلبة للفريق الثاني ، تمت معها المناداة بالبوذية ديانة اليابان الرسمية ، مـــع ارتقاء الامبراطورة سويكو العرش (٥٩٣ – ٦٢٩) ، وهي من اسرة سوغـــا ، فكانت اول امرأة تجلس فوق عرش اليابان واتخذت مساعداً لها احد امراء سوغا هو اومايادو سوغا الذي عُرف منذ ذاك ، باسم شوتوكو تايشي ، الذي كان من اشهر رجـــال عصره . واذ كان بوذياً مخلصاً وغيوراً ، فقـــد ادرك سمو الثقافة البوذية وتعاليها وتساميها فوق ديانة البلاد البدائية المسماة شنتو ، التي لم تستطع ان تعلو فوق الاساطير والخرافات التي علمتهـــا حول مراسيم التطهير والرجس ولم تخرج من هذا كله باية نظرية ادبية . واعتماداً منه على الخلقية البوذية، راح شوتوكو يصدر ، عام ٦٠٤ مرسوماً تألف من ١٧ مادة صح إتخاذه دستوراً لحكومة ذات سيادة تأخذ الناس بالعدل ، بعيداً عن كل استبداد . ومن هـــذا العهد ارتفعت في البلاد اولى الاديار والمعابد

البوذية ، فقد ُعدّ منها ٤٦ عام ٦٢٤ ضمت ٨١٦ راهباً ، كما ضمت ٥٦٩ راهبة ، وهي مبانٍ من الخشب ُصمّمت وفقاً للتقاليد اليابانية ، وسهروا على حفظها وصيانتها فوصل معظمها الينا سالماً حتى القرن العشرين ، كما كانت تماماً في مظهرها القديم . فليس من فرق جوهري في

الشكل (رقم — ١٠) الصين في عهد دولة سونغ (حوالي ١١٠٠)

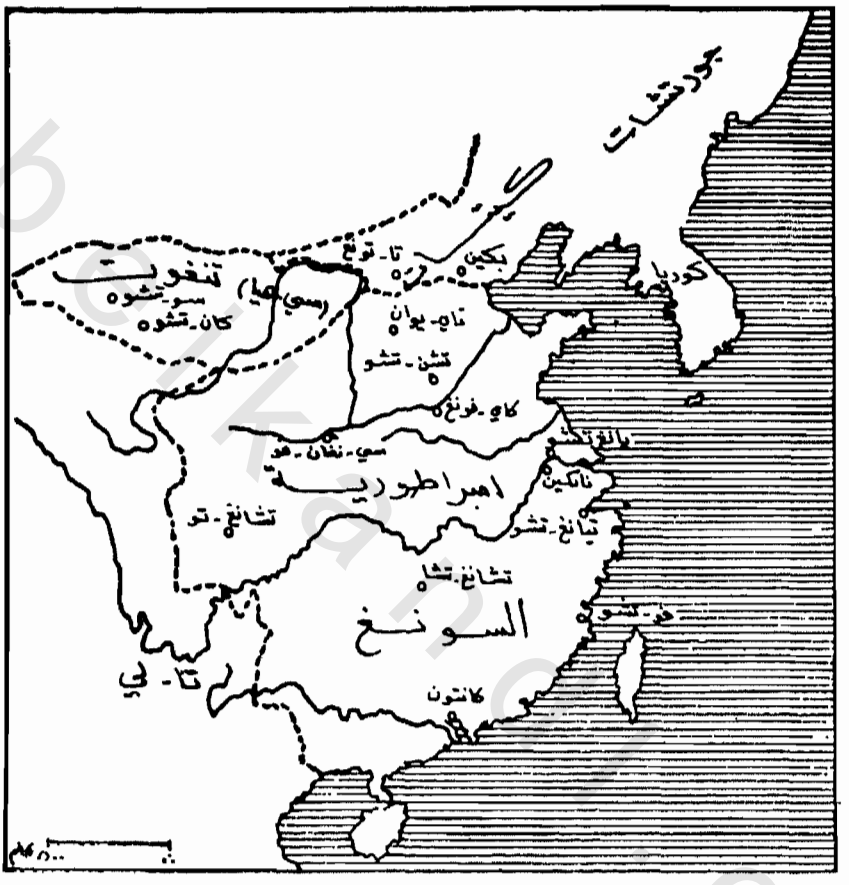

المظهر ، بين المعبد الياباني والهيكل الصيني . فهو يقع في ساحة مربّعة الاضلاع تحف به الاروقة كالدير ، ويحيط به افناء واسعة وعدة مبانٍ مخصصة للاعمال الادارية في الدير . ويرقى الى هذه الساحة الفسيحة الارجاء من عدة ابواب ، فيطل علينا الهيكل الذي يشابه الـ *Stupa* في الهند ، والسرادق المذهب (*Kondô*) الذي يضم الايكونوستاز حيث لا يسمح للجمهور بالدخول ، ثم قاعة الوعظ والارشاد ، فالمكتبة ، فقبة الجرس ، فبيت المنامة ، وغرفة الطعام ، والمطبخ ، وجناح الحمامات تقوم كلها في الخارج ، الى الشمال من سور الدير . ومن ابرز هياكل هذا العهد

ومن اجلها على الاطلاق ، هيكل هوريوجي ، الذي تأسس عام ٦٠٧ ، والذي اكلت النار احد أفرزته ، في حريق شبّ فيه عام ١٩٤٩ .

فاذا كانت العلاقات الرسمية المباشرة بين الصين واليابان ابتدأت في سنة ٦٠٧ ، فالعلوم والفنون الصينية كانت دخلت اليابان ، قبل ذلك بقليل عن طريق كوريا ، منذ اواخر القرن الخامس. فقد احدث دخولها الى اليابان ، بين الطبقات الاجتماعية العليا ، حركة تعاطف واقبال قوية للغاية ، بعد ان صدمت بمنظرهـا الخارجي البسيط ، وباعتقاداتها البدائية ، الرجال الذين تألفت منهم البعثة الصينية . فقد بدا القصر الملوكي كانه مجموعة من الاكواخ تعلو ابوابهـا احواض المياه وعقّافات عديدة يركن اليها عند شبوب النار لهدم المباني ، منعاً لانتشار اللهيب واتساع الحرائق. اما الزي فكان يلبس الجسم لبساً ، مع سترة تشبه ما كان مستعملاً من امثالها في كوريا. اما الفتيان ، فكانت شعورهم توزع بين ضفيرتين ، تعقص فوق الاذنين او تعقص فوق الجبين . والوشم الذي يعتبره الاغراب من سمات النبل والشرف ، فقد اصبح فرضه على الناس ضربـاً من القصاص .

وقد اثّر الازدهار الذي عرفته الصين في عهد الأول من ملوك تانغ تأثيراً بالغاً على اليابانيين ، فراحوا يقتبسون كل ما هو صيني ، كالكتابة والرسم على الحرير وصنع اقلام التصوير والورق ، وعلم النجامة ، والتقويم ، وحساب تواريخ ايام السنة ، وهندسة المناظر ، وبناء الجسور . وتشبهاً بالصين ، راح اليابانيون يحصّنون من شواطئهم البحرية ، ويتبنون نظام الضرائب ، وسك العملة ، ووضع المراسم في استقبالات البلاط ، والملابس والزين الرسمية في الاستقبـالات ، والرتب والمراتب في الوظائف . وقد كانوا اقتبسوا منذ عهد بعيد ، اي منذ عام ٤٠٥ ، الخط الصيني ، اذ قدم الى اليابان ، هذه السنة بالذات كاتب كوري ، لاستخدامه في القصر ، ومـا انتصف القرن الخامس حتى اقتبست اللغة المحلية في اليابان ، الابجدية الصوتية المستعملة في الصين التي كانت تتألف من ٥٠ صوتاً صوروها حروفاً رُتّبَت على النسق الهندي المعتمد في التعليم . ومنذ ذلك الحين طلعت علينا المحفوظات ، والسجلات ، والاوامر والمراسيم المكتوبة ، مرسّخة في البلاد لاصول السلطة المركزية الحاكمة وسهلت وضع تاريخين للبلاد هما الـ *Kojiki* والـ *Nihonji* ومجموعة من القصائد *(Manyoshi)* وبيان طوبوغرافي *(Fûdoki)* كذلك طلعت بوادر يقظة فكرية وذوقية تردد صداهـا في الموسيقى الوطنية ، اذ ان اليابان تبنّت الموسيقى التي راجت في عهد تانغ ، وهي صينية الاصل ، وموسيقى *Kan* المستوردة من كوريا ، والنظرية الموسيقية التي حملها معه لن – يي ، وهي هندية الاصل ، واكثرها رواجاً ، وموسيقى تمرا ، من اسم جزيرة قريبة من كوريا . وكل هذه المدارس الموسيقية الاربعة ولا سيما المنسوبة منها الى لن – يي ، تبدو معالمها واضحة من خلال التطور الذي مرت به الموسيقى في اليابان .

كل هذه المؤثرات الفنية والفكرية دخلت اليابان عن طريق الكوريين . فالعديد من رجال الفن والصناعة ، بين مهندسين ورسامين ونقاشين ونسّاخ وغيرهم من ذوي المواهب الصناعية ،

قدموا من بعيد وسكنوا اليابان، لا سيما ابان الاضطهاد الذي اعلنته الصين ضد البوذية ، في اواخر القرن السادس. ولا بد من التنويه هنا بهذه الحركة التي قامت في العصر التالي فحملت عدداً كبيراً من طلاب العلم يفدون من اليابان على الصين لاقتباس العلوم ولا سيما الطب منها .

وعندما راحت اليابان تقلد الصين تقليدا حرفياً ، اخذت عنها في جملة مـا اخذت ، النظام الاداري الذي عمل به في عهد دولة تانغ ، كما اقتبست اصلاحاتهم ونظمهم الاقتصادية ، دون ان يدركوا جيداً كيف ان الشكل الديموقراطي لهذه السلطة لا يأتلف قط مع التقـاليد الارستوقراطية الصرفة المتبعة في الطبقة الموجّهة التي تتألف ، في الـيابان ، من كبار الملاكين للارض المتوزعين احزاباً والمتنعمين بامتيازات الطبقات الممتازة . فادّى الامر في عهد الملك نارا (٧٠٧ — ٧٨١)، الى شيء من الاتفاق للتعارف اصبح معه الامبراطور *(Tenno)* الذي هو في الاساس نظام وراثي، حاكماً زمنياً وروحياً ، فكان بهذا ، زعيماً وطنياً، وإلهاً قومياً. فتحت سلطته يعمل جهازان خاصان، هما الـ *Shinto* الذي لا نرى له مثيلاً او مرادفاً، في الصين، والآخر هو مجلس شورى الدولة . فالاول يهتم بكل الامور الدينية ولا سيما ما تعلق منها بالعبادات القديمة ، في اليابان ، بينما الجهاز الثاني يؤلف رأس هرم الادارة العامة الذي يتشعب منحدراً من الوزراء لينتهي بالدوائر المحلية. فالوظائف لا تعطى لاصحابها والرتب لحاملها، وفقاً لاستحقاقات خاصة او لنجاح يصيبونه في الامتحانات. فالوظائف والمراتب هي من حظ ابناء الاسر الكبيرة الذين تهيأوا لها واستحقوها بالدروس والعلوم التي تلقوها في الجامعة الامبراطورية . وابناء كبار ارباب البلاد الذين ساهموا من قبل في قيادة المملكة وتوجيهها ، تسند اليهم وظائف تستمر في بيوتهم بالوراثة. ولما كانوا يتقاضون مرتبات ضخمة لقاء هذه المراتب الشرفية التي يحملونها ، فقد ألفوا عبئاً ثقيلاً على خزينة الدولة التي كانت تتغذى من الرسوم المفروضة على المكلفين من غير النبلاء وعلى العبيد الارقاء . وقد سببت الضرائب الباهظة خراب الملكية الصغيرة التي فرض على اصحابهـا من كلا الجنسين ، دفع رسوم ، منذ بلوغهم السادسة من عمرهم . ولما كانت الارض لا تُورّث ، فقد كانت تعود الى ملكية الدولة عند وفـاة صاحبها ، كما كانت الدولة تعمد الى توزيعها من جديد ، بعد كل ست سنوات ؛ فلا يمكن التنازل عنها لاحد او بيعهـا من احد ، باستثناء قطع الارض التي تقوم عليها عمائر ومبان ، او فيها اغراس من شجر الملك. وكان افراد الشعب يخضعون لثلاثة انواع من الضرائب : ضريبة على الارز تتناسب واهمية الاراضي المزروعة أرزاً ، وضريبة اخرى تترتب على الرجال وحدهم يدفعونها عيناً : انسجة او محاصيل زراعية محلية ، وإخيراً السخرة . والى هذا ، فقد سُمح لحكام الولايات ان يحتفظوا لانفسهم بقسم من الفوائد المترتبة على السلفة التي استلفها المزارعون من الدولة، فيضطر هؤلاء لدفع فائدة فادحة ، تكوّن ضريبة اضافية جديدة . ثم ان الخدمة العسكرية الاجبارية ، تلزم رجلاً من اصل ثلاثة، على قضاء ثلاث سنوات ، في خدمة الجيش بعيداً عن ذويه ودياره ، هذا ان لم تضطره الظروف للبقاء في الخدمة العسكرية الى مـا لا حد له ، مع العلم ان على الجندي ان يتكفّل بتأمين غذائه

وعدته، وان يستمر في دفع الضرائب الثلاثة المترتبة عليه، كما عليه ان يُسهم في التجهيزات العامة. وهو يمضي اكثر اوقاته في اعمال السخرة اكثر منها في خدمة عسكرية فعلية. واليابان مدين لما هو عليه من وبالة الصحة لانه لم يتعرض يوماً للغزو من الخارج، اذ ان جيشه كان في وضع زري جداً بحيث لم يكن يرجى منه شيء.

صحيح ان طبقة النبلاء رأت أملاكهـــا تنتزع منها، ولو اسمياً، وتُعطى لأعضاء الاسرة الامبراطورية، إلا انه قبـــل ان يوضع القانون موضع التنفيذ، نال رؤساء البيوتات الكبرى تعويضات محسوسة على الاملاك التي انتزعت من ملكيتهم، كما نالوا مراكز عالية، وأعفوا مـن الضرائب والرسوم المفروضة، والسخرة والخدمة العسكرية والمدفوعات العينية، وكلها امتيازات أصبحت وراثية في اسرهم يتوارثونها خلفاً عن سلف. وبموجب المراتب الـتي أجريت عليهم، يحق لهم الحصول على بعض الاتاوة من الأرز وغيره، وان يفرضوا بعض الرسوم، وان يتقاضوا فوائد على ما يقرضون. واذا ما أدّوا للامبراطور ولحكومته خدمات سنية، نالوا عنها تقديرات محسوسة ومنافع عينية جزيلة. وقد اخذوا يعملون بنازع من النفس، على توسيع دائرة مقتنياتهم كلما استطاعوا الى ذلك سبيلاً: فيجمعون بين وظائف عديدة عالية، ويُعترَف لهم بحق املاء المناصب السفلى من اتباعهم ومريديهم، وبذلك فتحوا الباب على مصراعيه امام الرشوة والفساد. وهذه المكاسب والامتيازات العريضة التي كانت تزداد قيمتها بارتفاع المركز وسمو الوظيفـة، تمتع بمثلها وأكثر، رحال الدين من رؤساء ديانة الشنتو والبوذية.

النظام الاقطاعي في اليابان

هذه القوانين التي صدرت عن جماعة مضت بعيداً في حركة تصيّنها وأخذها بأسباب الحضارة الصينية، وهامت كثـــيراً بالمركزية التي سادت البلاد في عهد دولة تانغ، صدرت لعمري، عن سلطة مركزية طرية العود، ضعيفة العضل بحيث تستطيع ان تفرض ارادتها على مصالح بعض الخاصة. وجاء توزع السلطات واقتسامها يخدم الى حد بعيد، الجشع الذي جاش في صدور ونفوس بعض كبار الزعماء الذين راحوا، امعاناً منهم في المقاومة، يعتصمون في املاكهم الواسعة او في اقطاعاتهم *Shôen* ولم يلبثوا ان نالوا تدريجياً، اعفاءات متزايدة عن اراضيهم كما اعفي المزارعون والفلاحون العاملون في اراضيهم من السخرة. ولم تلبث هذه الاقطاعات الشاسعة ان اصبحت ممالك مصغرة، مستقلة ضمن الامبراطورية. والموظفون الذين كانوا من كبار الملاكين ازدادوا نفوذاً وشأناً: فقد نعموا، من جهة، بأعطيات واسعة اجرتها عليهم الدولة، كما استطاعوا، من جهة ثانية، ان يستثمروا دونما قيد، اراضيهم والمزارعين العاملين فيها. وهكذا تمكن كبار الزعماء في البلاد من استرجاع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ وجاه، واستطاع كبـــير زعيم هؤلاء الاقطاعيين الـ (*Fujiwara*) ان يجمع بين قبضة يديه، كل مراكز القيادة والتوجيه، وتوصل عن طريق أنصاره وأتباعه ومريديه بعد ان اخذ عددهم بالنمو والازدياد، ان يسيطر على المجلس الاعـلى للنبلاء، والوظائف الكبرى في الدولة، ويقدم للعرش الامبراطوري، الامبراطورات والوصيفات.

وسواءً اعتبرت هذه الاقطاعات *Shôen* ممتلكات خاصة او انعامات نالها اصحابها للخدمات الجلى التي أدّوها للبلاط، فقد كانت النقطة التي انطلق منها وارتكز عليها النظام الاقطاعي في اليابان. صحيح ان وحداتها اختلفت مساحةً ووضعاً وقواماً. فالتي قطعت منها شوطاً بعيداً في التطور، نزعت الى الانقسام والتفرع الى استثمارات تولى امرها ملتزمون، بينما راحت الاخرى تتسع وتزداد بضم الاراضي المتفرقة بين أقضية مختلفة، ومعظمها يتألف من مزروعات الارز يستغلها مكتترون او مرابعون. اما التي كانت منها ملكاً لمؤسسة دينية، فكان يتولى تشغيلها وكيل فوّضت اليه العناية بها والسهر عليها فكان شبه مالك لها، يتقاضى لحسابه الخاص بعض العائدات التي يجبيها من اصل غلة الارض، بمثابة مرتب له. وكثيراً ما كان صاحب الارض يقدّم، هو نفسه، للمزارع ما يحتاج اليه من نصوب وبزار على ان يقدّم الفلاح عمله بالمجان وان يسلم كامل المحصول عند تمام المواسم، كما كان عليه ان يقدم، علاوةً على ذلك، عيناً بعض محاصيل الارز وغيرها من نتاج الارض، كثيراً ما اضطر المزارع لشرائها من اصحاب الاملاك المجاورة. ومن كان من هؤلاء المرابعين والخدّم والارقاء صالحاً للخدمة في الجيش، كان عليه ان يقوم بشيء من الخدمة العسكرية عند سيد الارض ليردّ عنه عوادي الغزاة والمهاجمين. اما في الاقطاعات الواسعة، كان الوكيل يتولى ادارة الاقطاع فينظمها على شاكلة الادارة العامة في الدولة، بعد ان كان تحت امرته، عدد كبير من العمال التوابع لسيد الارض. وهذا السيد المستقل في اقطاعه، كان يخضع، مع ذلك، لرئيس اعلى هو الحارس القانوني لهذه الاقطاعات الذي كان ينتخب عادةً من بين اعضاء مجلس النبلاء الاعلى، فيكون من كبار الاشراف او من الاسرة الامبراطورية، او من بين سراري الامبراطور، او ممثلاً لأحد الهياكل الكبرى في البلاد الذي ينعم بنفوذ عظيم. ومقابل هذه الحماية والرعاية التي يؤمنها الحارس، لهذا السيد، يترتب على هذا الاخير، ان يدفع سنوياً مبلغاً معيناً يتناسب والخدمات التي يتلقاها منه عن البلاط.

ان تاريخ اليابان الداخلي طوال هذه الاجيال التي نستعرض هنا لبعض معالمها، ليس سوى سلسلة متصلة الحلقات من خصومات ومواثيق بين رجال الاقطاع على اختلافهم وذلك رغبة من السلطة المركزية بتخفيض عدد هذه الاقطاعات، او الغاء بعضها او اخذها بنظام آسر عليه ان تتقيد به؛ ولم تعتم هذه العقارات الكبرى ان استحالت تدريجياً الى اقطاعات فاقت بقوتها العسكرية، قوة السلطة المركزية للامبراطور. فالبنيان السياسي الذي حذوا فيه حذو ملوك تانغ في الصين، ساعد على اتخاذ مثل هذا الوضع، اذ كان على رأس الادارة المركزية، موظفون كبار يتوارثون هذه المراكز، لا يمكن عزلهم او رفتهم، فسدت منهم الاخلاق والضمائر، وماعت نفوسهم. فحيث اخفقت الدولة، استطاع نظام الاقطاع ان ينجح، لأنه عرف ان يساير تطور الشعب الياباني، وان يراعي طبيعته، فتوصل الى حل مشكلة تزايد السكان، وان يؤمن النظام في الداخل، بعد ان كان الـ *Shôen* احسن ادارة مما كانت عليه الدولة، وان يرفع من مستوى العيش. واستطاع ان يشكل وحدات عسكرية تفوق كثيراً بنظامها وفعاليتها ما

كان منها لدى الدولة . ففي الوقت الذي كانت فيه الخدمة العسكرية ، لدى الدولة اشبه بسجن يقوم السجين فيه بأشغال شاقة ، كان جنود الاقطاع يجدون في خدمتهم لذة وفخراً .

وبالرغم مما كان عليه هذا الوضع الاجتماعي في اليابان ، من معاناة وغموض ، فقد جاء ، مع ذلك ، وضعاً بنّاءً ، سجلت الدولة فيه ، خلال القرن الثامن ، اي في عهد العاصمة نارا ، رقماً قياسياً في تطورها التاريخي . فقد راحت الدولة التي نعمت ببنيان سياسي واقتصادي قوي ، ترعى الآداب والفنون وتؤمن لها الازدهار . وقامت الدولة باصلاحات رمت منها للحد من نفوذ الاسر الاقطاعية القوية والتسييج حول ملكية صغار الملاكين . والبوذية التي اصبحت دين الدولة الرسمي ، عرفت عهداً من الازدهار لم تعرف مثله من قبل ، تمثل بهذه المؤسسات التقوية او الانسانية العديدة ، التي بفضل ما نعمت به ، تحت اشراف الامبراطور ومراقبته المباشرة ، من ادارة قوية ، صحيحة ، استطاعت ان توسع من نطاق عملها الاجتماعي ، فانشأت المستوصفات ، واهتمت بامر المرضى ، ومدت يداً رفيقة للمعوزين وساعدت رجال الدين ، ونشرت اسباب المعارف . فالجامعة الحكومية التي قامت في العاصمة نارا ، عرفت ازدهاراً كبيراً عام ٧٠١ ، اذ تألفت من اربع كليات ، هي التاريخ والادب والحقوق والرياضيات ، كما كانت تعلم علم الاصوات والخط . وكان للرهبان البوذيين نفوذ كبير ، فقد ترأسوا الحفلات الدينية ، ونظموا الاعياد الوطنية ، وشقوا الطرقات في البلاد وانشأوا الكثير من الكباري عليها ، وساعدوا على التشجير وزرع الاغراس على جوانب الطريق ، وقاموا بحفر الآبار واقنية صالحة للري . ولم يقل عدد الرهبان اذ ذاك عن ٨٠،٠٠٠ راهب وراهبة في بلاد تراوح عدد سكانها بين ٧ و ٩ ملايين نسمة ، اي بنسبة واحد في المائة من السكان . واستطاع الاباطرة ان يسيطروا تباعاً على الجزر المتاخمة ويحققوا انتصارات مدوّية على اقوام الـ *Ainu* الذين ما عتموا ان ذابوا تدريجياً في جسم الامة اليابانية .

كان فن التصوير العنصر الذي وحّد بين هذه النزعات على اختلافها ، بالرغم من ان منابعه الكبرى لا تزال بعد صينية ، الا انه اخذ يبرز اكثر فاكثر ، بطابعه الياباني . وقد اتخذ مادة له عناصر شتى ، منها الملك الناشف المفروش على صحائف من المقوى ، والنحاس المذهب والقوالب المتخذة من الصلصال الممزوج بقصاصة القش والتين ، والطلق ، فاتخذ من هذه العناصر التي عالجها بمهارة المنقوشات الفنية التي امدنا بها . واخذت المصنوعات الثمينة المعدة للاستعمال ترد على البلاد من الصين والتركستان الصيني ، وايران ، حتى ومن اقاصي الهند ، وتحفظ في مبنى *Shōsōin* الذي استعمل متحفاً فكان اقدم متحف في العالم على الاطلاق ، يفتح ابوابه امام الزائرين ، مرة في السنة . وقد انشأت الدولة ، في طول البلاد وعرضها ، مصانع ومعامل ، اهتمت بشؤون الرسم وصناعة المجوهرات ، والملك ، والسلال والخزفيات ، على اختلاف اشكالها وغير ذلك من الصنائع والمهن لا نعرف شيئاً كبيراً عنها . والموسيقى والرقص الايقاعي اللذان ترعرعا تحت رعاية واشراف دائرة الطقوس والمراسم ، استمدا الكثير من موحياتها من الصين

نفسها ، ولا نزال نمتّع النظر ، لليوم ، بمرأى وجوه مصطنعة يعود صنعها الى هذا العهد ، حتى ان الشّعر نفسه ظهرت له مجموعات من المنتقيات المختارة .

وكلما امعنا السير في هذه الحقبة طالعتنا الفتن الكثيرة والدسائس تحيكها الاسر الكبيرة ضد بعضها البعض ، بتحريض مفضوح من الفوجيوارا ولحسابهم ، اذ لم يكن احد لينكر ما كان لهم من شأن وشأو ونفوذ عريض . وراحت الدولة من جهتها تنشىء لها جيشاً له قدرة ثابتة على الحرب والكفاح ، تألّفت وحداته من طبقة رجال الحرب والشفاليه ، هذا الجيش الذي كُتِبَ له ان يلعب فيما بعد ، دوراً كبيراً في المجتمع الياباني . ومهما يكن ، ففي عهد دولة هايان (٧٨١ – ١١٦٧) ، ولا سيما في الحقبة الاولى منها التي امتدت حتى سنة ٩٦٧ ، بلغ الفوجيوارا القمة من القوة والسؤدد ، كما بلغت اليابان الذروة في هذه الحقبة من اقتباس الحضارة الصينية ، مع ان حركة التعاطف هذه بين الجانبين كانت خفت قليلاً ، كما هو ملحوظ . فالعاصمة الجديدة كيوتو ، بما قام فيها من هياكل ومعابد ، وقصور وصروح ، وبما بلغه فيها البلاط الملكي من بذخ في العيش ورهافة في الذوق ، برزت بالفعل ، المرآة التي تجلت على اديمها هذه النزعات ، فبعد ان صقلت الاذواق لدى طبقة النبلاء ، مالت افكارهم نحو الفنون الصينية الجميلة ، الا انهم اخذوا ، بعد ان وعوا شخصيتهم وشعروا بقيمة الذات ، بتكييف العناصر الدخيلة وفقاً لما يأتلف وطبيعة مزاجهم القومي . وهكذا قل ايضاً عن البوذية التي اخذت علاقاتها مع الصين تخف وتتباعد ، بعد ان ارتدت طابعاً قومياً . وهكذا بدت اليابان اكثر استعداداً من اي وقت مضى ، لتعي ذاتها وتشعر بنبوغها وعبقريتها ، بعد ان اخذ الانحطاط ينخر في دولة تانغ الصينية ، فانحطت وزالت من الوجود ، فتراخت بالتالي العلاقات الاقتصادية والروحية التي ربطت طويلاً بين البلدين .

وهكذا بدا البلاط الامبراطوري في اليابان أقل اخذاً بالثقافة الصينية ، كما تَلَبَّس الشعر سمات اكثر يابانية واقل تقليداً من قبل ، واكثر طبيعية . وبعد ان تكاملت وسائل الخط والكتابة راحت المرأة اليابانية نفسها تهتم بالأدب وتعنى بالتأليف وأمور الفكر وراحت بعض النساء ينظمن قصائد تفيض عذوبة وتميل اكثر فاكثر الى التجدد . من ذلك مثلاً : « مذكرات مِخدّة » التي وضعتها الاديبة اليابانية : ساي شوناغون (٩٨٧ – ١٠١١) . وقد تسبب التعليم الجامعي عن فتح المزيد من الكليات ، فاقبل عليها التلاميذ وهم بعد في سن حداثتهم يدرسون علم الاصوات ، وآثار الصين الكلاسيكية ، والطب ، بنسبة واحد على خمسة طلاب . والفنانون من ابناء البلاد راحوا يمارسون بنجاح كلي الخط وفن التصوير الصيني ، اذ بالرغم من التحرر الذي حققوه ، بقي رجال الادب من اليابانيين ، على اتصال متين بزملائهم في الصين ، حتى بعد زوال دولة تانغ . ورهافة الذوق هذه برزت على اتمها في بلاط الفوجيوارا الذين بزّوا بما وصلوا اليه من بذخ ، البلاط الامبراطوري نفسه ، فمارسوا في الدولة دكتاتورية فعلية . فاكثروا من اقامة الولائم في اسواق الادب والحفلات الموسيقية ، والمراقص الايمائية التي كثيراً ما تلهّوا بها . فقد ألفوا في فصل الربيع الترفيه عن انفسهم برؤية حدائق الكرز في ابان نورها وزهرها ، واستمتعوا برأى الاشجار تتعرى من اوراقها في الخريف ، وجلوا نواظرهم بمنظر الثلج يكسو

قمم الجبال . اما المرأة ، فقد كانت بهجة القصر وعطره ، وشمم الحياة ومتعتها .

طلوع عهد الشوغونات

هذا النظام الاقتصادي والسياسي الذي اقامه في اليابان المتعصبون للثقافة الصينية والمقتبسون لها ، في القرن السابع ، لم يلبث ان انهار ، عام ٩٦٧، في الوقت الذي يضعف فيه نفوذ الفوجيوارا في البلاد بعد ان استكانوا الى الدعة واستسلموا بكليتهم للملاذ . وتضخمت قبيلتهم الى درجة فقدت معها الوحدة ، فانقسمت على نفسها تحت تأثير الدسائس والمؤامرات والاحزاب الداخلية والعصبية التي شدت البطون بعضها الى بعض فلم يستطيعوا الدفاع عن انفسهم ، وعهدوا بامرهم الى رؤساء من المرتزقة ، فاضطروا اخيراً للتنازل عن سلطتهم وسيادتهم للنبلاء والبارونات ، القائمين في المقاطعات ، والى اصحاب الاقطاعات الضخمة .

وطلوع هذه الاقطاعية الريفية جرّ على الشعب موجة من التطير والتشاؤم ، زاد من حدتها هذه الاعتقادات والاوهام الشعبية التي راحت تروج وتنتشر ، منذرة بان سنة ١٠٥٢ ، ستحمل معها زوال الناموس البوذي . فبعد ان اثرى الرهبان البوذيون ، واستبحروا في البذخ والجاه ، راحوا يناصبون بعضهم البعض العداء ، ويوغرون صدور بعضهم بالنم والدس والافتراء ، وكلها امور يتبرأ منها الدين . ولذا راح الشعب يبحث له عن ديانة جديدة تحمل معها التعزية والسلوان لمن ذهب فريسة التشكك والارتياب ، فالتفت الى بوذا أميدا ، فاخذت عبادته تزدهر اذ ذاك وتنتشر . وفي الوقت نفسه اخذت اليابان تنكفىء على نفسها وتنطوي على ذاتها ، ولو بصورة مؤقتة ، واقصرت علاقاتها مع الصين على الامور التجارية دون سواها ، وانصرفت لفتح الجزر الواقعة على مقربة منها الى الشمال ، حتى اذا ما تمّ لها تدويخها ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، عادت اليابان سيرتها من الاتصالات مع الغرب .

فالحقبة القصيرة التي مرت على البلاد في عهد دولة الروكوهارا (١١٦٠ – ١١٨١) ، رأت المنافسات والحروب يشتد أوارها بين الاسر الاقطاعية الكبرى التي راحت تتنازع السيادة وتحاول الخفض من جانب الفوجيوارا ، كما اشتدت المنافسة بين قبائل التايرة والمينامونو، وتحول الاسرة الامبراطورية نحو ساحل البحر الداخلي . وقد تم الامر في سنة ١١٨٤ ، لامير من اسرة مينامونو ، ان يعيد الامر الى نصابه ، فأنشأ له عاصمة جديدة هي مدينة كاماكورا ، وأقام فيها نظاماً جديداً من الحكم هو ما يعرف عندهم بـ *Shogunat* ، وهو نظام حافظ ، ولو بالاسم ، على سلطة الامبراطور الذي استمر يعيش في بلاطه وبين حاشيته عيشاً سداه العبث ولحمته الغرور ، الذي بعد ان حاول عبثاً اعادة نفوذه والاستقلال بالأمر ، وقع تحت وصاية الشوغون زعيم النظام العسكري الذي جمع في قبضته ملء السلطة . وقد عول في ضبط الامر على رئيس الاركان العام ، وعلى محكمة عليا للاستئناف ، ومجلس تنفيذي . وقد مثله في المقاطعات حاكم عسكري لم يلبث ان جمع بين يديه السلطة المدنية ايضاً . وأخذ على نفسه جباية الرسوم

والضرائب المترتبة واستلام ما يعود للسلطة من غلال الارض . ولكي يحدوا من استغلال كبار الموظفين المحليين، أنشأت الدولة دائرة للتفتيش، وخلقت عدداً من المقررين او الخبراء الاقتصاديين، ومحققين استثنائيين. وهكذا استمرت الآلة الحكومية تسير ظاهرياً وفقاً للتقاليد المرعية ، بعد ان أدخلت عليها مثل هذه الاصلاحات الجذرية .

وهذا الاصلاح الاداري الذي جاء يسدد من خطوات السلطة ويقوّمها لصالح الشوغون ، لم يلبث ان اعطى اطيب النتائج في المجالين الاقتصادي والاجتماعي . فنشطت التجارة الداخلية والخارجية على السواء ، فزادت حركة المقايضات والمبادلات . وقد نال التجار بعد ان توزعوا الى نقابات محلية ومهنية حق نقل تجارتهم بكل حرية ، بعد إن تعهدوا بدفع رسم سنوي مقطوع ، كما تعهدوا بان يدفعوا للهياكل شلتو ، قيمة المبالغ المفروضة عليهم كذلك اخذ وضع الفلاح بالتحسن ، وسار الرق في طريق الزوال .. والحادث البارز الذي احدث في اواخر القرن الثالث عشر ، دوياً عظيماً في حياة البلاد الاقتصادية . هو ادخال زراعة الشاي الى اليابان . والمرأة نفسها نالت هي الاخرى ، نصيبها في هذا الاصلاح بتليلها بعض الحقوق الجديدة .

وفي الوقت الذي كانت فيه الشنتو هي ديانة الطبقة الارستوقراطية في البلاد وانتشرت بين الطبقات الشعبية الديانة المعروفة بـ *Amidisme* ، تلقت اليابان من الصين، مذهباً صوفياً جديداً لقي رواجاً عظيماً في البلاد هو مذهب *Zen* وهو نظرية فلسفية يعـد ظهورها عطفة في تاريخ الفكر والفن في اليابان ، وساعدت على تحييز النبوغ القومي . ومذهب الـ *Zen* هذا ، الذي هو تأليف للتعاليم البوذية والتاوية والهندوسية ، هو تعبير لهـذه الحركة الاجتماعية العكسية التي استهدفت محاربة البذخ والبطر لدى الطبقة الموجهة ، وردة فعل ضد صنمية المثقفين وعبـادة المتعلمين ، وحركة رجعية موجهة ضد الشكليات التي سارت عليها ديانة الشنتو ، وضد ميوعة العبادات الطقسية التي سار عليهـا اتباع أميدا ، وضد العصبية الدينية الذميمة التي يمثلها ، على احسن وجه ، نيكيرين (١٢٢٢ – ١٢٨٠) والاساطير الخرافية التي راجت في هذا العصر ومنها انبعثت نظرية جديدة في الهندسة المعمارية الدينية، واستعمال الحبر الصيني في تصوير المناظر، واخيراً الاحتفال بالشاي ، وكلها امور تركت طابعها العميق في الثقافة اليابانية . وفي هـذه الحقبة تم حريق الهياكل والمعابد الكبرى التي احترقت او هدمت اثناء الحروب الاهلية : وقد جاء الصيليون يعملون في حركة التجديد والبعث ، وصنع التماثيل بعد ان اشتد الطلب عليهـا بكثرة . وبفضل هذا الانبعاث ، راح الشعر يجدد من نشاطه ، كما راح النثر ، بعد ان استقامت الجملة اليابانية ، يتحفنا بهذه الآثار التاريخيـة ، اشهرهـا على الاطلاق *Heike Monogatari* و *Heiji Monogatari* .

وهذه اليابان المتجددة ، ستقوم وحدها ، في القرن الثالث عشر ، بعد تضحيات كثيرة في اقتصادياتها ، وفي روحها الحربية ، بحروب دفاعية مظفرة ، ضد غزو المغول للصين .